عبدالحق سرحان

كبزال

مذكرات عايدة و صالح حشاد عن تازمامارت

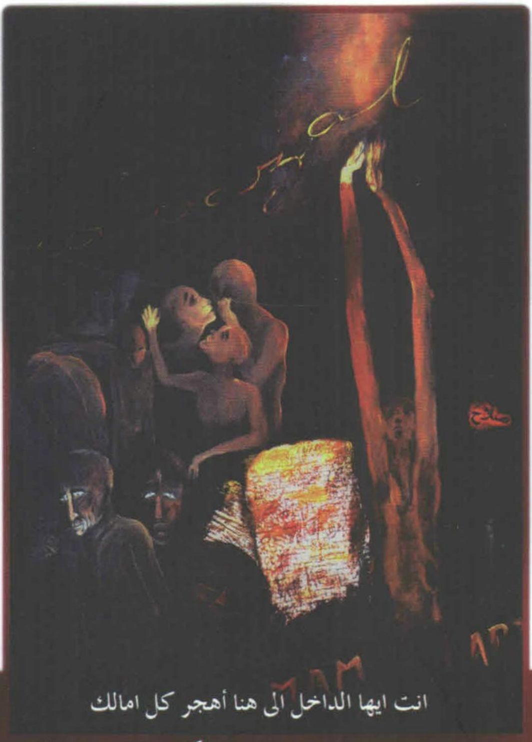

تقديم وترجمة عبد الكريم جويطي

فالية falia للطباعة والنشر والتوزيع

تَازْمَامّارَتْ

«أنت أيها الداخل إلى هنا أهجر كل آمالك»

مذكرات عايدة وصالح حشاد

العنوان : تَازْمَامّارَتْ

مذكرات عايدة وصالح حشاد

الكاتب : عبد الحق سرحان

تقديم وترجمة : عبد الكريم جويطي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

طبعة الأولى : 2020

الإيداع القانوني : 2020MO4004

ردمك : 978-9954-593-76-9

الإنجاز الفني : نداكوم

السحب : مطبعة البيضاوي

الفهرس

تقديم 7

الأربعاء 16 غشت 1972، القاعدة الجوية بالقنيطرة 11

1971 انقلاب الصخيرات الفاشل.................................18

الجنرال والكولونيل...22

بين المدنيين والعسكريين....................................28

بين يدي الدرك الملكي......................................30

في ممر الموت..35

ذات ليلة أمقران وكويرة.....................................37

سفر على أطراف الرعب.....................................39

في الطريق إلى الجحيم......................................40

في ظلمات تازمامارت.......................................44

جلسة تصوير تحت الشمس..................................49

أول رسالة خرجت من تازمامارت...........................54

سفر لنار جهنم...57

زمن الاختراعات الكبرى.....................................61

كبزال: بصيص نور في الظلام 64
أجساد شابة في زنازن مظلمة جدا.. 68
الموت في تازمامارت ... .70
زمن الأمل فترة الاتصالات مع العالم الخارجي من 1978 إلى 1982 76
تازمامارت المقتلة. 97
أموات البناية "ب" الأحياء.... 109
الحياة الجنسية في تازمامارت. 125
حالة الطويل 129
التفتيش الكارثي لسنة 1982 137
ثاني مرحلة سوداء: 1982 – 1986... 141
فترة إسترخاء : 1986 - 1991 150
كلبة تازمامارت 157
استئناف الاتصالات: 1989 163
إطلاق سراحنا: 1991... 171
كفاح امرأة. 195
انقلاب 1972..... 196
محاكمة لإعطاء العبرة.... 203
تصفية وحشية.... 208
تهديدات وتخويف..... 212

أحمد خربوش 214
أحمد عصمان.... 220
الجنرال حسني بن سليمان 222
محمد الشربادوي، الملاك المسمى "دجيف " 227
الكل كان يعرف 229
المحجوبي أحرضان 230
المعركة تتواصل... 232
أوساط حكومية وبرلمانية...... 237
الجنرال مولاي احفيظ العلوي 241
الدكتور الخطيب والسيدة بوليفار... 242
أحمد رضا كديرة 245
عبد الرحيم بوعبيد 248
الكولونيل بن علي...... 249
الجنرال القادري.. 250
الكولونيل فضول 251
الجنرال حسني بن سليمان (مكرر) 253
الأميرة مريم 255
بونعيلات وحسن الأعرج 256
الحسن الثاني: محاولة الفرصة الأخيرة...... 257

حرب صليبية من أجل جواز سفر 261
وعاود الروتين مجراه المعتاد.... 264
الدكتور عمر الخطابي 267
كريستين السرفاتي 270
جيل بيرو و"صديقنا الملك"... 271
والأوساط المغربية؟ 273
بن سعيد آيت إيدّر 275
المعركة تتواصل... 276
"دجيف" شاهد الرعب 280
هدى حشاد 289
في آخر النفق: إطلاق السراح. 297
عودة من نار جهنم 302

تقديم

حين تتعرف على صالح حشاد وتجالسه تكاد لا تصدق بأن الرجل عاش ثماني عشرة سنة كاملة في ظلام زنزانة ضيقة؛ وفي شروط تذهل القساوة نفسها وتتركها فاغرة فمها. يضحك، بل يقهقه، وهو يحكي لك عن أهوال نزوله للجحيم، ولا يتمكن منه طائف الحزن، ولا إنكسار المرارة إلا حين يتحدث عن معاناة من ماتوا هناك واحتضارهم الطويل. من أين يغترف الرجل هذه الطاقة على النسيان، وعلى الغفران، وعلى إبداع خفّة تكاد تجعلك توقن بأن تازمامارت: سجن الرعب والعار، لم يوجد أبدا إلا في خيال شيطاني لمبدع تراجيديا سوداء شارك في التمثيل فيها صالح وزملاؤه وحين انتهت المسرحية عادوا لحياتهم الطبيعية !؟ لا يمكن لكل ذلك الشر والفظاظة والحقد أن يكونوا حقيقيين، ولا يمكنك أن تصدق بأن مغاربة كان بوسعهم أن يفعلوا ما لا يوصف بمغاربة آخرين. يدفنونهم أحياءً مرتين، مرة في ظلمة زنازن باردة، ومرة أخرى في ظلمة صمت مطبق. لم يمتلك فيه صراخهم وآهاتهم وتفجّعهم حقّ مغادرة الجدران السميكة التي أعدت بكل غل الإسمنت والحديد وسمكهما لفصلهم تماما عن العالم، لا تصدق أن هناك نفوساً تبقى حاقدة ثماني عشرة سنة كاملة. يتغير فيها العالم، ويصعد من يصعد وينزل من ينزل، وتولد أجيال وتنتهي زعامات وتبزغ أخرى، وتقع ثورات، ويسري العطب في بروج إيديولوجية ودول واقتصاديات كان الكل يعتقد بأن لها المستقبل، ويبقى حقدهم هو هو، وتبقى رغبتهم في الانتقام هي هي، ويبقى إصرارهم شبه الخرافي على خلق قصة أهل كهف ثانية، بلا تقليب للمعذبين ذات اليمين وذات الشمال، ولا شمس تزّاور عليهم، رعب خالص عليه أن يعطي العبرة والعظة. لقد أريد منهم أن يلعبوا دور فزاعات آدمية، عليها أن

تقول بأظافرها الملتوية وشعورها التي تتجرجر على الأرض وهزالها الذي لا يصدق وطبقات القذارة المتراكمة فوق جلودها والآثار الكارثية التي خلفها التجويع والقهر والحرمان المطلق والظلمة الدائمة والبرد في أجساد صارت مهدودة ومفككة، بأن لا رحمة هنا، ولا شفقة. لقد كتب في باب تازمامارت بحبر لا يُرى: "أنت أيها الداخل إلى هنا أهجر كلّ آمالك " "دانتي" .

أهداني حشاد الكتاب ذات يوم، وكتب لي: "إلى صديقي عبد الكريم، لا تيأس مهما حدث، ومهما كانت الظروف" ماذا بوسع ناج من الجحيم أن يقول لك غير هذا الأمل: ذلك النَفَس الذي كان يقول له بأن كلّ هذا سينتهي في يوم ما، ذلك النور الذي يتخايل في نهاية نفق طويل ومظلم، تلك الطاقة الهائلة التي تدخل مع الجلاد في صراع إرادات وتنتصر في النهاية، مثلما تنتصر زهرة وتجد لها مكانا في شقّ صخرة، وتنتصر قطرة الماء وتجد لها طريقا وسط الرخام!؟ الأمل ذلك الغنى الذي ملأ به أهل تازمامارت فراغ زنازنهم وهباء صحون أكلهم، وذلك الكساء الذي واجهوا به البرودة المجمدة والحرارة الخانقة (كان لجلاديهم عبقرية شر إختيار مكان تختال فيه الطبيعة بين النقائض) الأمل، ولا شيء غير الأمل، فالإنسان قد يهزم، كما قال "هيمنغواي"، لكنه لا يقهر.

سيبقى تازمامارت أحد جراح تاريخنا النازفة. لا حق لنا جميعا في النسيان، ينبغي أن نتذكره، دوما، كتكثيف لأقصى ما يمكن أن يفعله مغربي بمغربي من عذاب ونكال وازدراء. فما جرى يطرح سؤالا كبيرا على تاريخنا وأخلاقنا وأمزجتنا حين نغضب، وحين نحقد، وحين ننتقم. ويطرح بالأساس سؤال السلطة حين لا يحدها حد وتصل حدود الجنون. وكأنني بذلك المكان المشؤوم قد جمع ولخص فيه وحده كل طاقات العنف الكامنة في البلد وكل تاريخ مهانة الإنسان وخوف الإنسان وعجزه. إنه عار يحمله كل واحد منا بداخله. من عرف ومن لم يعرف، من أمر بذلك ومن امتثل، ومن دس رأسه في الرمال، ومن تواطأ، ومن حمل الحطب و أجج النار...

لحسن حظنا جميعا، ففي قلب كل ذلك الجنون الخالص كان هناك رجل رشيد أخطأت الآلة الصماء التي انتقت زبانية الجحيم فجاءت بهم قساة، أميين، باردين، ممتلئين بغباء آلة، لا يعني لهم الإنسان شيئا، أخطأت في ضمه لجوقة الرّعب تلك. إنه

محمد الشربادوي، ملاك تازمامارت، الذي لعب دورا حاسما في جعلنا اليوم نقرأ للناجين ونحاورهم ونستمتع بضحكاتهم، بل عاشوا تجربة–حد: Experience Limite وخرجوا منها سالمين. لو لم يكن الرجل هناك، لضاع سرّ تازمامارت إلى الأبد مثل جثة بن بركة، وصار ساحة لتضارب الروايات وموضوع سجال مزمن بين الحقوقيين والمؤرخين، ولو لم يكن هناك لتملك الرّعب حقا المرء من بلد تنجح فيه الجريمة الكاملة، بلد ينجب وحوشا لا تَرِقّ للألم الإنساني ولا تكترث لعذاب الآخرين.

لقد أنقذ الشربادوي من خططوا لتازمامارت ومن أمروا به من جنونهم. وأنقذ الهيئة التي ينتسب لها من عماها الكامل، وأنقذ صورة المغاربة، بل أنقذ صورة الإنسان، أينما كان. فرغم كل شيء هناك أمل في الإنسان، في الضمير حين يصحو، في القلب حين يخفق ويرق، وفي العين حين تخضل بالدموع أمام الفظاظة والرعب.

لم يكن الشربادوي وحده، كانت هناك العائلات أيضا. كان هناك من عاشوا تازمامارت آخر، في الضفة الأخرى. لم تقنع عايدة حشاد بلعب دور "بِنيلوب" خانعة، تعقد نسيج الأيام وتفكه وهي تنتظر عودة "عوليس"، بل خاضت بإستماتة وكبرياء حرب حفر كوة في جدار الصمت والرعب الذي ضرب حول تازمامارت. بأدويتها ومقوياتها صمد معذبو تازمامارت. ومثلما كانوا يبحثون في ظلماتهم عن تدجين شعاع نور نافر يعبر كوة في سقوف زنازنهم وجعله يترجل لتحت فيمنحهم لبضع دقائق نعمة رؤية ما يحيط بهم، كانت هي أيضا تبحث، بلا كلل، عن إشارة حانية، عن تفهم، عن رحمة. وتركت لنا شهادة تقطع نياط القلب عن جبن ونذالة نخب كانت على استعداد لمقايضة إمتيازات مناصبها ومواقعها بضمائرها. لا يمكن أن نعرف ما يفعله الخوف بشعب كامل مثلما تقدمه لنا شهادة عايدة حشاد، ولا يمكننا أن نعرف أيضا ما بإمكان المرأة المغربية فعله من تضحية ومخاطرة ووفاء لمن اختارت أن تقاسمه الحلو والمر.

يضحك حشاد كثيرا، ويملك سماحة القلب ليقول أمام عبد العزيز الداودي، الحكيم وثاقب الرؤية، إن ما عاشه هو لا شيء أمام ما عاشه من كانت من نصيبهم البناية "ب" الرهيبة. أولئك الذين صمدوا رغم أنهم لم يمتلكوا أي شيء. لا تضامن

فيما بينهم، ولا دواء ومقويات من حين لحين، ولا رسائل، ولا حتى تلك الابتكارات الصغيرة والتافهة في الخارج، لكن كان لها في تازمامارت أدوارَ حاسمة في إنقاذ من خرجوا أحياء... يمازحه ويضيف أنه كلما التقاه يحس بأنه يلتقي معجزة حيّة.

امتلك حشاد في تازمامارت وبعض زملائه عبقرية الحَاجَة، ومثل "روبنسون كريزوي" في جزيرته الضائعة، مضى يبحث عن حلول للبقاء يقدمها سلك تركه البناؤون، وغطاء علبة سردين، ولُباب خبز، وعود صغير، ومرآة صغيرة، وورقة أليمنيوم، وتبدى لك في كل هذا، قدرة الإنسان المدهشة على أن يصنع من لا شيء أشياء هائلة. فالحياة تنتصر دوما، وتجد لنفسها دروبا ملغزة وسط الخراب والدمار لتستمر.

بكيت مرات عديدة وأنا أترجم نص "كابازال". مثلما أبكي دوما حين أعيد قراءة كتابي أحمد المرزوقي ومحمد الرايس. لا يمكن للكلمات ومهما كانت بليغة أن تقول هذه التجربة المريرة والتي جعلت ممن عاشوها أيقونات حقيقية للعذاب والظلم والصمود الإنساني. إنهم، وخصوصا الأبرياء منهم الذين حُكم عليهم ظلما فماتوا ودفنوا هناك أو نجوا، بمثابة رموز للإنسانية جمعاء. وحده الصمت الوقور المتفجع والمستنكر بإمكانه أن يقول عجزنا عن التصديق. ينبغي ألا يقع هذا في المغرب مرة أخرى، أبدا، أبدا، أبدا .

ولذلك ينبغي أن نستعيد دوما ما جرى في تازمامارت الرهيب، فكل الذين كانوا وراء هذا العار ماتوا وسيظل التاريخ يلاحقهم بما اقترفوه، وهاهم بعض ضحاياهم مثل حشاد، مازالوا يضحكون ويتملون سماء وشمس البلاد ويستعيدون في كل يوم حلاوة رؤية من يحبون، فالليل ومهما طال ينسحب، دوما، ذليلا أمام تباشير الصباح.

عبد الكريم جويطي

الأربعاء 16 غشت 1972،
القاعدة الجوية بالقنيطرة

بأمر من القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية، كنت أتأهب في يوم الأربعاء هذا للطيران ضمن سرب من الطائرات الحربية، بصفتي طيارا مقاتلا ورئيس الوسائل العملياتية، لخفر الطائرة الملكية العائدة للبلد بعد زيارة للحسن الثاني لفرنسا.

السابعة صباحا

غادرت زوجتي الشابة وبنتي لألتحق بنادي الضباط، حيث كنا، أنا وزملائي وكما هي العادة، نتناول وجبة فطور متبلة بثرثرة رائقة، كان اليوم استثنائيا لأن الخفر الذي كنا نتأهب للقيام به يتميز بكونه، رغم كل شيء، خفرا ملكيا.

يتكون سرب الخفر من ست طائرات حربية F5، عليها أن تستقبل البوينك الملكية حين تدخل المجال الجوي وترافقها أثناء طيرانها فوق التراب الوطني.

كانت القاعدة في حالة تأهب قصوى أمام حدث بمثل هذه الأهمية، غير أن مجيء الكولونيل أمقران نائب قائد القيادة العليا للقوات الجوية الملكية خلق بيننا بعض الدهشة، لكن ما وجه الغرابة في مجيء القائد السابق للقاعدة لزيارة زملائه !؟ دخل إلى النادي لابسا لباسا مدنيا وحيّانا:

– تعتقدون بأنكم تخلصتم مني إلى الأبد؟ طيب، توبوا إلى رشدكم، سآخذ قيادة القاعدة اليوم وأنا الذي سأدير العمليات!

صفَقنا، ورحّبنا به بيننا واقتسم معنا فطورنا في جو مرح.

السابعة والنصف صباحا

مغادرة النادي، التحقنا بساحة السلاح لتحية العلم، قبل الذهاب إلى مكتبه رفقة الكومندار كويرة، أمرني الكولونيل بالشروع في تهيئة العملية.

الثامنة صباحا

عقدت في بناية الوسائل العملياتية جلسة عمل من أجل إعطاء التعليمات، كان كل الطيارين حاضرين بدون استثناء، حييتهم وأمرت كل مسؤول عن مصلحة بأن يقدم تقريرا مفصلا عن الأنشطة الجوية للبارحة والمشاكل التي وقعت قبل أن أختم بالاطلاع عن حالة الطقس، بعد ذلك أعطيت أمر تشكيل فرقتين كل واحدة مكونة من ثلاث طائرات لخفر الطائرة الملكية واخترت أسماء الطيارين. وكرئيس للعملية سأقود F5B (تتوفر على مقعدين) وسيرافقني الدكالي كراكب عادي، وتكتمل فرقتي بدحو وبوبكر (ركبا F5A مقعد واحد).

عينت للفرقة الأخرى كويرة، العربي، وبوخاليف (F5A). وقعت الإذن بالطيران وأرسلت، كما هي العادة، نسخة لرئيس مصلحة الوسائل التقنية، وأخرى لمركز القيادة والأخيرة لبرج المراقبة لأخبرهم بأنشطتنا، هذا هو النظام. فهناك دفتر للأوامر بالطيران حيث يسجل ما على الطيار القيام به، وقبل أن يباشر الطيار مهامه يمر بقاعة العمليات، يطلع على الأوامر المتعلقة به والمكتوبة في لوح كبير، ويُوقِّع في الدفتر الأول داخل الخانة المخصصة له.

بعد هذا، عقد اجتماع مع الطيارين المختارين للقيام بعملية الخفر حتى يتسنى ضبط تفاصيل المهمة: كيف سيتم الإقلاع، وتيرة الطيران، التشكيل الجوي لسربي الطيران على مسافة من الطائرة المخفورة... يتم تدقيق المهمة في أبسط تفاصيلها. في نهاية جلسة العمليات رن الهاتف وطلب مني أمقران أن ألتحق به في مكتبه . اتجهت إلى مكتب الكولونيل، وفي الطريق وجدت كويرة والطويل الذي كان رئيس مصلحة الوسائل التقنية آنذاك (بمعنى أنه مسؤول عن صيانة ومراجعة وتوزيع الطائرات لكي تكون جاهزة دوما للطيران). فأمدّني الأخير بأرقام الطائرات الجاهزة لأعطيها بعد ذلك للطيارين حتى يتسنى لكل واحد أن يعرف أي طائرة سيقود. وصلت إذن إلى مكتب الكولونيل وقدمت له عرضا عن المهمة، أخبرته بنظام العملية وبكيفية تشكيل

الفرقتين، وهكذا فكويرة سيكون مع بوخاليف والعربي، وأنا سآخذ بوبكر ودحو ضمن فرقتي. أصغى إلي بانتباه لكن، وبما أنه كانت له فكرة ما في ذهنه، فقد اعترض قائلا:

– لن يطير القبطان العربي معكم اليوم، لقد نقّل إلى مكناس. قولوا له بأن يلتحق حالا بمكان تعيينه الجديد. ضَعْ زَيَاذ مكان العربي! سيبقى معي كويرة لبعض الوقت. سيلتحق بكم قبيل الإقلاع وسيطير ضمن فرقة الثلاثة الطائرات المسلحة!

اندهشت اندهاشا كبيرا! فأمقران لا يستبدل فقط بعض الطيارين لكنه يخبرني بأن ثلاث من الطائرات الست تم تسليحها:

– لكن، سيدي الكولونيل، لم يسبق لنا أن سلحنا الطائرات لمهمات كهذه، رغم أن عملية خفر ينبغي أن تكون دوما مسلحة.

أوضح، ليسند قراره، بأنه ومن الآن فصاعدا سيكون التّسليح هو القاعدة بالنسبة لكل المهام القادمة مُضيفاً:

– لا ... حشاد، ينبغي من الآن فصاعداً إنجاز الأشياء وفق القواعد.

– في هذه الحال، سيدي الكولونيل، لماذا لا يتم تسليح الطائرات الست؟

رفض الفكرة، متعللا بأن من شأن ذلك أن يولد شكوكا لدى الأمريكيين، عدت لقاعة إعطاء التعليمات تاركا كويرة مع الكولونيل. أخبرت العربي بأنه لن يطير ضمن الفرقة، وعليه أن يلتحق توا بمكناس، حيث عين نائبا لقائد القاعدة، اغتبط للترقية وذهب لمخدعه ليغير ثيابه. خلع بدلة الطيار ولبس ثيابا مدنية. غادر القاعدة في سيارته 4L، وهو على وشك الخروج، تذكر بأنه نسي مفكرته في مكتبه. عاد ليأخذها فكلّفَه نسيانه هذا حياته.

الساعة الثانية وأربعون دقيقة

كنا على أهبة الالتحاق بطائراتنا، توجه أمقران نحو برج المراقبة ليقود العمليات في تلك اللحظة صادف العربي، اندهش لرؤيته في القاعدة، وأمره بأن يرافقه إلى البرج. تبع العربي الكولونيل وتوجه الطيارون نحو الطائرات. ثلاث منهن مسلحات: طائرات كويرة، بوخاليف وزياد. تلقينا الأمر بالإقلاع لأن البوينغ الملكية تقترب من

المجال الجوي الوطني متتبعة الطريق الجوية الدولية (T10) اتصلت ببرج المراقبة: عرفنا ذلك من خلال برقية مكتوبة بالإسبانية ترجمها مغوتي.

– bleu leader يطلب الإذن بالطيران.

الساعة الثالثة وأربعون دقيقة

أقلع السربان. توجهنا نحو طنجة وتبثنا الطائرات في علو يصل 9000 م، حين وصلنا لمثلث طنجة، العرائش وتطوان، قمت بتحديد دائرة الانتظار وأمرت الطائرات بأن تنتشر في المثلث حتى يتسنى لنا مراقبة المجال الجوي لتحديد موقع الطائرة الملكية. بعيد ذلك بقليل أخبرنا برج المراقبة بأن الطائرة الملكية دخلت المجال الجوي المغربي. كان اليوتنان دحو هو أول من رأى الطائرة. فكلمني ليقول لي بان موقع البوينك كان في الساعة الحادية عشر بالقياس لعقربي ساعة في نفس العلو.

اتصلت ببرج المراقبة لأخبرهم بأننا نرى الطائرة، ثم بدأت المناورة لأضع طائرتي في مستوى علوها. قمت باستدارة نحو اليسار لأضع الطائرة يمين البوينك، وأمرت السرب الآخر بأن يطير يسارها طيرانا غير منتظم قبل أن ننتظم من حولها حتى وصولها إلى مطار الرباط–سلا. كل شيء مر بشكل عادي حتى اللحظة التي ألقيت فيها نظرة و لم أر سرب كويرة.أمرت الكومندار بأن يتخذ موقع الخفر، فجأة رأيت طائرات الـ F5 الثلاث يصعدن وينزلن، منجزين ما نسميه ب noria أوالاستعداد للتصويب جو – جو فكرت بأن كويرة أراد أن يقوم ببعض البهلونيات ليدهش الملك صحت:

– انضبطوا، يا إلهي !

لم يصلني من جواب إلا صوتا قائلا:

– ابتعدوا !

لا أعرف هل جاء الأمر من كويرة أم زياد. بعضهم يزعم بأنه زياد، وأنا أعتقد أنه كويرة، لأنه الأعلى رتبة في السرب وقائد القاعدة، ولا يمكن للأوامر أن تأتي إلا منه. فجأة، رشقة طلقات، بعد لحظات من الارتباك تبينت بأنهم يستهدفون البوينك. تملكني الذهول. فكرت في انقلاب. لم أعرف ما الذي يتوجب علي القيام به. حافظت على التشكيل غير المنتظم لسربي حول الطائرة رغم رشقتين أو ثلاث

من الطلقات. كانت البوينك تنزل أمام أنظارنا المذهلة. طلب مني الدكالي القَلِق: ما العمل؟ ومن ارتباكه دعاني للهرب إلى إسبانيا. من الصعب التفكير واتخاذ قرار وسط هول وسرعة ما يجري. لماذا نهرب ولا دخل لنا فيما يحدث. قمت بمناورة للعودة للقاعدة، كان كويرة مغتاظا ومحتدا بسبب مدفعيه اللذين تعطلا، سمعته في الراديو يسبهما، ومن إحباطه تحول إلى مرشح للانتحار أعلن في الراديو:

– وداعا زملائي، سأضحي بنفسي من أجل وطني.

حاول إنجاز قراره بدفع طائرته لتصطدم بالبوينك، لكنه في آخر لحظة شَغَّل كرسي الإنقاذ، آنذاك لامست F5A البوينغ لأنها فقدت اندفاعها الايروديناميكي. كانت البوينك قد شرعت في النزول نحو قاعدة الرباط–سلا. صوب زياد بمدفع واحد والآخر كان عطلانا. كلم أمقران زملائي في السرب، دحو وبوبكر، وسألهما إن كانا مسلحين، لم يجيبا. فأخبرت الكولونيل بأن زميليّ ليسا مسلحين وكان يعرف ذلك. فجأة ظهر دخان كثيف ينبعث من أحد محركي طائرة البوينك صاح بوخاليف: "لقد حصل، أصبتها!" لكن البوينك واصلت نزولها محاولة الانفلات من مهاجميها.

أفرغ بوخاليف حين استنفذ ذخائر مدافعه المستودع الرئيسي للكيروزين على أمل أن يطال الطائرة التي تقترب من مدرج النزول وولجت مرحلته الأخيرة. قام الطيار بالانكفاء وعاد بسرعة كبيرة للقاعدة. قمت، من جهتي، بدورة عادية وتوقفت وراءهم متبوعا بدحو وبوبكر. كنت وأنا في مربض الطائرات مروعا إثر ما وقع، تتزاحم الأفكار والصور في ذهني بفعل سرعة الأحداث التي جرت في ثوان أو أجزاء ثوان. في الوقت الذي وضعت فيه رجلي فوق الأرض طار مجددا زياد وبوخاليف. توجهت نحو مكتبي حين رأيت أمقران يغادر القاعدة على متن طائرة هيلوكبتر، في قاعة الوسائل العملياتية كانت تسود فوضى استثنائية. كان الضياع تاما، وبشكل آلي توجهت نحو برج المراقبة. في سلمه التقيت بالعربي الذي أخبرني بأن أمقران ذهب للقاء أوفقير في الرباط لتصفية الملك، فأوفقير سينتظر هذا الأخير في المطار بمعية كومندو آخر لإتمام المهمة. في الواقع أخفق الانقلاب فأمقران هرب نحو جبل طارق؛ وترك رجاله لقدرهم. لم أعرف أين أولي وجهي فعدت لقاعة العمليات. في البلبلة العامة ظهر زياد وبوخاليف ومرا من أمام البار دون أن يرياني. ولان الأحداث تجاوزتهم، فقد تساءل بعض الطيارين عما يجري فأجاب زياد:

– من يريدون معرفة ما يقع عليهم أن يتبعوني.

السادسة والنصف مساء

تبع خمسة طيارين زياد وانضموا للمتمردين. المساعد الأول المهدي، المساعد بلقاسم والرقيب الأول بينوا، كامون والبحراوي.

وقد صرح هذا الأخير بعد ذلك للمحكمة:

– لقد تبعناه كالخراف.

كانت الفوضى تامة، فالطيارون صاروا يتصرفون من تلقاء أنفسهم في خرق بين للنظام. سار زياد متبوعا بخمس طائرات مسلحة نحو طرف المدرج، أعدت الاتصال بالعربي مرة أخرى هاتفيا وأعطيته الأمر القطعي بإيقاف كل نشاط جوي وأن يقول لكل الطائرات بأن تعود مباشرة إلى المربض. ذهب اتصالي سدى، فقد توجه السرب الأخير المشكل من ست طائرات لقنبلة القصر الملكي.

السابعة والنصف مساء

عودة الطائرات الست، عمد الأمريكيون الذين كانوا متكتمين في البداية إلى إنارة المدرج ثم أطفأوا بسرعة الأنوار المرشدة. نزل الطيارون اعتمادا على الأضواء الكاشفة في طائراتهم فقط. كنت أعرف بأن ما قاموا به متأخر جدا. ففي الوقت الذي نزلت فيه البوينك كان كل شيء قد انتهى. وأخفق الانقلاب ضد الملك، فالأمر مخالف لما وقع في الصخيرات حيث كان بالإمكان البحث عن الملك وسط الحشد، وفي حجرات القصر وأخذ الوقت الكافي للتفاوض. فالعمليات تجري بالنسبة للطيارين المقاتلين بسرعة كبيرة، وبإمكان ذلك أن ينجح نظرا للتسرع كما بإمكانه أن يفشل بسرعة. هنا، إن كانت العملية قد فشلت فلأنها أعدت بشكل سيء، فالتسرع والارتجال وغياب التنسيق. انقلابيون على هواهم. فبعض الطيارين لم يكونوا مستعدين، وليس لهم التقويم المضبوط للوضعية.

الثامنة مساء

اجتماع الطيارين ورئيس الوسائل التقنية ومساعده في بار قاعة الوسائل العملياتية. استنكار من طرف البعض، قلق آسر بالنسبة لآخرين وحيرة بالنسبة للجميع، وسؤال وحيد هو نفسه الذي يتردد بداخل كل واحد: ما الذي سيحدث لنا ؟ كانت الدقائق تبدو لنا قرونا.

الثامنة والنصف مساء

وصول الدبابات ومحاصرتها لمربض الطائرات. اعتقدنا بسذاجة بأن الجنرال أوفقير أنهى المهمة وبعث لنا تعزيزات عسكرية. كان زياد، وزملاء آخرون، يصيحون مبتهجين معتقدين بأن الانقلاب نجح. كانت الفرحة ظاهرة على الوجوه، لكن وبسرعة تحولت إلى رعب. فالمدرعات أحاطت ببناياتنا واعتقلنا.

17 غشت 1972 – الرابعة صباحا

تم اعتقالنا من طرف الجنرال بن عبد السلام نائب قائد القيادة العليا، والكومندار لعنيكري من الدرك الملكي، والكومندار بن طالب والقبطان الموش من الطيران. اقتادونا إلى القيادة العليا، مكدسين في شاحنات عسكرية ومخفورين من طرف مدرعات للتدخل السريع. هناك أجرى ضباط من الجيش تحقيقات معنا وعوضهم بسرعة في ذلك رجال الدرك. كانوا يعنفوننا على ما قمنا به، ويقولون لنا بأن هذا السلوك ليس جديرا بضباط أقسموا على الوفاء للعرش والوطن... أسيء التعامل معنا فقد كبلوا أيدينا، ونمنا على الأرض وبدون أفرشة. وكان يتوجب الاحتجاج بقوة ليأتونا بأغطية. كانت تلك هي بدايات النزول إلى الجحيم.

1971 انقلاب الصخيرات الفاشل

كان قلقي كبيرا. أعرف بأن الوضعية خطيرة جدا، لكنني مع هذا كنت احتفظ ببصيص أمل، أمل براءتي. لم أنخرط في التهيئة لهذا الانقلاب ووجدتني متورطا فيه رغما عني، ورغم أن طائرتي لم تكن مسلحة.

في لحظات الشك هذه حول مآلي، انثالت العديد من الذكريات في ذهني وأنعشت ذاكرتي حول أحداث الصخيرات التي لاشك أن لها علاقة ما مع ما وقع. لم أكن حاضرا في الصخيرات في 10 يوليوز 1971 حين اجتاح تلاميذ هرممو، بقيادة عبابو والمذبوح، القصر الملكي لقلب الملكية. آنذاك قرر بعض كبار قادة الجيش اسقاط الملكية بدعوى أنها فاسدة وغير مؤهلة لتسيير مقاليد الأمور. في يوم عيد ميلاد الملك هذا، كما هو الحال بالنسبة للأحداث المهمة، كان الجيش في حالة تأهب، لأن الكولونيل أمقران قائد قاعدة القنيطرة دُعِي لحضور احتفالات الذكرى42 لميلاد الملك الحسن الثاني، فأمنت في غيابه قيادة القاعدة حيث مرت الأنشطة بشكل طبيعي. وكل رؤساء المصالح كانوا في مراكزهم.

حوالي الرابعة والنصف، حطت طائرة هيلوكبتر في القاعدة، وبعد دقائق رن هاتفي طلب الكولونيل أمقران أن يراني. كان رفقة الكومندار حجاجي. رأيته ممتقع الوجه، وثيابه ملوثة بالدم. بالنسبة لي فالأمر يتعلق بحادثة سير. أخبرني بالانقلاب الذي حدث في الصخيرات، مذبحة دامية عشرات القتلى ومن بينهم الملك.

سمعت حكيه بذهول، ووجدت صعوبة في تصديق وقوع انقلاب. واصل أمقران سرد حكاية هربه. فقد زحف بين الجثث، وكسر زجاج نافذة وهرب بمحاذاة الشاطئ مثل آخرين. جرى كيلومترات قبل أن يصل للطريق الوطنية. اتصل بقاعدة سلا ليبعثوا

له طائرة هيلوكبتر حملته إلى القاعدة الجوية للقنيطرة. ولأنه كان على يقين بأن الملك قتل فقد فر بجلده والتحق بمركز قيادته في انتظار قادم الأحداث.

انتظرت أمرا من الكولونيل بالذهاب للدفاع عن الملك ضد الإنقلابيين. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

رن الهاتف ، وأجاب الكولونيل:

- رافقوا سيدي الجنرال حتى مكتبي.

لكن قبل وصول الجنرال خرج أمقران لمرافقته من الخارج. بقيت مع حَجَّاجي بضع دقائق، بعد ذلك عاد أمقران وأخبرنا بأن الأمر يتعلق بالجنرال حمو، الذي جاء ليتحدث معه في شان الإنقلاب، لقد أسرّ له بأمر الذهاب لقصف قصر الصخيرات.

لكن ما هي الأسباب التي توجب قصف القصر؟

هناك ثلاثة أسباب محتملة، فإما أن الجنرال حمو ضالع في الأمر ويريد استكمال ما قام به عبابو، وإما أنه يريد أن يوقف المذبحة، ولو تطلب الأمر القيام بمذبحة جديدة. والسبب الثالث هو أنه رأى مآل الأحداث، وارتأى أنه من الأفضل قصف كل ما تبقى ومسح الطاولة لما سيأتي، أي ضربٌ من انقلاب داخل الانقلاب. ما جرى بين الرجلين لا أحد بإمكانه أن يعرفه إلى الأبد. الآن، هل جاء أمر قصف الصخيرات حقا من الجنرال حَمّو؟ لقد جرى حديث الرجلين في مكان منعزل ولا شيء مؤكد.

بدأت الأمور تتضح في ذهني، بعد ذهاب الجنرال. لم نكن نعرف هل مات الملك حقا أم مازال حيا؟ إن كان قد قتل فعلا، فأمر الجنرال لا مبرر له. لذا فهو كان يعرف بأن الملك لم يقتل. مهما فكرت فأنا غير قادر على معرفة ما ينسج حقا، غير قادر على القيام بتفكير موضوعي، فبعض التساؤلات كانت تفرض نفسها علي.

كان لمجيء الجنرال حَمُّو للقاعدة بكل تأكيد معنى ما. فقد كان بإمكانه أن يعطي أوامره بالتلفون. فلماذا جاء شخصيا ليفعل ذلك؟ ولماذا لم يعط الجنرال الأمر هو نفسه؟

في الواقع، بما أن الانقلاب فشل، فالجنرال حمو أراد اللجوء لسلاح الجو لتصفية الملك الذي مازال حيا، فشل الانقلاب لأن المخطط الأولي لم يطبق حرفيا.

اتفق عبابو والمذبوح على الخطوط العريضة للانقلاب. لم يكن الأمر يتعلق أبدا بتصفية أحد. لذا فقد اغتاظ المذبوح للمذبحة التي قام بها الانقلابيون: كان لعبابو فكرة ما يسرها، فهو، وبدون جدال، رجل الوضعية القوي، ضرب من زباطا يبحث عن برهنة للقوة، كان هدفه واضحا اغتيال الملك مهما كلف ذلك.

حكى لي بعض الحاضرين بأنه كان يبحث قائلا لكل من رآه:

– أينه؟

رد عليه المذبوح

– ليس هذا اتفاقنا، سأقودك عنده، لكن عليك أن تأتي وحدك!

هنا أمر بقتل المذبوح.

قلت لأمقران بأن قصف القصر لا معنى له، فالملك مات وإن كان الانقلابيون في الصخيرات، فهناك أيضا النساء والأطفال والهيئة الديبلوماسية، وكمسؤول عن الوسائل العملياتية لا يمكنني أن أقصف بشكل أعمى. قولوا للجنرال حمو أن يعزل الانقلابيين، وفي تلك اللحظة بإمكاني تنفيذ الأمر. أعطاني الحق ولم يلح علي أكثر وأمرني بأن أبقى stand by.

رفضت أن أنفذ أوامر جنرال بلغت لي من طرف كولونيل، بينما في الجيش القانون هو أن تمتثل أولا وتحتج بعد ذلك. بكل تأكيد لم أكن منفذا عاديا، فواجبي كان هو أن أدافع عن بلدي ضد الاعتداءات الخارجية وليس قصف مدنيين عزل بدون تمييز.

بالنسبة لمهمة بمثل هذه الأهمية كان يتوجب إذن مكتوب من طرف القائد الأعلى للقوات الملكية، لهذا السبب لم يلح حين حكمت على الأمر المعطى بأنه بلا معنى. كان يعرف بأنه ليس بإمكانه أن يجبرني على الامتثال له. لم يعمل ما جرى إلا على تقوية الشك الذي بدأ يتبرعم بداخلي. فلماذا لم تكن القوات الجوية طرفا في محاولة الانقلاب هذه منذ البداية؟ رغم أن سلوك أمقران يمكن أن يسمح بالاعتقاد بأنه كان على علم، ففي العادة كان متكتما، لكنه في الآونة الأخيرة بدأ في التنديد بفساد الدولة. وكانت انتقاداته الموجهة للنظام شديدة. بل إنه بدأ يصدر مذكرات لرفع معنويات رجاله ولتلقينهم مبادئ المواطنة. مذكرات عن الوطنية، ودور الجندي،

وروح المسؤولية، وعن التضحية، و لم يكن يتردد في فضح الضباط الجشعين الذين لا يفكرون إلا في الاغتناء. وأمامنا كان يتبنى خطابا أخلاقيا وثوريا.

إن الاهتمام بالقاعدة الجوية للقنيطرة غداة الانقلاب سيكون حاسما ومحددا لأحداث شهر غشت 1972 هذه. فأوفقير الذي منحت له كل الصلاحيات من طرف الملك صار يهتم أشد الاهتمام بالقاعدة الذي تسارعت فيها وتيرة المناورات والتداريب. وبالرّغم من محاولات تحسين الوضعية المادية للجنود من قبيل رفع الأجور ومشاريع السكن بالنسبة للضباط وضباط الصف وتوزيع الأراضي، فإن معنويات الجيش لم تكن على ما يرام، فالكثيرون لم ينسوا الكيفية الاعتباطية التي أعدم بها زملاؤهم في هرممو، ولا الآخرين الذين حوكموا ظلما في ما يشبه محاكمة وفصل رأس الجيش عنه، فمعظم الجنرالات أعدموا.

ماذا حدث في صفوف الجيش حتى يحاول جنود قلب نظام الحكم الملكي؟ كان انقلابَ ضُبّاطٍ دَبّرَهُ اليوتنان كولونيل عبابو، تلاميذ هرممو كانوا منفذين فقط وآلات للقتل. كان عبابو ضابطا "مدللا" بإمكانه القيام بما يريد فهو محمي بكل تأكيد، لذا يسمح لنفسه بالتصرف خارج مقتضيات التراتبية وأحيانا خارج القانون نفسه. كان يتجاوز القانون والأخلاق. زعم بأنه أراد قلب نظام الحكم الملكي لجوره وفساده وميكافيليته... و لم يكن هو يخلو من هذه الصفات. لو نجح في مسعاه فالبلد كان سيعيش تحت ديكتاتورية عسكرية على نمط أمريكا اللاتينية. إن ما أوردته هنا لا يفسر لا خلفيات الانقلاب ولا مآلاته، ولا يفسر أيضا أسباب هذا التمرد. فكل ما يتعلق بهذا الانقلاب تقريباً قد ورد في عدة كتب عن حادث الصخيرات. وليس من الضروري العودة لتفاصيل ذكرت بتوسع أكثر. هذه الإشارات تفيد في كشف المخطط والحالة العامة السائدة آنذاك وسط الجيش والمجتمع المدني المغربي. وتسمح أيضا بتشكيل بعض القطع التي تنقص البّوزل puzzle، فإن كانت بعض المناطق المعتمة قد بقيت ماثلة بخصوص تورط ضباط سامين آخرين في انقلاب الصخيرات ،فإنها لن تتأخر في التكشف مع الانقلاب الثاني، لذا فقراءة هذه الحلقة ضرورية لفهم ما سيلي من أحداث.

الجنرال والكولونيل

كان أوفقير يعرف ما يريد، فبعد مذبحة الصخيرات جعل القوات الجوية فعالة وجعل من التحكم كلية في ضباطها أولوية بالنسبة له. بقيت الأمور على ما هي عليه بل تفاقمت، رغم الوعود التي قدمها الملك فالمظالم والرشوة وانتهاك القانون والاغتناء غير المشروع والتفاوتات الاجتماعية بقيت هي هي، في البلد الذي مُنِحَ لبورجوازية صغيرة، انتهازية وعديمة الذمّة. ما زِلْتُ أحتفظ بهذا المشهد المهين للجيش: فإبان إعدام الضباط السامين "الضالعين" في انقلاب الصخيرات، تقدم موظف كبير نزق، وانتزع بفظاظة شارات الكولونيل الشلواطي، تعنيفا له على ما فعله. قام الكولونيل برد فعل وبصق على وجهه. رد شجاع لكولونيل بكل تأكيد لكن ما فعله الموظف المدني فيه إهانة لكل رجال القوات المسلحة.

غداة انقلاب الصخيرات، دعي الكولونيل أمقران إلى القيادة العليا، ورافقه المساعدان الأولان مغوتي وشريتي قاسم (أمين مال القاعدة) إلى الرباط، مسلحين برشاشات. كانت الواحدة ليلا، ما أن وصلا لمعسكر مولاي إسماعيل حتى قال لهما الكولونيل:

– إذا لم أعد خلال ساعات عودا للقاعدة وأخبرا عائلتي، وداعا أصدقائي ..

بعد ذلك التحق بالجنرال أوفقير و لم يظهر إلا ثلاث بعد ساعات بعد ذلك. فطلب من مرافقيه بأن يعودا للقاعدة ويبعثا له سيارة الخدمة:

– وإن تم توقيفنا في أحد الحواجز، سيدي الكولونيل؟ تساءل مغوتي

– قولا لمن أوقفكما اتصل بالجنرال أوفقير!

استقبل الجنرال أوفقير الكولونيل أمقران، ونزع نظارتيه السوداوين وصوب نظره الثاقب نحوه وقال له:

– أعرف يا صغيري بأنك ضالع في الإنقلاب، زملاؤك وشوا بك. يمكنني أن آمر بإعدامك حالا بسبب الخيانة العظمى، لكنني لن أفعل ذلك، سأعطيك فرصة أخرى. عد إلى قاعدتك وانتظر تعليماتي.

هو من حكى لنا بنفسه وقائع هذه المقابلة مع أوفقير، ووجدت الأمر غريبا أن يكلمنا في سر جسيم يمكن أن يكون قاصما بالنسبة له. ربما كان يبحث عن سند أو كان يريد أن ينال ثقتنا. وما تلا من أحداث سيعطي الجواب عن هذه الأسئلة. ولكي يدافع عن نفسه أمام هذه الاتهامات قال أمقران بأن مجموعة من الضباط يحسدونه لمنصبه وهو غير مندهش لرغبتهم في توريطه ظلما، لكي يتخلصوا منه فقط. من المحتمل أن أوفقير نصب له فخا، و لم ينجح أمقران في تلافيه. كان أوفقير يمتلك كل الصلاحيات، و لم يكن بإمكان الكولونيل الإفلات منه.

كل ما حدث من وقائع بالقاعدة بعد ظهيرة 10 يوليوز 1971 يشكل مناطق معتمة حول ضلوع محتمل لأمقران في الانقلاب. لكن ربما قدم له أوفقير دلائل أقنعت الكولونيل بأنه يعرف. لا ينبغي أن ننسى بأن أوفقير كان عيون المغرب وآذانه، وكان على علم بكل شيء لأنه كان يتوفر على وسائل معرفة كل ما يقع، فقد كان الرجل القوي للنظام. ورغم أن أمقران لم يكن مبتدئا ليسقط في فخ أوفقير، فهذا الأخير كان يمتلك، على الأرجح، دلائل دامغة على تورطه، وإن أشركنا في سره فمن أجل نيل ثقتنا وربما لضمنا لما ينوي القيام به. أو ربما لاختبار وفائنا والتعرف على رد فعلنا.

لم يضع أوفقير أبدا رجليه في القاعدة قبل الانقلاب، لكن بعد ذلك صار يأتي بانتظام، مرة في الأسبوع على الأقل. يأتي وحده دائما وبلباس مدني، يذهب لنادي الضباط ويتحادث مع أمقران ويتحلق من حوله، أحيانا عدة ضباط... بمعنى أنه صار يولي أهمية لسلاح الجو ولضباطه. وصل ذات يوم لتدشين نادي ضباط الصف، و لم يكن من الدارج أن يقوم جنرال بهذا النوع من التظاهرات التي لا تحتاج إلى كل هذا الاستعراض والمباهاة، لكنه كان بيننا ونحس بالفخر، كما لو أن عملنا قد قدر حق قدره من طرف الهيئات الرسمية. وقبل تناول المرطبات طلب أمقران من الجنرال أن يعطي اسْماً للنادي، فاستدار أوفقير آنذاك نحوه وقال له:

– للسيد كل تشريف، سنسميه "أمقران"!

قبل مغادرة القاعدة، قدمت شعبة التحية الشرفية للجنرال. توقف عند كل جندي سأله عن اسمه ورتبته وهل كل شيء على ما يرام، اشتكى عريف لأنه بقي خمس سنوات في نفس الرتبة، فقال له الجنرال بأنه رقي إلى عريف أول، وطلب منه الآخرون خدمات، فنفذ كل الرغبات التي قدمت له. كنا مرة أخرى معه في نادي الضباط، فقال له الأسبيران ميداوي اليزيد إنه إن لم يُرَقّ في الشهور القادمة إلى ملازم فسينهي مساره المهني في رتبة أسبيران، نظر إليه الجنرال وقال له:

– ابتداء من الغد، صغيري، أنت ملازم!

وفي الغد، أصبح اليزيد في رتبة ملازم. طبعا لم نعد نفهم ما يجري في القاعدة، ولا ماذا يعني كل كرم الجنرال هذا. شخصيا لم أفكر أبدا بأنه يعمل على تحويلنا إلى أداة في يده. أقول في نفسي، الأمر عاد، وأوفقير يقوم بعمله وقاعدتنا تتمتع بالأهمية والاهتمام اللذين تستحقهما، لكن ونظرا لشهرة الشخص، رجل قبضة حديدية، يتعامل بقساوة مع من يرأسهم، فمن البديهي أن اهتمامه بنا لم يكن يخلو تماماً من الفائدة، ولغشاوة السذاجة التي كانت تحجب عيني لم أر اقتراب الانقلاب مرة أخرى. كنا في اجتماع معه فطلب منه كومندار وصولي لا يفكر إلا في الاغتناء، الإذن بأخذ ضيعة المذبوح. ابتسم الجنرال وقال له بأنه سيرى هذا الأمر فيما بعد. كان هذا النوع من المواقف يقززنا، فبقدر ما كنا نريد التعالي على هذا البؤس المادي الصغير، بقدر ما كان آخرون على استعداد للدوس على كرامتهم من أجل امتياز مادي أو إداري بهدف أن يجعلهم أغنياء. فكرنا في أن الجنرال أراد أن يعيد للجيش ثقته في نفسه، ويعيد له كرامته وأن ليس هناك فرق بين جنود البر وجنود الجو، غير أنه كان حينها بصدد التهيئة لانقلابه. لم أشك في أي شيء، وسأفهم فيما بعد مقاصده، إننا لا نعلن أفكارنا في الجيش أو ميولاتنا السياسية، ويمنع الاشتغال بالسياسة، الجنود لا يصوتون ويمنع عليهم الانخراط في حزب أو نقابة. كانت مطالب المجتمع المدني وانشغالاته تهمنا طبعا، رغم أننا كنا نعيش بعيدين كأننا في كوكب آخر. وأعتقد أنه ولمعرفة مشاكل الناس، ينبغي عيشها معهم في الداخل، فما أن نعود من الخارج حتى نجد أنفسنا في الخارج داخل المغرب. لم تكن القاعدة الجوية هي المغرب، كانت مدينة داخل المدينة حيث كانت الحياة مؤمركة "américanisée". لقد كنا أسرى لوسط يمنعنا من رؤية الوجه الحقيقي للمغرب. ورغم ذلك كنا نعرف بأن البنيات السياسية

والإدارية متعفنة بالرشوة والزبونية، وكنا مشمئزين. فبطريقة غير مباشرة، كنا نعيش بعض المشاكل مع الجنود وضباط الصف الذين يعيشون مشاكل مادية نظرا لأجورهم الهزيلة، عموما كانت وضعية البلد سياسيا واجتماعيا هشة، كان أوفقير يزرع الرعب بينما الرشوة والسرقة الموصوفة تجتاح البلد على كل المستويات، فالوصوليون يغتنون بطرق حقيرة والنظام يغض الطرف، بل إنه يشجعهم على ذلك، وهم عالقون في هذه الدوامة من العار وانحطاط القيم. كان الضباط وضباط الصف على استعداد للانخراط في أي عمل من شأنه أن يغير وضعية البلد لكي يستعيد المواطن كرامته. إن الإنقلابَيْن الفاشلَيْن يثبتان أن العسكريين كانوا يطمحون لوضع حدٍّ للفوارق الاجتماعية وبؤس الفئات الشعبية. إن انقلابي 1971 و 1972، شئنا أم أبينا، كانا فعلين ثوريين.

كانت الأوضاع في سنوات السبعينيات متوترة جدا، فالجميع يشتكي من أن كل شيء لا يسير على ما يرام، فالضابط أو ضابط الصف الذي يعود من الولايات المتحدة الأمريكية يجد نفسه حقا في البؤس. فبعد أن تعود على أن يحصل على كل شيء في الولايات المتحدة الأمريكية، يجد نفسه حين يعود للبلد محروما من كل شيء، حيث أجرة متدرّب متدنية جدا ووسائل عمله ضعيفة جدا. وكان على الطيار المغربي وهو في نفس كفاءة الأمريكي، والذي تعطاه طائرة بوليد bolid بقيمة مليار، أن يعيش في حي شعبي وأن يلتحق بالقاعدة راكبا حافلة. كان التبرّم عامّاً، والجميع يقتسم إحساسا بالظلم. وأمام خطورة الوضع كنا نعرف بأنه لا يمكنه أن يستمر على هذه الحال، فقضايا الرشوة ونهب المال العام كانت تثير الاشمئزاز بين هؤلاء الشباب ذوي الأفكار الوطنية المثالية، لقد كانوا على استعداد لكل شيء، ومهيئين للعمل على تغيير الأمور. كان المغرب يغلي وعلى وشك الانفجار. و لم يكن النظام يملك إزاء ذلك إلا القمع. كنا نحس بأنه قد تمت خيانة المغرب المثالي الذي كنا نريد الإسهام في بنائه. من المؤكد أننا كنا نعيش معزولين عن باقي العالم كما لو كنا في ما يشبه الاكتفاء الذاتي، داخل القاعدة كل ما كنا في حاجة له كان موجودا، لكن هذا لم يكن يمنعنا من الإحساس بمعاناة الناس كان ضباط الصف يعيشون في الأحياء الشعبية وكنا كلنا تقريبا منحدرين من عائلات متواضعة، و لم ننس في أي لحظة بأننا أبناء الشعب، زيادة على أن الضباط وضباط الصف كانوا حساسين ولو تظاهروا بعكس ذلك. كان الضباط مثقفين، يسافرون، يقرأون الجرائد ويتتبعون عن قرب التطور السياسي للبلد. وما يمكنني قوله هنا، هو أن الناس لم يكونوا راضين عن مآل الأحداث بالمغرب. خرجنا

من نظام الحماية بواسطة المقاومة المسلحة، ولا يمكن أن نقبل مجددا بالسقوط بين أيدي مستعمرين جدد.

بعد الصخيرات، حدث الانقلاب الثاني يوم 16 غشت 1972، كنت في القاعدة يومها، لكن وقبل أن نذهب بعيدا، ينبغي أن نشير إلى أنه وقبل شهرين من الانقلاب، عيّن الكولونيل أمقران نائب قائد القوات الجوية. غادر القاعدة ليلتحق بالقيادة العليا، وعوضه الكومندار كويرة الذي صار قائد القاعدة، وتبعا لهذا أصبحت نائب القائد ورئيس الوسائل العملياتية. والقائد الأعلى للقوات الملكية "أي الملك" هو من وقع قرار ترقية الكولونيل، لكن الجنرال أوفقير هو الذي سهل ترقية الكولونيل الجديدة. كان في حاجة له بالرباط، كان تخطيطا استراتيجيا ليأخذ قيادة القيادة العامة بعد الانقلاب أو ربما أراد تقريبه منه لضبطه أكثر. في كل الأحوال، كان أوفقير يخطط لكل تصرفاته، في لمحة الزمن هذه حدث اللقاء الشهير بين الثلاثة في دار مدام آسية الأزرق بالدار البيضاء، حيث حدد مخطط وتاريخ الانقلاب من طرف أوفقير، أمقران، وكويرة. كان لنا حقل رماية للتدريب، وكنت أعد كل سنة برنامجا للتدريب على قصف جو - أرض (مدافع، قنابل، روكيت) لأهداف. يوجه هذا البرنامج للقيادة العليا للمصادقة عليه، العنصر الجديد في كل هذا هو أن الكولونيل وقبل ذهابه إلى القيادة العليا أمر بتكثيف التداريب. يتوجب، قال لنا، إنجاز الأشياء بشكل متقن لإعطاء المتدربين تدريبا جيدا. وأطلق أيضا أمر تسليح أربع طائرات بشكل دائم وفي حالة تأهب متواصلة للاستجابة لآي ضرورة مستعجلة، وللقيام بذلك، لابد طبعا من مذكرة مكتوبة من القيادة العامة، وقد أكد لنا بأن المذكرة لن تتأخر في الوصول لكن المذكرة لم تصل أبدا.

حوالي ثمانٍ وأربعين ساعة قبل الانقلاب دعاني كويرة إلى مكتبه وقال لي:

- الآن وأنا قائد هذه القاعدة وأنتم نائبي هل يمكنني حقا أن أعول عليكم؟

بدا لي هذا السؤال غير ملائم قليلا، فمنذ سنوات وأنا اشتغل تحت إمرته وهو يعرف بأن عليه أن يكون مطمئنا من هذه الجهة. لقد أديت دوما واجبي بإتقان وكان دوما راضيا عن عملي، قلت له بأنه بإمكانه أن يعول علي. كرر السؤال مرتين وكررت جوابي مرتين ضحكت قبل أن أطمئنه:

– يمكنكم أن تعولوا علي، سيدي الكومندار، ناموا نوما هنيا.

كانت عيناه مغرورقتين بالدمع، أراد أن يقول لي شيئا أخر، و لم يتجرأ على ذلك. نكس رأسه قبل أن يشكرني، استأذنته والتحقت بمكتبي. أربكني اللقاء الخاص معه، إذ لم أفهم و لم أطلب منه أن يقول لي لماذا كان على حافة البكاء. أيريد مساعدتي له في القيام بأعباء القاعدة، أم يريد شيئا أخر؟ فكرت بأنه يحس بقلق إزاء هذه المهمة الجسيمة، التي عليه أن يضطلع بها وأراد أن يتأكد من دعم رجاله. كان يقال قبلا بأن الكولونيل أمقران ليس أهلا لقيادة القاعدة، وسيقال نفس الشيء بكل تأكيد عن كويرة. لذا فكرت بأنه يبحث عن دعم وتواطؤ...

بكى كويرة أمامي ودموعه تلك كانت تخفي قلقا كبيرا، مع الوقت عرفت بأنه أراد أن يقول لي شيئا آخر. ربما أراد أن يشركني في أسراره، ويخبرني بالانقلاب الجاري إعداده ويحثني على الالتحاق بالانقلابيين، و لم يفعل ذلك لأسباب لا يمكنني تخمينها. ربما منعه قسمه بإبقاء ذلك سرا. انقلاب ليس لعبا، ومن أشركوا في تهيئته سيتلقون تعليمات صارمة بعدم التحدث مع أي كان في الأمر.

أمام دموع كويرة، قلت بأنه ربما هو منشغل بمشاكل عائلية أو صحية، لكنني لم أشُك في أي شيء آخر، هو يعرف بالتجربة أنني تكفلت بكل شيء حين كان هو نائب قائد القاعدة. ويعرف أن بإمكانه أن يعول علي... لكن دموعه تقول بكل تأكيد أكثر مما قاله، كان علي ربما أن أشجعه على أن يقول لي ما يختزنه قلبه، لكنني لم أرد أن أحرجه.

وإن تعلق الأمر كله، وببساطة، بمسألة ثقة.

بين المدنيين والعسكريين

كان لتفصيل آخر وزنه في تسلسل الأحداث، أتذكر الدكتور عمر الخطابي، لابسا دوما الأبيض، والذي كان هو أيضا يزور بانتظام القاعدة لملاقاة أمقران.

سنة بعد وفاة الحسن الثاني، نشرت الصحافة الوطنية: الجورنال والصحيفة رسالة وجهها في تلك الفترة الفقيه البصري إلى زعماء اليسار المغربي حيث يتبين تورط السياسيين بوضوح. في تلك الفترة ، كان الصراع مفتوحا بين القصر وأحزاب اليسار السياسية. نشر الدكتور الخطابي رسالة يعترف فيها بأنه كان مشاركا في انقلاب 1972، ويؤكد فيها بأن زعماء اليسار لم يكونوا فقط على علم، لكنهم كانوا يساندون العملية بتواطؤ كبير مع أوفقير. ومهما يكن، فالدكتور الخطابي كان يأتي مرارا للقاعدة ليتحدث مع الكولونيل. إن مسار الدكتور الخطابي كمناضل ومعارض معروف، وكانت أكثر من صداقة تجمع الرجلين وبالتالي فمن الجائز أنه كان أحد المخططين للانقلاب.

لكن أشخاصا مدنيين وعسكريين آخرين كانوا يأتون للقاعدة ويقابلون الكولونيل، ذات يوم كنت أشرب فنجان قهوة مع كويرة ومعنا كومندار من القوات البرية وعميد شرطة وكان أمقران آنذاك قد غادر القاعدة. كنا نتحدث في كل شيء وفي لاشيء. ثم تسللت السياسة إلى المحادثة، قال العميد بأنني محظوظ بزواجي من صيدلانية، لأن الصيادلة يربحون أموالا طائلة.

ضحك كويرة وقال:

– الأمر ليس مهما......... سنؤمم قريبا كل هذا!

ضحكنا ثم افترقنا على وقع هذه الملاحظة المنذرة، ثم مرض أمقران، وذهب للعلاج في باريس. وإبان استشفائه في مصحة هناك قيل بأنه تلقى زيارة من الفقيه البصري. وحين عاد كان قد فقد كل شعره بسبب العلاج الكيماوي. أصيب بسرطان في الكليتين، كانت صحته محطمة، وعرفنا أن أيامه معدودة ولن ينجو من هذا المرض الخطير، ولأنه يعرف ذلك، قال ربما، إن بإمكانه أن يقدم خدمة أخيرة لوطنه.

في سنة 2018 زارتنا السيدة أمقران إبان عودتها للمغرب وأثناء النقاش كشفت لنا ما يلي : زارت السيدة أوفقير أمقران أثناء استشفائه بباريس، وجدت أثناء هذه الزيارة أمر غريب. طلب أمقران من زوجته أن تتركهما لوحدهما. أياما قليلة بعد هذه الزيارة عاد أمقران للمغرب للمشاركة في الإنقلاب. مادار بين أمقران والسيدة أوفقير الله وحده يعلمه.

بين يدي الدرك الملكي

أياما بعد الانقلاب، أقتيد أمقران والطيارون الذين ضربوا الطائرة أمام الحسن الثاني الذي أراد أن يرى عن قرب هؤلاء اللذين أوشكوا على وضع حد لحياته، حذق طويلا في أمقران قبل أن يسأله:

– لماذا فعلت هذا؟ وأنا قد بعثتك للعلاج في فرنسا من مالي الخاص؟ هذه هي طريقتك في رد الجميل لملكك؟

توقف عند بوخاليف وقال مندهشا:

– كيف نجحت في إصابة الطائرة بهاتين العينين؟

– لو أشركوني مبكرا في الأمر، رد بوخاليف، ما كنتم، أؤكد لكم، لتنزلوا أحياء من الطائرة

قضى بوخاليف صاحب العينين الصغيرتين الليلة محتفلا حتى الفجر، كان الوحيد الذي أصاب عدة مرات بوينغ جلالته وعطل احد محركاتها.

أثناء التحقيقات، اقتادوني لمكتب الجنرال مولاي حفيظ العلوي، حاجب الملك، كان الكومندار العنيكْري معه، طرح علي الجنرال السؤال التالي:

– هل كنت ضمن من قاموا بإضراب 1957؟

في هذه السنة تم تجنيدنا لنذهب مباشرة لمدرسة الطيران، لكن وبما أنه لم تكن هناك أمكنة كافية، فقد قالوا لنا أن نتخصَّصَ أوّلاً، فقمنا بالتخصص وبدأنا سياقة الطائرات. وبقدر ما كان الوقت يمضي، بقدر ما كان الحديث عن مدرسة الطيران يخفت. حاولنا الحديث مع المسؤولين، و لم يكن بإمكانهم فعل أي شيء. فعلى القرار أن يأتي من

القيادة العليا. وهذه تجهل، بكل تأكيد، مطالبنا، فقررنا إذن أن نقوم بإضراب، فحكم علينا خمسة عشر يوما سجنا بسبب العصيان وعدم الامتثال للأوامر[1]. بعد ذلك أعطونا درجة طالب ضابط وبعثوا البعض لفرنسا، وآخرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية وآخرين إلى إسبانيا. فتح هذا السؤال الذي وجهه لي الجنرال مولاي حفيظ عيني على حقيقة أن لاشيء يفلت من المخزن وأنه لا ينسى أي شيء. كان جوابي إيجابيا، نظر إلي بتمعن ثم سألني:

– هل هاجمت الطائرة الملكية بالقذائف؟

– لا يمكنني أن أفعل ذلك لأنني كنت أقود طائرة بمقعدين و لم تكن مسلحة.

قال لي الكومندار لعنيگري من جهته:

– نعرف بأنك لم تكن ضالعا في الأمر، لكن قل لنا ماهي السرعة التي كنت تسير بها في تلك اللحظات؟

– بين 800 و 900 كلم/ ساعة

– ولماذا لم تنزل في مطار الرباط لتهرع لمساعدة ملكك وتقدم نجدة للبوينك وهي في خطر؟

– لا يمكنني ذلك، سيدي الكومندار، هذا مخالف لتعليمات OACI (منظمة الطيران والجولان الدولي) إن فعلت ذلك سأغلق المدرج وربما سأتسبب في كارثة حقيقية. يقول القانون إن كانت هناك طائرة في خطر على كل الطائرات التي في الجو أن تبتعد حتى نزول الطائرة المعنية بدون عوائق.

في المحكمة أخذ علي الدليمي بأنني لم أبتعد عن الطائرة بينما كانوا يوجهون لي إشارات بأيديهم لأذهب لإخبار المسؤولين. وهذا، وببساطة، هراء، لأنه إن كان بإمكانه هو أن يراني، فأنا لم يكن بإمكاني أن أميز ما يحدث داخل طائرة البوينك من خلال قمرتي.

نظر الجنرال إلي مليا قبل أن يعطي الأمر لإعادتي لمكاني، في الممر، انحنى ليوتنان علي وهمس لي في أذني:

1 / أنظر تفاصيل أكثر عن الحادث في كتابنا: مثل طائر في سماء بلادي.

– أعتقد، أيها القبطان، بأنك أنقذت رأسك من حبل المشنقة!

بعد ذلك نقلنا في عربات، أيدينا مغلولة وأعيننا معصوبة، إلى سجن القنيطرة، وبقينا هناك طيلة مدة المحاكمة، كان الأمر قاسيا فكل واحد يحاول أن ينقذ نفسه على حساب الآخرين. لم نتمكن من تحويل الوضع لصالحنا. فقد سممت بعض التصرفات البئيسة العلاقات وعوض إعطاء بعد سياسي لما قمنا به، ضرب الواحد منا الآخر في محاولة لإنقاذ جلده. الأمر بشري بكل تأكيد، لكنه يفتقد للنضج والشجاعة. أعلن العربي أمام المحكمة بأنني أعطيت الأمر لزياد وللخمسة الآخرين للإقلاع مجددا بعد الدورة الثانية، واجهه المحامي وأربكه حين سأله من أخذ التلفون ليقول للطيارين بأنه بإمكانهم الإقلاع مجددا، هو من فعل ذلك... آخر، أفضل أن لا أذكر إسمه، أراد توريطي في صلة مع الأمريكيين، أكد بأنني لي علاقة وثيقة مع قائد الطيارين الأمريكيين وأنه معجب بي كثيرا، وهذا هراء، ثم إن القاضي أوقفه وقال له بأن لا يجنح بالمحكمة إلى مشكل أكثر جسامة وسيبعد المحاكمة عن قضيتها الأساس. لم يرد القاضي أن يحدث ما من شأنه أن يؤزم الوضع أكثر مع الأمريكيين بذكرهم في المحاكمة.

إبان المحاكمة تساءل سكيرج عمن قام بإعداد العملية briefing: أنا قمت به، كانت مسؤوليتي أنا، فدقق سؤاله:

– من قام بإعداد عملية التصويب؟

– ليس هناك عملية إعداد briefing للتصويب، هناك عملية إعداد عادي للخفر، والطيارون الحضور بإمكانهم تأكيد ذلك، فإعداد عملية التصويب أمر خاص، له قواعده، ودفتر تحملات خاص، حيث يسجل كل شيء حتى أدق التفاصيل. أنا قمت بإعداد عملية عادية و لم أتحدث في أي لحظة عن تصويب. وقد أثارت إحدى النقط انتباهي، قال كديرة الذي كان يدافع عن بوخاليف، للمحكمة:

– من الطبيعي أن تكون هناك انقلابات، فقد تركت السلطة طويلا في أيدي الجيش، وحين كانت السلطة في أيدي المدنيين، كان البلد في منأى عن الانقلابات. بدون تعليق.

من جهته أعلن زياد أمام المحكمة بأنه تلقى الأمر من الكولونيل أمقران ليقصف المطار والقصر الملكي، وحين تمت مواجهتهما أنكر الكولونيل أقواله. بقينا في السجن العسكري حتى نهاية المحاكمة. يوم 11 أكتوبر 1972 أخبرني المحامي الفاروقي بميلاد إبني وطلب مني أن أعطيه اسماً، فألهمتني الآية القرآنية القائلة "واتخذ الله إبراهيم خليلا" فسمي المولود خليلاً. يوم إصدار الحكم أخرجونا إلى الساحة، كان اليوتنان فضول هناك مع عربتين وشاحنتين عسكريتين. هذا الشخص المشؤوم سيرافقنا من بداية محنتنا إلى نهايتها. حين كان الكل في الخارج، أخرج فضول قائمة أولى ونادى على أسمائها، أحد عشر شخصا التحقوا بالعربة: الكولونيل أمقران، الكومندار كويرة، القبطان العربي، اليوتنان زياد وبوخاليف، والملازم اليازيد والضابط المساعد المهدي، والضابط المساعد بلقاسم والرقيب الأول بينوا والبحراوي وكامون، كان القبطان العربي هو آخر من غادر ساحة السجن، كنا نعرف بأنهم سيعدمون ولو أن الحكم لم يصدر بعد.

كان اسمي هو الثاني في القائمة الثانية، صعدت في الشاحنة وتبعني الباقون. تحركت الشاحنة ووصلنا إلى المحكمة، لم يكن رجال المجموعة الأولى الأحد عشر هناك. سمعوا الحكم وأخذوهم كلهم، حكم عليهم بالإعدام. وصل دورنا، دخلنا قاعة المحكمة، كانت فارغة، كان هناك دركي واقفا وعيناه مغرورقتان بالدمع:

– حكم عليكم بعشرين سنة سجنا، همس لي في أذني.

لم أصدقه، كيف سيعرف ذلك قبل إعلان الأحكام من طرف القاضي؟ دركي بسيط. حكم علي فعلا بعشرين سنة، لم أصدق، بلد المعجزات. اقتسم معي ثلاثة زملاء نفس الهم، عشرون سنة لليوتنان الطويل والزموري وكذلك الرقيب الأول موهاج علال والضابط المساعد مغوتي، وبصدد هذا الأخير، فقد نبه محاميه المحكمة إلى عيب شكلي في محاكمته، فمغوتي لم يشارك ولا شاهد الانقلاب، لذا فقد كان ينبغي الحكم عليه في أقصى الحالات بثلاث سنوات مثل الآخرين. أثناء ما وقع، كان المهدي والمغوتي يقومان بطلعة استكشافية، وموهاج علال يأخذ صورا، ثلاث طائرات كانت تقوم في هذا اليوم بهذه المهمة، ولأنه أسِرَ في نفس الوقت الذي أسرت فيه المجموعة قال المغوتي أمام القضاة:

– ألقيت نظرة إلى تحت ورأيت البوينك الملكية تجنح عن المدرج قبل أن تتوقف، غير أن طيارا في طور التكوين لا يمكنه أن يرى إلا جناح الطائرة. هذه الجملة البسيطة أضاعته، أمام المحامي الذي كان يصرخ بعيب شكلي أجاب الكولونيل الدليمي محتدا:

– في كل الأحوال ثلاث أو عشرون سنة، الأمر سيان!

فهمت في تلك اللحظة بأن المحاكمة ليست سوى مسرحية وأنهم يدخرون لنا مفاجأة مريرة. لم يرد النظام، مرة أخرى، بأن تأخذ عليه المنظمات الدولية، كما فعل مع انقلابيي الصخيرات، إعدام المتهمين بدون محاكمة. كانت جملة الدليمي فكرة تنبؤية: "ثلاث أو عشرون سنة، الأمر سيان!" كان الدليمي يعرف مسبقا ما ينتظرنا، في تلك اللحظة كان يهيئ لنا ما سيكون قبرنا: سجن تازمامارت.

بعد إصدار الأحكام، أعيد المحكوم عليهم إلى السجن العسكري. إن كان الناجون قد سرى عنهم بإفلاتهم من حكم الإعدام، فالإحساس بالظلم بقي يملأ قلوبهم مرة أخرى سيعدم أبرياء في صفوف الجيش، فبحسب الشهادات معظم المحكوم عليهم بالموت لم يكونوا ضالعين مباشرة في الانقلاب. لماذا هذه الخسارة وهذا التحامل؟

لقد وصلت كراهيتهم للناس إلى درجة أنهم لا يكترثون بآلامهم، هؤلاء اللذين كانوا يحسون، ويعرفون بأن أحكامهم مؤقتة وأنهم فرائس في يدي المخزن. لا شيء بإمكانه أن يعبر عن الأسى العميق الذي كان يوجد فيه كل واحد، توقفت الحياة فجأة، وتهاوت الأحلام، وتحطمت الآمال والمشاريع علقت أو محيت بجرة قلم، وبدأ العد العكسي لا نحو الحرية، ولكن نحو سفر إلى الجحيم، الأكثر طولاً والأكثر قساوة من كل الأسفار.

في ممر الموت

حين أعادونا إلى السجن العسكري بالقنيطرة، تم التعامل معنا كسجناء عاديين، نخرج إلى الساحة يوميا من أجل النزهة، نتحدث فيما بيننا، نأكل مجتمعين، لكننا لا نتلقى زيارات. وبواسطة محامينا أو من خلال إرشاء الحراس نجحنا في أن نبقى على اتصال بعائلاتنا من خلال مراسلات منتظمة لكنها هامة جدا بالنسبة لمعنويات الجميع. ثم وفي يوم ما، نقلنا إلى السجن المحلي المركزي بالقنيطرة، وصرنا بذلك مجرد سجناء عاديين للحق العام، وكان هذا أخف ضرر بالنسبة لنا. هناك، كنا نعرف بأنه ستكون لنا بعض الحقوق بحسب نظام السجن: الأكل الجماعي، التنزه في ساحة السجن، التعاطي لبعض التمارين الرياضية، إمكانية القراءة، مواصلة الدراسة بالنسبة للبعض، وخصوصا، قيام عائلاتنا بزيارتنا. في رسالتي السرية الأولى إلى زوجتي، طلبت منها أن تطلب الطلاق لسبب بسيط، فعشرون سنة بالنسبة لي، حياة كاملة، كانت لدي وسواس حول إهدارها لأجمل سنوات العمر في انتظاري، هذا مقتطف من هذه الرسالة:

أكتوبر 1972

عزيزتي،

لا أعرف ما أقول لك. ولا من أين أبدأ. فقد صفعنا القدر بقوة حتى أنني لم أعد أفهم شيئا لكن هناك شيئاً جيّداً هو أن الله الرحيم شاء ذلك. وأنا أقبل مشيئته وحكمه. فهو الوحيد الذي يعرف الحقيقة. خففت عني كلماتك الأخيرة ومنحتني الكثير من الشجاعة. وأطلب منك من جهتك أن تكوني شجاعة. فأنا على يقين بأنني سببت لك ألما كبيرا.

عزيزتي، أريدك أن تسمعيني جيدا، فأنا مذعن لقدري ولا يمكنني أن أقبل أن تضحي بشبابك وحياتك بسبب ما وقع لي، اعتن بالأطفال وبنفسك، تشجعي عزيزتي وخذي الحياة من جانبها.

حشاد

لم يتأخر رد السيدة حشاد، أنبتني كطفل شقي، ونصحتني بأن أعتني بصحتي وألا أطرح الكثير من الأسئلة عن مآلها هي، ثم هناك الأطفال، ثم قالت، فضلا عن ذلك، إن عشرين سنة ستمر بسرعة.

القنيطرة 8 نوفمبر 1972

عزيزي،

لا أعرف ما أقول أو أحكي لك، أراد القدر أن يوجه لنا هذه الضربة القاسية، لكننا نقبل قدرنا وربنا معنا، لا تقلق بالنسبة للأطفال وبالنسبة لي، من جهتك كن رجلا شجاعا، هادئا وحكيما كما كنت حتى اليوم.

أنا على يقين تام من براءتك، ولحسن الحظ هناك رب فوق الجميع.

أحبك عزيزي، ولا أهمية لشبابي، وسيأتي يوم يجمعنا إلى الأبد يوم ستعود فيه لنا.

عايدة

ذات ليلة أمقران وكويرة

كانت الحياة في السجن المركزي بالقنيطرة تمضي كما يمكن أن تمضي الحياة في أي سجن في العالم، الروتين والخصاص في كل شيء. ورغم إعلان أحكام المساجين، فهؤلاء لم يتمتعوا أبدا بحقوقهم الدنيا. لم يكونوا يتلقون زيارات ولا حق لهم في المراسلات.

ليلة 9 يناير 1973، عاش السجن بلبلة غير منتظرة، ظهر دركيون في حي المحكومين بالإعدام تحت قيادة الكومندار فَضّول وأخرجوا أمقران وكويرة من زنزانتيهما، واقتادوهما إلى وجهة مجهولة. كان قلق السجناء الآخرين آسراً، وسافر خيالهم بين تصفيتهما أو العفو عنهما. قال أحد الحراس بأنهما أخذا إلى الرباط . لأي غاية ؟ لم ينته الكابوس بعـــد؟

كانت ليلة متطاولة وران الصمت على المكان، وسيطرت فكرة الموت على روتينية توالي الأيام. كل واحد كان يفكر في موته الخاص وهو يعرف بدقة بأنه في شدق الذئب. وفي ليلة فظيعة، 11 يناير 1973، وحوالي الساعة الثانية ليلا عاد السجينان إلى زنزانتيهما، بعينين مغمضتين وغطاء يحجب الرأس، أصخى المساجين الآخرون السمع، ووصلت لهما تأوهات من الألم عبر الجدران. تعرض الرجلان لتعذيب قاس حتى شارفا على الموت وفي لحظة ما، خاطب كويرة أمقران معاتبا إياه بهذه العبارات:

– الخطأ خطأك، أنت من رفضت الكلام، رغم "أنه"وعدنا بعفوه إن قلت له ما ينتظر منك.

بقي أمقران صامتا و لم يرد على مؤاخذة رفيقه، لقد رفض إذن أن يتكلم ويفضح المتواطئين معه وأن يطلب الصفح من الملك أمام كاميرات التلفزة.

يوم السبت 13 يناير حوالي الثالثة صباحا، اقتيد الأَحَدَ عشر محكوماً عليهم بالموت إلى ساحة الرماية بقاعدة القنيطرة وأعدموا رميا بالرصاص غداة عيد الأضحى، في نفس اليوم الذي يكون فيه المسلمون فوق جبل عرفة متوجهين بأنظارهم نحو الشروق متضرعين لله طالبين رحمته ومغفرته!

كانت شهادات الدركيين والمحامين الحاضرين لمشهد الإعدام متطابقة، فقد واجه الرجال الموت بشجاعة وكرامة. كان ميداوي ليزيد يشجع رفاقه، ويطلب منهم أن يرفعوا رؤوسهم ويموتوا رجالا، وفي اللحظة الحاسمة لا أحد نطق "عاش الملك!"، لم تكن دموع أمقران دموع نذالة ولا دموع ضعف:

– لست خائفا من الموت، قال لمحاميه، ولكنني أبكي على مآل بلدي ومآل هؤلاء الشبان اللذين ورطتهم في هذه المغامرة وسيموتون بشكل ظالم!

سفر على أطراف الرعب

"في ليلة 7 غشت 1973، وفي حرارة خانقة، دخلت شاحنات إلى باحة السجن، كبل المساجين سواء أصحاب انقلاب الصخيرات أو الطيارين وتم رميهم في الشاحنات التي سارت نحو وجهة مجهولة" (جيل بيرو).

انسابت الأيام في الرتابة المعتادة للسجن المركزي بالقنيطرة، بعد محاكمة قادها الجيش وباركها القصر لمجرد إرضاء الرأي الدولي الذي كانت ردوده عنيفة إزاء إعدام ضباط انقلاب 1971 بدون محاكمة. غير أن أمرا غريبا حدث رغم ذلك، فالمساجين كانوا محبوسين في حي الإعدام مع سجناء الحق العام المحكوم عليهم بالعقوبة القصوى. لم أتوقف عن التفكير في جملة الدليمي والتي قالها في لحظة إصدار الأحكام، ووجهها للمغوتي "ثلاثة سنوات أو عشرون، الأمر سيان" هذه الوضعية الملتبسة كانت تجعل المساجين أكثر هشاشة وضعفا على المستوى النفسي. إن لم يحكم عليهم بالموت، فلم يوضعون في حي الإعدام؟ هل هي استراتيجية ميكافيلية لتحطيم أعصابهم أم الأمر متعلق فقط بتدبير الأماكن الشاغرة؟ فبما أن السجون المغربية مكتظة، كان من الصعب عمليا إيجاد مكان شاغر يسمح بالحميمية والانعزال. وفي الواقع لم يكن الأمر يتعلق بخصاص في الأماكن ولكن بإرادة مصممة على تحطيم أعصاب هؤلاء الانقلابيين، ينبغي إعطاؤهم درسا وإفهامهم بأن مسرحية المحاكمة قد انتهت، وينبغي العودة للواقع. الإمكانية الوحيدة في بلد تحكمه العنهجية ولا تكترث بالقوانين التي وضعتها ولا بالمؤسسات، ولا تجد أي فظاظة في أن تقوم بما تشاء، هذا بديهي، لكن كل السجناء كانوا يتشبثون ورغم كل شيء على وهم احترام الأحكام التي حكمت بها المحكمة، وكانوا يجهلون المفاجأة الكريهة التي تنتظرهم. انتهى الأمر يوم 6 غشت 1973 بنقلهم إلى رواق جديد وذا نظافة مقبولة. وللأسف هذا التنقيل كان لمدة قصيرة، لم تزد على ليلة واحدة.

في الطريق إلى الجحيم

حوالي الثالثة صباحا، ترددت أصوات عالية في ردهات السجن، صحا السجناء، وقد أفسدت نومهم الصيحات وصرير الأبواب الحديدية المصطفقة. أعطيت أوامر في الليل:

- استيقظوا والبسوا ثيابكم! سيتم نقلكم.

والنوم مازال يثقل جفونهم، لبس الرجال بشكل مرتجل ثيابهم. كان الفصل صيفا، والجو حارا، لذا لم ير السجناء ضرورة لبس ثياب سميكة. عادت نصيحة محكوم بالإعدام إلى ذهني: "في حالة الترحيل، صديقي، أنصحك بلبس أكثر مما يمكنك، إنس ما يحيط بك وانس العالم الخارجي، انس حرارة الوقت واحمل معك كل ما يمكنك حمله لأنك ستحتاج لكل خرقة في ملكيتك. في السجن، أنت في الجانب الآخر من حياة الناس العاديين، لست سوى رقم، وعليك أن تحتفظ بقليل من الآدمية داخل قلبك وداخل روحك، ولا تنشغل إلا بنفسك، وتحاول أن تبقى باستمرار على صلة مع الآخرين".

رغم حرارة غشت لبست سروالين، صدريتين، جوربين، وطاقيتين قبل السير وراء رفاقي من انقلاب البوينك الملكية. اقتادونا إلى باحة السجن، سرنا طويلا في الممر الذي يؤدي إلى المخرج. في الباحة، التحق بنا سجناء آخرون: عسكريو الانقلاب الأول المتبقين من انقلاب الصخيرات 1971. كانت هناك شاحنتان مركونتان أمام البوابة الرئيسية للسجن المركزي محاطتان بجيش جرار وصفين من الدركيين مسلحين. بالقرب من طاولة، وضعت في المدخل، كان يوجد الشيطان شخصيا: فضول ذائع الصيت بشكل محزن، كان واقفا كالقدر أو كالموت ويحمل في يده قائمة. هل يمكن أن تتخيل الأفكار المتلاطمة بداخل كل واحد منا؟ هل يمكن قياس كثافة قلقنا الآسر؟

خوفنا؟ تساؤلاتنا العديدة؟ عزلتنا؟ عذابنا؟ من بإمكانه أن يقول ما كنا نفكر فيه نحن الضباط وضباط الصف من القوات المسلحة الملكية أمام هذا الإخراج المسرحي المحزن؟ ماذا يريدون منا؟ ألم يحكم علينا من طرف محكمة بسبب ما "اقترفناه"؟ وهاتان الشاحنتان؟ وهؤلاء الدركيون المدججون برشاشات؟ إلى أين سيقودوننا؟ ربما إلى ساحة الرماية المتواجدة وراء السجن لنعرف نفس مصير من أعدموا قبلنا؟ ألا يتعلق الأمر سوى بترحيل إلى سجن آخر حيث سيتم التعامل معنا، ربما بشكل أفضل؟ ألم نكن أبناء القوات المسلحة الملكية؟ بمعنى أننا أناس اختاروا بأن يمنحوا أرواحهم للمغرب لأنه كان في حاجة لهم. رد الصراخ الثاقب والهستيري لليوتنان فضول الأذهان إلى الواقع:

– أسرعوا، بحق الله، لن نقضي أبدية هنا!

نادانا بأسمائنا الواحد تلو الأخر ووضع علامة على الحاضرين في القائمة، تم وضعوا الكلبشات مباشرة في أيدينا المغلولتين وراء ظهورنا ووضعوا عصابات على أعيننا ورمونا كأكياس قمامة في إحدى الشاحنتين، كل واحد حاول بشكل أو آخر أن يجد له وضعية مريحة. لقد شرعنا في السير في الدرب الطويل لجهنم، والعصابة السوداء فوق أعيننا كانت بداية ليل بلا نهاية سيرافقنا طيلة ثماني عشر سنة. ليل عميق، لا إنساني، قاس مثل قلوب أولئك اللذين قرروا بأن علينا اختبار الرعب في كامل فرادته ولا إنسانيته. تعالى صوت فضول من جديد في سكون الليل هذا الذي يسحب ظلامه ليفسح المكان للنهار وأمر آخر أربعة مساجين بالاصطفاف يسارا يتعلق الأمر بالكولونيل عبابو، الكومندار شلاط، والمساعد الأول عقا والرقيب مزيريك واللذين سيعرفون، بلا شك، قدرا آخر وأعطي الأمر للشاحنتين بالتحرك . ستغادر الشاحنتان السجن وتنعطفان يمينا وتسيران في الطريق نحو المهدية، ثم انعطفتا يمينا مرة أخرى باتجاه ساحة الرماية للمكان الذي سيتم ربما إعدامنا فيه، ثم دخلتا أخيرا إلى القاعدة الجوية. عرف الطيارون ذلك من خلال صوت أليف لهم: صوت المجموعة الالكتروجينية (groupes électrogènes) التي تشتغل بدون توقف، سافرت أذهاننا في الزمن، ورأت مرة أخرى هذا المكان الذي أمضينا فيه أجمل لحظات وجودنا، هذا المكان الذي احتضن حبنا وشهد ولادة أطفالنا الأوائل، وتذكرنا على الخصوص تلك اللحظات المفعمة بإكتمال تام وأحاسيس حرية لا يمكن وصفها ونحن في قمرة الطائرات، نلاعب الغمام، ونستنشق ملء الرئتين الهواء النقي، بعيدا عن الناس وفوق حقارات العالم.

توقفت الشاحنتان فجأة وحدث نفس السيناريو، أنزلونا بفظاظة، الأيدي مغلولة وراء الظهور والأعين معصوبة. في المدرج كانت هناك طائرتان في الانتظار ومحركاهما مشغلان C119 وDC3. كان المشهد وأحداثه تدور وسط غلالة نور باهر وكان هناك دركيون مدججون بالسلاح. إنهم بصدد عملية حربية في زمن الحرب، ألقي بنا داخل الطائرتين المتأهبتين للطيران، تدبر كل واحد منا مكانا له كما اتفق، وعقد دركيون أحزمة السلامة حول أجسادنا الملتصق بعضها ببعض كسردين في وعاء زجاجي قديم، وشرع ربابنة الطائرتين في مناورات الإقلاع من بينهم بعض رفاق الفوج، أصدقاء، مساعدون، لأخذنا إلى وجهة مجهولة.

كانت قلوبنا في الليل البهيم وجلبة المحركات تخفق بشدة، لقد سمعنا الفظاعات التي مورست على سجناء الرأي، فإن لم يجهزوا علينا في ساحة الرماية، فلأنهم ربما يدخرون لنا قدرا أكثر فظاعة. اجتاحت أذهاننا أفكار سوداء. بماذا يمكن أن يفكر سجين اختطف في عز الليل، ويداه مغلولتان وعيناه معصوبتان وألقي به في شاحنة ثم في طائرة بدون أدنى فكرة عن ماذا ينتظر منه ، وماذا يراد منه، ولا عن الوجهة التي نؤخذ لها؟ ماذا بوسع سجين مغربي أن يتخيل في هذه الشروط القصوى؟ شيء واحد، سيلقى به من الطائرة في المحيط. الأمر ليس مستحيلا، تعرض آخرون لهذا. نافذو القوى والصبر انتهينا بترك مصيرنا للقدر، كنا كلنا متأثرين، البعض كان يردد آيات قرآنية في ذهنه، ورغم الخوف الذي ولده كل هذا الغموض فقد بقينا محتفظين بكبريائنا وكرامتنا أمام موت وشيك. أقلعت الطائرتان وتملك الرعب بطن كل واحد منا قبل أن يصل للرأس ويجتاح الجسد كله. توتر مثل نار جمر اشتعلت في الأحشاء وأتت عليها. وحرقت النورونات وحطمت العظام، وصلبت العضلات، وأحالت الإرادة إلى عدم والشجاعة إلى تهور. ماذا بإمكاننا أن نفعل، وقد كدسنا كالنقانق، وصرنا مستعدين لأن نَهَب أنفسنا لموت هو من أفظع الميتات؟ أن ترمى من فوق طائرة في المحيط، نهاية قاسية، ستلتهمنا الحيتان، ولا من رأى ولا من عرف. بالنسبة للجلادين تلك هي أحسن طريقة للتخلص من عبء ثقيل ومزعج، يلقون بنا مثل صناديق أو أكياس قمامة لإرضاء من أمروا بهذه الجريمة. دامت رحلة الطيران بضع ساعات بدت لنا قرونا وانتهى الوحشان بالتوقف، فكوا أحزمة السلامة عنا قبل دفعنا إلى الخارج، لفح الهواء الساخن أوجهنا، هواء ذكر بعضنا بهواء الصحراء. لقد قرروا إذن تصفيتنا في الصحراء وليس في المحيط، أعطيت أوامر وسمعنا ارتطام وقع أحذية عسكرية في هذا الصباح الوليد. دفعونا كبهائم عمياء، وأمرونا بتسريع خطانا، وألقوا

بنا في شاحنات عسكرية كانت تنتظر ومحركاتها شغالة، وبدأ عبور الصحراء، عبور طويل، مرهق، ولا يحتمل. كنا مرة أخرى ملتصقين ببعضنا البعض كسردين، توجب علينا أيضا أن نقوم برحلة دامت ساعتين تقريبا في طريق معبدة. ثم وفي لحظة معينة سارت الشاحنات في مسرب محجر، نرتج كدمى متحركة تم تركيبها بشكل سيء، كان يصعب علينا أن نبقى في أمكنتنا، ملأ أنوفنا وحلوقنا التراب، لكن الأكثر مأساوية في المشهد هو الأسئلة التي كانت تراود أذهاننا، هذا الثقب الأسود الذي كنا نغوص فيه شيئا فشيئا بقدر ما كان الوقت يمر، وصار صمتنا الحجري يجعلنا نتمرس في زوايا غموضه.

في ظلمات تازمامارت

"كنا في تازمامارت رفقة من تبقى من المحكوم عليهم من انقلابيي الصخيرات والقنيطرة

قال لنا الصوت المريع والمأتمي مجددا فيما يشبه التهديد أو التحذير بأنه لا ينبغي انتظار الرحمة والمغفرة هنا".

مدحت روني بوريكات.

"تخفي جدران تازمامارت أفظع سر عرفته البشرية"

جيل بيرو.

وصلت الشاحنات أخيرا إلى غايتها وتوقفت وسط ساحة قاعدة عسكرية، كان هناك جدار بعلو اثني عشر مترا يحيط ببنايات عسكرية، وفي القلب سور آخر يحيط ببنايتين تشبهان مستودعين، في كل زاوية كشك للحراسة به جندي مسلح، تم إنجاز عملية النزول بنفس الفظاظة في الحركات والسرعة التي أنجز بها الذهاب. جمعنا بسرعة، وجردنا من لوازمنا الشخصية، أحزمة، ساعات، خواتم، ولاعات، نظارات طبية، واقتادونا للمكان الذي سيصير قبرنا. انتزعوا العصابات عن أعيننا والكلبشات قبل أن يدفعونا لزنازين مظلمة ورطبة. راقب ثلاثة ضباط من الدرك العملية، صاح أحدهم برضا غامر:

- الأمر ليس سيئا هنا، يمكن العيش فيه!

قسمونا إلى قسمين، في كل واحد تسعة وعشرون سجينا، وهو عدد الزنازن في كل من البناية "أ" والبناية "ب" (بلوك "1" بلوك "2")، دفعوا الواحد منا بعد الآخر

مثل بهيمة إلى داخل الزنازن المظلمة وسدت الأبواب الحديدية بسرعة خلفنا، بقي صدى الأقفال مترددا في الفضاء وفي الآن نفسه داخل قلب كل واحد منا مثل القدر. لأول مرة ومنذ أن تم اختطافنا تنبهنا، مرة أخرى، إلى أنهم لم يقتلوننا، لم يعدمونا، وإنما رَحّلونا من سجن إلى آخر. صفق الحراس اللابسون بدلات عسكرية الباب وراءهم قبل أن يغادروا المكان تاركين الرجال لعزلتهم وقلقهم. ران صمت أموات على المكان، فقد توقف الزمن فجأة، ومن حولنا وبداخلنا أناخ ليل طويل، لا حد له، إلى درجة أن الليل يبتلع النهار ويتداخلان في هذا المكان. الزنزانة حجرة صغيرة بنيت بالإسمنت المسلح مساحتها ثلاثة أمتار طولا ومتران عرضا وثلاثة أمتار عُلُوّا. كان الإسمنت ما يزال طرياً يرشح على طول الجدران. إحساس بالرّعب، ستة عشر ثُقباً بقُطْرِ عشرات السنتمترات في الجدار المؤدي إلى الممر، تسمح بتسرب شعاع بالكاد يمكن تبينه. أما ثقب السقف فكان له نفس قطر الجدران و لم يكن يسمح للنور بأن يتسرب إلى الزنازن بسبب سقف من القصدير يحجب الشمس. مروعا في البداية شرعت بعد ذلك في استكشاف المكان وأنا أتحسس الأشياء كأعمى، في عمق الزنزانة تقوم مصطبة إسمنتية مقام السرير، وفوقها وضع غطاءان قديمان تشم فيهما رائحة التعفن، وفي زاوية هناك ثقب حفر في الأرضية ليؤدي وظيفة المرحاض. في رحلتي الاستكشافية المحفوفة بالمخاطر اكتشفت أواني بلاستيكية، صحن، قمع، إبريق، سترافقني طيلة ثمانية عشر سنة من الحياة في هذا الجحر الجديد بفأر، هذا على طريقة دراكيلا، كما سيفعل، بالضبط الغطاءان، الداكنان. كنت أحس بأكثر من الخوف، وكما هو الحال بالنسبة لرفاقي، أحس بإهانة بلا حدود. عرفنا بأنهم يريدون كسرنا، وأنهم يحاولون النيل من كرامتنا، وتحطيم اعتزازنا بأنفسنا.

ماذا بإمكان الكلمات أن تقول فيما لا يقال؟ صمت اللحظات الأولى، الاتصال الأولي بالرعب، وصمت ثقيل ثقل أبواب الحديد المصنوع والثخين ثخانة الجدران التي صارت قبورا أو لحودا لنا. ماذا بوسع كلام امرئ أن يفعل إزاء الموت؟ أي قوة يمكن أن تمتلكها الكلمة في مكان يعزل عن الحياة، ويعلق الحكم ويضع جسم الإنسان بين اثنين: بين الحياة والموت، بين الوجود والعدم، بين الفراغ وما لا دلالة له؟ في هذا المكان، لم يكن الموت موتا ولا الحياة حياة، فلماذا إذن الحديث عن الحياة ولماذا ذكر الموت؟ ماذا أقول؟ لم يكن هناك من بإمكانه أن يقيس الأخذوذ الذي يفصلنا عن عالم الأحياء؟ تتوالي صور الماضي في ذهني، قاسية، كما تتوالى في أذهان الآخرين بكل

تأكيد، صور الزوجات المتزينات والمتعطرات في ليالي الصيف، ضحكات وصراخ الأطفال، جولة مع الرفاق، ولادة طفل، مقاطع من حياة صارت سحرية، وتقريبا غير واقعية، إن صمت الحراس الذي ران منذ البداية كان له سمك اليأس وداخل كل واحد منا استشعرنا فداحة العزلة التي فرضت علينا، عزلة تذكر بعزلة القبور.

ثم وما أن مرت لحظات الارتباك، حتى تعالت الأصوات في الزنازن متسربة من الثقوب لتتصادم في الممر، قدم كل واحد هويته، وذكر لأي هيئة في الجيش ينتمي، وأي وحدة وأي فريق من الانقلابيين، وأي جهة، وأي مدينة.... دامت التقديمات فترة ومنحتنا شعاع أمل، فمازلنا مجموعين، ومازلنا جميعا أحياء، وهذا يعني بأننا سجناء عاديين وسنستمتع بالحد الأدنى للشروط الأولية الضرورية لكل كائن بشري، غيرأن هذا لم يكن يأخذ في الحسبان ميكيافيلية وضراوة المقررين. وضع صرير البوابة الحديدية الرئيسية حدا لكل هذا الغليان، جاء الحراس لتقديم أول وجبة في اليوم للمساجين. كانت التعليمات المعطاة لهم واضحة ودقيقة، لارحمة، ولا تبادل أي كلمة مع هؤلاء، لا صلة طيلة ثمانية عشر سنة. ستبقى الخدمة بنفس الصرامة مع استثناءات قليلة. الحارس الأول يفك القفل ويسحبه بحركة عنيفة، والثاني يفتح الباب ويأمر كل سجين بأن يعطيه أوانيه ثم يقفل الباب، يملأ الثالث الإبريق بالماء، ويأتي الرابع أخيرا بقدر يجره وراءه لكي يوزع الأكل ثم تفتح الزنازين مرة أخرى لكي يأخذ كل واحد أوانيه. تدوم العملية بضع ثوان، وليحذر المتلكئون، فبإمكانهم أن يتركوا يدا أو أن يحرموا ببساطة من الأكل. لقاء غريب مع كائنات إنسانية. كان الحراس يتجنبون نظرات السجناء، ويعملون على أن تمر العملية في أقل وقت ممكن، ربع ساعة في المجموع وأكثر بقليل للمرور على تسعة وعشرين زنزانة. يغلف صمت مأتمي هذه الشعيرة المحزنة، حركات سريعة ومقتضبة، ووجوه الحراس مصرة على قساوتها، ولا مبالاتها وصرامتها غير الإنسانية، وتعبر بهذا عن واقع حال أكثر من كونه مزاجاً أو سمات شخصية، الأوامر هي الأوامر وينبغي تنفيذها بدقة، بدون عواطف ولا ضعف. كنا نعتبر مثل خائنين للوطن، وحاولنا تصفية الملك، أمير المؤمنين لذا لا رحمة ولا تساهل أيضا. ينبغي أن نعامل بأكثر ما يمكن من صرامة وقسوة، لقد فهم الحراس ذلك، بما أنه في الجيش يتم تعليمك كيف تصير عبدا للأوامر. بعد توزيع الأكل، يعيدون الأقفال إلى مكانها ويغادرون العنبر وهم يصفقون الباب الحديدي الكبير وراءهم، موقنين، بدون شك، بأنهم اختيروا من طرف المسؤولين لهذه المهمة

بسبب الثقة التي يثقون فيهم، و لم يكونوا يشكون في أن المهمة الوكولة إليهم والتي شرعوا فيها قبيحة جدا.

بعد ذهابهم، يتمكن الموت كلية من هذا المكان الحزين، حيث قرر مسؤولون مغاربة دفن كائنات حية، خارج كل القوانين وفي ازدراء لحقوق الإنسان الأكثر أولية. تهب هذه الخدمة وكما أنجزها الحرّاس شكلا لإرادة التحطيم، للحقد الإنساني، لعدم الاحترام المطلق للقوانين واحتقار الإنسانية. يغادر الحراس مخدع الموت، فتتملك الحرارة الخانقة أجساد المساجين مثل نار جمر، كان سقف القصدير المتموج يخزن الحرارة ثم يسربها من الثقب الموجود في السقف ليحول الزنزانة إلى سونا أو فرن محرقة. كان الفصل صيفا، وفي هذه المنطقة الصحراوية تتجاوز درجة الحرارة بسهولة 48 في الظل.

نحن مهددون بفعل سفر طويل معذب، وبفعل الإهانة التي تعرضنا لها في أجسادنا وكرامتنا، ونحن خائرو العزم إثر هذا الاختطاف غير المفهوم الذي تعرضنا له، ونحن مجندلون بفعل ظلم الناس والقدر. أبعد بعضنا أوانيهم وتجمعوا على أنفسهم في ركن متيقنين أن هذا المكان سيكون بدون شك المكان الأخير في حياتهم، وأولئك الذين كانت لهم شجاعة وإقدام على حمل طعامهم الأول في مكان التعاسة هذا إلى أفواههم لم يمنعوا أنفسهم من بصق ما ابتلعوه، مرق معفن تسبح فيه بضع حبات فاصوليا بيضاء مطبوخة بشكل سيء. غير أنه كان ينبغي التعود على النظام الذي سيتكرر 12960 مرة في حفرة نهاية العالم هذه، طيلة ثمانية عشر سنة رغم التعب والاستنكار. استأنف المساجين محادثاتهم وتقديم أنفسهم من خلال الثقوب المتواجدة في الجدار يمين الباب الحديدي للزنزانة، تعالت الأصوات مرة أخرى أكثر قوة أيضا لكي يسمع أولئك الذين يتواجدون في أقصى البناية. تعارفنا، وطرحنا على بعضنا أسئلة، وطلبنا من بعضنا أخبارا عن الصحة، المعنويات، وأردنا أن نعرف هل لأحدنا فكرة عن المكان الذي نتواجد فيه ولأي غاية وضعنا هنا. لا أحد يعرف. قدم هؤلاء و أولئك افتراضات، وانتقل آخرون من تغليب إلى تغليب، لكن لا أحد بإمكانه أن يقول أين نحن، ولا ماذا ينتظرنا هنا.

حوالي السابعة، فتحت البوابة الرئيسية مرة أخرى بجلبة حديدية وظهر الحراس وقدمت وجبة الليل بنفس الاستعجال ونفس غياب الحس الإنساني كالتي سبقتها.

وشغل في نفس الآن محرك كهربائي، فأضاءت مصابيح معلقة في سقف القصدير المتموج، ولأنها متفاوتة مع الثقوب فهي لم تسمح بتسرب إلا انطباع عائم لنور بقي ملتصقا بما يحيط خارجيا بالثقوب. نفس الحركات، نفس الصخب، نفس الأحاسيس، نفس القلق الآسر. قدمت لنا معجنات مطبوخة بشكل سيء، كان لها طعم الرمل، وبالكاد ملأت حيزا في عمق إناء البلاستيك. دفع الحراس مجددا المزلاج بصخب وأعادوا الأقفال إلى أمكنتها وغادروا البناية وهم يصفقون البوابة المركزية وراءهم، ازدردنا بصمت أكلنا الهزيل قبل أن نفرش الغطاءين على مصطبة الاسمنت محاولين النوم والاستراحة من تعبنا ومن انفعالاتنا ومخاوفنا. و لم نجد السلام الداخلي الذي يمكننا من الانفصال عن أجسادنا هذه الليلة. صارت أجسادنا أكثر ثقلا، أكثر إزعاجا وأكثر حضورا، كأننا خفنا إن نمنا فلن نجد مجددا عالم الأحياء ، العيون مفتحة بشدة تتفرس في السقف الذي كنا نخمنه أكثر مما نراه . قضينا هذه الليلة ذات الحرارة الخانقة مضطربين وقلقين ، نفكر في قدرنا وفيما حل بنا، ونتذكر عائلاتنا، وأطفالنا، والأشياء الجميلة التي سمحت بها الحياة لنا قبل أن يقرر القدر أن يحول حياتنا إلى جحيم ابتداء من اليوم، لم نعد ضباطا وضباط صف محكوماً عليهم من طرف محكمة عسكرية بسبب انقلابيين ضد الملك الحسن الثاني، صرنا أرقاما في تازمامارت كل واحد قلص إلى رقم زنزانته.

جلسة تصوير تحت الشمس

مضى الليل متعثرا بين إفتراضات وخوف، وإذا كانوا سيصفوننا في هذه المكان القاحل، من سيمنع الجريمة؟ كانت تلك الليلة هي الأفظع في ليالي تازمامارت. بعد ذلك، سنتعود على البرد والمرض، والخصاص، والحرارة، والرطوبة، والحرمان... ليس كلنا. لم تعبر الأغلبية ليل تازمامارت الطويل، ليل سيدوم ثمانية عشر سنة، أي ستة آلاف وأربعمائة وأربعاً وثمانين ليلة، الواحدة ملتصقة بالأخرى مثل سبحة، لا نهائية للعار والبؤس الإنساني، ليل كان بمثابة سُبّة توجه كل يوم لوجه تاريخ الإنسانية.

في الغد، قام الحراس مجددا بنوبتهم الممجوجة والمشكلة من حركات آلية وإجرامية. قدمت وجبة الفطور، عصارة ماء سوداء تشبه بالكاد قهوة، وربع خبزة وخمسة ليترات ماء، الحصة اليومية. لكن بعد ذهاب الحراس، بقيت البوابة الرئيسية مفتوحة هذه المرة. ماذا يجري؟ هل سيسمحون لطبيب بالمجئ عندنا للكشف عنا وعلاجنا؟ أم هو الحلاق الذي سيأتي لحلق شعرنا وتهذيب لحانا؟ ربما هي لجنة مبعوثة من طرف القيادة العامة لمعاينة وضعنا، وسماع مطالبنا وتسجيلنا في سجل إداري؟ مضت ساعة كاملة من الافتراضات والتخمينات. ثم جاء الحراس أخيرا وأخذونا واحدا واحدا إلى الساحة. كانوا يتحققون من هوية كل واحد قبل أن يسلطوا علينا فلاش آلة تصوير يخطف البصر. إن صورونا، فلتَكوين استمارات ملَفٍّ لكل واحد منا بكل تأكيد، أي أنهم سيعاملوننا كسجناء لهَم حقوق. كانت تلكَ، بالنسبة لمعظَم الناجين الثمانية والخمسين من الانقلابين ضد الحسن الثاني، آخر مرة يرون فيها شمس بلدهم. كانت زرقة السماء صافية مثل زرقة البحر حين يكون بلا زبد، حين لا يكون أبيض، حين لا يكون غاضبا وحين لا يكون جائعا. بالنسبة للذين سيبقون في جحيم تازمامارت فهذه الصورة سترافق كل يوم خيالهم، وسنعثر عليها مجددا ثمانية عشر سنة بعد ذلك، في ظروف جسدية ومعنوية لضحايا المحرقة.

كان نظام السجن يقتصر على خبزة زنتها نصف كيلوغرام لليوم الواحد للرأس. وما يشبه قهوة سوداء في الصباح، وفي الغذاء وبشكل لا يتغير قطاني، أو أرز، أوفاصولياء صلبة أوعصيدة فول أو بضع حبات (بين عشرة وعشرين بحسب الحظ) حمص. وفي وجبة الليل: معجنات أو حساء. هذه المواد كانت تطبخ في الماء والحصص كانت دوما غير كافية لتغذية طفل. ثم ولمرة في الشهر أو الشهرين، كان من نصيب السجناء بضعة غرامات من لحم جيفة بخضر فقدت طعمها ، ومجرد قطعة عظم في غالب الأحيان، وخمس لترات من الماء الملوث للشرب ولتلبية كل حاجيات اليوم في مجال النظافة، الاغتسال، الوضوء، غسل الأسمال من حين لحين، وغسل الأواني، وتفريغ المرحاض... وفي أمكنة أخرى، يغير ماء المسبح كل يوم وعشب الحدائق اخضر دائما، كما هو عشب ملاعب الغولف حيث يرفه البورجوازيون الصغار والإنتهازيون وكبار القوم المرتشون عن أنفسهم.

دخلنا أسبوعنا الثاني بدون تغيير يذكر. كانت الحرارة الخانقة تجفف الجسم وتهرس العظام. الحرارة في تازمامارت اختناق حقيقي. كنا نختنق بين جدران زنازننا بكل ما في الكلمة من معنى. ثم، تستولي الرغبة في تدخين سيجارة، فجأة، على أجسادنا، سيجارة لتمضية الوقت، لتخفيف الضغط على أعصابنا، لتهدئة حنق الخصاص. نمشي عرضا وطولا في الزنزانة، واليدان ممدودتان لتجنب الاصطدام بالجدار. سيجارة، هذه المتعة البسيطة، كنا ممنوعين منها. كان تازمامارت مكان كل الفطام. ماذا يمكن القول عن الباقي؟ الحليب، الزبدة، المربى، اللحم، الفاكهة، الصابون، الجبن، الأسبرين، شفرة الحلاقة، العطر... صارت كلها استيهامات في رؤوس رجال ملعونين. رجال فقدوا طعم هذه الأشياء التي صارت تتراءى فقط في الخيال العلمي لا في الحقيقة البسيطة لأناس بسطاء. والجسم دفن كل صلة بالكماليات والرفاهية. أناس كهف، مثل أولئك الذين ذكروا في القران والذين نوَّمَهم الله عقودا. تدخين سيجارة، حتى المحكوم عليهم بالإعدام يكون لهم الحق في واحدة أخيرة، لا مساجين تازمامارت! كيف يمضي الوقت في تازمامارت؟ هناك أولا العادة التي اتخذت لها، أيضا، مكانا في الزنازن على إيقاع الدقائق، الساعات، الأيام الأسابيع، الشهور، والسنين. الذهاب لاكتشاف هذه الستة أمتار المربعة مثل علماء آثار يبحثون عن كنوز مجهولة. كان صبيب الإسمنت المسلح قد غطى الجدران من فوق لتحت.

اكتشف الأكثر ترميقا منا والأكثر قدرة على تدبر الأمور كنوزا لا تقدر بثمن في ركام الغبار: مسماران أو ثلاثة نسيت من طرف البناء، سنتيمترات من سلك حديدي عالق بالجدار استعمل في تثبيت الأخشاب لصب الإسمنت المسلح، أعواد طرف خشب... هذه الأشياء، التافهة بالنسبة لعموم الناس، ستصير لها أهمية كبرى بالنسبة لنا نحن الذين كان ينقصنا كل شئ وينقصنا ما هو أساسي.

كان الليل هو الوقت الذي يصعب إحتماله أكثر، حين نصير امام أنفسنا، مع ذكرياتنا، وصور الماضي التي بقيت عالقة، كان الليل يحرك المواجع، ويجعل من الدموع وسيلة للتخفيف عن النفس. تقليب وإعادة تقليب الذكريات في كل الإتجاهات، تذكر لحظات الفرح والأحزان، النجاحات والإخفاقات. بأي معجزة يمكن لطائرة بوينغ أن تفلت من هجوم عدة طائرات F5؟ بأي قانون للطبيعة يمكن للموت إنهاء مئات الناس إلا المستهدفين؟ ذكريات لا تحتمل. ثم التفكير خصوصا في هذا الجحيم اليومي الذي لا ينتهي، هذا المنفى بعيدا عن كل شئ. كيف يمكن التفريق بين الليل والنهار وتازمامارت كان ليلا بدون نهاية؟ انتظار المرور الأخير للحراس، الصوت الرهيب لمولد الكهرباء الذي يشغل، ثم بصيص نور الحبابات الذي يبقى أسير سقف الإسمنت المسلح وسقف القصدير المتموج الذي يقوم مقام سقف ثان. إنه الليل، بكوابيسه، وعقاربه، وحياته، وفئرانه، وصراصيره، وبقه..... الليل بحرارته الخانقة في الصيف وبرده المجمد في الشتاء. الليل، إذن، المؤثث بالكوابيس، حيث يصير الموت أكثر قربا، يتسلل للأعضاء المهدودة، والأحشاء الهشة، والذهن الوهن.

كانت أبواب الزنازن مصنوعة من حديد مقوى، وبها كوة بطول زهاء ثلاثين سنتيمتراً وعشرة سنتمترات عرضا مقفولة من الخارج بواسطة مشبك. في وسط الكوة فتحة لرؤية من في الخارج تحجبها واقية متحركة لا يمكن تحريكها إلا من الخارج. أخذت مسمارا حصلت عليه من خلال حملات اكتشافي، أدخلته من الفتحة ورفعت الواقية نحو الأعلى. وحصلت المعجزة وانفتحت الفتحة. جعلني المشهد الذي تراءى لي ارتعد من الخوف، ممر مظلم، محزن، مغطى بتشبيك حديدي، الأرضية خشنة وقذرة. وكان سقف القصدير المتموج والذي يئن ويتأوه بفعل الريح يجعل، في هذه الليلة، اللوحة كابوسية أكثر، كان الممر ممر الموت.

ثم، وإبان الأسبوع الثاني، حدثت المعجزة، فبمبادرة منه، ترك أحد الحراس، مقدم أول مسؤول عن البناية (كنا نجهل، آنذاك، أسماء الحراس) كوات الأبواب إبان توزيع

الأكل مفتوحة. كان هو أول من بدأ الحديث مع سجناء البناية. كان حزنه لرؤيتنا نعامل هكذا، بدون شك، صادقا. شجعنا على الاستماتة ووزع بعض السجائر. ولأنه كان في رتبة أعلى من رتب باقي الحراس، فقد كان يمضي وقته، يذرع، جيئة وذهابا الممر، ويداه مدسوستان في جيبيه دائما. حين يأتي قدر الحساء، يكلف نفسه عناء تذوقه فترتسم تكشيرة على محياه. وعوض التعبير عن الغضب أو الاستنكار، يبدأ هذا المنحط الذي اعتقدناه صادقا ينشد بشكل غبي وهو يصف الحساء بهذه الألفاظ: "حريرة، جارية، مسوسة!". لم يكن الرجل، الذي أبدى لنا بعض التعاطف قبل ذلك، يقيس الإهانة البالغة التي يلحقها بنا وهو يهزأ، بشكل واضح، منا، لم يكن ما يقدم لنا أكلا، بكل تأكيد، هذا الذي يؤكلوه لنا، لكن هل من اللازم مفاقمة معاناتنا بكلمات جارحة وسلوكات رعناء؟

في يوم آخر، فتح كوة زنزانتي وسألني:

– ماهو إسمك ؟

– القبطان حشاد، سيدي المقدم الأول، أجبته.

– أين تسكن؟

– في القنيطرة.

– ماذا يفعل أعضاء عائلتك؟

– لزوجتي صيدلية بالقنيطرة.

– أين توجد الصيدلية؟

– حي الرياض، صيدلية رياض.

– آه . عرفت.

ذهب بدون تعليق، كان هذا الضرب من المحادثة بين الحارس والسجين غير وارد. ماذا يجري؟ هل تلقى الحراس أوامر للتخفيف من الحذر؟

في الغد طرحت عليه بدوري السؤال الوحيد والضروري الذي بإمكاني طرحه في ذلك الوقت:

– أيـــن نوجد؟ سيدي المقدم الأول؟

جمدني جواب الحارس من الخوف.

– هنا، صغيري، أنتم في "زُكْ الأرضْ"، على بعد 80 كلم من ميدلت، هذه الحفرة الضائعة تسمى تازمامارت!.

أخذ سيجارة من جيبه ومدها لي. ولأن النبأ هدني فقد أجهدت نفسي في تحديد المكان. كنت أجهل وجود مكان باسم تازمامارت. واصل الحارس مراقبته الاعتيادية وهو يردد لازمته البليذة: "حريرة، جارية، مسوسة" ويداه مدسوستان في جيبي بدلته العسكرية. ولأننا تشجعنا بتصرفاته الطيبة نحونا رغم بلاهته، فقد جازفنا بطلبنا منه ربط إتصالات مع عائلاتنا. رفض وهدد بعدم فتح الكوات نهائيا وترك الأبواب مفتوحة إبان توزيع الوجبات إن عدنا لهذه الأفعال الصبيانية. عدنا للهجوم مرة أخرى، حين رأينا أن مزاجه يسمح لنا بأن نتجاوز معه بعض الحدود. لم يقل شيئا، مرت بضعة أيام ثم ذات صباح وزع علينا أوراقا وأقلاما، أمام اندهاشنا العظيم، وطلب ممن أراد أن يكتب لعائلته. لم يكتب المتشككون شيئا، وماذا لو كانت حيلة للإيقاع بهم؟ هل هو متواطئ مع المدير؟ هل نقل له نيتهم في إخبار عائلاتهم بالمكان الذي يتواجدون فيه، والظروف التي يعيشون فيها؟ هل أراد أن يضبطهم متلبسين؟ رسالة في اليد هي حجة دامغة للإدارة لتشديد النظام أكثر وتبرير التصرف الحيواني للمدير. البعض استسلم بسرعة للخوف. وخاطر البعض الآخر بالكتابة، قائلاً، قبل كل شئ، لم يعد لنا ما نخسره. وهكذا، يوم 20 غشت 1973، كتبت أول رسالة لزوجتي من "زُكِّ الأرْضِ". ثلاثة عشر يوما فقط بعد اعتقالنا في تازمامارت.

أول رسالة خرجت من تازمامارت

الإثنين 20 غشت 1973

عزيزتي ،

أغتنم هذه الفرصة الصغيرة لأنقل لك أخباري. أنا دوما بين يدي الله الذي أؤمن به ولدي دوما أمل كبير في جلالته. سيفكر فينا ذات يوم إن شاء الله.

غادرنا السجن المركزي إلى سجن عسكري أخر. يوجد في مكان ما بنواحي ميدلت (80 كلم تقريبا) لا صلة لنا في هذه اللحظة مع العالم ونتمنى كل يوم أن يتغير الوضع. تركنا كل حاجياتنا بالقنيطرة والنظام قاس هنا.

إن السيد الحامل لهذه الرسالة قد أبدا طيبة نحوي بقبوله القيام بهذه الخدمة لي. إنه أسمر قامته طويلة بعض الشئ. الوجه عريض ومبقع. ويحمل طاقم أسنان. كل الزملاء بخير. أنقلي الخبر.

حشاد

كان المقدم الأول خربوش، الملقب ب"نونورس" بسبب ثخانته، ينحدر من سوق الأربعاء، وهي قرية صغيرة على بعد خمسين كيلومتر من القنيطرة، رغم هوسه في تذكير السجناء برداءة حريرتهم فقد كان ودودا جدا ومقبلا على الحياة بنهم. فهو لم يكن يتردد في خرق تعليمات المدير ويترك الكوات مفتوحة من حين لحين، ويترك الأبواب مفتوحة إبان توزيع الأكل. ذهب خربوش في عطلة وغاب لبضعة أيام، قسى فيها نظام السجن عن السابق. عاد بعد نهاية عطلته وجلب أجوبة عن رسائلنا، ومؤن، وبعض

الأدوية وقليلا من النقود. ساد جو من الفرح الغامر البناية. فلأول مرة تلقى البعض أجوبة من عائلاتهم وربطت صلة وصل مع الخارج. كان يتوجب الحفاظ على هذه الفرصة. والتحلي أيضا بكثير من الصبر والحذر. كان هذا الاتصال الأول مع العائلات حيويا بالنسبة للعائلات فهي تعرف الآن أين يوجد أبناؤها. ولأول مرة، أيضا، منذ أن اختطفنا من السجن المركزي بالقنيطرة ذقنا بعض الأشياء غير الأكل الرديء الذي يعطى لنا في تازمامارت، تلك أل"حْرِيرة، جَارْيَةْ، مسُّوسة!" ورغم الكمية غير الكافية للمواد الغذائية فقد حرصنا على تقسيمها بيننا. بالنسبة للأدوية اتفقنا على إيثار أكثرنا مرضا ووهنا. وهكذا سادت روح تواطؤ وتضامن بيننا في هذه البناية.

في 20 شتنبر 1973، كتبت وبعثت رسائل أخرى، وبما أنه لم يعد هناك شك في صدق الحارس، فقد كتبت رسالة طويلة لزوجتي أخبرها فيها بأوضاع مجموعتنا في السجن الرهيب وأسر لها بشكوكي وقلقي. ولأنه لا يقرأ ولا يكتب فإن المقدم الأول خربوش لا يمكنه أن يصادر البريد المزعج.

الخميس 20 شتنبر

عزيزتي،

لا يمكنك أن تقدري مدى سعادتي حين وصلتني على كلمتك القصيرة.

ها أنت ترين عزيزتي، فوضعيتنا الحالية غريبة جدا. فمنذ أن وصلنا إلى هنا وضعونا في زنازن ومنذئذ لم نر لا السماء ولا الشمس. النظام قاس جدا: باب الزنزانة يفتح ثلاث مرات في اليوم لإعطائنا الأكل والقليل من الماء في سطل يسع خمس لترات، لا صابون، لا حلاق، لا دواء، الأغطية مجرد لحافين. نحاول بكل الطرق الكلام مع مسؤول في شأن أوضاعنا لكنه يرفض المجئ لرؤيتنا. شئ واحد يزعجنا كثيرا وهو أن هذه الزنازن مظلمة ولا إنارة فيها ومنذ مجيئنا هنا نعيش في الظلام. بعض الأشعة تتسرب في النهار من خلال كوات في الجدار، مما يسمح لنا، بالكاد، بتمييز الأشياء.

كل الزملاء بخير: الوافي، الطويل، بلغي الأمر إن كان ممكنا. والله في عونك.

حشاد

في رسالة أخرى مؤرخة ب 2 أكتوبر 1973، قلت لزوجتي بأنه رغم القلق الذي يمسك بتلابيبي، حاولت أن أبقى هادئا لأنني أعرف بأنه لا ينفعني في شئ أن أغضب. أصلي كثيرا طالبا الرحمة من الله الذي وضع خربوش في طريقي. وقد أفهمني هذا بأن الأمل قائم لكن كم كنت بعيدا عن حقائق عالم الظلم والنفاق هذا، لحسن الحظ.

بقيت هذه الرسالة وأخريات بدون جواب. لم نكن نعرف، لكننا لم نتأخر في معرفة أن رسولنا انكشف أمره. فتش من طرف زملائه، واعتقل من طرف المدير في زنزانة خارج البناية: لم نره أبدا بعد ذلك.

كنا مثل حيوانات في قفص لا تملك إلا استثارتها المجنونة. ماذا سيفعل بنا وقد كتبنا عن المكان الأكثر سرية في العالم؟ أي إنتقام سنتعرض له من طرف المسؤولين؟ وبما أننا نعرف ضراوة النظام، فقد كنا نبتهل ليل نهار طالبين من الله أن يحفظ عائلاتنا وأطفالنا.

مرت الأيام دون أن تحمل معها الجديد لإبتذال أيامنا. وبعكس كل التوقعات لم نخضع لأي انتقام. لم يعد اسم المقدم الأول خربوش يذكر أبدا. لكن، وبعد خمس سنوات في 1978، ظهرت الأجوبة التي أعطيت ل"نونورس" من طرف عائلاتنا، بما يشبه تعزيما سحريا وأعطيت لأصحابها من طرف محمد الشربادوي، وهو حارس آخر لقبناه ب"جيف". اختلسهم من خربوش في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يفتش وخبأهم عنده، ماحيا بهذا الحجة الدامغة ضد الرجل الذي كان صلة وصلنا بأهلنا.

سفر لنار جهنم

"إن عاقبنا من أجل ذواتنا وحدها، فإننا قساة جدا وأشرار جدا"

ديدرو

مرت الأشهر الثلاثة الأولى بأكثر ما يمكن من قلق وحزن و لم تسجل هناك خسائر في الأرواح الإنسانية. فلأننا وصلنا في حالة جسدية جيدة فقد كانت أجسادنا تحتفظ بمدخرات من الدهون، والقوة، والشباب... أعاننا الحارس خربوش بشكل كبير لكن وحين أوقف وسجن من طرف المدير، ضاعف الحراس الآخرون من انتباههم وعنفهم اتجاهنا رغم أن ظروف اعتقالنا صارت فظيعة. فكل حارس كان على يقين أن ما وقع لزميلهم كان بسببنا وأنه قد يتعرض هو أيضا لنفس العقاب. بين أكتوبر 1973 و يوليوز 1978 سنعيش أسوء سنوات تازمامارت.

حتى الحراس الأكثر دماثة تحولوا بسرعة إلى حيوانات بدون قلوب تنفذ بحرفية تعليمات المدير الذي كان يمضي أيامه في السكر مع الأوباش قرب الوادي. كانوا ينتقمون منا بما تحمله الكلمة من معنى، يسبوننا، يهددوننا، يضربوننا أحيانا بعصي المكانس. والخدمة التي كانت من قبل غير محتملة فقدت كل خاصية إنسانية. كان الحراس يصرخون، يصفقون الأبواب، يتزاحم في أفواههم السباب طيلة الوقت، يهددون أجسادنا المجهدة بعصيهم، يهينون الأكثر مرضا أو الأكثر تلكوءاً، وفي كل وجبة كانوا يظهرون غضبهم أو مزاجهم السيء. كان ذلك بداية حقيقية لنزول للجحيم. واحد فقط حافظ على سلوك قويم، لم يكن خيرا ولا شريرا، لا يلحق أذى ولا يجرح كبرياءنا، كان يؤدي عمله وينسحب بدون حماس.

انحطت معنوياتنا بفعل هذه التصرفات اللاإنسانية. قررنا البدء في إضراب على الطعام يدوم ثمانية أيام لإسماع مطالبنا للمدير وإثارة انتباهه لسوء معاملتنا من طرف رجاله. دام الإضراب أربعة أيام و لم يؤدي لأي نتيجة ملموسة. وأوقفناه بنصائح من محمد، أحد الحراس الودودين في هذا المقتل، فحتى إن كان لا يساعدنا فهو لم يكن يجرح مشاعرنا:

– لا تتعبوا أنفسكم. لا أحد سيأتي لرؤيتكم، وستموتون من أجل لا شيء. أعطى المدير أوامره: لا ينبغي إزعاجه إلا لإخباره بموت أحدكم، باستثناء هذا، لا يريد سماع أي شيء، حافظوا على قواكم، ستحتاجونها هنا للوقت الذي بقي لكم!.

بداية 1974، وصل السجناء المحكوم عليهم بثلاث سنوات إلى نهاية المدة، ليلة الإفراج المفترض عنهم، ودعهم زملاؤهم في البناية من خلال ثقوب الجدار وطلبوا منهم زيارة عائلاتهم لإخبارهم وإخبار الرأي العام. كان الأمل ما يزال ممكنا. توالت الأيام بنفس الكآبة ولاشئ حدث. تشاجر صدقي عبد الرحيم، المحكوم عليه بثلاث سنوات، مع أحد الحراس وصاح مطالبا بإطلاق سراحه:

– بكم من سنة حكم عليك؟ سأله الحارس وهو يتفرسه من خلال الكوة.

– حكم علي بثلاث سنوات، وقد انقضت.

– هنا لا ينبغي قول ثلاث سنوات، ينبغي قول المؤبد: رد الحارس بنبرة إزدراء، وهو يغلق الكوة بعنف.

أرعبنا هذا الجواب. كيف يمكن ذلك؟ إن اختطف السجناء ووضعوا في سجن سري فلتعريضهم، بدون شك لنهاية فظيعة. بعيدا عن الكل، وخصوصا بعيدا عن الحياة. منذ أن كنا هنا، لم نتلق لا زيارة عائلاتنا، ولا زيارة طبيب أو مسؤول و لم نخرج أبدا للساحة وفقدنا مفهوم الدّفْء والنور. إنه مكان اختير، إذن، من طرف المسؤولين لتعريضنا لأقصى وأوخم العقوبات. أحد ما وراء كل هذا. إنه، إذن، انتقام برمج في مقام عال. وإن برمج فله، بكل تأكيد، دلالة سياسية. عقاب من أجل إعطاء العبرة. على الذين يفكرون في قلب النظام أن يفكروا بجد في التبعات قبل المبادرة. كانت كلمات الدليمي في المحكمة تنبؤية "ثلاث سنوات أو عشرون الأمر سيان".

فهمنا إذن، على الأقل، الحسّاسين منا، اللّعب بالكلمات والمزاح الثقيل، بأن لا حل أخر، فالكفاح هو الوسيلة الوحيدة للبقاء أحياء. فمنذ الآن ينبغي إقناع النفس

بأن إطلاق سراحنا صار أطوبيا لا إمكانية من إمكانيات الحياة. الموت في تازمامارت أو التشبت بالحياة، مهما كلف ذلك. آنذاك كانت البناية تعيش جلبة لا تحتمل، الكل يتحدث في نفس الوقت والذين أتموا مدة محكوميتهم و لم يفرج عنهم كانوا يصيحون منددين، بدون توقف، بالظلم، يسبهم البعض ويأمرونهم بالصمت. فإلى جانب البرد والحرارة، والمرض والباقي تملك الجنون رؤوس الرجال. كانت الأصوات تتردد في الممر مثل الرعد. كل واحد يريد اسماع صوته للآخرين. ضاعفت هذه الجلبة الضغط المسلط علينا وشوشت على هدوئنا، حتى أن أعصابنا صارت مشدودة مثل وتر قوس على وشك الانفلات. يوما بعد يوم صار الجو في البناية لا يحتمل، وتوجب تنظيم، وبسرعة، كل هذا، وإلا جننا كلنا وبلا رجعة. بعد عدة تجاذبات نجحنا في تهدئة الخواطر وفي احترام نظام اتفقنا عليه.

كان البرنامج هو التالي:

1. كل صباح ومع التباشير الأولى للصباح، وبحسب الدور، يصحى أحد الزملاء الآخرين بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ثم يحيي الجميع متمنيا حرية وشيكة للكل.
2. محادثة حرة، ومن زنزانة لزنزانة حتى مجيء الحراس لتقديم وجبة الفطور.
3. صمت تام في حضور الحراس. ينبغي إصخاء السمع لجمع نتف الأخبار من خلال لغو الحراس. وهكذا كان المساجين على علم بثمن المواد في السوق، مثلا، حالات تمدرس الأطفال، المشاكل الاجتماعية أو العائلية للناس.
4. بعد الإفطار، عودة المحادثة والتعليق على المعلومات المستقاة من لغو الحراس.
5. برنامج تثقيف وتعليم. من يعرفون آيات قرآنية يتلونها بصوت مرتفع ويردد الآخرون وراءهم حتى حفظها. ودروس الإنجليزية والإسبانية كانت تقدم من طرف العسكريين المنحدرين من الشمال أو الطيارين الذين قاموا بتدريبهم في الولايات المتحدة الأمريكية.
6. كانت تبرمج حصص أخرى، فبإمكان كل واحد أن يحكي فيلما شاهده. أو حكاية سمعها أو رواية قرأها. وكانت تبرمج أيضا حصة غناء أيضا. كان لأحمد المرزوقي صوت طربي وتحول إلى "بلبل" البناية، وبصوته كان يمتع المستمعين وهو يغني أغاني عبد الوهاب، أم كلثوم، فريد الأطرش وعبد الحليم

حافظ. كان أيضا مرتلا كبيرا للقرآن. كانت حكايات مغامرات الحب من اختصاص محمد الزموري وعبد الكريم السعودي. وتميز الرايس بحكايات مثيرة لها عُقَد وكانت قدرته على التشويق تتركنا مشدودين لحكيه.

7. بعد ساعة من الغذاء. قيلولة إجبارية حتى الثالثة بعد الظهر، آنذاك تستأنف المحادثات ودروس التثقيف والتعليم حتى مجئ الحراس لتقديم الوجبة الأخيرة.

8. بعد المرور الأخير للحراس، محادثات بأصوات خفيضة حتى التاسعة ليلا ثم النوم حتى الصباح.

كان هذا هو برنامجنا طيلة ثمانية عشر سنة بتازمامارت. وعملنا على احترامه بدقة وصرامة حتى الإفراج عنا. وبحسب شهادات الناجين من هذه البناية فهذا النظام ساعدنا في البقاء أحياء في جحيم السجن. حفظنا القرآن عن ظهر قلب. استفدنا دروس للإنجليزية والإسبانية. قضينا ساعات ونحن نلعب الشطرنج بتحويل لباب الخبز لبيادق. كان اللاعب يعلن تقدمها من خلال الكوة، كانت البيادق السوداء مجسدة من خلال لباب خبز مغموس في القهوة. تعرفنا على بعضنا وكل واحد كان على علم بحياة زملائه في أدق تفاصيلها. هكذا اقتربنا من بعضنا وتمكنا من تمضية الوقت في أشياء مفيدة. ورغم اليأس الذي يسكن جدران الزنازن، كانت تلك طريقتنا في الحفاظ على بصيص أمل بداخلنا. طريقتنا في الكفاح، ونحن نفكر بأن كل لحظة في الحياة مهمة. وألا نستسلم للفراغ، للفشل، حتى في الأوقات العصيبة. الحياة تستحق، وعلينا أن نبرهن على ذلك بالحكمة والتواضع. الأمل شكل من أشكال التواضع، ربما هو الشكل الأكثر اكتمالا، لكنه الأكثر تكتما، الشكل الذي يقربنا من أنفسنا.

نجح، إبان السنتين القاسيتين من الرحلة السوداء أحد السجناء (السعودي) في إدخال قرآن وأربع بطاريات للراديو بفضل تواطؤ اللويز، أحد الحراس، وذات يوم من 1976، أسر لنا هذا الحارس نفسه بما يلي:

– اعتبروا أنفسكم سعداء، قال لنا، في البناية الأخرى الأموات لا يحصون.

بفضل القرآن، جودنا، حفظنا كتاب الله، وتمكنا من متابعة الأخبار من خلال راديو صغير. للأسف غادر اللويز البناية "أ" سنة 1976. ولأنه لم يتسنَّ لنا تعويض البطاريات، فقد قضى الراديو نحبه بعد أسابيع، فوجدنا أنفسنا منفصلين مجددا عن العالم الخارجي.

زمن الاختراعات الكبرى

كيف يمكن الاختراع أو الابتكار من لا شيء أو ما يقارب اللاشئ؟ فما أن تتحرر من إكراهات اليومي حتى كان على عقل السجناء أن ينشط أكثر لمواجهة ظروف قصوى للحياة. عليه أن يجد حلولا للبرد، لغياب النظافة، غياب النور...؟ كيف يتم رتق الأسمال؟ بأي شئ الخياطة أو قص الشعر؟ كيف يمكن مضغ حبات العدس أو الفاصولياء و لم تعد لنا أسنان وليس بوسعنا إضاعة فتات أكل؟ كيف يمكن تدبير اليومي ونحن نفتقد كل شئ؟ كيف نواجه المرض بدون دواء؟ كيف يمكن الوقاية من كل ما يضر بالصحة النفسية والجسدية لكي نقول في يوم ما للآخرين:"أنا إنسان!" هذه انشغالات لا قيمة لها بالنسبة لمن يواصلون الذهاب لعملهم في كل صباح بعد تقبيل أطفالهم، ويخططون لعطلهم، ويقرأون جرائدهم في شرفة مقهى... بالنسبة لمعذبي تازمامارت، فأبسط مشكل له أهمية كبرى وينبغي إيجاد حل له. لكي ننجو، كان ينبغي مواجهة شروط الموت البطيء الذي وضعنا فيه.

بعون من الحارس خربوش تمكنت من تشكيل محفظة صغيرة للعمل تحوي مقص أظفار، مقصا للأطفال في ملكية بنتي هدى، بضعة أسلاك حديدية، مسماران، قلم رصاص، ورق أليمينيوم، حجرة صغيرة، غطاءا علبتي سردين. في تازمامارت تشكل هذه الأشياء كنزا لا يقدر بثمن. توجب أولا فتح الكوات من الداخل حتى يتسنى الكلام مع الزملاء وإفساح المجال لقليل من هواء الممر للدخول إلى هذا الفرن الحارق. لم أجد صعوبة في القيام بهذه العملية، أنا مرمق البناية. فقد استفدت من اللحظات التي يترك فيها خربوش الأبواب والكوات مفتوحة إبان توزيع الوجبات. ومررت عقدة سلك على رأس اللسان المعدني الذي يصلح لرفع المشبك ومررته من قاعدة الكوة إلى داخل الباب. وما أن ذهب الحراس حتى كان يكفي سحب السلك نحو الأعلى

لفك المشبك. وما أن تتحرر من مشبكها حتى يتبقى دفع الكوة لتنفتح على الممر. كل المساجين استفادوا من هذا النظام حتى اليوم الذي كشف فيه السرجان شاف بن سعيد والذي لا قلب له اللعبة وأخبر المقدم الأول بن إدريس المسؤول عن البناية "أ". وبدون إضاعة الوقت حبس هذا الأخير الأقفال بسلك نحاس، مانعا بهذا الرجال من تنفس الهواء القليل الذي يوجد في الممر. منذ هذا اليوم لقبنــاه ب"السلك" أو " Wire Man" (رجل السلك بالإنجليزية) لكننا استمرنا كثيرا في هذه الكوات التي صارت حيوية لبقائنا، لذا لم نيأس وخضنا معركة الكوات التي دامت ست سنوات.

كيف يمكن الإفلات، مرة أخرى، من يقظة الحراس؟ كيف يمكن فتح الكوات دون إثارة الشكوك؟ ذات ليلة، وهم يؤدون حركاتهم الآلية البليدة نسي الحراس إغلاق قفل مجاهيد، ما أن ران الصمت على المكان حتى تسلل صديقنا للممر وفتح كل الكوات من الخارج واقترح كسر المرود وتعويضه بآخر زائف. وهذا ما تم لكن العملية كانت مكلفة فقد كان يلزم قطع طرف من قصدير علبة سردين، طيه وضربه بحجرة على المصطبة لتسويته. ثم توجب إعطاؤه لون حديد الباب وتسويته من جهة وثقبه من الجهة الأخرى ومنحه مشبكا. وأخيرا يربط المرود بسلك يمنعه من السقوط في الجهة الأخرى. لفتح الكوة كان يكفي دفع المرود الزائف نحو الخارج مع الاحتفاظ بالسلك، فتنفتح الكوة. أما بالنسبة لإغلاق الكوة فكان يكفي سحب السلك الذي يجذب المرود إلى مكانه وإدخاله في الثقب. وللانتهاء من الأمر كان يجب رد المشبك وسحب السلك. تتطلب إنجاز عمل شاق في ليلة واحدة بالنسبة لتسعة وعشرين كوة وفعل ذلك في الظلام. أنجز العمل وكل الزنازن كان له مرود زائف.

اشتغل النظام لمدة طويلة، ثم وفي يوم ما، تنبه السادي بن سعيد إلى اللّعبة وأخبر، مرة أخرى، رئيسه بن إدريس. ارتبك هذا وأخبر مدير السجن الذي اضطر لوضع رجله للمرة الثانية في البناية. عنفنا، وهددنا بكلمات نابية:

– كسرتم المراود، وسأكسركم أبناء العاهرات. قال بصوته الذي تردد في الممر مثل صوت الموت.

في الغد عمد بن إدريس إلى تلحيم المراود مع الأبواب بواسطة نافثة النار. ولحسن حظ البعض، فأنبوبة الغاز فرغت إبان العملية، فاكتفى السادي بن إدريس بوضع مراود جديدة للأبواب الأخرى وتبثها من الخارج ببراغي.

مرة في العام أو العامين (الأمر يتعلق بمزاج وكرم المدير) كانوا يعطوننا غطاء أو غطاءين، وقميصا كاكيا، وسروالا وصندالا بلاستيكيا. كان الحراس يأخذون الأشياء القديمة. ولأن بعض السجناء قد اختبروا فصل الشتاء الطويل والقاسي فقد كانوا يحتفظون بنصف الأغطية لإستعمالها بعد ذلك. طيلة سنوات نجحوا في خياطة، ومن خلال الأسمال ألبسة إضافية لحماية أجسادهم المتعبة بالبرد. كل شئ كان قابلا للتدوير وكان نافعا. حتى خصلات الشعر، حتى الخيط الصغير الذي ينفك من لحاف أو أدنى فتات خبز كان يستعمل لحشو الأذنين أو الثياب لتجنب البرد. كانت الإبرة ضرورية لمثل هذه الأشغال المنزلية، تخييط الثياب. وبما أنني حصلت على سلك نحاس كان يستعمل في تثبيت مشابك الكوة فقد صنعت إبرة لكل سجين. كنت أسوي السلك بالحجرة الصغيرة وبمقص الأظافر كنت أنجح في خلق ثقب في طرفه ثم أحك الطرف الأخر بالأرضية الإسمنتية حتى يصير حادا. أجمع الزملاء على أن بوحيدة، الذي ينتمي للطيران كان هو أفضل خياط في البناية.

كبزال: بصيص نور في الظلام

لكن الابتكار الذي كان أكثر أهمية بالنسبة لنا هو "القبض" على النور. كأننا في العصر الحجري! بمرور الأيام، انتبه إنسان الكهف الذي كنته بأن إنارة زنزانته تتغير بتقدم النهار. حوالي الثانية بعد الظهر كان بإمكاني تمييز الأشياء بعض الشيء والتحرك بدون عناء. وفي هذه اللحظة من النهار كانت نقطة نور تستقر في أعلى طرف الثقب المفتوح في السقف. ثقب له قطر عشرة سنتيمترات. نقطة النور هذه كانت تتقدم قبل أن تختفي كلية في أقل من عشر دقائق تاركة الزنزانة تغرق مجددا في ظلمة كثيفة. أعملت تفكيري ووصلت للخلاصة التالية: إن كان هذا الضوء يتسرب من السقف المزدوج فيتوجب القبض عليه ولمدة أطول بفضل "شيء عاكس". بحثت في أسمالي، في ركام التراب والبقايا، أعطاني غطاء علبة السردين الذي حافظت عليه كما يحافظ على شيء ثمين منذ 1973 فكرة استعماله كوسيلة لعكس النور. وبفضل عمل بدون كلل نجحت في تحويل قطعة الحديد إلى "لاقط". كانت لدي فكرتي من وراء هذا فإن نجحت في تثبيت النور في غطاء الحديد يمكنني إنزاله إلى زنزانتي. ما أن جهزت القطعة حتى جعلت فيها سلكا على شكل مشبكا. وضعت اختراعي جانبا وانتظرت. كانت تنقصني وسيلة لبلوغ السقف وتمرير جهازي من الثقب المحفور في سقف الإسمنت المسلح. للوصول له تلزمني عصا أو غصنا طويلا شيئا ما. أين أجدهما؟ مرة في الأسبوع كان السجناء يتلقون غصن دوم لتنظيف الزنزانة. في كل مناسبة انتزع عودا من المكنسة. وفي غضون شهور كان لي ما يكفي من الأعواد لصنع عصا طويلة. بسلك الغطاء ربطت أعواد الدوم واحدا واحدا قبل تثبيت الغطاء في العصا، ثم انتظرت الوقت المناسب لكي أختبر نتيجة اختراعي. ذات يوم طويت ألحفتي طيات عديدة ووضعتها في وسط زنزانتي قبل أن اصعد فوق الكومة لأبلغ السقف. وبحرص

رفعت الغطاء المشدود في طرف العصا ونجحت في تمريره من الثقب. وجهت ببطء لاقطي يسارا يمينا، أعلى تحت. أعدت العملية عدة مرات. وكدت عدة مرات أن أفقد التوازن. حاولت أيضا وأيضا معدلا وضعيتي أو الاتجاه في كل مرة. وحدثت المعجزة، نزلت نقطة نور بقطر عشرين سنتيمتر إلى زنزانتي. فرحت فرحا جنونيا. لأول مرة منذ سنوات صار بإمكاني تمييز أصابعي وألوان الأواني البلاستيكية التي أستعملها، الإبريق والسطل كانا أحمرين، والصحن أصفر، صار بإمكاني أيضا تمييز حفرة المرحاض والمصطبة التي أتخذها سريرا. كنت أقفز في زنزانتي كصبي، وتغمرني السعادة لأنني نجحت في القبض على نور النهار، أنا الذي كان يكفيني الضغط على زر لإنارة ما يحيط بي. هذا النور الذي أرادوا أن يحرمونا، أنا وزملائي، منه، نجحت في ترويضه. لمعذبي تازمامارت ذكاء وهم يعرفون كيف يستعملونه، هكذا دخل النور لأول مرة إلى هذه المقتلة وكسر ظلماتها.

لكي أُجوّد اختراعي، سحبت لاقطي وعملت على تكسية غطاء علبة السردين بورق أليمنيوم. كانت النتيجة أخاذة. تزايدت كثافة النور لدرجة أنها أعطتني الانطباع بأنني تحت حبابة نور. ضرب من الجنون، كان الأمر رائعا بكل بساطة. إن حصلت على مرآة فسيكون اللاقط جيدا. علي الآن أن أكتفي بما في يدي. لم أتوقف عن حمد الله الذي يسر لي هذا الإنجاز الذي قلب حياتي في جحيم تازمامارت.

بعد عدة محاولات كللت بالنجاح، أعلنت النبأ لزملائي من كوة زنزانتي. ولأنهم اندهشوا لهذا الإختراع الجديد فالكل أراد أن يعرف كيف يصنع هذا الجهاز. انتقلت أطراف الكارتون وورق الأليمنيوم، وأعواد الدوم... من زنزانة لزنزانة بفعل نظام ربط أعددناه بخيوط الألحفة وكنا نمرره من كوة لكوة. التقطت أول نقط النور من طرف بعض المساجين. ونظرا لنقص الوسائل والمواد فقد لزمت سنة من الصبر لتمكين كل زنزانة من هذا الجهاز. مرآة صغيرة ستكون جيدة لهذه العملية. سنوات بعد ذلك سيكون لكل زنزانة "لاقطها" بمرآة. وهذا ما قوى جودة النور وسمح للرجال بالكتابة ورؤية ما يأكلون، وتمييز حاجياتهم وخصوصا ملاقاة النور مجددا لكي لا يصابوا بالعمى. ولأننا كنا مفصولين عن العالم وكان يتعامل معنا كنفايات بشرية، فقد تشبثنا بمنبع الحياة هذا، الذي كان يثبت لنا بأن العالم الخارجي مازال موجودا، وأن النور والشمس لم يهجرا نهائيا عالمنا. كانت هذه الأداة بالنسبة لنا

أثمن من الأكل بكثير، فهي تمثل الأمل في مكان اليأس هذا. يرتبك الناس العاديون حين يكون هناك عطل في التيار الكهربائي. هل يمكن أن نتخيل ثمانية عشر سنة من الوجود في الظلام المطلق، ليل بلا نهاية؟صار هذا الاختراع البدائي حيوياً بالنسبة لنا، بل صار منبع حياة بالنسبة لنا نحن المحكوم علينا بليل أبدي وموت بطيء، فظيع، قُرِّرَ من طرف أفراد لا يقلون فظاعة، وأكثر ضراوة وأكثر ميكافيلية.

بعد ترويض نور النهار، بدأ مخترع ما يسمى "كبزال" يعيش إحباطا ما أن يهبط الليل. أمضيت ساعات ثم أياما وأنا أفكر في أنجع طريقة لإستغلال إمكانيات اختراعي إلى أقصى الحدود. كانت حبابة نور السقف المزدوج تبقى مشعلة حتى التاسعة ليلا تقريبا، وقت إطفاء النور. إن كانت حبابة النور تعوض ضوء النهار فلماذا لا تستغل هي أيضا؟ دامت المحاولات بعض الوقت ثم التقطت ذات ليلة نور الحبابة بدوره، مثل إكليل سعادة. رقص رجل الكهف في أسماله، بكى من السعادة. قفز برجليه المهدودتين بالبرد، شكر ربه من خلال صلاة طويلة، نادى اصدقاءه وأخبرهم بالنبأ السعيد. كانت السعادة غامرة، فبفضل الذكاء الإنساني دخل نور الكهرباء أمكنة هي الأكثر ظلمة والأكثر سرية في العالم. مكان وحدهما الحقد والموت كان لهما حق الذكر فيه.

وبما أن المساجين كانوا قد إتفقوا على إستعمال سنن بينهم ليخدعوا يقظة الحراس، فقد كان من الضروري إيجاد إسم لهذا النظام. اقترحت إسم "كبزال" ووافق الآخرون. ذات يوم حكى لنا الزميل الزموري، طرفة. كان طالبا ضابطا بالأكاديمية العسكرية بمكناس، وفي أحد الأيام دعا هو وزميل له في الدفعة فتاتين لتناول قهوة. طلب نادل المقهى من الفتاة الأولى ما تحب تناوله، فطلبت قهوة بالحليب وحلوى بالشوكولاطة، والثانية طلبت قهوة و"كبزال". فلأنها كانت معربة فقد أرادت البنت التباهي أمام الشابين وجعلهما يعتقدان أنها تتكلم الفرنسية بطلاقة. فعوض قول "كعب غزال" فرنست الكلمة. وهكذا حمل اختراعي اسم "كبزال" ثم صار الاسم إشارة للحذر. فما أن يصيح أحدنا "كبزال" فعلى الآخرين أن يواجهوا خطرا محدقا. فبخفة عليهم سحب كنوزهم قبل فوات الأوان. كان الحراس يصعدون إلى السطح لتغيير حبابة نور أو قطعة من السقف إنتزعها الريح، ويدرعونه ليصلوا للمدخل الذي يؤدي لسقف الزنازن. يحدث هذا عادة في وقت توزيع "الوجبات". مع أول صيحة "كبزال"

نسترد أجهزتنا لكي نتجنب مصادرة كارثية. لا يفهم الحراس صياحنا فيعتقدون أننا جننا. وأخيرا وما أن يبدأ السجناء في الصياح "كبزال" لإعطاء الإنذار حتى يرافقنا الحراس صائحين بدورهم "كبزال".

منذ ذهاب خربوش صار الشعار هو نفسه: سر أو مت. لم يكن لكل هذا الحقد معنى. وكان يحدث أننا نأسف لكوننا لم يحكم علينا بالإعدام ونقتل مثل الباقين. لا معنى لهذا، ففي اللحظة التي لم يعد يرانا فيها أحد، ولا علم لأحد بحالتنا، فهذا لا يفيد في شيء. فلماذا، إذن، هذه الضراوة؟ هل يريد الدليمي أن ينتقم للقصر الذي كدنا أن نسقطه في محاولتين، أم أنه ينتقم منا لأننا فشلنا في ذلك؟ لا شيء كان ينبئني بتحسن وضعيتنا. في رعب نار جهنم، كان الكبزال يمثل بصيص أمل. أرادوا منعنا من رؤية الشمس وحرماننا من النور. نجحنا في القبض على النور وإنزال الشمس إلى الزنازن. إن عبقرية الناس لا حدود لها، والضرورة تعطي لخيالهم قدرة كبرى لإيجاد ما يحفظ الحياة وما ينجي. انضاف لنا سجينان ظرفيان: الشمس والنور.

دخل كبزال أبجديات المعجم المشفر الذي يتداوله السجناء فيما بينهم. ضمن قائمة واسعة من سنن. وبالنسبة لنا نحن الذين كان علينا أن نملأ حياة كاملة، فقد عمدنا لتلقيب كل الأشياء. فملك المغرب لقبناه "باربارو" ورئيس الجزائر صار "الفا" وفرنسا "فوكستروت" وهولندا "زبيدة" (بسبب شهرتها بالزبدة) وأعطينا لملك السعودية لقبا له علاقة مع أنفه الطويل "بونيف"، والانقلاب سميناه "خرابيجو" والبرلمانيين "مسامر الميدة" و"الفريخ الأول" يعني الوزير الأول، والوزراء "الفريخات"، والمغرب يسمى "خرشاش". فجملة مشفرة من قبيل: باربارو دخرشاش غاند يليجي ماي سلوبي مع مسامير المايدة غانديليجي درتيشو دبل هومبري، تعني في تازمامارت: ملك المغرب اجتمع مع النواب البرلمانيين وتحدثوا حول حقوق الإنسان.

أجساد شابة في زنازن مظلمة جدا

بمرور الأيام فهمنا بأن القدر اختار لنا نهاية فظيعة، موت يسير بنا إلى ما وراء الموت. بما أن على كل سجين أن يموت عدة مرات في الدقيقة الواحدة طيلة حياته قبل أن يختفي نهائيا. يموت في معاناة قصوى، احتضارات كريهة، لا يمكن وصفها، لكنها، وأساسا، لا إنسانية. موت ما وراء كل الميتات العادية... كان الموت الذي اختير لنا خاصا، يذهب إلى ما وراء كل الحدود المتخيلة، حادثة سير، أزمة قلبية، سرطان، إلى ما وراء حدود ما هو بشري. على كل لحظة أن تكون لحظة موت. قتلنا بالتقسيط في كل لحظة وعلى مهل، وبأكثر ما يمكن من بطء، مثل حيوانات مختبر. قياس قدرات صمود كل فأر مختبر، والذهاب دوما أبعد و أبعد في ما لا يسمى، في الأشياء التي لا تقال ولكنها تعاش في الجسد والرأس مثل وشم عار. الأكل مثل حيوان، والنوم مثل حيوان، رمي اليد في الفضلات الخاصة محاولا تسريح المرحاض الذي تزكم راحته الكريهة الأنف وتجعل التنفس مستحيلا، جرجرة شعر الرأس في الأرض وفقدان الأسنان التي من شأنها تقليم الأظافر التي تتحول لشفرات صدئة أو جدور أخرجت من الأرض، سماع الجسد وهو يستغيث كل صباح ويضعف ساعة بعد ساعة، البقاء، والتحول إلى حيوان في قفص ينتظر انفتاح الباب وتقديم الطعام. كل الحياة تقلصت بشكل ملموس، وصار لها أبعاد الموت فقط الذي استقر في الزنازن حتى قبل أن يأتي مساجينها. استقر أولا واستقبل ضيوفه مثل مرض سيقضم الحياة مثلما تذيب جذوة النار الشمعة. الموت، إذن، في كل لحظة، من الحرمان، المرض، الجوع، العطش، القذارة، الرطوبة، البرد، الحرارة... لكن الموت أيضا بالأمل في كل لحظة. الإيمان بأن كل شئ مازال ممكنا. الكفاح بجسد ضائع ضد الموت. في كل لحظة من الليل والنهار حتى يتسنى هزم المرض، الجوع، والعطش، والحرارة، والاعتباط... البقاء حيا وسط الموت حتى تتسنى مواجهة الشمس ذات يوم والقول: أنا رجل وقد نجوت من بربرية الإنسان!

استقر الألم في أجسادنا أسرع من الموت معتصرا العظام، الأحشاء، الأسنان، العيون، المفاصل، العضلات، ردود الأفعال... كان الألم في كل مكان من أجسادنا. وبشكل لا رجعة فيه. كان يجعل الأذهان منعدمة، والذكريات مشوشة، والصور غير مؤكدة... غياب مرتكزات. كانت الجدران والظلام يصدان الرؤية والليل يختلط بالنهار و لم يعد للوقت قابلية القياس. ماذا تعني ساعة أو يوم في الأسبوع لنا نحن الذي كنا نكافح باستمرار لكي لا نمر للطرف الآخر من الأشياء: الإصابة بالجنون، الركون للمرض، الضعف أما هذا الليل الحالك الذي استولى على الأجساد والعقول... في تازمامارت كانت كل أيام الرب موسومة بميسم الفراغ والموت، مثل ليالي العالم الآخر. كان يتوجب امتلاك قدرة البقاء في ضفة الحياة. تعلم شكل من التعايش مع عناصر اليأس. الحفاظ على خيط النور هذا الذي لا يرى بالذهن والذي يقود الرجال العظام حين يكونون في مواجهة الليل، في مواجهة قدرهم.

أثقلت الأكتاف بالعجز والاستنكار، ثم تهاوت من التعب، لكننا لم نستقل أبدا. كان الكفاح اليومي ديدننا ومبرر وجودنا. لم يكن هذا الكفاح كفاح عنف، أو مطلباً، أو إظهاراً لغضب أو مواجهة، بل ضرباً من التحدّي في وجه الموت ونذالة الناس. الكفاح من اجل البقاء حيا ببساطة حتى يتسنى الشهادة في يوم ما ضد جرائم آخر ديكتاتوريات آواخر القرن العشرين... البقاء حيا وهزم هذا الموت المبرمج، المريع، غير اللائق برجال مهانين محقرين، مجوعين، منسيين، مشوهين، محطمين، لكنهم أحياء! للأسف لم تحدث المعجزة بالنسبة للجميع.

الموت في تازمامارت

"كانوا يُجرعوننا موتا مرعبا، قطرة، قطرة، ومنذ دخولنا إلى حفرة سوداء لم نخرج مرة واحدة للشمس".

سجين سابق بتازمامارت

رغم الإنهاك وملء الوقت بالترميق وقراءة القرآن ـ وتعلم اللغات والمحادثة الحرة، كانت أجسام الرجال تفقد مدخراتها يوما بعد يوم. فبما أن النظام الغذائي قلص لحدوده الدنيا، والخصاص صار يطال هؤلاء و أولئك. بدأ المرضى يشتكون من أمراض المعدة، سعار الأسنان، الغثيان، النزيف، صداع الرأس، الإسهال، لدغات العقارب، الدوار، الوهن... وبما أنني أصبت بداء الحفر (scorbut) سنة 1975، فقد بدأت أخلع أضراسي وأسناني بأصابعي، الواحدة بعد الأخرى، وأنا أتجلد إزاء ألم لا بشري. ولكي لا أكسر ضرسا أو نابا كنت آخذ الضرس بين الإبهام والسبابة وأبدأ في تحريكها، لعدة ساعات، لعدة أيام، وأحيانا لعدة أسابيع حتى يذعن الضرس ويسقط. بدون مضادات حيوية وبدون علاج، يبقى الجرح أسابيع قبل أن يندمل. كان السجناء كلهم يلجأون لنفس العملية لخلع أضراسهم التالفة والتي تُعرّضنا لآلام لا يمكن وصفها. من كانوا يملكون سلكا متينا كانوا يلوونه على الضرس ويسحبونه بكل ما يستطيعون من قوة وهم يحبسون أنفاسهم. مهما تكن الوسيلة كان الألم الذي نعرض أنفسنا له فظيعا لكنه ضروري ولا يتوقف النزيف إلا عدة ساعات بعد العملية. لكي أتخلص من كل أضراسي و أسناني كان يلزمني أربع سنوات طويلة. ولأنني راكمت تجربة كبيرة في خلع الأضراس فقد صرت طبيب الأسنان المشهود له بذلك في البناية. غير أن جهودي بقيت بدون جدوى في إقناع صدقي بتركي أخلع ضرسا كان يؤلمه.

عاشت البناية "أ" بين 1973 و1978 في عزلة تامة. لم يصلنا أي عون ومن أي نوع، لا أدوية، لا صلة مع العالم الخارجي. كانت هذه المرحلة من بين السنوات السوداء في هذه البناية. أما بالنسبة للبناية الأخرى، فكل السنوات كانت سوداء الواحدة أكثر من الأخرى. بدأنا سنة 1977 بوهن جسدي خطير، ولأننا كنا منهكين ومرضى فقد كنا نتجرجر على بطوننا، ومؤخراتنا أو نسير ونحن نتكئ على الجدران لأخذ أكلنا. علما بأن الحراس كانوا بدون رحمة ولا يقدمون لنا أي هدية. فضل بعضنا البقاء بالقرب من الباب لكي يكونوا جاهزين لعمل الحراس الذي يمضي بسرعة البرق. فلأننا فقدنا أضراسنا وأسناننا فقد كنا نهرس، حبات الحمص المطبوخة بشكل سيء، واللوبية البيضاء، والعدس، التي نجدها في صحوننا قبل أكلها. ولهذا الغرض كنا نستعمل قطعة خشب (مهراس) والسطل (كمدق). وفي آخر أربع سنوات من نظام قاس فقدت الأجسام كل مدخراتها. كان الموت يحوم حولها في كل لحظة. وصمود الرجال يتضاءل بشكل جلي. صرنا مزقا بشرية، بالكاد ظلال تتعلق حياتها بخيط، ركام لحم وعظام، مشوهة كليا، أشباه كائنات على حدود الانحلال. وبقوة الجلوس الطويل ونظرا للخصاص في الكالسيوم والفيتامينات، فقد وهنت العظام وتداخلت فيما بينها. كل السجناء فقدوا بعد السنتمترات من قاماتهم العادية و لم تعد الأجساد إلا هياكل عظمية متنقلة، دميات مفككة أو أشباح تسكن أماكن آلامها، وعذاباتها، وتأوهاتها، وتمزقاتها الداخلية وعزلتها.

في يوم من 1977، نادى الزميل الشجعي، وهو سرجان شاب من الطيران، زملاءه وقال: "أصدقائي، لا أعرف ما يحدث لي أنزف من أنفي بغزارة وأحس بالتعب، والنزيف لا يريد أن يتوقف، هذا يدوم منذ أيام و لم أرد أن أخبركم من قبل" طرحنا عليه ألف سؤال. فكر الذين لهم بعض الدراية، مثل منصت، مباشرة في إصابة بحمى المستنقعات. بدأنا ندق أبواب زنازننا كلنا لكي ننبه الحراس. بدأ هؤلاء يصيحون، ويهددون... لكن لا شيء حدث. انتهينا بتوسل الحراس لإسعاف زميلنا الذي يحتضر "ليمت!"، قال أخيرا بن ادريس بكلبيته وقساوته المعهودة. تفاقمت وضعية الشجعي الصحية. فرغ جسده ببطء من الدم حتى اللحظة التي لم تعد له فيها قدرات على الحركة نحو الباب لأخذ أكله. تركه الحراس هكذا عدة أيام. ثم لما رأوا بأنه لا يمس الأكل قرروا فتح الزنزانة. وجدوه مجمعا على نفسه وبلا حراك. لفوه في غطائه الذي تنبعث منه رائحة القذارة والدم والدود والفضلات ثم أخرجوه إلى الساحة ليدفنوه

بالقرب من الجدار. وأمام إندهاش الجميع أعادوه، لحظات بعد ذلك ورموه ككلب في الأرضية المجمدة للزنزانة. اعتقدوا أنه مات وحفروا حفرة رموا فيها الجثة، وفي وقت طمرها بالتراب حرك "الميت" أحد أطرافه. وانتبه أحد الحراس لذلك. كان الميت مايزال يتنفس، رفع مولاي علي الجاروف وأراد إنهاءه "في كل الأحوال سيموت اليوم أو غداً، كيف كيف، هذا سيعفينا من الذهاب والإياب مرتين" فأوقف في آخر لحظة من طرف أحد الحراس.

في الغد 23 أكتوبر 1977، مات الشّجعي في انزواء وقذارة وعزلة من أشد العزلات. هل تألم ؟ من يمكنه أن يقول؟ في كل الأحوال أثارتنا شجاعته، لم يبك، و لم يصح، لم يتأوه، ولا يشكي. لقد واجه قدره كرجل. هل يحافظ الموت في لحظات ألم قصوى، على ثقله المعتاد من الأسى والحزن؟ يعتبر البعض الموت كخلاص، الوسيلة الوحيدة لمغادرة هذا المكان الملعون. ذهب الشّجعي كرجل راح في سفر اعتيادي، ومن هذا السفر، لا أحد يعود أبدا.

لف الحراس مرة أخرى ما بقي من الشّجعي في لحافه القديم. أخرجوه للساحة ودفنوه في الحفرة الجاهزة. بدون كفن ولا شعائر دينية. أحسسنا بالإهانة فبكينا وصحنا منددين. خبطنا أبواب الزنازن بما بقي لنا من قوى، ولأننا استنفذناها بسرعة فقد تهاوينا باكين. وبدأنا نقرأ ستين حزبا المشكلة للقرأن على روح زميلنا، أول ضحية في البناية "أ".

كان شتاء 1977 فظيعا. الأشد فظاعة في شتاءات تازمامارت. لم تتجاوز الحرارة الصفر وتحت الصفر، و لم تعد الأجساد الضعيفة تقدر على مقاومة عنف البرد الذي لم يكن يكتفي بتجميد الأعضاء بل إنه كان يتسرب للعظام لتفتيتها. كان البرد شديدا حتى أن السجناء كانوا يسدون أفكاكهم بأيديهم لكي لا تصطك أو يربطوها بقطعة من اللحاف. والذين مازالوا يحتفظون ببعض القوى كانوا يقضون الليل يقفزون في مكانهم لتسخين أعضائهم وتلافي تمكن البرد من عظامهم وبصفة نهائية، ويسير الآخرون جيئة وذهابا في الزنزانة، وهم يستندون على الجدران، أما الذين لم يعد بإمكانهم التحرك فقد كانوا يكتفون بالنفخ على أيديهم لتسخينها. إن برد تازمامارت أفظع من الجوع، أفظع من التعب، أفظع من الموت نفسه. كان يتوجب خصوصا تجنب وضع الجسم في احتكاك مباشر مع مصطبة الإسمنت التي تخزن البرد وتقضم اللحم.

لذا كان بعضنا ينام جالسا ويستعمل الصحن كعازل ويضع الإبريق تحت الرجلين. البحث عن أي حيلة لتجنب البرد، لأن البرد هو الموت، خصوصا حين تنزل الحرارة إلى ما تحت الصفر في ظروف لباس ونظافة وأكل هشة جدا. كنا نجمد في أقفاص الشؤم هذه. كانت أفكاكنا تصطك بلا توقف، ليل نهار، وأعضاؤنا ترتج مثل أشرعة قديمة. تحولت الأسمال المخاطة فوق أسمال أخرى بمرور السنين، إلى جبيرة جبص فوق أجسادنا، ولأنها لم تغير أبدا، و لم تغسل أبدا، فقد انتهت إلى التشكل بشكل أجسادنا وصارت صلبة حتى غدا من المستحيل خلعها بدون الإستعانة بسكين أو مقص. كانت الحياة في تازمامارت كفاحا في كل لحظة. نبه مدير السجن السادي بلقاضي الحراس: "لا تأتوا لازعاجي إلا حين يموت أحدهم" كانت التعليمات واضحة، وحررنا موت الشّجعي من آخر أوهامنا. فالمصير الذي ينتظرنا شبيه بمصير زميلنا. إلى جانب البرد والأمراض ونقص التغذية إنضافت الروائح الكريهة والخانقة للمراحيض التي بدأت تنسد بشكل أكثر فأكثر، وغالبا بشكل نهائي. نبقى فوق المصطبة وعندما لا نستطيع احتمال رائحة الفضلات، نلقي بأيدينا في الحفرة محاولين تسليكها. وننتهي برمي ما أخرجناه في الممر بالسطل أو الصحن. وبهذه الأيدي نأكل، ومن هذه الأسطل نشرب، ويختنق الممر برائحة جيفة وهذا ما يزعج الحراس الذين يضطرون لمساعدة المساجين في تسليك بعض مراحيضنا.

حين لا تكون الزنازن مبردات تصير فرن محرقة. فمثلما هو الحال في الشتاء فالصيف يتحول في تازمامارت لنار جهنم. فسقف القصدير المتموج يراكم كل حرارة الشمس في الجوار، تلك الحرارة التي تصل الخمسين في الظل. كان القصدير يحرق الهواء قبل إدخاله من ثقب السقف. كنا نختنق، نضع أنوفنا في الخروم محاولين استنشاق بعض هواء الممر. لكن لم يكن هناك هواء ولا نبقى أحياء إلا بإرادتنا القوية في إبعاد الموت حتى أقصى ما نستطيع. كان الممر مسرحا لكل أنواع الهوام والحشرات، وهو المكان المفضل للفئران التي تأتي الأفاعي لصيدها. لكن، وأكثر من العقارب والأفاعي، أكثر من الصراصير والقمل، أكثر من العناكب والأوزاغ، كنا نخشى البق أكثر من كل هذا. كانت هذه الحشرات الصغيرة تلتصق بما بقي من لحمنا وتمص القطرات القليلة من دمائنا التي تدور بصعوبة في عروقنا الداكنة. كل الزنازن كانت مليئة بالبق وكانت ليالينا تمضي في ملاحقة الغزاة، في أصغر شقوق الجدران، في تنيات الإسمنت المسلح

في الثقوب التي تركتها المسامير وخشب الإسناد، وكل صباح كنا نحصي حصاد القتلى الليلي ومن قتل أكبر عدد من البق كان يحصل على الرقم القياسي لليوم.

كان الأقل حظا منا يلدغون من طرف العقارب وتعرض أغلب السجناء لسم هذه الحشرات القاتلة. كان ارتفاع الحرارة يجعل المصابين يهذون طيلة ثمانية وأربعين ساعة على الأقل، يتأرجحون بين الحياة والموت. وحين يتجاوزون هذه المرحلة يبقون ممددين عدة أيام قبل استعادة "العافية". لحسن الحظ لم يمت أي سجين بفعل لدغات العقارب والأفاعي. لكن كان لكل زنزانة نصيبها من البق، والصراصير، والعقارب، والأفاعي.... التي كانت، بدون شك، تبحث عن الظل، ولكن أيضا عن الأكل. لم تلدغ الأفاعي أي واحد منا، مما جعل أحدنا يقول: "لدينا الحظ مع الأفاعي أكثر من أبناء آدم!".

من 1973 إلى 1977 عاش سجناء حبس الموت في عزلة تامة. كانت زنازننا تفتح بضع دقائق فقط في اليوم. الوقت الكافي فقط لرمي الأكل، ثم تغلق الزنزانة بجلبة. أربع سنوات من نظام سجني لا إنساني. كانت الأيام تمضي كقرون حتى أننا فقدنا كل تصور للزمن وكل تشابه مع الكائنات الإنسانية. لم نكن سوى دمى تتجرجر، حيوانات متجاهلة، ومُجوَّعة، ومعنفة كأنها خرجت من فيلم رعب. أوشكت الأمراض وفقر التغذية على إنهائنا. فقدنا أسناننا، استنفذنا كل قوانا، تصل شعورنا حتى الأرض ويمنعنا شَعَر لِحَانا من الأكل. كانت أظافرنا تشبه أظافر حيوانات متوحشة و لم تعد أجسادنا سوى ركام من العظام والجلد. هياكل عظمية بالكاد تتحرك، بالكاد تتنفس، وتمضي كل يوم نحو موتها المحتوم. أهل الكهف، أسوأ من أولئك الذين وصفوا في القرآن. لم يجوع الله أهل كهفه، لم يصبهم بالأمراض وحرص على تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال لكي لا تنال رطوبة الأرض من لحمهم. وكان يقص بشكل دوري شعرهم وأظافرهم. كانت آلهة تازمامارت بدون قلب ولا شفقة. إنها شياطين في صفة بشر "أهل كهف الأزمنة المعاصرة" بالإمكان أن يكون هذا هو عنوان محنتنا، قدرنا! لم ترتكب أبدا فظاعة شبيهة بالفظاعة التي ارتكبت في حقنا! في أمكنة أخرى نقتل الناس، نطلق عليهم الرصاص بعد أيام من التعذيب، وينتهي الكلام. في تازمامارت أريد جعل العذاب آلة لدعس الناس والخوف نهجا لتنكيس الهامات، أطول وقت ممكن، طيلة سنوات، حتى تخوم ما يحتمله الإنسان، أي ما وراء الرعب.

معنفون، مهانون، مجوعون، محقرون... لم نعد سوى أشباح، خيالات إنسانية، وتم التعامل معنا كهوام. كيف تمكنا من البقاء أحياء في هذا الموت الأكيد و"بزك العالم" هذا؟ الشجاعة؟ الايمان؟ الصبر؟ الأمل؟ ماذا نقول؟ فلا الشجاعة ولا الايمان ولا الصبر ولا الأمل كانوا ينقصون أولئك الذين بقوا مدفونين هناك في حفر قرب الجدار. ألم يكن لهم الايمان أم أنهم كانوا أقل شجاعة من الآخرين؟ لا شيء مؤكد. فالله رعى الجميع وبنفس الرحمة والرأفة. يمكننا القول ببساطة، بأن البعض نجى ليقدم شهادة عن الرعب الذي عاشوه، عن موت زملائهم، حكي المعاناة، البربرية، والإعتباط، الأساسي يكمن هنا. أن ينجو واحد فهذا انتصار كبير على الطغيان وزارعي اليأس. أعرف هذا اليوم. إننا نجونا، ربما، للشهادة على الفظاعة، ولقول، وبأكثر ما يمكن من تفاصيل، ما عَرَّضَنا النظام له: الجوع، الأمراض، الإهانة، القهر. الموت... لكن نظاما مرتشيا، ومهما كان قويا، فإنه لا ينال من كرامة الشعب.

إن بعض الناجين من الثمانية والخمسين سجيناً في تازمامارت مازالوا أحياء منتصبين دوما، ضدا في الجلادين. ولهذا فهم رجال خارقون للعادة، ومن ماتوا في ظروف قصوى من الإنهاك الجسدي والنفسي يبقون أبطالا وشهداء، ضحايا عمى النظام وبربريته.

زمن الأمل
فترة الاتصالات مع العالم الخارجي
من 1978 إلى 1982

وصلنا إلى استنفاد آخر قدراتنا. كنا نفقد الأمل ساعة بعد ساعة. أموات - أحياء ولا شئ يأتي لتخفيف جحيم وجودنا. كنا ننتظر الموت ليخلصنا كما خلص عددا من زملائنا. ماذا يمكننا أن ننتظر أكثر من الحياة أو من العالم الخارجي؟ سنوات مرت ولا بصيص نور أتى ليخفف عنا ثقل معاناتنا، ولو ليوم واحد. انتهينا إلى الاعتقاد بأن العالم الخارجي نسينا وإلى غير رجعة. من بإمكانه أن يشك، بأن الناجين من انقلابي 1971 و1972، وبعد سنوات عزلة كاملة، ينهون أيامهم، مدفونين أحياء، في أقسى ظروف يمكن لإنسان احتمالها أو تخيلها؟ حوَّل الزمن والحرمان من كل شيء الأجساد إلى جثث متحركة، إلى أشباح تتشابه مع الجدران الرطبة، والإسمنت البارد للمصطبة كان يقضم الأجساد ويخترق العظام. كان الليل يطول ومعه تطول معاناتنا. ضعف بصرنا بشكل ملموس، وصار صداع الرأس والقيء لا يفارقاننا. كانت الأضراس القليلة الباقية وبفعل نقص الكالسيوم والحديد والفيتامينات تنخلع من الجذور قبل أن تسقط مثل خوخ فاسد في الشمس. لم تعد الأرجل تتحمل الأجساد وكان الدوار يستولي على الرؤوس. لماذا كل هذه اللاإنسانية؟ لماذا كل هذه البربرية، القساوة، والتوحش؟

أتذكر بأن بصيص النور اللامرئي عبر في يوم ما الجدران الثخينة لزنزانتي وأعطا شجاعة لجسمي المنهك بما لا يحصى من اختبارات. هذا البصيص يسمى أملا وتجسد في وجه أحد حراس البناية، المقدم الأول محمد الشربادوي، الملقب "جيف" لتشابهه مع الممثل الأمريكي جيف شاندلر. هذا الرجل لا يشبه باقي الحراس، لا في شرهم

المجاني، ولا في ابتذالهم. بوجه نمطي لأمازيغ الجبال وبنية رياضية، إذ كان معلم رياضة في الثكنات العسكرية، وبطبع هادئ، كان من القلائل الذين لم يجرحوا أحدا بكلمة في غير مكانها ولا بحركة عنيفة. كان يكتفي بفعل ما طلب منه بدون حماس زائد. بل إنه أبدي تعاطفا مع بعض المساجين المرضى، وهذا ما يقطع مع سادية الحراس الآخرين. بدأت أحييه بأدب كلما رأيته. وقد آتت الاستراتيجية أكلها بما أن المقدم الأول وبخلاف زملائه كان يرد التحية. قررت، ومهما كلفني الأمر، أن أعيد الاتصال بعائلتي، ماذا سأخسر؟ بداية 1978، توقف المقدم الأول أمام باب زنزانتي وسألني:

– أأنت هو القبطان حشـــاد؟

– نعم، أجبتــه، وقواي خائرة

أدركت الفرصة التي أتيحت لي وأغتنمتها لأسأله أيضا:

– هل أنت من نواحي بني ملال؟

أجابني برأسه: أي نعم. وابتعد قائلا لي كلمة عربية واحدة:

– من بعد! من بعـد!.

كانت لحظة السعادة هذه لا تقدر بثمن لأنني فهمت أن شيئاً ما حدث إثر بصيص نور اللامرئي هذا. لا شيء وقع في الأيام التي تلت ذلك. من يأسي، فتشت في كنوزي وأخرجت قلم رصاص وقطعة من ورق تلفيف شكولاطة. وتحت ضوء كبزالي كتبت ما يلي: "أستحلفك بحب الله، سيدي المقدم الأول، سأكون ممنونا لك إن أنت ربطت الاتصال لي بزوجتي وهذا عنوانها، وإخواني في أولاديعيش وأعطيك عنوانهم فيما يلي". اغتنمت فرصة انشغال السَرْجان بن سعيد الكريه الذي لا يفارق "جيف" قيد أنملة. فأدخلت الورقة في جيب بدلته العسكرية في الوقت الذي كان يقفل فيه الباب االثقيل للزنزانة. كانت دهشته كبيرة أمام جسارتي. لم يقل شيئا وغادر المكان دون أن ينظر نحوي. منذ هذه اللحظة تحولت حياتي إلى انتظار. وأنا فوق جمر مشتعل كنت أفحص كل حركة صغيرة، كل جلبة صغيرة، متمنيا في كل لحظة حدوث المعجزة. وبقدر ما يمضي الوقت بقدر ما يصير الانتظار غير محتمل، ومؤلماً، لكن المعجزة حدثت أخيرا بعد عشرين يومـــا مــن جحيم تحول إلى معاناة نفسية مثلما هي جسدية. أخيرا

وذات يوم وقبل أن يغلق الباب رمى "جيف" بعلبة صغيرة داخل الزنزانة. ارتميت مروعا على العلبة. تحسست الفراغ في الظلام لوقت طويل قبل أن تصطدم يدي بشيء ما. أخذت العلبة أبقيتها لوقت بالقرب من قلبي . تملكتني سعادة غامرة. كنت أرتعش مثل ورقة تهدهدها الريح. اعترتني رعدة، أهذه هي السعادة؟ أخيرا وضعت كنزي على المصطبة ونصبت كابزالي، وحركته ببطء لإلتقاط أكثر ما يمكن من نور. فتحت العلبة، وبما أن الأمر يتعلق بشئ ثمين وهش، فقد كانت يداي ترتعشان. توقفت، وعاودت حين هدأ تأثري. تضمنت العلبة أعواد ثقاب، شمعتين، أوراقاً للكتابة، وظرفاً وكلمة من الحارس. أشعلت إحدى الشمعتين وفتحت الظرف. فاستولت رعشة على جسدي وسقط ما في الظرف من يدي، أخذته، وقلبي خفاق، تعلق الأمر بصورتين فوتوغرافيتين الأولى لبنتي هدى، وتعرفت بالحدس على ابني خليل في الصورة الثانية، وهو يضحك ضحكة بريئة، هذا الإبن الذي تركته في بطن أمه وأراه لأول مرة في صورة. ملأت دموع صامتة وجنتي المجوفتين. عبرت رأسي آلاف الأفكار، وحدي و أنا في مواجهة جدران إسمنت مسلح، في مواجهة صمت العالم، في مواجهة القدر، وفي مواجهة، خصوصا، بربرية النظام الذي برمج موتي البطيء وموت باقي زملائي في ازدراء كامل للقوانين وللحقوق الدنيا للإنسان. انتهت الدموع إلى التوقف. أدهشني أمر غريب، فقد بلغ ولديّ الآن بين سبع وخمس سنوات وفي الصورتين كانا طفلين بلغا بالكاد ثلاث سنوات وسنة ونصف تقريبا. فسرت لي كلمة المقدم الأول عدم التناسب هذا. قال لي تقريبا "تجد هنا رسالة وصورتين بعثتهما زوجتك مع الرسول الأول سنة 1973 والذي افتضح أمره وأعتقل، وقد نجحت في أخذ الرسائل المدينة له في آخر لحظة واحتفظت بها كل هذا الوقت في مكان آمن لحسن الحظ فقد أفرج عن خربوش لغياب أدلة كافية تدينه. ولهذا السبب نجت عائلاتكم من انتقام كان سيكون مُحتَماً. يمكنك أن تكتب رسالة لزوجتك، سأبلغها حين أحصل على عطلتي القادمة" أنهى الرسالة بأن طلب مني بأن أعطيه مرة أخرى الرسالة التي كتبتها زوجتي لي كدليل على صدق نواياه.

عرفت معنى السعادة في هذه اللحظة، كان يكفي القليل في تازمامارت لكي يولد الأمل، رسالة، أعواد ثقاب، شمعة أو شمعتان، صور طفليّ... في حياة عادية تعتبر هذه الأشياء تافهة ولا تكاد ترى، أما في تازمامارت فهذه العناصر البسيطة تولد سعادة يصعب وصفها. إنها قادرة على إنقاذ حياة وإعادة الأمل لأناس فقدوا منذ مدة

طويلة كل شكل للأمل إنها كنوز ثمينة. بعد إطلاق سراحي وجدت هذه الرسالة وهذا مقتطف منها:

أكتوبر 1973

عزيزي

كانت سعادتي كبيرة حين رأيت الرجل. كنت يائسة حقا لأنني لم أتوصل بأخبار منذ مدة طويلة. وقد ولد هذا إرتياحا بالنسبة لكل العائلة ونشكر الله الكريم على أن يسر لنا الحصول على أخبار عنك. إننا نفكر فيك دوما، ولا تمر لحظة دون أن تحضر فيها سواء في البيت أو الصيدلية.

إنها الحياة كما هي، لا كما نريدها، الحياة المصنوعة من الظلم والنفاق... إلخ، أواجه الحياة بكثير من الشجاعة، لكن ما يؤثر فيّ أكثر هو الظلم الذي تعرضت له، وأطلب من الله الرحمن الرحيم أن يظهر الحق في وقت قريب.

إنني لم أفقد الأمل في لقاءك في يوم ما إن شاء الله.

عايدة

أفقت في الغد مبكرا جدا، مع طلوع الفجر، بدأت أدرع زنزانتي مثل محكوم بالإعدام وينتظر ساعته الأخيرة وهو يعرف بأنهم لن يتأخروا في المجئ لأخذه لتنفيذه. منذ عدة سنوات كنت أنتظر هذه اللحظة بصبر، لا من أجل الموت، وإنما من أجل تغذية بصيص أمل. بكيت أيضا من السعادة هذه المرة، أعطتني صورتا ولديّ قوة إضافية للكفاح وتلخص كفاحي في فكرة واحدة: أن أبقى حيا أطول مدة ممكنة حتى يمكنني احتضان ولديّ بين يدي. لو قيل لي، حين كنت شابا، بأن السعادة تتلخص في هذا الإحساس لانفجرت ضاحكا. انتهيت إلى التوقف منهكا من الجهد الذي قمت بإجبار جسدي على القيام به. وتلقت المصطبة ما تبقى من عظامي وتأملت للحظات طوَال ما يقع لي. وعبَرت ذهني فجأة فكرة. علي أن أقنع صديقي الطويل بأن يلتحق بِي ويكتب

كلمة لزوجته الأمريكية يطلب فيها منها أن تغادر المغرب للدفاع عن قضيتنا في الخارج وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت السيدتان حشاد والطويل جارتين وصديقتين وسيكون من مصلحة الجميع أن تقبل هذه المرأة مغادرة التراب المغربي. فبما أنها مواطنة أمريكية فإنها لن تتعرض لعراقيل المخزن الذي، وبكل تأكيد، لا سلطة له عليها لمنعها من السفر مثلما هو الحال مع أفراد عائلات المساجين الآخرين. لا وقت لإضاعته. وضعت الطويل في الصورة بفضل سنن سري وضعناه بيننا للإفلات من مراقبة الحراس. كان السنن بسيطا، وهو يقتضي إستعمال الحرف الثاني للأبجدية الذي يأتي قبل الحرف الأصلي لتشكيل الكلمة، ويكفي المتلقي إستبدال كل حرف بما يأتي بعده مباشرة بعدها، لتكوين الكلمة المقصودة. فحرف "A" يصير "B" و"B" يصير "C" الخ. وكلمة Ami تصبح BNJ، وكلمة رسالة تصبح MFUUSE. من خلال هذا المورس الخاص قبل الطويل بأن يكتب رسالة لزوجته. إن حياة آخر الباقين في السجن الملعون هذا بين يديه وهي رهينة بقراره. وبواسطة خيط يربط الزنازن أوصلت له قلما وورقة. كان ذلك في أبريل 1978، في رسالتي أخبرت زوجتي بالوضعية الصحية لزملائي، وطلبت منها أن تبعث أكبر كمية من الأدوية ووصفت مرض كل واحد. وفسرت لها كيف تم إنقاذ بريد 1973 في آخر لحظة من طرف الحارس محمد خمس سنوات قبل اليوم. احتفظت بصورتي ولديّ وخبأتهما في أسمالي، بالقرب من قلبي، كنت أخرجهما كل يوم، أضعهما فوق المصطبة وأسلط عليهما نور كابزالي، أتأملهما ساعات طويلة حتى تجلل الدموع عيني. ثم ومثل أب حنون وبعد إنهاء عمله وعودته أقبل طويلا طفليّ وأحكي لهما الحكاية الوحيدة التي أحفظها عن ظهر قلب، حكاية تازمامارت. لم تكن هذه الصور مجرد تمثيل بسيط لكائنين بعيدين بل جسدت حضورا حقيقيا نجح في خلق صلة صلبة بين العالم الخارجي ومومياء تازمامارت التي صرتها. أحدثها عن آلامي وعن لحظات فرحي البسيطة، شمعة، رسالة، قرص أسبرين، كلمة طيبة... وفهمت بأن للسعادة وجه طفل، وأن وجهي طفليّ ملأ كل هذا الفراغ الأسود الذي وضعتنا فيه أيادي غير مرئية، أنا وزملائي. بدأ عالم جديد في التشكل بالنسبة لي: عالم الحوار، والحنان والحب هناك حيث المرض والجنون وحدهما من يرافقان المساجين وحيث يضرب الموت من حين لحين لكي يذكر الرجال بالقدر المرعب الذي يدخره المخزن لهم. أعطيت البريد للحارس وشكرته بابتسامة. وانتظرت. وها هي الإضافة للرسالة الأولى:

1978

عزيزتي

كتبت لك الرسالة الأولى بسرعة لأنني أعتقدت بأن صديقنا سيذهب في عطلة وطلبت منه بعد ذلك أن يجلب لي معه أوراقا لأكتب لك هذه الإضافة.

لقد قبل بأن يوصل لك هذه الرسالة والله وحده يعرف كم أنا سعيد في هذه اللحظة التي أعيش فيها على أمل تلقي جواب منك. مع عدم نسيان الخدمة التي قدمها لنا بأخذه للرسالة التي كتبتها سنة 1973 وصورتَيْ هدى وخليل. لقد أعطيته الرسالة لأنه طلبها مني لكي يسلمها لك كدليل، واحتفظت بالصورتين اللتين أقبلهما يوميا.

عزيزتي، إن مصيرنا بين يدي الله ولا نعرف أي شئ عن وضعيتنا. منذ أن وصلنا هنا نعيش تحت نظام هو نفسه وما يثير الاستغراب أكثر هو أن الزملاء الذين أنهوا مدة محكوميتهم ما زالوا معنا.

لذا، عزيزتي، سأذكر لك الأمور الحيوية التي نحن في حاجة لها.

- الأدوية. أطلب منك عزيزتي أن تعطي لصديقنا كل الأدوية اللازمة للأمراض التي أصيب بها بعض الزملاء.

- ألم المعدة شائع (إسهال، إلتهاب معوي)

- في الشتاء أصيب العديد من الزملاء بالبرد في أعضائهم التناسلية (حريق البول) وقد أصبت بنفس المرض، ودام أسبوعا.

- صداع الأسنان، الرأس، الحمى ..الخ

- كل الأدوية والفيتامينات التي تعوض نقص الشمس.

- أخيرا كل الأدوية التي ترين أنها ضرورية لنا (العيون، الأذان، الحلق، الصدر.. الخ) والمضادات الحيوية في الحالات الخطيرة.

هام جدا: ينبغي أن تكون كل الأدوية في شكل أقراص وفي علب صغيرة ما أمكن، أي بالإمكان أن توضع في جيب ولا ترى. وطبعا فيتامين "C" والكثير من الفيتامينات المتعددة المفعول.

- كتب: الأنجليزية والإسبانية 90 درسا، جواهر البخاري، منجد صغير إنجليزي/ فرنسي وكتاب قديم للعلاج تستعملينه في الصيدلية.

اليوتنان الطويل قبالة زنزانتي ولي صلة ودية كبيرة معه.

حشاد

سأعيش، مرة أخرى، انتظارا طويلا سيطال كل لحظة في حياتي. انتظار قدّ من خوف ممزوج بأمل حيث علق الزمن طيرانه وحيث يُضْعِفُ روتين حياة بئيسة، كل يوم أكثر فأكثر، قوى محتجزي جهنم. اختفى الحارس ذات يوم وتحول الانتظار إلى قلق، ثم أخلى القلق مكانه للارتباك وصار الارتباك مرعبا. لم يكن جسمي المنهك يتحمل الإخفاق. بقي ذهني يقظا، حساسا لأدنى جلبة. كل قفل يحل أو يغلق يتخذ له أبعادا هائلة في رأسي. وإن لم يعد الحارس؟ و إن كانت تلك حيلة لتفكيك شبكات المدافعين عن سجناء تازمامارت؟ وإن ارتكب خطأ وافتضح أمره هو أيضا، مثل أحمد، ففتش واعتقل؟ أو هو، ببساطة، قد نقل لمكان آخر؟ كان الانتظار موقعا بمنغصات، بأسئلة استفهام، بكوابيس، بليالي بيضاء... كانت الأيام تمضي بطيئة، ثقيلة، ثم الأسابيع التي لها سمك قرون... كان يبدو لي بأن للزمن صلابة الحجر والحديد الخام. وتملكني إحساس غريب بأنني إن مددت يدي فبإمكاني أن ألمس هذا الزمن الذي يثقل عزلتي ويتلاعب بصبري.

ثم حدثت المعجزة ذات صباح، هناك حيث كان للمعجزات معنى. عاد الحارس محمد في النهاية وكان هو من يفتح أقفال الزنازن. رأيته في مستوى الزنزانة 14 التي كان فيها الرايس، فتح الزنزانة 15 التي كان فيها الطويل. كانت الزنزانة 16 التي فيها منصت قبالة زنزانتي. لقد عاد الحارس محمد إذن، لم تختف تساؤلاتي رغم ذلك، ماذا وقع طيلة هذا الغياب الطويل؟ أي أنباء يحملها هذا الرجل؟ كنت فوق جمر متقد. تداخلت الأفكار في رأسي واستولى علي القلق. لماذا لم يأت الحارس نحوي ويقول لي ماذا فعل؟ ألم يُقَدِّرْ نفاذ الصبر الذي يحرق أحشائي؟ في الوقت الذي كاد فيه اليأس ونفاذ الصبر أن يفقداني صوابي التفت الحارس ورمى نظرة نحو زنزانتي 29. كانت تلك الالتفاتة منبئة بالخير. فهمت بأن الرسول يحمل لي أخبارا جديدة،

ربما أخبارا جيدة. إن ربط الاتصال بالعالم الخارجي وإن قبلت السيدة الطويل مغادرة المغرب فالناجون أنقدوا. بالنسبة لي لم ينته الانتظار بهذا. فمن باب الاحتياط، بقي الحارس خمسة عشر يوما قبل أن يعطيني العلبة الصغيرة المبعوثة من طرف زوجتي. كانت تلك لحظة لا تنسى. الزمن، دائما الزمن، لا أعرف كم من الوقت انتظرت، ولا كل أحلام الأمل التي عبرت رأسي إبان لحظات الانتظار الطويلة هذه. وأمام هذا الكنز، وجدت صعوبة كبيرة في احتواء فرحي وتهدئة فضولي. أحمل العلبة إلى شفتي أقبلها طويلا ثم أبكي كطفل تلقى هدية عجيبة. أقفز في مكاني متناسيا الفزاعة التي صارها جسدي، أخبط الأرض برجلي المغطاة بالخرق. أدرع الزنزانة ذهابا وإيابا قبل أن أقرر فتح العلبة. لم أعرف أين عثرت على كل هذه القوة لأفرض على جسدي كل هذا الاختبار المهلك لأعضائي المشوهة.

كانت السيدتان الطويل وحشاد على علم الآن بالهول الذي يتعرض لها زوجاهما في جحيم تازمامارت، صورتان راهنيتان لطفليّ وثالثة لأمين، ابن الطويل. هناك أيضا رسالة من نانسي كتبت بالأنجليزية لزوجها والذي فرح كثيرا حين علم بذلك. بواسطة نظام الخيوط حصل على ما يخصه وسعد كثيرا لمعرفة أن أهله لم ينسوه. دخل السجن قدر من المال في تلك اللحظة وبعض الأدوية والمأكولات. لقد أفادت النقود في شراء المواد الأساسية وفي إرشاء الحراس المستعدين ليرتشوا. لكن الحارس محمد لم يكن راضيا عن ما قمت به وآخذني على ذلك بصراحة. كيف يمكن أن أعرض حياته وحياة عائلته للخطر بتصرفات صبيانية غير مقدرة للخطر؟ إن توسيع دائرة الإتصالات خطر داهم على كل رسول من سجن الموت. وبقدر ما يكون هناك أناس على علم بقدر ما يكبر الخطر فالناس لا يعرفون مسك ألسنتهم، وللمخزن عيون وآذان في كل مكان. ولأنهم تأثروا بما حدث ل "نونورس" فكل الحراس جعلوا من الحذر مبدأ لهم لأنهم يعرفون ما ينتظرهم إن أخلوا بالنظام. وبكثرة الحجج والتوسلات نجحت في طمأنته، مقسما برأس أولادي بأن الرجل وزوجته موثوق فيهما، وأن لا أحد غيرهما سيعرف السر. منذ هذا اليوم سرى هدوء في البناية. صار المرضى يتلقون الأدوية والمواد الغذائية. والأكثر هشاشة كانوا يرثون بعض مزق الأغطية ليخيطوا "حلاسة" تدفئ أطرافهم المشلولة والمشوهة. وأكبر عملية كانت هي تمكين كل زنزانة من مرآة صغيرة. بدأت النقود تنجز معجزات. وكل الكابزلات صارت لها مرآة مما جعل جودة النور أكثر فائدة. تمكن السجناء أخيرا من رؤية ما يأكلون، أين يعيشون،

وتمييز الصحن والسطل... كانت هذه الحيازة هي الأكثر أهمية بالنسبة للسجناء لأنها حسنت حياتهم شيئا ما. لا مشاحة في هذا، فالنور حسن حياتنا وإن بطريقة بسيطة، في هذا المكان المنسي من طرف الناس والله معا.

عشرة أشهر مرت. كان مزاج البناية يمضي على إيقاع الفرح البسيط لأناس صار بإمكانهم أخيرا تذكر شكل قرص أسبرين أو طعم قطعة جبن أو شوكلاطة. لكنني لا أريد أن أتوقف هنا. نجحت في إقناع الحارس محمد بإيصال رسالة ثانية لزوجتي. ولكن بشروط، فلتأمين العملية أكثر، اشترط تقليص دائرة الاتصالات والتحلي بكثير من الحذر فحياته وحرية العديد من العائلات مرتبطة بذلك. خرجت رسالة ثانية مؤرخة ب 11 يوليوز 1978 من تازمامارت، تقول:

11 يوليــوز 1978

عزيزتي،

برافو عزيزتي وألف برافو، أحبك كما يحب مجنون، وأنا أفتخر بك. كل أماني أستجيب لها. والسفينة في يد قبطان مجرب ويمضي في أمان.

لا يمكن لي أن أعبر لك عن فرحي حين حصلت على رسالتك بين يدي، وأنا أرتعد أشعلت شمعة. تعرفت على خطك، كان قلبي يخفق بشدة. فتحت الرسالة وسقطت ثلاثة صور صغيرة. أخذت الأولى وكانت صورة بنتي. تعرفت على صغيرتي هدى الضاحكة والجميلة. لم يكن بإمكاني حبس دموع فرحي، فبدأت أبكي في صمت. لم يكن بإمكاني حبس دموع فرحي، فبدأت أبكي في صمت. ثم مسحت عيني وأحسست بتحسن حالتي. أخذت صورة خليل، الجميل كملاك. ثم إلتفت للصورة الثالثة صورة أمين الذي يشبه والده. عزيزتي، هذه اللحظة من أسعد لحظات حياتي، لا يمكنك أن تتخيّلي كيف كنت وما كنت أقوم به. أشم الرسالة، أحضنها، أثبت الصورتين حتى اللحظة التي صرت أراهما في كل مكان من زنزانتي.

آه! عزيزتي، أنت ملاك، لقد أعطيتني طفلين من أجمل ما في العالم. ولا أعرف كيف أشكرك في هذهِ اللحظة والبرهنة على حبي لك. ليمكنني الله من العودة لعائلتي قبل الموت لأرِي زوجتي كم أحبها.

فرح الطويل كثيرا وهو يشكرك كثيرا، ويوجه طيه رسالة لزوجته.

أنا أحس بنفسي بخير الآن، صحتي عادية ومعنوياتي مرتفعة، لم أعد أفكر في وضعيتي لأنني لم أعد أحس بنفسي وحدي. صار ملاكان يعيشان معي ويؤنساني. إنهما يشجعاني ويتكلمان معي.

في كل صباح التقط شعاع شمس بالمرآة التي بعثت لي وأقضي كل ذلك الوقت أنظر لملاكي. لقد تغيرت كثيرا عزيزتي.لم أعد حشاد 1972. إنني أرى الآن الحياة في وجهها الحقيقي وبدأت أعرف الناس. لم أضيع كل هذه السنوات. حفظت القرآن، وتعلمت قليلا من الإسبانية.

ليحفظك الله

حشاد

جرى الاتصال الثاني في ظروف جيدة وتلقيت رسالة من زوجتي وأدوية للبناية. وصلت أجهزة راديو و لم يعد يتعذر علينا التزود بالبطاريات الجافة. كانت الأخبار تتداول ويتم التعليق على أدق تفاصيلها. استعاد المرضى قواهم وتلقى الضعفاء أكلا أكثر، يؤخذ من حصص زملائهم. كان من الواضح بأن الوضعية تغيرت. وكان من الطبيعي أن يبدأ السجناء في طرح الأسئلة الرامية إلى فهم ما يجري. لمن يعود فضل هذا التحول غير المنتظر؟ من يجلب هذه الأدوية؟ من أين يأتي هذا الأكل الذي نسو اسمه وطعمه منذ زمن طويل؟ ما الذي دفع الحارس لترك أبواب الزنازن مفتوحة، وأنبوب الماء مفتوحا ساعات طويلة، مما يمكن السجناء من غسل زنازنهم، وثيابهم، وتسليك حفر المراحيض والوضوء؟... كان ينبغي الإجابة عن كل هذه الأسئلة. فالبعض، ولأنهم يعيشون في ظروف مزرية، و لم يعد لهم ما يخسروه ويرفضون كل تنازل. فهموا بأن صلة مع الخارج قد نسجت لكنهم لم يعرفوا الفائدة من. تكاثرت الأمراض المتوهمة وتحولت المطالب إلى تهديد. تفاقم الوضع، مراقبة، نميمة، حذر، شك... وسمموا حياة البناية. أمام هذه الظروف الخاصة وحيث بدأ الخطر يتزايد يوما بعد يوم جمعت زملائي وقلت لهم: "اسمعوني أصدقائي، الله رحيم ورؤوف. لقد وضع رجلا كريما في طريقنا. لقد ربط صلة بيني وبين عائلتي واستحلفني بأن لا أقول شيئا

لأي كان. ووعدني بفعل أقصى ما يمكن لمساعدتنا. صارت لنا بعض الأدوية وبعض الأكل. لدينا أجهزة راديو وبطاريات لتشغيلها. والماء الذي كان غير كاف صار يكفي حاجياتنا. والأهم من ذلك هي هذه الأبواب التي تبقى مفتوحة لتسمح لنا برؤية بعضنا والحديث كل يوم، ينبغي أن نعطي الأولوية لمن هم أكثر مرضا وخصوصا التوقف عن إزعاج الرجل الوحيد الذي مد لنا يده مخاطرا بحياته. لنترك هذا الرجل يعمل من أجلنا عوض أن نعمل على كسر هذه الصلة التي تربطنا بالعالم .ليس من مصلحتنا إثارة البلبلة في الوقت الذي بدأت فيه الأمور تتحسن بالنسبة لنا...!" فهم المساجين أهمية الفرصة المتاحة لهم في ظل خطورة وهشاشة وضعيتهم. فأعطوا كلمة شرف بأن يتصرفوا بمسؤولية. فساد السلم والثقة والتواطؤ والاسترخاء في البناية التي عاشت وضعية جيدة طيلة ثلاثة سنوات متتالية. في ذلك اليوم أعطى الزملاء لقب "جيف" للحارس، وصلت مصاحف قرآنية، وكتاب حديث، منهاج المسلم عن طريق نفس القناة. تلاعب غلول، وهو مرمق كبير، ببراغي تسوية جهاز الترانزستور الخاص به ونجح في جعله يلتقط كل محطات العالم. وهكذا صرنا نتابع كل الأحداث التي تقع في جهات العالم الأربع، كنا على علم بالثورة الإيرانية وإسقاط الشاه، وتابعنا تطور الحرب الإيرانية العراقية وعرفنا مشكل الصحراء المغربية. وبالمقارنة مع أوضاع السنوات الأولى للاعتقال كان يخيل إلينا بأننا نعيش في نادي ميد. كان لنا ما يكفي من الماء، أدوية، وفيتامينات وأكل أكثر. والمرضى يشفون بسرعة نسبية والضعفاء يقفون على أرجلهم وكانت الأوقات القليلة التي نمضيها معا في الممر تكسر عزلتنا وتسمح لنا بالحديث مع بعضنا والتخطيط لمشاريع. في المرة الأولى التي تواجدنا فيها بالممر أخاف كل واحد منا الآخرين. هاماتنا مقوسة ومغطاة بأسمال قذرة ،شعورنا تصل الأرض، وأظافرنا ملتوية، والقذارة تغطي أجسادنا بطبقات متراكبة، أنظارنا فارغة، وبالكاد نبقى واقفين، نسير بصعوبة ونحن نستند على الجدران أو نزحف على الأرض. ولن أنسى أبدا تلك الصورة التي أخرجتها معي من نار جهنم، أذكر بأنني في أول مرة التقيت فيها صديقي غلول في الممر أعطيته قطعا من جبن "البقرة الضاحكة" ولأنه فقد كل تصور الأشياء فقد ناداني في الليل ذاته ليقول لي بأن "القويلبات" التي أعطيتها له لم تحس حالته وأنها ذابت. لقد إعتقد بأن قطع الجبن قويلبات. تأثرت بهذه السذاجة وشرحت له بأن القطع أكل وليس دواء، فانفجر ضاحكا.

29 أكتوبر 1979

عزيزتي،

مرَّ أَحدَ عشرَ شهراً حتى يتسنى لي أن أكتب لك أخيرا بصراحة فهذه القطيعة بدأت تثقل كاهلي وأنا في شوق كبير لك وللطفلين. أعتقد بأن صديقنا أحس بخطر ما، لذا انتظر طويلا قبل أن يزورك. وفي كل الأحوال، أنا سعيد، عزيزتي بامتلاك هذه الفرصة لكي أنقل لك بعض أخباري وأن أعرف، خصوصا، أخبارك وأخبار الطفلين. إننا نعيش على نفس الإيقاع، ولا تغيير ولو بسيطاً منذ أن وصلنا هنا. وهذا لا يصدق عزيزتي، فحالتنا الصحية وصلت لدرجة حرجة وهؤلاء الناس لا يريدون القيام بشيء. وحدثت غيابات بيننا ورغم هذا لا شيء حدث.

منذ أن غادرنا سجن القنيطرة لم نر أبدا لا الشمس ولا السماء، ونعيش أسرى في ظلام دامس. تقدَّم لنا خمسة ليترات في اليوم، والأكل غير كاف، ونحن نهب للأمراض والبرد.

بدأ عدد الزملاء يفقدون أسنانهم مثلي، والبعض الآخر يعاني من آلام الظهر وأمراض غريبة أخرى، الخ. وقد بدل صديقنا ما في وسعه لمساعدة الزملاء، وهو وحده من يقتسم بؤسنا. غير أن المحزن في كل هذا، عزيزتي، هو أنه مراقب جدا، ولا يمكنه فعل شيء في حضور حارس يتبعه أينما توجه. كل الحراس الذين يحرسوننا، عزيزتي، حيوانات شرسة، بل هم قتلة بكل ما في الكلمة من معنى. فهم لم يرحمونا منذ أن وصلنا ويطبقون بغباء التعليمات كآلات. وطيلة ست سنوات لم يفعلوا إلا هذا، في الصباح يفتحون بوابة البناية ويوزعون الماء، ويعطوننا قليلا من القهوة السوداء وخبز يومي، ويغادرون البناية دون كلام مع أحد، في منتصف النهار يفتحون البوابة ويوزعون قليلا من الأكل (لا يكفي طفلا بلغ ثلاث سنوات) ثم يغلقون البوابة ويغادرون البناية في صمت.

في الليل يوزعون قليلا من المعجنات ويخرجون. مرة في الأسبوع أو الأسبوعين يسمحون لنا بكنس الزنازن ويضيفون من حين لحين إناء لتسليك المرحاض. أقسم لك عزيزتي، بأن هذا النظام دام ست سنوات. وتعود عليه الجميع. حتى

أننا لم نعد ننتبه له. إن سقط أحدنا مريضا فالجواب الدائم هو التالي: لا قدرة لي على فعل شئ لك. حاولنا بكل الوسائل من أن نخرج من هذه الرتابة (إضراب عن الطعام ، صخب الخ) لكن بدون فائدة. مع الوقت فهمنا بأن لا فائدة. لذلك أذعنا للأمر الواقع ونَظَمنا حياتنا على ذلك. تاركين الباقي لإرادة الله.

نشكر الله الذي وضع هذا الرجل في طريقنا. ثقي بي، عزيزتي، فقد أنقذ عدة أرواح. أطلب منك أن تشكريه كثيرا وأن تقولي له بأن كل من يخرج حيا من هذه البناية يدينون له بنجاتهم ولن ينسوه أبدا.

هذه، عزيزتي، فكرة عامة عن وضعنا ورغم كل هذا البؤس فإننا نأمل كلنا في رؤية الشمس في يوم ما، ورؤية أطفالنا ونسيان كل هذا الألم.

إننا نجهل كلية من أعطى الأمر بهذه المعاملة، أهو القائد نفسه أو أخر يريد بنا شرا؟

والآن لننسى، عزيزتي، هذا الموضوع المحزن، ولنتكلم عنا. أنا بخير ومعنوياتي جيدة، وقلبي يقول دوما إنني سأراك مجددا في يوم وأرى ابنتي هدى الجميلة وابني خليل الجميل. أنا على علم الآن بما يجري في العالم ويمكنني أن أقول لك ما حدث في أي نقطة في العالم يوما بعد يوم، عزيزتي، أنا أفهم الآن بأن وضعيتنا ترتبط بقوة بقضية الجنوب. ونظرا للحالة الحالية، فإن الأمر سيطول أكثر فأكثر. وفي كل الأحوال فالحالة وصلت لدرجة ساخنة. وأنا آخذ الجزائر فهي من وضعتنا في هذه الأزمة، وأتمنى أن يكسروا ظهرها.

أقضي وقتي في تعلم قليل من الأنجليزية، قراءة القرآن، سماع صديقي الوفي (الراديو) تعرفين عزيزتي أنك تستحقين بسبب هذه الجوهر سفرا يدوم شهرين لأمريكا أو اليابان. كل يوم أقضي وقتا معك ومع الطفلين. أراك في البيت مهتمة بهدى وخليل، في الصيدلية، عند العائلة. دائما نفس الحيوية وشرسة شينا ما، إن هذه الشراسة الطيبة تعطيك كثيرا من السحر وهذا ما يجعلني أحبك عزيزتي، وأنا فخور بك، وأتأسف لكوني لا أملك الكثير من الوقت لأثبت لك هذا الحب. لقد بدأنا بالكاد وبصراحة أنا أنب نفسي قليلا لأنني اكتشفت كم كنت سينا معك، في كل الأحوال عزيزتي، مهما يقع، اعلمي أنني أحبك من كل

قلبي، وأشكرك كثيرا على أنك أعطيتني أجمل طفلين في العالم. إن خرجت حيا من هذه الحفرة سأثبت لك هذا الحبّ وسترين عزيزتي كم تغيرت.

حاولي بالنسبة للأدوية أن تبعثي أقصى ما يمكن وخصوصا العلب التي تحوي كثيرا من الأدوية لإسعاف الزملاء معي (27). مثل العادة المضادات الحيوية (روفا تيترا تيرا، الكثير من تيتراسيلين وأوريو) أدوية للبطن ولأعضاء أخرى. لا تنسي أقصى ما يمكن من المقويات الموجودة.

بالنسبة للأدوية حاولي أن تسألي صديقنا هل هناك زميل لنا في البناية اشتد عليه المرض. سأطلب الدواء الضروري فليعطيه لي وسأسعف زميلي. وعليه على الخصوص ألا يوزع الأدوية على الزملاء لأن البعض يتظاهرون بالمرض ويزعجون ويزاحمون المرضى بحق.

كل الزملاء الذين يتواجدون معي في البناية بخير، الوافي، مغوتي، الزموري، لامين رشيد، وفي البناية الأخرى سقطت ضحية واحدة لنا.

عزيزتي،

لم يتبق لي إلا أن أتمنى لك شجاعة أكبر وأطلب منك أن تبقي نفس عايدة التي عرفتها: طيبة، ضاحكة، شجاعة، حيوية، ومقبلة على الحياة. أنا رجل، عزيزتي. وأواجه هذه الوضعية بشجاعة. اجعلي الطفلين سعيدين. ولنترك الزمن يفعل فعله. قبلي كل العائلة بدلا عني وخصوصا ملاكيَّ الذين يحرساني. أحبك عزيزتي، تعرفين ذلك.

حشاد

إن الأكثر أهمية من الأدوية والمواد الغذائية هو أنني كنت أعطي زوجتي أخباراً عن الزملاء تنقلها للعائلات: الوافي، مغوتي، الزموري، لامين، لحسن. أحدثها عن صحة كل واحد وأخبرها بالوفيات. ولا معلومة عن مساجين البناية الأخرى. بحسب ما أسر به "جيف" فالموتى فاقوا الأحياء.

جاء اكتشاف آخر لتوسيع دائرة حريتنا. فبفضل قطعة مرآة مربوطة لغصن نخل كنت أتمكن من رؤية ما يدور في الممر وذلك بتوجيه "البريسكوب" (منظار يُقرِّب) من ثقب الكوة. إنها وسيلة ناجعة للمراقبة، حصلت عليها كل الزنازن. كنا نعرف بالضبط ما يدور في الممر. نشاهد مباشرة رقص الضفادع، وصيد الفئران والجرذان من طرف الأفاعي، وحجيج العقارب والمرور غير المتوقع لهوام أخرى. مشهد كان يسلي كثيرا ساكني البناية. بفضل قطع قصدير علب سردين، أدخلت الواحدة في الأخرى، وصارت لاقطا، وأكملت براغي ترانزستور الجهاز وصار صوت الراديو واضحا.

سمحت لنا لحظات التلاقي في الممر بأن نربط صداقات فيما بيننا وأن نخلق أواصر متينة بين بعضنا البعض. وبفضل إحسان "جيف" لم يعد أموات - أحياء تازمامارت محبوسين في عزلة أبدية بل صار لهم الحق في القليل من الشمس، يأخذون وجباتهم البئيسة مجتمعين في الممر، يثرثرون، يعلقون على الأحداث، يخططون لمشاريع، يفكرون في إستراتيجيات، يسهرون على المصابين، يفكرون في وضعيتهم. ذات يوم من سنة 1980 طلب مني منصت بأن أضم للبريد رسالة عامة أتحدث فيها فقط عن تازمامارت وعن أوضاع سجننا فيه. كانت الفكرة رائعة. بدأت للتو في تحرير الرسالة. أضاف منصت بعض الأفكار واقترح بعض التعديلات... صارت الرسالة جاهزة وتبقى إرسالها. كان السجناء على وعي بالمخاطر الكبيرة لهذه الخطوة. فما أن يفتضح السر، هل سيتردد المخزن في تصفيتهم لكي يقول بأن تازمامارت لا يوجد إلا في مخيلة أعداء البلد؟ هذا خطر محتمل، بعد نقاش مستفيض قرر التازمامارتيون ركوب المخاطرة. ففي كل الأحول هم هنا حتى نهاية الأزمنة. بإمكان هذه الرسالة أن تنقذهم كما من شأنها توقيع نهايتهم. إنهم ماتوا من قبل بالنسبة لعائلاتهم وللعالم الخارجي. كانوا يعرفون بأن خلاصهم يتوقف على الضّغط الذي ستمارسه أوربا والولايات المتحدة الأمريكية على النظام الشريفي.

في نفس السنة زرت صديقي المرزوقي في زنزانته لأحدثه عن شوقي لابنيَّ، بنتي هدى التي تركتها في سنتها الأولى. أشعل شمعة فأريته صورهما. نظر المرزوقي لصورة هدى طويلا، وبتأثر أغرورقت عيناه بالدموع. أياما بعد ذلك. أهداني المرزوقي منديلا مطرزا بمناسبة عيد ميلادها. قصيدة مطروزة باليد من طرف سجين

لتمني عيد ميلاد سعيد لبنت سجين آخر. حافظت على هذه الهدية، وكنت أبكي في كل مرة أقرأ فيها الأبيات الشعرية المطروزة بيد الزميل في قطعة الثوب. كانت التفاتة صداقة وتضامن منه. التفاتة ترمز لأواصر الأخوة التي سادت بيننا منذ أن خاطر الحارس محمد بمد العون لنا. في رسالة مؤرخة ب 13 شتنبر 1980. قلت لزوجتي بأنني أعطيت لصديقنا "جيف" منديلا مطروزا، إنها قصيدة لهدى، هدية عيد ميلادها، وطلبت منها أن تضع للمنديل إطارا وتعلقه في أحد جدران حجرتها.

تازمامارت 13 شتنبر 1980

عزيزتي،

حمدا لله. فقد أعطاني صديقنا أوراقا لأكتب لك كلمة. رسالتك الأخيرة أسعدتني وولدت بداخلي الكثير من الشجاعة.

لنتحدث قليلا عن هذا النظام. في الحقيقة، عزيزتي، نحن نخضع حاليا لنظام مستحيل. أكل رديء وغير كاف. غياب الشمس والنظافة. لفظ العديد من الزملاء أنفاسهم الأخيرة، ودفنوا في الساحة ببساطة. ولا من رأى ولا من عرف. والعديد من الزملاء مصابون. لذا أطلب منك عزيزتي إن كان من الممكن القيام بتدخلات جماعية، طلب العفو. تدخل لدا الجنرال الدليمي عن طريق والده أو رسائل أخرى مفتوحة للوزير الأول، رئيس البرلمان، رئيس المجلس الأعلى...الخ إن أردت معرفة عناوين العائلات الأخرى إتصلي بالأستاذ المهدي بلكبير فله أخ معنا. إنه يمارس المحاماة في مكناس. تحدثي معه حول هذه الفكرة فبوصفه رجل قانون سيكون على علم بالعديد من الأشياء. لقد وصلنا لوضعية حرجة والمدير وزبانيته مصرون على دفننا واحداً واحداً. هناك رجل واحد يعمل ما في وسعه لمساعدتنا. إن هجرنا عزيزتي، فلن أصمد أكثر من سنة.

توجد طيه رسالة أطلب منك قراءتها بتمعن وبالمحافظة عليها في صندوق حديدي سأقرأها لطفليّ إن خرجت من هذه الحفرة الملعونة. ستعطيك هذه الرسالة فكرة عن وضعيتنا الحرجة. بإمكاننا الصمود لو كنا نعيش في ظروف

Lettre volante   Ma chérie -   Tazmamart le 5 Août 1980

J'ai essayé de tracer dans cette lettre tous les faits qui se sont déroulés depuis notre transfert de la maison centrale de Kenitra à la maudite prison de Tazmamart.
La nuit mémorable du 7 Août 1973 changea nos destinées. Nous fûmes réveillés sans ménagement et sans preuves, fortement ligotés, les yeux bandés et [illegible] comme des sacs dans des camions militaires qui nous conduisirent à la Base Aérienne. Deux avions militaires nous transportèrent comme des ballots à Ksar Essouk où d'autres camions militaires nous convoyèrent de la même façon à Tazmamart, la terrible Bastille. Arrivés dans la matinée, nous fûmes dépouillés et conduits dare dare à nos cachots bétonnés, nous fûmes enfermés individuellement pour ne plus en sortir.
Ce sont des cellules de 6 m² sans air et sans lumière; elles sont nauséabondes: les toilettes mal conçues et sans chasse d'eau se trouvent dans un coin. Il n'y a pas de fenêtre. Un trou dans le plafond laisse filtrer une lumière blafarde; pauvre reflet, il y a un double plafond en tôles enduites, qui nous servent de [illegible] que dans la morne continuité la nuit du jour. Véritables fournaises en été, elles se transforment en chambres froides l'hiver (8 mois). L'ameublement se réduit à un broc, une assiette et un pot déformés en plastic. Deux couvertures rongées par les mites, étalées sur un "sommier" de pierres constituent la literie du prisonnier qui partagent les punaises et les cafards, maîtres incontestés des lieux. Les scorpions prolifèrent. Les serpents viennent quelquefois chasser les rats dans le couloir au grand amusement des geôliers armés de bâtons, "tristes gardiens" de l'enfer qui se repaissent de ces spectacles macabres. Le croassement des corbeaux et le hululement des hiboux donnent une note d'abandon à la sinistre prison.
Le dictateur "habile" homme d'affaires a su tirer le meilleur de ses sinécures en transformant la cour destinée à la promenade des prisonniers en bergerie. Les moutons et les chèvres assoiffées ⇒

viennent nous réveiller en cognant au milieu de la nuit en tentant de leurs cornes la porte d'entrée. Nous reconnaissions le lever du jour au braiement familier d'un âne du douar voisin, sympathique créature qui nous rappelle qu'il y a un monde autrement plus gai. Notre seul ami semble être un vieux crapaud qui vient régulièrement se moquer du grotesque et de la petitesse des hommes.

Le changement de régime carcéral nous étonna puis nous consterna. Les geôliers imperturbables et sceptiques ouvrent les cellules l'une après l'autre et juste le temps de nous passer la nourriture (3 fois par jour), un si grand mot pour peu de chose. La nourriture se compose invariablement d'un verre de café noir fade et froid et d'un demi pain souvent rassis si non pourri (ration journalière) pour le petit déjeuner. En guise de déjeuner, ils distribuent au petit bonheur la chance et en vitesse (l'odeur les irrite) de l'eau de vaisselle qu'ils appellent potage dans laquelle nagent quelques légumineuses. Même cérémonial le soir, une boule de pâtes alimentaires mélangées aux restes du repas de midi. Quand ils nous donnent un morceau de viande, quelques grammes souvent un os, une fois par quinzaine, c'est une véritable aubaine. La distribution de deux sardines et d'un œuf dur après plusieurs années de privations fut pour nous un grand événement et meubla nos conversations pendant plusieurs semaines. L'eau est insuffisante et rationnée, un broc de 5 l par jour.

La vie du prisonnier est devenue une lutte incessante. Lutte contre le froid : l'hiver est glacial, il neige à Tazmamart. Le prisonnier réveillé au milieu de la nuit grelottant et transi se livre à une danse folle. Le gémissement des tôles donne à cette veillée un caractère démoniaque. Un morceau de fil de fer rouillé trouvé par hasard dans la cellule est promptement transformé en aiguille de fortune, instrument précieux en prison vu l'état des couvertures. En été la chaleur est torride, on étouffe quasiment dans les cachots et le prisonnier est forcé de coller son nez au judas de la porte pour puiser un peu d'air et quand exténué la poitrine en feu il veut chercher un peu de repos sur son lit de pierre il est assailli de toutes parts et sans répit par toutes sortes de parasites (punaises, puces, moustiques, cafards, araignées etc..) Les scorpions sournoisement viennent se faufiler

sous les couvertures; le spectre de cet animal hideux nous interdit de faire aucun mouvement incorrigible. Plusieurs prisonniers ont été piqués. L'ennui pèse lourdement sur le moral et le physique du prisonnier. Pour briser cette routine mortelle il est obligé de marcher à tâtons, mais l'espace est réduit. Toute conversation est presque impossible, la disposition des cachots l'interdit, et le brouhaha des autres voix transforment le bâtiment en véritable foire. Le seul refuge qui lui reste est la prière et la prostration. Le coran fut d'un grand soutient tout au long de notre séjour (plusieurs d'entre nous l'ont appris par cœur) évidemment oralement. Le prisonnier habillé en haillons les pieds nus ses cheveux et sa barbe qui n'ont pas vu le coiffeur depuis plusieurs années lui donne l'aspect non rassurant d'un clochard authentique. La pluie de l'automne transformé la plupart des cellules en mare puis en marécage.

Les jours suivent les jours, les responsables n'ont pas l'air de nous donner nos droits. On réclama, la réponse fut prompte et catégorique. Elle sortit de la bouche d'un geôlier plus piqué que les autres qui nous souffla : « un ~~prisonnier~~ doit ~~pas être~~ ~~[illegible]~~, [illegible] le seul droit ici c'est de vous taire ». On tenta la première grève de faim de 8 jours. L'indifférence des responsables fut totale et à vrai dire cela arrangea les geôliers qui ne venaient plus qu'une seule fois par jour, les mutins aggravèrent d'une peine déjà trop lourde. En réalité le seul résultat obtenu fut la diminution de la nourriture déjà insuffisante, les geôliers devinrent beaucoup plus sévères et beaucoup plus méchants. Notre séjour devint de plus en plus pénible la chaleur plus lourde et devant le manque total d'hygiène apparurent les premières maladies. Tomba un camarade malade « qu'il meurt ça lui chante ». On protesta « sa Majesté le roi que Dieu glorifie n'agréera jamais de telles monstruosités ». Une pénitence de 15 jours sans nourriture nous fut infligée, un châtiment qui va se répéter plusieurs fois. Juillet 1974 2 camarades terminèrent leurs peines et comme ils ne furent pas libérés comme prévu l'un deux réclama. Combien as tu! lui demanda un geôlier, "3 années", il ne faut pas dire 3 années mais il faut dire pour toujours. Les maladies se succédèrent et le médecin tenu[illegible] [illegible] les mourants;

les geoliers de[illegible] de plus en plus cruels, les punitions pleuvaient
la moindre [illegible], le moindre geste mal interpreté étaient severement
sanctionné. La penitence variait selon la gravité entre 5 et 10
jours [illegible] et gare à la recidive. Le couloir etait devenu un veritable dé-
potoire; les geoliers ne pouvant plus supporter l'odeur vinrent enfin
le laver. Un vrai menage qui tint pour nous lieu de date.
Un camarade qui avait une excellente santé nous informe qu'il saignait
abondamment du nez, plus tard il nous fit savoir que ses jambes commencait à
ne plus le supporter. Livré à lui même il ne pouvait plus venir prendre
sa nourriture à la porte et faisait ses besoin dans ses haillons. Le geolier
se contentant d'ouvrir et de fermer peu lui importait qu'il mangeait
ou non. Le camarade était courageux et nous donnait chaque jour un
aperçu de son état, son moral etait bon. La paralysie partielle commen-
ça et devint totale plus tard, le delire du camarade nous fit partager avec
lui des nuits cauchemaresques. Comme il ne parlait plus ils vinrent pour l'em-
baller dans ses couvertures et le sortirent. Quelques minutes plus tard ils le rentrerent
et le posèrent tel quel sur le sol glacé de sa geole. « Nous lui avons fait
une piqure » disent-ils d'un ton hypocrite. Le lendemain le camarade ren-
dait son dernier soupir. Ils vinrent masqués (à cause de l'odeur) et le
sortirent dans ses haillons et l'enterrerent sans rite religieux
dans la cour. ~~On le sut~~ plus tard, c'était le 25 oct. 1977. Un transfert
imprévu de quelques camarades à l'autre batiment nous apprit qu'à cette date
ils avaient déjà 6 morts. Il nous appris par ailleurs qu'il y avait une fosse
enorme au milieu de la cour. C'était certainement la fosse commune destin-
ée à recevoir les corps des defunts. Cet evenement malheureux changea
notre façon d'agir. A l'occasion de toutes les fêtes on demanda d'écrire à Sa
Majesté que Dieu protège, la reponse fut negative. Les choses s'accelerent
nous devenions de plus en plus fragile et la nourriture de plus en plus mau-
vaise. Le 2 Janvier 1980 un 2ème camarade succomba à une hemorragie
rectale. Même rituel qu'avec le 1er. Le 3ème est en train d'agoniser, 3 autres
sont gravement atteints et sont à moitié paralysés, le reste ont au moins
3 maladies (appareil digestif, saignements divers, trouble de la vision, polyo-
pathie, scorbut etc..) Telle est notre situation actuelle et le spectre de la
mort nous hante jour et nuit, un silence equivoque plane sur le bati-
ment et quelquefois l'horreur de la situation fait revolter l'un de nous
il est immediatement remis à l'ordre à coup de poings et à coups de baton.
Ceux qui restent frisent la folie. Le directeur et ses sbires guettent.
Cette lettre est un temoignage exacte. Je viens par là te faire toucher le
[illegible] de notre situation et te demande de voir s'il n'y a pas
moyen de faire des interventions collectives (demande de grace etc...). [illegible]

طبيعية. لكن ونحن محبوسون 24 ساعة/24 ومجوّعون فهذا مستحيل. إن ثلاثة أرباع متاعبنا تأتي من المدير وهو مصاص دماء حقيقي.

سأعطي لصديقنا منديلا مطرزا. إنها قصيدة لهدى. هدية في عيد ميلادها، ضعي لها إطارا وعلقيها في حجرتها.

تشجعي عزيزتي وليحفظك الله

حشاد

لسوء الحظ لم يصل المنديل لمن أرسل لهم.

تازمامارت المقتلة

"أما بالنسبة للزملاء الذين بقوا، فهناك من هم ممددون وهناك من يتحركون على أربع"

سجين سابق

واصلت الحياة مجراها بآلامها وإحباطاتها، وكوابيس موتها البطيء. فقد الجسم عاداته منذ مدة وتحول لروبو عار وقذارة، لم يعد العقل يشتغل إلا بتلكؤ، يسافر بين الأحلام الوردية لحياة صارت في ضفة الموت أكثر منها في ضفة الحياة. كان يتوجب البقاء والمعاناة. لدرجة أن المعاناة صارت نار جهنم. لماذا يا رب كل هذا الحقد؟ لماذا كل هذا الاحتقار للكائن البشري؟ لماذا كل هذه القسوة؟ كان يتوجب ألا نطرح الكثير من الأسئلة. لكن هل يتوجب قبول هذا المصير الأعمى ومواصلة الخضوع لإصرار رجال الظل على تعذيبنا؟ هذا المخزن الذي بإمكانه قول الشيء ونقيضه، الذي بإمكانه أن يعطي الكل ويصادره في الآن نفسه بالشكل الأكثر فظاعة. المعاقبة حتى القرف، حتى الطمس، غير مترددين في اجتياز عتبة ما يمكن احتماله بشريا. انتهى بنا المطاف إلى هجران عالم كل شئ فيه مصطنع إلى النسيان، وصرنا محبوسين في عالم خاص بنا، عالم لم يعد ينتمي إلى عالم الأحياء حقاً، ولا إلى عالم الأموات حقا. عالمنا هو عالم الأموات - الأحياء، عالم المعذبين من طرف الملك. إننا محابيس تازمامارت.

ضرب الموت في البناية "أ" للمرة الثانية، موت ظالم، سيعيدنا للنظام، نحن المدفونين أحياء. ويذكرنا بحقيقتنا المرة، فبمرور الزمن، فهمنا بشكل جلي بأننا منذورون لموت

بطيء ولا رحمة فيه. لا مكان للأمل في هذا الجحيم الإنساني. رغم أن هذا الأمل المستحيل نفسه هو الذي أنقذ البعض من موت محتم، موت مبرمج من طرف رجال أكثر غموضا من الحقد. واجه أموات - أحياء سجن العار، المحكوم عليهم بمدد مختلفة، وأمضى معظمهم مدة محكوميتهم بزمن طويل، هذه الحقيقة، التي رددها الحراس عدة مرات: "أنتم هنا إلى الأبد" وفعلا، كنا هنا لنعاني في عقولنا، وأجسامنا، أفظع انتقام.

نادانا العربي أزيان ليقول لنا بصوت ناعم:

- أصدقائي، ينزف ما تبقى لي من دم من الخلف. أعينوني إن استطعتم!

كانت صيحة استغاثة. أعقب كلامه صمت ثقيل، ماذا بإمكان معدمين أن يفعلوا إزاء صيحة كهذه، وإزاء نزيف؟ بكى البعض، وبدأ البعض الآخر في تلاوة القرآن، وتجمع آخرون على أنفسهم في ركن من زنازنهم، وقد تلقوا ضربة قاصمة من هذا الشؤم الذي يعلن عن نفسه. لم يبق أحد منا لا مباليا. وهذا التضامن الأخرس أو اللا معبر عنه يجعل من هؤلاء الرجال المعذبين قوة تتحدى إرادة رجال الحكم، وتتحدى القدر، وتتحدى الموت نفسه. غير أنه ما الذي يمكن فعله إزاء مرض في فقر أقصى؟ كيف يمكن مساعدة محتضر حين لا يكون هناك إلا الموت لتخليصه من آلامه، كيف ذلك مع الحفاظ على كرامة رجال لا يحنون رؤوسهم ويبقون واقفين؟. فهم الأكثر معرفة بخطورة الوضعية، فنزيف في تازمامارت قاتل، ثم إن صورة موت شجعي مازالت تحلق فوق البناية، رافقنا ليل لا نهائي، بلا فجر، ومؤلم حتى انبلج الصباح. وحده الابتهال كان يخفف عذابنا وعذاب زميلنا. في الغد، سمح لي الحارس محمد بزيارة المريض. بقيت ما بعد الظهر معه وفوجئت لبركة الدم التي كان يتخبط فيها السجين. بقلب منقبض أعطيته القليل من الدواء الذي أملكه، القليل من الأكل ،أطراف خرق ليدفئ أعضاءه العظمية. والأكثر من هذا هو هذا الحضور الأخوي، هذا القرب والعون النفسي، تكلف "جيف" بإحضار مضادات حيوية له وبعض اللحم والفواكه. لكن المرض، وللأسف، كان أقوى من إرادة الرجال وواصل تقدمه دون أن يكترث بآلامنا ولا بيأسنا. وبما أن صحة المريض تدهورت فإن بن عيسى الراشدي قد تطوع للسهر عليه كل الليالي. كان ينام في زنزانته في الليل، ويعينه على الوقوف، ويعطيه الأكل... كان الدم يسيل على طول رجلي العربي بدون توقف. وما تبقى له من قوة كان ينقص تدريجيا حتى فقد القدرة على تحريك أطرافه، الكل فهم بأن الساعة المحزنة قد أزفت. تعبأ الزملاء وأعطى كل واحد ما يملكه من أكل ودواء و خرق. ومن كانوا

حساسين بكوا في خفاء لكي لا يشعروا المريض بأن حالته ميؤوس منها. الكل كان يواسيه ويطمئنه بأن هذا الدواء سيكون فعالا لإيقاف النزيف، وأن قطعة لحم ستعطيه قوة أكثر، الكل أراد مساعدته والكل يعطي ما عنده. كان بن عيسى في كل صباح يعطينا تقريرا عن تطور صحته. لم تكن الأخبار مفرحة. كان الدم يهجر ببطء ذلك الجسد المشوه والمجوع والمعذب وبالموازاة معه صار الشلل تاما.

يومان من قبل، مثل العادة، جمد نعيب بومة الدم في عروقنا. كنا نعرف بأن هذا النعيب نذير شؤم. ففي كل مرة يتهيأ فيه الموت ليضرب في تازمامارت. كان يسبقه هذا النعيب المشؤوم، والذي يبقى عدة أيام بعد الدفن.

كان الأسى في ذروته وتحول إلى ضنى حين نقل لنا بن عيسى الخبر السيء. إذ انتقل العربي أزيان إلى الرفيق الأعلى في الليل. بدون أن يبكي ولا أن يتأوه. سهر بن عيسى الراشدي على الجثة حتى الصباح، هَدَّنَا الخبر، هكذا أنهى أزيان مساره في تازمامارت. وسيبقى موته مثل موت الآخرين مكتوبا بمداد عار لا يمحى في الصفحات السوداء لتاريخ هذا النظام.

مات العربي بكرامة محافظا على الابتسامة. لكن موته تسرب إلى جسد كل سجين منا وانحفر في جدران كل زنزانة. لم تجف الدموع، وتعالى ترتيل القرآن من كل الحناجر مالئا المكان ومرافقا الميت إلى مثواه الأخير. حرر زميلان الجثة المحطمة من أسمالها، وغسلا بقاياه قبل أن يلفاه في لحاف جاء به الحارس محمد. أدينا جميعا صلاة الغائب قبل إعطاء الجثة للحراس لكي يلقوا بها في حفرة بجانب سور الساحة وتغطيتها بجير حي. بكى الحارس محمد الشربادوي، هو أيضا، بينما كان باقي الحراس يضحكون.

رأى اليوتنان الطويل المشهد من كوة زنزانته قبالة البوابة الرئيسية. لم يكن لأسانا حدود، ذكرنا موت العربي أزيان بمصيرنا الخاص: أن تكون في تازمامارت فللمعاناة والموت. لا يشبه الموت في تازمامارت الموت الذي يعرفه عموم الناس، إنه موت بلا وجه ينشب مخالبه في عزلة الرجال. تتخذ جدران الزنازن الرطبة سمكا لا يمكن تخيله. ثم هناك البرد الذي يسكن الجسد بلا رجعة. والأنكى من هذه الموت هو أن تجد نفسك أمام الجدار، وحدك في ظلام حياة تتفتت بين حقد وملل. للموت في تازمامارت كل الوجوه الممجوجة لعزلة بلا حدود. ومثل حيوانات قمامة كنا نقتسم أسمال الموتى.

استقر الموت في البناية مع جماع يأسه وسمكه. و لم يعد الرجال يفكرون إلا في هذا القدر الذي لا يمكن الفكاك منه والذي لا يترك مكانا للتفاؤل، أن تموت دون رؤية الشمس مرة أخرى، دون رؤية نور النهار وإلى الأبد، الموت في سر أولئك الذين لم يرتكبوا ذنبا سوى التواجد في مكان ما كان ينبغي لهم التواجد فيه، وفي الزمن الخطأ. الموت دون أن تعطيك يد إيخاء شربة ماء ولا تلمس بشكل ودي وجهك. والأكثر إحباطا هو أن تحتضر وحدك، في مواجهة موتك الخاص، ولا أحد بجانبك يمسك يدك ويعينك على عبور الظلمات التي تغطيك شيئا فشيئا قبل أن تبتلعك كلية. لم نكن نخاف الموت. كنا لا نفهم لماذا يجعلوننا نموت بالطريقة الأكثر نذالة في الوجود. وماذا بصدد منع مسلم لمسلم آخرمن قبر لائق به؟ فلاحق في أعمال كل شعائر الموت في هذا المكان الذي يعلو فيه الحقد على كل العواطف الأخرى، كراهية الآخر، الانتقام الأعمى، إزدراء القوانين والحقوق أمام الناس، وصمت الجدران السميكة والإسمنت شديد البرودة، الغياب أيضا والفراغ، فراغ كل شيء. علينا ونحن محبوسون كفئران مختبر بأن نرضي انتقاما أعمى، كريها، انتقام عصرآخر، العيش مع الموت، موت قرر، أريد، وبرمج من طرف رجال في الظل، رجال ساديين كما هم مجانين.

رمى ذهاب العربي أزيان البناية في مأتم لا نهائي، وحدهم بعض المشاغبين واصلوا أعمالهم الدنيئة في ازدراء تام للآخرين. صار الضغط والمساومة أكثر حدة تجاه من يعينهم على قدر ما يستطيع. كنا نخاطر في كل لحظة بفقدان تعاطفه ودعمه. لم يريدوا أن يفهموا بأن الرجل يقامر بحياته وهو يحاول أن يساعدنا، فإن أكثر من الاتصالات وأشكال الدعم التي يقدمها للمساجين، فهو يخاطر، في كل لحظة، بافتضاح أمره لدى الإدارة. وإن حدث ذلك، فعليه أن يخاف على حياته وحياة عائلته وكل عائلات المساجين. لم يفهموا بأن العون الذي يقدمه موجه للجميع. لم يريدوا فهم هذه الفكرة البسيطة. في أعماق اليأس الذي كنا نعيشه حدثت مأساة أخرى في البناية. سقط جيلالي الديك، وهو من بين إنقلابيي الصخيرات مريضا هو الآخر. نزيف داخلي، تماما مثل العربي أزيان. الفرق الوحيد هو أن الديك كان يبصق الدم من فمه على شكل صفائح خاثرة. كان الهلع في البناية عاما فالرجال يعرفون بأن هذا الضرب من الأمراض مهلك في مكان لا وجود فيه لا لإسعافات ولا لوقاية. قمنا بالتناوب كرجل واحد للتخفيف عن زميلنا وكنا منشغلين بمتاعبه. وكلما جاء دور أحدنا كان يسهر على تمريضه بقدر ما يستطيع. ومرة أخرى كان على أطراف الأغطية أن تسخن

جسده الضعيف ونصف حصة الأخرين من "اللحم" أن تمنحه قوة أكثر. وهو ممدد في أرضية زنزانته كان الديك يتحدث لزملائه عن أطفاله، وألمه، ومشاكله، ويبصق من حين لحين قطعة من الدم الخاثر، ويواصل الكلام مرة أخرى، يتوقف من التعب، ثم يواصل خطابه بدون أن يتألم أو يشتكي. كان يبتسم بدون توقف، لأنه، وبدون شك، كان يعي بأن ليس من حقه أن يرعب زملاءه. كان الموت يُقرّب في رطوبة الجدران وحقد أولئك الذين قرروا أن الانقلابيين ينبغي أن لا يخرجوا أحياء من تازمامارت. في زنزانة مليئة بالصراصير والبق كان الديك يجد القدرة على حكي ملح. وكانت انفجارات ضحك تتسرب من جدران العار من حين لحين. تفاقمت وضعيته الصحية من ساعة لساعة، وبالخارج لم يكن هناك سوى الصمت والليل.

ذات صباح، فتح السادي مولاي علي، وهو حارس بدون رحمة، باب زنزانة الديك، وتأمله للحظة قبل أن يوجه حركة بيده ويقول له مرتين "باي باي". آخذه البعض على تصرفه، انفجر مولاي علي ضاحكا وواصل فتح أقفال الزنازن. لم ينجح القليل من الدواء والمقويات والأكل في إنقاذ الرجل المسكين. كان من شأن اهتمام الزملاء أن يعينه على تجاوز المحنة في ظروف عادية. لكن في تازمامارت، كانت الظروف كل شيء، إلاّ عادية. وكان من شأن علاج مناسب أن ينهي هذا النزيف. لكن رجال قرروا بأن على سجناء تازمامارت بأن ينهوا حياتهم بين جدران هذا السجن. بل إنهم، لا شك، يندهشون لصمود هؤلاء الرجال الذين يتلكأون في الذهاب. إن هدفهم هو أن يجعلوننا نعاني أطول مدة ممكنة حتى يتسنى إرضاء انتقام مرضي. ما الذي يتوجب قوله للناس؟ قوله للتاريخ؟ ما الذي بالإمكان قوله لله لتبرير كل هذا الحقد، كل هذا الظلم؟ أي فائدة لمعاناة هؤلاء الرجال بالنسبة لأولئك الذين قرروا هذه الهمجية التي لا اسم لها؟ إعطاء العبرة؟ فلا أحد يعرف محنتهم. إن هذا يفيد خصوصا في إعطاء درس للضباط الذين كانوا ضمن الدائرة المحيطة بالملك، هذا ما سيقع لكل من يخون الملكية! فهذه تعلم إذعان البعض عن طريق معاناة آخرين. فمن جهة زبانية السلطة اتخذ القرار بسرعة، فلا شيء صار يهم أكثر الرجال الأقوياء للنظام سوى الاغتناء والأعمال المشبوهة التي تجعل منهم أغنياء المغرب الجديد. مغرب على المال أن يعوض فيه، في نظرهم، كل اعتزاز بالنفس يتخلون عنه أمام أنفسهم وأمام العموم. لقد انتهى المغرب إلى دفن رجاله الشجعان والمال عوّض كل القيم. و لم يتبق إلا رجال صغار مستعدين للحبو على بطونهم من أجل امتيازاتهم. يمكن للنظام أن

ينام بعمق، فرجال البلد دفنهم أو أجبرهم على الرحيل للمنفى أو سجنهم أو أرشاهم بمختلف الوسائل.

حاول الحارس محمد، مثله مثل الزملاء، وبكل الوسائل بأن يساعد الديك، الذي تدهورت صحته بسرعة. شلل في رجليه، أعقبه شلل كامل ثم الموت. مات الديك في شتنبر 1980، ومن كل الزنازن التي يتواجد بها سجناء تصاعد ترتيل القرآن لمصاحبة الميت إلى مثواه الأخير. وجه موت الديك ضربة عنيفة لمعنوياتنا، بدأت أعصاب الزملاء تنفلت وصارت الخصومات تندلع بشكل عنيف ومتواتر في البناية. وضاعف المشاغبون من عملهم القذر للضغط على الرجل الوحيد الذي يمد لهم يد العون. وكثرت المطالب وصار من المستحيل تلبيتها. وتطاير السباب والفظاظة من كل جانب. كانت المناظير توجه في نفس الاتجاه لمراقبة بعض الزنازن وفحص كل حادث وحركة. تواصلت التحرشات بدون توقف، وكل واحد كان يعتقد بأنه أغمط حقوقه الخيالية. والكل كان يشترط على "جيف" بأن يربط صلة مع عائلاتهم. ولأنهم صاروا حادين، ومتطلبين أكثر فأكثر فهم لم يكونوا يقدرون بأن هذه المهمة، الخطرة بقدر ما هي ضارة، فوق طاقة رجل واحد. فالعائلات مشتتة في ربوع الوطن و لم يكن لمحمد لا الوسائل المادية ولا الوقت لإرضاء الجميع، كانوا يعرفون أيضا أن هذا الإلحاح غير الحصيف كان خطرا عليه وعلينا أيضا وعلى عائلاتنا. لكن وبما أنهم يعيشون في هشاشة قصوى فقد كانوا يحتدون في التعلق بأي أمل يتراءى لهم. إن قساوة نظام السجن، وغياب الشمس والنور، وغياب كل أمل... كان يفقد هؤلاء الرجال كل صلة بالواقع أو العقل. كيف يمكن الطلب من أموات – أحياء بأن يعملوا عقولهم في ظروف قصوى؟ كيف يمكن تمييز الأمور حين يسود الموت في المكان وتصبح الأرواح مسكونة بالظلمات؟ هل بإمكانهم أن يتخيلوا بأنه في الحقيقة اليومية للمغاربة تازمامارت لا يوجد؟ النطق ب"تازمامارت" كان كفيلا بجعلك تتعرض للاختطاف والتعذيب والسجن، فصواعق المخزن لا ترحم أحداً، لا يمكن لأموات– أحياء السجن الملعون أن يعرفوا ما يدور بالخارج، فالقمع كان من الشدة إلى درجة أن رعايا الملكية كانوا يفضلون غرس الرأس في الرمال لكي لا يروا شيئا ولا يسمعوا شيئا وأن لا يقولوا شيئا على الخصوص، فذلك خطير، والنظام لا يرحم.

صارت لحظات الهناء أقل من لحظات الخصام وتبادل السباب. فالزمالة أَحلَت مكانها للشك والعداء. ورغم ذلك لم نتجاوز أبدا نقطة اللاعودة. فالحوار يتواصل والنظام الذي أرسيناه في البداية ساد مجددا. ثم وبفضل الحوار توصلنا لتوافق.

في مرحلة أولى ستتصل السيدة حشاد والسيدة الوافي بعائلات القنيطرة والنواحي لجعلهم في الصورة وإعطائهم أخبارا عن السجناء.

في المرحلة الثانية سيوزع البريد من طرف السيدتين على عائلات المساجين. وكل الرسائل تجمع وتعطى من طرف محمد للسيدة حشاد.

وفي مرحلة ثالثة تخبر عائلات الدار البيضاء والرباط بدورها.

هذه المراحل الثلاث كانت تتطلب جهدا موحدا وواعيا بمشاكل عمل كهذا. لذا فالسيدة حشاد ستتكفل بدائرة القنيطرة، والسيدة الوافي بدائرة الدار البيضاء، والسيدة الرايس بدائرة الرباط.

كان البريد يتخذ مسارا عكسيا ويصل لتازمامارت عن طريق نفس القناة، فالسيدة حشاد تجمع الرسائل والنقود وتعطي مجموع الحصاد لمحمد رفقة، كما هي العادة، علبة أدوية، لفائدة المساجين.

وصلت التجاذبات إلى إنخراط الجميع في العملية. وبقي إقناع الحارس بضرورة هذه العملية. هل سيقبل أم لا؟ يوم 16 ديسمبر 1981، عرضت أمر المشروع على الحارس محمد فرجوته أن يقبل مساعدتنا. بدا الحارس متشككا في البداية ثم اقتنع في النهاية. فقد وصلت الحالة الصحية للمساجين إلى حدودها. وإشترط "جيف" تكتما ضروريا من طرف المساجين وألح بأن يطلبوا نفس الحذر من ذويهم. قضي الأمر وتفسر هذه الرسالة التي كتبت في نفس اليوم هذا الاتفاق والأمل التي يمنحه للمساجين وعائلاتهم:

تازمامارت 16 ديسمبر 1981

عزيزتي،

لا يمكنك أن تعرفي، عزيزتي، كم هو مهم بالنسبة لي حدث الاتصال بك. إنه مثل بطارية تعطينا طاقة سنة تقريبا، أشكر الله الذي وضع هذا الرجل في طريقي، وأشكرك، أنت أيضا، لكل العون الذي تقدمينه لي.

لقد هيأت لك قائمة بكل الأدوية التي أحتاجها. وكل ما أطلب منك، عزيزتي، ألح على هذه النقطة، هو أن تهيئي لي قائمة مفصلة بكل ما ترسلين لي موضحة

لي، مثلا، خصائص الكالسيوم ساندوز، إن لم تفعلي ذلك فكأنك تسكبين الماء في الرمل.

لكنني أريدك أن تعرفي شيئا، عزيزتي، ما تفعلينه عظيم عند الله. فبفضلك وفضل صاحبنا عشرات الزملاء مازالوا أحياء. بفضل أموالك وأدويتك. ولتفهمي هذه النقطة جيدا، سأحاول أن أشرح لك ما وقع. حين وصلنا إلى هنا، وزعونا إلى مجموعتين كل واحدة مكونة من 29 سجينا، كل مجموعة في بناية مشكلة من 29 زنزانة. وهكذا، عزيزتي، فالبناية الأخرى فقدت 17 سجينا بسبب إسهال حاد وصداع في الرأس... على العكس من ذلك لم تفقد بنايتنا إلا ميتين بسبب نزيف داخلي كان من المستحيل إنقاذهما. هذه هي الحقيقة، عزيزتي، فمساعدتك ستبقى منقوشة إلى الأبد في تاريخ تازمامارت وعدة أشخاص يدعون لك في صمت وعزلة الظلام الدامس لهذا السجن الفظيع. ستنقذي زوجك أيضا، فبدونك لا أعتقد أنني كنت سأصمد حتى اليوم. كل ما يمكن أن أقول لك هو شكرا على كل شيء وليباركك الله ويحفظك.

أطلب منك شيئا آخر، عزيزتي، هو أن تهيئي لي إبان كل إتصال شيئا صغيرا للزملاء مثلا 33 فيتاسكوربول أو 33 بار C 1000. تعرفين أنك بهذا ستفرحين 33 بئيسا يعيشون في الظلمات محرومين من كل حقوقهم. أقول لك 33 لأنهم جلبوا 8 زملاء من البناية الأخرى لبنايتنا وتركوا 4 فيها، لا أعرف لماذا.

جاء سي أحمد الوافي عدة مرات لزيارتي في زنزانتي، ترجاني بأن أطلب منك بأن تتصلي بزوجته لتبعث له مبلغ 400 درهم، 2ألفتيل، 2 بارا C 1000، كالسيوم ساندوز2 وعلبة أوريوميسين. أطلب منك، عزيزتي، بأن تقدمي له هذه الخدمة فهو متعب جدا. حاولي الاتصال بزوجته عبر الهاتف وإلا قومي بالواجب اتجاهه. يوجد طيه كلمة منه لزوجته..

بالنسبة للطويل، افعلي ما طلبته منك في المرة السابقة. أي ضم رسالته ونقوده لرسالتي ونقودي ووضع الكل في ظرف مغلق. يوجد طيه كلمة من الطويل لطمأنة زوجته.

ماغوتي بحالة جيدة. أخبريني هل مازلت على صلة بعائلته. إن كان بالإيجاب، حاولي إن أمكن بأن تحصلي على كلمة من زوجته أو والده مع 200 درهم. لن ينسى لك أبدا هذه المكرمة وسيبقى ممتنا لك إلى الأبد.

أعتقد بأنني أزعجتك بمشاكلي. لنتكلم عنا الآن. ها أنت ترين، عزيزتي، كتبت رسالتين للطفلين لكن ليس بوسعك أن تعرفي كم كنت متأثرا، لأنني لم أعرف أي لغة أكلمهما بها وكانت دموعي تغالبني. أعينيهما على الكتابة لي. كل واحد رسالة أتركيهما يحكيان لي كل ما يدور برأسيهما. قولي لهما أيضا إن أرادا بأن يعود بابا عاجلا للبيت فعليهما ألا يُحدّثا أحداً عن هذه الرسائل.

أما بالنسبة لوضعيتنا، عزيزتي، فنفس إيقاع الحياة، ولا أدنى تغيير. الجميع صاروا مرهقين فيزيقيا وعامل الوقت حيوي بالنسبة لنا حاليا. ما طلبت مني في المرة الأخيرة مهم جدا. لقد فكرنا فيه من قبل. ونحن بصدد دراسة المشكل بيننا. هناك أشخاص مع وأشخاص ضد لأنهم يقدرون بأن الوضعية الحالية ليست مواتية وخصوصا في هذا الظرف. في كل الاحوال لا ينبغي الاستعجال (قضية الرسالة الجماعية).

تمضي حياتي رتيبة ومليئة بأمل رؤيتك في يوم ما ورؤية الأطفال. تعرفين، عزيزتي، أفعل ما في وسعي لأصمد أطول وقت ممكن. أراقب بشكل دائم معنوياتي ولا أترك الزمن يثقل علي. سأعطيك ومن خلال بضعة أسطر نظرة عن نشاطي اليومي. أنهض دائما في 4 صباحا، إن سمح الوقت، أقضي ساعة في الصلاة، إن كان الجو باردا جدا أصلي تحت الألحفة. ثم أجلس على الطريقة المكسيكية ألف علي الألحفة وأبدأ في الإستماع لصديقي العزيز، جهاز الراديو، أسمع لـ 4 أو5 محطات وما تبثه من أسطوانات جيدة وأخبار. مما يجعلني وبعد ساعتين من الاستماع، تصير لي فكرة عن كل ما يجري في العالم. في السادسة أقرأ القليل من القرآن بصوت مرتفع لكي أمنح الزملاء الضوء الأخضر للبدء في الكلام. أنهض وأبدأ في المشي وأنا أغني أو أقرأ القرآن. إبان هذا يناديني عدة زملاء ليتمنوا لي نهارا طيبا و يتبادلوا معي بعض الكلام. في 7 و45 دقيقة، يصل حراس الجحيم، بسرعة، يعطوننا الماء، قليلا من القهوة وخبزا مستديرا ويغادرون البناية. نصمت صمتا تاما في حضورهم لكي نعبر لهم بصمتنا عن إزدرائنا. إن كان صديقنا في الخدمة يحدث بعض الارتياح لأنه يترك أبواب الزنازن مفتوحة عدة دقائق، ويكون لنا وقت لنرى فيه بعضنا وتبادل بعض الترميقات.

بعد القهوة وحتى 11 و30 دقيقة، تحيى البناية في هذه الفترة وحدها. نلعب الشطرنج، نسمع الأخبار المشفرة من صديق مسؤول عن هذا، نسمع درسا حول

مبادئ الإسلام الذي يقدمه لنا صديق آخر. اشتريت له كتابا مهما يعالج فيه ما على المسلم الملتزم معرفته.

في 11 و30 دقيقة يصل المجرمون يقدمون القليل من الحساء ويغادرون البناية وهم يبصقون، في 12 و30 دقيقة يقرأ الطويل ما تيسر من القرآن ليعلن بدء القيلولة فيعم الصمت حتى الليل. يقدمون لنا قليلا من المعجنات (5 و10 دقائق) لا أحد يبقى له نفس للكلام أو القراءة بصوت مرتفع. من حين لحين نسمع صديقين يتبادلان بعض الكلمات بأصوات خافتة. إنه الصمت حتى الغد بعد القهوة. فنعاود من 8 إلى 11 و30 دقيقة. الكل يتكلم يغني في 12 و30 دقيقة، لا نأمة، إنه الصمت المطبق.

اقضي وقتي وأنا أسير وأحضر أشياء لفصل الشتاء، عزيزتي. بفضل هذه الترميقات مازلت صامدا. خطت جلابة ملبسة من اللحاف ثم خطت سروالا من قطعة لحاف. خطت أيضا سترة مبطنة ساخنة جدا من الصوف الداخلي للأحلفة، وبالنسبة لرأسي خطت ثلاث قبعات وبرنس ملبس وشالا للعنق لتدفئة عنقي. زوج جوارب، ثياب ملبس. بفضل هذه الأشياء بالكاد أحس بأنني على ما يرام في الشتاء. أنام بكل هذا وتحت 3 ألحفة مطوية على اثنين. وفي مكان السرير خطت واقيا ملأته بكل ما تطاله اليد (خرق، أوراق) مرتبة صغيرة ملينة بصوف الألحفة ولحاف مطوي على أربع طيات. مما يجعلني، عزيزتي، الأكثر راحة من كل زملائي. وهذا بفضل ترميقي. طلبت من صديقنا مرارا من أن يمكنني من سراويل داخلية لكن بلا فائدة. لم يعطيني شيئا. لا تعطه أي لباس لي. بالنسبةللقراءة فأنا أستعمل انعكاس المرآة الذي يعطيني ما يكفي من نور لأنجز أشغالي الصغيرة. هذا الإختراع إختراعي، عزيزتي، وبفضله تمكن عدة زملاء من إنقاذ بصرهم. وقد زودت كل الزملاء وعن طريق صديقنا بمرايا صغيرة.

ستقولين في جوابك هل حصلت على المنديل الصغير وهل علقته في حجرة هدى.

ليحفظك الله.

حشاد

هذا البريد تضمن إضافة مؤرخة ب 16 سبتمبر 1981

أخبرني صديقي بأنه سيؤخر سفره ويتمنى أن يفعل ذلك بعد عطلة رأس السنة. اغتنمت هذه الفرصة لأكتب هذه الإضافة لأطلب منك، عزيزتي، بأن تسدي لي معروفا كبيرا، فالزملاء ترجوني بأن أفعل ما في وسعي لتمكينهم من قدر صغير من المال سيمكنهم على الخصوص من علب ألفيتيل واحدة للواحد كل شهرين وترميقات أخرى. وعدتهم بأن أفعل كل ما في وسعي. وأعطوني كلمة شرف بأن لا أحد سيزعج صديقنا أبدا بالاتصال أو بشيء أخر.

وهكذا قلت لهم بأنني سأتصرف على مرحلتين. المرحلة الأولى: أي هذا الاتصال، أطلب منك، عزيزتي، بأن تفعلي ما في وسعك لمهاتفة السيدة الوافي والطلب منها بأن تزور العائلات التي تسكن في القنيطرة لدعوتهم للمساهمة بقدر من المال، على الأقل 500 درهم لأبنائهم. السيدة الوافي على صلة سابقة بهذه العائلات (أوصياد، لحسن، غلول الخ) قولي أيضا للسيدة الوافي بأن تهدئ هذه العائلات وأن تقول لهم بأنه في القريب (الاتصال القادم) ستصلها رسائل من أبنائها. على السيدة الوافي أن تضم لرسالتها إلى زوجها رسائل المساهمين لأبنائهم. أطلب منك من جهتك الاتصال بأب الماغوتي بالتلفون إلى باب تازة وقولي له بأن ابنه بخير وهو يطلب منه بعث 500 درهم له. إن قال نعم اقرضيها للمغوتي. ستصل والده رسالة منه في الاتصال القادم. بالنسبة للطويل، فكما هي العادة.

هذا كل ما يخص هذه المرحلة، حاولي ما أمكنك تأخير صاحبنا عدة ساعات لترك الوقت للسيدة الوافي لزيارة عائلات القنيطرة.

قال لي الزملاء بأن أطلب منك بعث كالسيوم لكل واحد (33). عليك أن تعرفي، عزيزتي، بأنني وعدتهم بتبليغك هذا. لا يمكنك أن تتصوري كم هم مدينون لك والجميع يقسم بأنهم إن خرجوا أحياء من هذه الحفرة فيشترون لك ولصديقنا هدية.

شكرا عزيزتي على كل شيء وليحفظك الله.

حشاد

كان البريد يشرح بالتفاصيل الحياة في تازمامارت، دون أن يغفل ذكر مختلف الاختراعات في السجن، معاناة الرجال، كرم الحارس محمد الذي انخرط في صراع يجهل خاتمته وتبعاته. فرجل مثله لا يمكنه أن يجهل الخطر الذي يعرض نفسه له. فبخلاف معظم الحراس حافظ على حيز من الإنسانية بداخله ورفض ما تتعرض له كائنات بشرية أمام عينيه. حمل مع الجواب الأول كنوزا وخفف عن المساجين الذين أحسوا بأنهم لم يهجروا كلية. تلقى الوافي رسالة و500 درهم. نفس المبلغ رافق رسالة الماغوتي. المفاجأة جاءت من عائلة صدقي التي بعثت 1.500 درهم. في نفس السنة ربط حارس آخر الصلة لفائدة بلكبير والصفريوي الذين تلقيا نقودا من عائلتيهما وزودا صندوق البناية ب 600 درهم. مع كل هذه النقود والأدوية كنا مطمئنين على قدرتنا على مواجهة التقلبات التي تهدد بإنهائنا في كل لحظة. كان يتوجب الحفاظ على الصبر والاعتقاد بأن نجما سعيدا ولد هذه السنة لحمايتنا.

أموات البناية "ب" الأحياء

"أكثر قليلا من الجرذان، أقل قليلا من الناس"

سجين سابــق

جاءت سنة 1981 بحمولة من الأحداث غير المتوقعة. في 23 مارس مثلا، نقل ثمانية زملاء من البناية "ب" إلى بنايتنا، لماذا؟ غموض تام، يتعلق الأمر بعبد السلام حيفي، حميد بن دورو، غاني عاشور، والثلاثة من انقلاب الصخيرات، ثم عبد الكريم الشاوي، إدريس الدغوغي، أحمد رجالي، عبد الله فراوي، عبد السلام رابحي، وكلهم "متورطون" في الانقلاب ضد البوينك الملكية. كانت وضعيتهم الصحية مزرية. لقد فقدوا، منذ مدة، كل مظهر بشري، والأكثر قوة منهم بالكاد يقفون على أرجلهم. كانت شعورهم تصل أرجلهم، وجلودهم ملتصقة بعظامهم وطبقة من القذارة تثقل أعضاءهم النحيفة. كانوا يمشون، منحنين، وبالكاد يتحركون. وهم يستندون على الجدران أو متكئين على أحد الحراس. كانوا لا يتكلمون وأدنى نأمة تفزعهم. كانوا غريبين ولا يمكن التعرف عليهم، كانوا مكسورين مثل عيدان دوم رفست. اندهشوا بقوة حين عرفوا بوجودنا. واندهشوا أكثر حين لاحظوا بأن عدد الأحياء في بنايتنا كان أعلى من أحياء بنايتهم وأن الظروف أكثر رحمة. أمام هذه المشهد القادم من عصر آخر. لم تكن لنا سوى دموعنا لنعبر عن حزننا. بكينا كلنا بدموع حارة ورجونا الله بأن يفرج كربنا. كان يلزم بعض الوقت للقادمين الجدد ليتملكوا هذا المكان الجديد وخصوصا التعود على النظام الجديد للمكان. كانوا خائفين، ويعتقدون أنها حيلة من الحراس لاختبار شجاعتهم، أو مخاوفهم، أو صمودهم. كانوا يرفضون الكلام،

يرفضون أن يقولوا من هم ويصرون على البقاء مسمرين في الزنازن التي أعطيت لهم. كانوا يحتدون في البقاء بعيدين عن الآخرين. بعد ذلك سيحكي عبد الكريم الشاوي حكاية معاناتهم بالتفاصيل، لم يكونوا يعرفون، وهم محرومون من كل شيء، الفرق بين النهار والليل، لم يكونوا يعرفون هل ماتوا أم مازالوا أحياء. لا يرون نور الشمس ولا يستفيدون من دفئها. كانت أبواب زنازنهم لا تفتح إلا لفسح المجال لأكل غير كاف وملوث. لم يكن لهم شيء، لا شيء نهائيا، لا دواء، لا راديو، لا قرآن، لا نقود. ثم كانوا يعيشون في فوضى مطلقة. البعض يصرخ أو يخبط الأبواب المصفحة حين يريد الآخرون الخلود للنوم. والبعض كان على يقين بأن البناية مسكونة بالجن الذي يتحامل عليهم لجعلهم مجانين قبل إنهائهم. استولى الجنون على ساكني البناية ودفعهم للفوضى والإضطرابات. والأنكى من هذا هم الحراس الذين كانوا يضربون بعصيهم أجسادهم المهدودة، والمنهكة، وشبه الميتة. لم يكن لساديتهم من نظير إلى جهلهم ولا إنسانيتهم. أخبر الشاوي الآخرين بأن بنايته فقدت ستة عشر سجيناً، ومن تبقى في حالة متقدمة من الوهن لا يمكن لإنسان أن يتخيلها. لم تفقد بنايتنا حتى هذه اللحظة إلا ثلاثة زملاء، كلهم ماتوا بسبب نزيف.

تعبأ الزملاء لتقديم العون لزملائهم. كل واحد أعطى ما عنده. طرف غطاء قديم، فتات خبز صلب، أدوية، قطعة جبن، خرق، شعر... ساعدناهم بقدر ما نستطيع في ظروف تازمامارت. كان الأهم من هذا هو إدماجهم بسرعة في المجموعة وجعلهم يقبلون نظام البناية. شرحنا لهم لماذا يتوجب قبول هذا النظام. وبالتناوب كنا نحدثهم عن مكامن ضعفنا، ونحدثهم خصوصا عن قوتنا، الاختراعات المنجزة، النظام الصارم والمقبول، برامج الدراسة، استعمال الزمن، الشفرات، الإتصالات مع العالم الخارجي... تطلب منا الأمر أسابيع من الجهد المتواصل لكي يقبلوا بأنهم لا يتعرّضون للعبة وأن بإمكانهم العيش بثقة كاملة وسط زملائهم الجدد. كان أحدهم السّرجان عبد السلام الرابحي يجتر مرضا منذ سنوات. كانت صحته تسوء يوما بعد يوم، لم يعد سوى هيكل عظمي و لم يعد يستطيع الوقوف. كان يتوجب تنويمه، تقليبه، مرافقته ليقضي حاجته في الحفرة، تنظيفه، صارت عيناه مجرد نقطتين سوداوين ولا محاولة نجحت في إنقاذه. انتهى إلى رفض تناول الأكل وأسلم نفسه لموت وخلف حزنا عميقا لدى الجميع. مات في 17 ماي 1981. جاء الحراس ولفوه في ألحفة قذرة. رافقنا جثمانه بالدعاء وقراءة القرآن إلى مثواه الأخير، تلقت حفرة بالقرب من السور جثمانه

الذي غسله زملاؤه من قبل. وطمر القليل من التراب والزلط والجير الحي السرجان الرابحي وإلى الأبد. ملأ الصمت والدموع يوم الحزن هذا، بناية الفرصة الاخيرة. بكل تأكيد لم يكن الحراس يعرفون من هو عبد السلام الرابحي، كانوا يهزأون، كيف مازالوا ينامون ويحسون بفرح الحياة بالقرب من ذويهم وهم شهود على الرعب الذي تعيشه كائنات إنسانية، ليل نهار، في مقتلة تازمامارت التي لا تسمى؟

بدأت سنة 1982 بشكل سيء بالنسبة لنا. بدأ بعض المشاغبين في القيام بأعمالهم الضارة، المساومة، تهديد "جيف" والحارس الذي ربط التصال ببلكبير. كانوا يتكالبون عليهم ويشترطون عليهم ربط اتصالات فورية مع عائلاتهم. غير أن هناك شيئا كان مؤكدا. فالبعض ولأن أعصابهم كانت منفلتة كانوا يهددون ب"فركعة الرمانة" وفضح الأمر... لكنهم لم يتجاوزوا أبدا الخط الأحمر لإلحاق الضرر بأي كان. فرغم استثارتهم كانوا يعرفون حدودهم ولا يتجاوزونها أبدا. بعد لحظات الفوران انتهت العقول إلى الهدوء وعاد الوفاق إلى البناية. كيف للعقول أن تبقى سليمة في محيط مظلم جدا، وبين رجال من آفاق مختلفة، من حساسيات مختلفة، لم يختاروا أن يعيشوا مجتمعين، وكان عليهم، وبقوة قدر كريه، أن يقتسموا عشرين سنة من الحياة المشتركة، في تلف تام، في حقد على حياتهم وعلى أجسامهم الخاصة، في البؤس النفسي والمادي الأكثر قابلية لعدم الاحتمال. أن نعيش مجتمعين دون أن نختار ذلك، عشرين سنة، ليلا ونهارا، دقيقة بعد دقيقة، في قرب بهيمي قاتل تقريبا.

بعد الاتصال الأول، بدأت مرحلة ثانية. فبعد عائلات القنيطرة، الرباط، الدار البيضاء، كان يتوجب إخبار العائلات المتواجدة في مكناس وفاس. على بلكبير أن يتكلف بهذه المنطقة، وبين هذا وذلك، شكلت لجنتان لتدبير أفضل وأكثر نجاعة ولتنظيم أفضل للحياة داخل البناية. كان هدف اللجنة الأولى الأساسي هو العناية بالحالة الصحية للمرضى، وتقسيم الأدوية، بطريقة عقلانية، حسب جسامة مرض كل واحد. كانت اللجنة الثانية مكلفة بتسيير البناية، المشاكل المالية، تدبير وتزويد الصندوق الجماعي بالسيولة المالية والتي منحت لي مع توصيتين دقيقتين: تدبير جيد وشفاف. بدأت الدولة - النظام تتخذ لها شكلا في "حفرة زك العالم" هذا. أعطت هذه العملية ضربا من الديموقراطية التي لم يعرفها البلد بعد، والذي تحرر منذ مدة طويلة من الاستعمار، ولن ينجح أبدا في بنائها. حددت اللجنة المكلفة بمشاكل

البناية مبلغ ثلاثة آلاف درهم لكل زميل معني بالاتصالات. المبلغ الذي ينبغي أن يطلبه من أهله. وكما هي العادة تكفل الحارس محمد بنقل البريد إلى المرسل إليهم. في رسالة مؤرخة ب 15 أبريل 1982. أفسر لزوجتي مخاوفي إزاء بريد "جيف" فباستثناء حارسين، كان الآخرون أوغادا بدون رحمة ولا شفقة. لكن "جيف" كان مختلفا عن الآخرين. وكان، مرة أخرى، رسول الأمل لمساجين تازمامارت. غادر البريد السجن في ماي 1982.

تازمامارت 15 أبريل

عزيزتي ،

من بين الحراس العاملين في بنايتنا هناك فقط إثنان يساعداننا ويقتسمان معنا الامنا: صديقنا وصديق بلكبير. الباقي مجرمون حقيقيون وبدون شفقة. لذا فمُفاتحتهم في الأمر ليس ممكنا. بدأ عدة زملاء في التحرش بصديقنا وصديق بلكبير. لكي يُؤَمِّنا لهم الإتصال بعائلاتهم. بل هناك من بالغوا في الدعابة وصاروا يساومون ويهددون بفضح كل شئ. إجمالا، صارت القضية مقلقة شيئا ما ولكي نسوي الأشياء، اقترحنا، أنا وبلكبير، على الزملاء موضوع المشاريع. الكل وافق والجميع أقسم بترك أصدقائنا يعملون في هدوء وأقسموا بالسهر على سلامتهم. أطلق بلكبير مشروعه، وقام صديق بالاتصال، لسوء الحظ من بين سبع عائلات التي تم الإتصال بها واحدة فقط هي التي استجابت، وهي عائلة الصفريوي، أما العائلات الأخرى فهناك من صفقت الباب في وجه أخ بلكبير (مهندس معماري شاب) ورَدّ الأخرون، ببساطة، أنهم لا يعرفون المعني... وأعطانا هذا فكرة عن القضية فعلينا أن لا نكون متفائلين جدا بخصوص مش روعي. ها نحن الأن في القضية. لقد بسَطْتُ كل المشاكل لصديقنا وكان متفهما. ثم إنه وجه لي نفس الملاحظات التي وجهتها لي حين أعطيته الرسالة مع رسائل الزملاء. أطلب منك، عزيزتي، أن تفعلي ما في وسعك فعله مع العائلات كما فعل أخ بلكبير وأخبريني بردود فعل كل عائلة. هناك نقطة أخرى مهمة هي أن تقولي لصديقنا أن لا شيء يفلت من الزملاء. إنهم يرون كل شيء من كوات الأبواب وأن إخفاء الاتصال خطيرا جدا. حتى هذه

اللحظة الكل على ما يرام والزملاء يرون في صديقنا منقذهم، وأقسم لك بأن لا أحد سيجرؤ على فعل ما يضره، إذن، أطلب منك، عزيزتي، بأن تأخذي عملك هذا للزملاء من الجانب الحسن وشجعي صديقنا من جهتك. أعانك الله وحماك. صرت حساسا بعض الشيء وأتجنب دوما الاشتباك مع الزملاء الذين صاروا هم أيضا حساسين ويتصرفون احيانا مثل اطفال. ومرد هذا، بدون شك، إلى نظام العزلة التامة. إن الوضع الصحي للزملاء مزر. فالعديد منهم مسمرون للأرض 24/24 ونحاول معنويا أن نجرهم معنا. النظام هو نفسه دوما، لا دواء، لا شمس ودوما نفس القانون: سِرْ أو مُتْ. غير أننا عشنا هذه السنة أحداثا سعيدة. أعطونا ألبسة، وألحفة. وصار السجانون أقل قساوة: يضيفون بعض الماء للمراحيض، ووضعوا مكنستين رهن إشارتنا وتركوا السجناء يعينون زملاءهم المرضى. هذه الأشياء تافهة لكنها في الظروف التي نعيشها عظيمة. استدعي مدير السجن للقيادة العليا وبعد عودته مباشرة جاء عند الطويل لزنزانته وسأله: "هل أنت الطويل حقا؟" وانتهى الأمر. عرفنا بعد ذلك بأن زوجته حركت القدر بدون شك. أطلب منك في موضوع السيدة الطويل بأن تحدثيني في شأن سفرها لأمريكا لإرضاء الطويل.

بالنسبة للأكل. عرفنا بأن 90% من مآسينا تأتي من طباخ وغد يسرق كل شيء، ويخزن ذلك في دوار (سكر، زيت، خضر..الخ) وحين يحصل على عطلة يأخذ معه ما نهب (الأمر هنا يتعلق برسول بلكبير) عوض بآخر فصارت الأمور أفضل مما كانت عليه. غير أن قائمة الطعام بقيت هي نفسها: قليل من القهوة في صباح مع خبز السوق، خضر في منتصف النهار، وفي الليل معجنات، لا لحم ولا سردين إلا في يوم الأعياد الكبرى.

هناك أخبار سعيدة بالنسبة لنا: علمنا عن طريق الراديو وقناة بلكبير (بحسب أخيه المهندس المعماري) بأن قضيتنا صارت دولية. معروفة في أوربا، وفي إفريقيا، وفي أمريكا. استمعت للراديو الذي أورد ما قالته مجلة افريقيا أسيا عنا (كشفت كل شيء) وقرأت شهادتين عن عالم تازمامارت وردتا في جريدة لوموند التي سلمها لي صديقنا. هذه الأحداث، عزيزتي، تعطينا الأمل ونعرف أن هناك فقط ثلاث عائلات هي من تجري وراء شؤوننا (أنتِ، عائلة بلكبير وعائلة

الصفريوي وأيضا السيدة الطويل) قال أخ بلكبير حرفيا في رسالته الأخيرة المؤرخة بشهر مارس: "هناك امرأة حكيمة ومليئة بالشجاعة والأمل تساعدكم ماديا وبالأدوية هي السيدة حشاد".

حاول بلكبير ما في وسعه لمساعدة الزملاء. فكما قلت لك أطلق مشروع الاتصال لفائدة زملائنا المنحدرين من مكناس وفاس. تلقى هو والصفريوي 1000 درهم من عائلتيهما. أعطوا 600 درهم لصندوق العائلة وقليلا من "سلو" والحلويات واللحم المحفوظ "لخليع". وفي هذه اللحظة يوزع صديقه الفيتيل عُلبة واحدة لكل سجين. كل ما أطلب منك ، عزيزتي، بالنسبة لمشروعي وهو أن تقولي لي بالضبط ردود أفعال العائلات. وبهذا سيكون المعنيون من الزملاء راضين وسيتركوننا في سلام مرة وإلى الأبد.

هذا كل ما في الأمر، عزيزتي، مازالت أوضاعنا هي نفسها لكننا بدأنا نتنفس الصعداء بعض الشيء. لدينا كبير الأمل في الشهور القادمة وفي زيارة جلالة الملك الوشيكة لأمريكا. ربما تحدث مفاجأة. من يدري.

هذه تتمة الرسالة

20 أبريل 1982

بصدد الاطفال، أقسم لك عزِيزتي، أنني كنت أسعد رجل في العالم حين بدأت في قراءة رسالتيهما. حتى خُيِّل لي أنهما واقفان بجانبي ويحدثاني، قالت لي هدى: "بابا أنت تشبهني من الأنف والعينين" وقال خليل: "حين تعود سأهزمك في كرة القدم".

هذا الكلام البرئ يذهب مباشرة للقلب وأنا أعتز بكوني لدي طفلان وأم كهؤلاء.

عاتبت صديقنا على عدم إعطائه لك المنديل المطروز لهدى وطلبت منه أن يسترده ويعطيه لك في الاتصال القادم. يتعلق الأمر بقصيدة جميلة مهداة لهدى. تأثرت حين ‍ ‍ ‍ت بأنك لم تأخذيه، بل إنني بكيت لأقول لكم كم صرت

حساسا. ومن باب الإخبار سأعطيك فكرة عن نظام بنايتنا: عين الزملاء لجنتين، واحدة مكلفة بالمرضى والأخرى بالمشاكل. ويوم الجمعة هو يوم الكشوفات التي لا تزيد عن حالتين للاقتصاد في الدواء ولتجنب إرهاق صديقنا. أنا الوحيد الذي أتواصل معه. بالنسبة للاتصالات، فبلكبير يتكفل بزملاء فاس ومكناس وأنا أتكفل بزملاء القنيطرة، الرباط. والنقود المجمعة تذهب للصندوق الجماعي للبناية. غير أن المانحين يتمتعون بحصة خاصة. ستكون النقود في يدي بالنسبة لمجموعتنا وفي يدي بلكبير بالنسبة لمجموعته. إن تركنا الشأن في البناية ضعنا جميعا. سيقع لنا ما وقع للبناية الأخرى الذين كانوا يتقاتلون (خصام، وشاية، سباب،...الخ).

في المرة القادمة سأحدثك عن مأساتهم. وعلى سبيل المثال هذا ما حكى لي صديق عن موت شمسي: كان ذلك أواسط يناير (3°-) ذات صباح بدأ يصيح كمجنون وينادي أمه أمي، أمي، أريد أمي" وأخذ يخبط نفسه بالباب الحديدي ثم تعرى وأفرغ سطل ماء مجمد على رأسه، فسقط ميتا (1974) أما بالنسبة للآخرين فقد ماتوا في ظروف اسوأ من ذلك.

يساعدني زميل لي من بني ملال كثيرا ويسهر علي حين أكون متعبا. غير أنه يعاني من ألم في مصارينه. مصارينه الغليظة منتفخة ولم يعد يملك الجهد لقضاء حاجياته. يبقى بين 5 أو 10 أيام دون أن يذهب للمرحاض وحين يذهب يحدث نزيف بشكل آلي ويفقد الكثير من الدم. أطلب منك أن تبعثي له شيئا ما يداوي مرضه، وما ييسر خروج فضلاته.

بالنسبة للطويل، طلبت من صديقنا بأن يتجنبه حين رأيت المدير يسأله. فعلت ذلك من باب إحتياط أمني. قولي هل حافظت على اتصال بزوجته.

ضمي لرسالتي رسائل كل الزملاء الذين أرسلوا في المرة الأخيرة رسالة إستكشافية. أترجاك، عزيزتي، أن تفعلي ما في وسعك من أجلهم. هذا ما يتوجب فعله: أعطي السيدة الوافي رسالة زوجها وهي من عليها التكفل بعائلات صدقي والزموري. وخديجة الرايس تتكفل من جهتها بزملاء الرباط.

بالنسبة لك لقد ضممت رسائل زملاء القنيطرة: لحسن أوصياد، غلول، بالإضافة لماغوتي ورسالة بلكبير لأخته.

أعطيت شفرة لرسالتي: برق هدى. برق يحيل على صديقنا وهدى تحيل على هذه الرسالة. في آخر جوابك، ستشيرين لتلقيك هذه الرسالة بما يلي: "برق هدى تم تلقيه 11/11 وأعطي لرسالتك شفرة.

أحبك وأدعو لك دوماً

حشاد

إن كانت هذه الرسالة تعبر عن أسى وقلق سجناء هذا الجحيم الأرضي الكبير، فإننا لم نفقد في أي لحظة معاني الصداقة، والمسؤولية، والزمالة، ولا فقدنا خصوصا الوحدة والتعاون. الرسالة الثانية الموقعة ب 20 أبريل 1982 تعبر عن هذا التضامن الذي كان ضروريا لبقائنا أحياء، نحن الذين كان محكوماً علينا بالموت البطيء. وزعت اللجنة المهام، ونظمت شبكات الاتصال، فحصت اللقاءات والإجراءات الواجب اتباعها، هكذا، كان على كل عائلة أن تقوم ببعض الإجراءات.

– سترتبط السيدة الوافي الصلة مع عائلات صدقي والزموري، وتعطي البريد الواصل من تازمامارت.

– على السيدة خديجة الرايس أن تتصل بالعائلات القاطنة في الرباط.

– السيدة حشاد ستتكفل بعائلات لحسن أوصياد وغلول ومغوتي وبلكبير.

أدى هذا الجهد العظيم في التنظيم والتوافق إلى نتائج مثمرة. كانت البناية في فوران، وكل واحد منشغل بمهمة. تكتب رسائل على أوراق أو على أطراف أوراق. وكان انشغال هؤلاء وأولئك هو إخبار ذويهم بأنهم مازالوا أحياء، وشرح الشروط اللاإنسانية التي يعيشون فيها. كتبت، بمساعدة من منصت، رسالة عامة ثانية مؤرخة ب 5 ماي 1982 شرحت فيها ادق تفاصيل النظام السجني في تازمامارت والشروط المنحطة والمتردية التي كنا نعيش فيها.

ÉCLAIR HOUDA - lettr. volante Le 5 Mai 1982

N°10

- Voici un aperçu très succint des conditions dans lesquelles vivent et meurent les prisonniers de Tazmamart - Sachez avant tout que c'est un lieu de perdition, un lieu perdu où personne jamais ne vient, dirigé par un fou soit disant commandant sans foi ni loi, un voleur invétéré aux moeurs louches, un ignorant, un amorphe sans initiative et un Ponce Pilate. Parler de cet énergumène à lui seul nécessite toute une dissertation. La plupart du temps il n'est jamais là. Il vient chaque fin du mois pour ramasser l'argent détourné autrement dit volé sur notre nourriture. Quant à ses sbires ils ne sont pas moins caractéristiques. Ignorants tous, des tueurs habillés en s/off. sauf évidemment nos 2 amis que tu connais. Ils se réjouissent chaque fois qu'ils sortent l'un de nous ballotté dans une couverture sale pour l'enterrer tel quel dans la cour intérieure de la prison et sans le moindre rite de l'islam. Ils participent positivement à notre famine puisqu'ils se nourrissent sur notre compte. Ils sont violents sans le moindre sentiment et ils n'hésitent pas à infliger des sanctions dans la

moindre et la bastonade & ils peuvent
même enfermer l'un de nous sans nourriture
ni eau pendant plus d'une semaine - Quand
aux conditions elles sont lamentables sans par-
-ler des choses que tu connais déjà - Voici quelques
cas de maladies qui ont causé la mort de plu-
-sieurs. Imagine toi que plusieurs ont été atteint
d'une sorte de diarrhées qui a fini par les clouer
tous au sol sans ~~aucune~~ aucune aide, vivant
dans leur excréments, quelquefois assoiffés
ils rampent jusqu'au coin où est posé le broc
l'effort les épuise et juste au moment où ils
l'atteignent trouvent la mort. Trouvé dans cette
position par les gardes ils se contentent de verser
dessus une bouteille de gresil avant de le
jeter dans un trou. Un autre a perdu toute
sa peau avant de mourir, un autre encore
tout son sang, plusieurs sont devenus fous
et pour terminer l'un d'eux aurait été en-
-terré vivant, le restant squelettique
les yeux ~~exorb~~ exorbités édentés ou
scorbutiques en haillons, nus pieds
tel est le spectacle de ceux qui n'ont pas
perdu l'espoir et ne le perdront jamais,
car ils ont la foi en Dieu et la foi
en leurs familles et surtout en →

n° 11 ECLAIR HOUDA.
toi car tous, ils te connaissent et admirent
ton courage, ta tenacité, ta foi, ton sens
de l'humanité, car sache que si nous sommes
encore 33 dans notre batiment c'est sans doute
grace à Dieu à toi et à notre ami. Sans l'aide
en médicament, et en vivre il nous serait arri-
vé ce qui est arrivé à l'autre batiment qui a
perdu plus de la moitié de son effectif.
Nous pensons qu'il y aurait certainement un relâ-
-chement si ce maudit directeur est relevé de
ses fonctions, certainement il fait tout son
possible pour nous maintenir dans l'obscurité
afin que le scandale n'éclate pas. Je te rap-
-pelle les commissions d'enquête qui ont été écon-
-duites par lui sur je ne sais quel motif
certainement un mensonge. Il veut absolument
nous isoler de l'extérieur jusqu'à notre extinc-
-tion totale. Ces derniers temps nos tortionnaires
semblent démoralisés car ils ont en marre et
tous les motifs sont valables pour déserter le
service. Seul notre pauvre ami est fidel, sans
lui peut-être nous resterons nous sans eau
ni nourriture.
Au moment où je t'écris ces dernières pages
le 2e mouvement dont je t'ai parlé est avec moi
le 2e mouvement dont je t'ai parlé est avec moi
dans ma cellule. Il m'a prié de le laisser

t'écris quelques mots pour te remercier

Chère madame

Je remercie la providence qui m'a permis de vous écrire ces quelques mots vous priant d'abord d'agréer mes hommages, hommages à une véritable Dame noble de caractère et d'esprit, Madame dans ces quelques mots je voudrai vous exprimer notre reconnaissance tout et même plus car vous êtes notre famille et notre soutien que Dieu vous preserve et vous aide. Vous avez notre admiration et nos prières car nous savons tous les demarches que vous entreprenez et les dangers que vous n'hesitez pas à affronter pour nous. Madame vous pouvez être fière de Monsieur votre mari et mon ami, de son abnégation, de son courage, de sa foi et de son amour de sa famille. Sûrement Madame nous gagnerons. Mes amitiés pour Houda et Khalil. Que Dieu vous protège. Adieu Madame

- Voici la liste des défunts :

Armée de Terre : S/Lt El Kouri M^{ed} - S/Lt Moha Botou - S/Lt El Yakidi Mahjoub - Adj^t chef Boumekoul M'hamed - Adj^t chef Dik Jillali - Adj^t Kouyeu Amarouche - S/C Ababou Abdelaziz.

Aviation : Lt Echems M^{ed} - Adj. El Aidi Mohammed - Sgt KASRAOUI Kacem - Sgt Abdeslam Rabhi - Sgt Echejji M^{ed} - Sgt Aziane Larbi - Sgt Abouni Thami - S/C Moulay Allal - Sgt BAHBAH DRISS - Sgt HADAN Bouaza - Sgt KINAT M^{ed} - S/C BETTIOUI RABAH

Enfin Chérie je te laisse avec mon amour je te parlerai encore plus de nous prochainement.

Hachemi.

جمع البريد بعد انصرام شهر من العمل المتواصل، والتشاور، والصبر، والتعاون. وكان يتوجب الانتظار أيضا. انتظار عطلة الحارسين القادمة، واللذين كانا أقل انغلاقا عن الإحساس بالمأساة الجارية أمام أعينهما. كان يتوجب، إذن، الانتظار والدعاء. فقد ثبت الزمن مؤشري ساعته على ميناء قدرنا، محولا الأيام إلى قرون لا نهائية. كان يبعدنا عن الأمل وعن الحياة. أمل تلقي أخبار من الخارج، أمل يد عون تمتد نحونا، أمل تذكر الله لوجودنا وسماع ابتهالاتنا، غير أنه لم يكن هناك سوى الحياة التي تهجر ببطء أجسادا، تاركة عظاما تحت الجلد فقط.

حدثت، مرة أخرى، المعجزة في تازمامارت، ذهب الحارس محمد في عطلة، حاملا معه بريد الأموات أحياء. كان الانتظار طويلا، مرهقا بالنسبة لنا نحن الذين فقدنا كل تصور للزمن وللفضاء. كان الصمت يتملك دوما هذا المكان المسكون بالموت. تتأبد الدقائق وتتحول الساعات إلى قلق آسر. كانت أذهاننا تسافر دوما بين الحلم بأمل والخوف من اللحظة الآنية. لكن كان هناك الخوف الذي يعتصر، ككماشة، أحشاءنا ويحول الانتظار إلى تشنجات للمعدة وصداع للرأس. كنا نعرف بأننا نعيش في جحيم، وفي مكان قريب من الجمر. لكن هذا الجحيم صار بالنسبة لنا أكثر احتمالا بواقع هذا الانتظار والوعود التي بإمكانه حملها لنا، أو العكس، الأضرار اللانهائية التي بإمكانه خلقها. عاد "جيف" أخيرا، بعد عدة أيام من الغياب. كانت النظرة الخاطفة التي وجهها إلى زنزانتي في ذلك الصباح، شعاع شمس بالنسبة لي، لقد أنجزت المهمة وأعيد رَبْط الاتصال بالخارج. وكان ذلك أكثر مما كنا نتمناه، غير أن انتظارنا لم ينته بهذا. فلأنه حذر بطبعه، فالحارس محمد كان يعرف بأنه لا يحمل طردا عاديا لأناس عاديين. فهؤلاء الرجال في تازمامارت هم أعداء الملك، أولئك الذين حاولوا قتله. وهم يتعرضون لانتقام الملك التام والذي لا يرحم. كان الحارس محمد يدرك الخطر المُحْدق به والعقاب الذي ينتظره إن افتضح أمره من طرف أحد الحراس وأخبر مدير السجن. لهذا كان يتخذ كل الاحتياطات الممكنة، فيعود لعمله كالمعتاد في الأيام الأولى وينتظر تراخي مراقبة الآخرين ليتحرك. فالحارس الذي يعود من عطلة يشتبه في تواطؤه دوما مع أعداء الملكية ويراقب، لهذا، بشكل لصيق. فمن شأن صدفة أن تلاقي طريق حارس وطريق قريب لسجين، ومن شأن حوار في بار، أو حافلة، أو قطار أن يؤدي إلى تناول أسرار تازمامارت، وثرثرة النساء والجيران بإمكانها أن تشكل خطراً. فإن حوفظ على سر تازمامارت بشكل جيد، فإنه دوما مهدّد بخطر

خطأ أو ضعف أحد الحراس. لذا لم تكن تقبل أي خطوة خاطئة فكل حركة تفحص وتحلل وتؤول وتعاقب. وكل حارس يُبدي حماساً في التقرب من المدير، آملا في نيل ثقته، فهي باب كل ترقية محتملة.

بعد أربعة أيام من عودة الحارس محمد فتح زنزانتي ذات صباح، وبحركة سريعة ألقى علبة فوق مصطبتي. ارتعشت وبكيت من التأثر مثل طفل أعطيت له أول هدية. لم أنجح في ابتلاع فطوري في ذلك الصباح، أداعب طويلا العلبة. أحملها عدة مرات إلى شفتي - ألصقها بالجانب الأيسر من قلبي، ثم حل الشك، والخوف أيضا. هل هذه العلبة هدية من الله، إشارة إلى أننا لم ننس كلية، والأمل مازال ممكنا، والحلم ما يزال مسموحا به . نعم، لكن هل سترضي هذه العلبة الجميع؟ وأولئك الذين لم يتلقوا شيئا، كيف سيكون رد فعلهم؟ لم يكن يتوجب طلب التعقل من مدفونين أحياء والأسى والموت يرافقان كل ثانية من وجودهم. كان يتوجب أن لا نطلب من رجال حولوا لبهائم تئن وتحبو أن يبرهنوا على التعقل والتحضر. فهؤلاء الرجال الذين اعتقلوا عدّة سنوات في ظروف حاطة بما هو إنساني فقدوا تقريبا كل تصور لما هو إنساني، ولأنهم فقدوا كل ما هو إنساني بداخلهم، جوّعونا، وعطشونا، وحطوا من آدميتنا، واستعبدونا، وأهانونا. كانت الأعصاب مشدودة. وكانت الزمالة، الزمالة الطيبة في مكان كل اللعنات هذا، معرضة لأزمات غير متوقعة. كنت أعرف هذا وأتوقع الأسوأ. لهذا كانت سعادتي منغصة بالقلق، ما أن ذهب الحراس حتى فتحت كوتي وخاطبت زملائي معلنا لهم النبأ السعيد، وشارحا لهم أيضا خطورة الوضع. الرعب الذي يسود البلد ومشكل الصحراء المغربية الذي تعبأ من حوله الرأي العام الوطني جاعلا المطالب الشعبية تتراجع إلى مقام ثان. ومن طالب بحق يتهم بالتخابر مع أعداء الأمة ويخاطر بالتعرض لصواعق المخزن. من بإمكانه الذهاب للتفجع على مصير بعض المساجين، أعداء القصر زيادة على ذلك، في الوقت الذي يسقط فيه، وبالمئات، جنود شجعان للدفاع عن الوحدة الترابية للوطن بعد عودة الأقاليم الجنوبية للوطن الأم. يكفي النطق بكلمة "تازمامارت" لاعتقال المخطئ ورميه مباشرة في أتون أمكنة سرية للاعتقال والتعذيب للشرطة وللدرك. يكفي بأن يبلغ أحدهم عن جاره للشرطي الذي يعرفه لكي تشرع الآلة القمعية وبشكل آلي في الاشتغال: مهددة، فارمة، شيطانية، جهنمية. تحجز الآلة الكريهة بدون رحمة، تعتقل، تعذب، تحطم مصائر وتمزق عائلات. كانت الصحراء قضية مقدسة مستغلة من طرف النظام للجم

الآراء والقضاء على المعارضين. كم من إستغلال وجريمة ارتكبا باسم الصحراء؟ كان القمع هو اللغة الوحيدة التي يعرفها المخزن والوشاية هي الرياضة المفضلة للبعض حتى أن بعض أفراد العائلة لم يعودوا يثقون في بعضهم البعض. ومُلْحَةُ الحمام دالة على هذا الرهاب الجماعي الذي عرفه المغاربة في تلك الفترة. خرج أحدهم من حمام عمومي وصادف صديقا له سأله: واش الحمام سخون؟ فكان جواب الرجل: الله أعلم! فكلمة "سخون" قابلة لتأويلات مختلفة. كانت صرامة السلطة تفوق التصور، وكان الناس غير راضين، والأذهان هائجة، كثير من نفاذ الصبر.

أعلنت النبأ السعيد لزملائي وقرأت عليهم رسالة زوجتي التي تخبرنا فيها بما قامت به والقدر المالي الذي منحته كل عائلة:

- الوافي : رسالة ثم 3.000 درهم
- غلول: رسالة ثم 1.500 درهم
- صدقي: رسالة ثم 3.000 درهم
- الزموري: رسالة ثم 1.500 درهم
- بلكبير: رسالة ثم 1.500 درهم
- مغوتي: رسالة من والده ثم 500 درهم
- حشاد: رسالة ثم 3.000 درهم

والأدوية والمقويات ومواد أخرى للاستهلاك المبعوثة من السيدة حشاد موجهة للجميع. ونظرا لضغط الوقت والوسائل لم يتم الاتصال بالسيدة الرايس هذه المرة وأخَر للمرة القادمة، اندلع فرح عارم في الممر، تعانق السجناء وهم يهنئون بعضهم البعض على هذا النجاح الأول. زود الصندوق الجماعي ووصلت الأدوية الأساسية وبكمية كافية لمواجهة الكوارث الصحية. كيف يمكن شكر الرجل الذي يعينهم؟ .وما هي الكلمات القادرة على التعبير عن العرفان لهذا الرجل؟ من الواضح أنه ليس بإمكانه إرضاء الجميع إلا بالمخاطرة بحياته. وقد قام قبلا بما لم يكن عليه فعله. كانت بسمة في تازمامارت كنزا، وكلمة إيخاء تمثل ثروة لا تقدر بثمن. كان الحارس محمد ولإسعاف السجناء يخرق قانون الصمت وتعليمات رؤسائه. كان يسافر يقابل السيدة حشاد، وبحسب استراتيجية وشفرة محددة بينهما، كان يعطيها البريد ثم يعود

لأخذ الأجوبة. يشكل هذا الذهاب والإياب خطرا على محمد وهو يعرف ذلك. كان يحيط نفسه بالتحوطات ويتمنى ألا تكشف عين فَضًاحة ما يقوم به. فهناك حشد من الشيوخ والمقدمين، وعدة مخبرين سريين ينتمون لمختلف أجهزة المخابرات، رسميين وغير رسميين (حراس سيارات وبنايات، بائعوا السجائر بالتقسيط، ماسحو الأحذية، كسالة الحمام، شوافة، طباخو الأعراس) يعج بهم البلد، لاشيء يفلت منهم، ومثل قردة صغار كانوا يعلقون بالأخبار حتى يمحقون طريدتهم. عيونهم وآذانهم في كل مكان. ويعرفون كل شيء عن الكل. فرق متخصصة في الطواف على القمامة في المساء، وبإمكانهم ومن خلال القمامة أن يحددوا تقلبات عائلة ما وكذا التحولات التي تحدث في عاداتهم. لا يمكن لأجنبي أن يمضي الليل في دار دون أن ينكشف أمره مباشرة، فتوضع له استمارة ويدرس ملفه بدقة في مصلحة استعلامات بالعمالة. في ظروف المراقبة اللصيقة هذه، وفي جو من الشك العام الذي قاد لرهاب جماعي، كانت يد هذا الرجل التي مدت لنا في جحيم تازمامارت لمساعدتنا يد مباركة من الله.

لم يفهم الرايس، فاقد الصبر والمتوتر لماذا لم يتلق أخبارا من عائلته هذه المرة أيضا. دعوته لزنزانتي حيث أمضى الليل معي . وشرحت له، وتحدثنا طويلا وقرأنا المقتطف الذي يخصه من الرسالة حيث فسرت زوجتي لماذا لم يتم الاتصال، ملحة على أن الأعضاء المعبئين سيفعلون ما في وسعهم لإرضائه في المرة القادمة. لم تنجز هذه الوعود بسبب ظروف غامضة ولا يمكن التحكم فيها. كان عليه الانتظار حتى 1986، أي أربع سنوات قبل أن يعقد أول لقاء مع أهله.

الحياة الجنسية في تازمامارت

حين جئنا لتازمامارت كنا في ريعان الشباب وكنا نمتلك كل قدراتنا العقلية والجسدية، لم يكن متوسط أعمار ثلثينا يتجاوز الاثنين والعشرين سنة وكانوا عزابا. أما الثلث الآخر فكان مشكلا من متزوجين بعضهم لهم أطفال. أكبرنا سنا بالكاد يبلغ أربعة وثلاثين سنة. كيف يمكن تصور حياة هؤلاء الرجال، إذن، بدون حياة جنسية نشطة؟ لكن كيف بالإمكان إشباع الليبيدو في ظروف مثل ظروفهم؟ محبوسون مثل جرذان، ويتعامل معهم كحيوانات، ومجوعون ومتجاهلون من طرف الجميع؟ أي مكان بإمكانهم إعطاؤه "للشيء" بينما لأجسادهم وعقولهم متطلبات وشهوات ورغبات أكثر استعجالا: إطلاق سراح من أنهوا مدة محكوميتهم، تحسين ظروف اعتقالهم، تنظيم حياتهم في هذا الفضاء الجديد الذي يشبه الجحيم أكثر مما يشبه مركز إعتقال. لقد أخلت الانشغالات الجنسية ومطالب الليبيدو مكانها بسرعة لفائدة صراع من أجل البقاء. كيف يمكن نسيان الصبوات، الرغبات، الأحلام، الاستيهامات؟ البقاء في ما لا يمكن تصوره حين يعدم كل أمل، وحين يجيب الموت وحده على نداء تحرير أجسادنا من احباطاتها المتعددة.

ورغم ذلك لم يختفي "الشيء" كلية من حياتنا، رغم حبسنا أحياء من طرف نظام سادي. فما أن بدأ النظام في البناية وتم احترام البرامج حتى وجد "الشيء" مكانا له في أحاديثنا اليومية. شرع كل واحد منا، وبالتناوب، في حكاية مغامرات الحب التي عاشها في شبابه، منجزات، مغامرات سيئة، إخفاقات، تتطاير الأسئلة من كل مكان. كنا نتوقف عند التفاصيل المثيرة، نطور بعض الفصول التي تظهر فحولة هذا وذاك، ونتسلى باختلاق مغامرات وتجويدها حتى تصير مثل حكايات ألف ليلة وليلة. وبقدر ما كانت المشاهد تتعدد بقدر ما كانت غلمة الرجال تتقوى، ومن حين لحين يحكي لنا أحدنا الحلم الذي رآه في نومه حلم شقراء أو سمراء جعلها تشبع رغبتها كما لو

حدث ذلك فعلاً. يستمع له الآخرون، باستمتاع، قبل أن يوجهوا له الجملة التي لا يمكن تلافيها:

– ويحك ، أنت تحكي لنا الكذب.

كان الضباط يحكون مآثرهم على متن سياراتهم الجديدة المغطّاة أو المكشوفة. مثل الآخرين، كنت أستشعر خصاصا وخصوصا أنني تزوجت مجددا وتركت زوجتي في زهرة الشباب. كانت لي رغبات مجنونة في زوجتي، في جسدها، في لحظات حميميتنا. أختفي كل ليلة وسط أسمالي وأعطي العنان لخيالي. كان ذهني يعبر جدران تازمامارت ويسافر للحظة قبل أن ينزل في سرير جميلتي، هنا، أقضي أوقاتا رفقة زوجتي. آخذها بين يديّ، وأقول لها كيف أن حرارة جسدها تنقصني هناك، أبوح لها بأسراري القديمة وأهمس لها بكلمات حب في تجويف الأذن. كانت لحظات الهروب هذه تريحني كثيرا. فالحلم والاستيهام يجعلاني أهرب، طيلة ساعات من رعب الاحتجاز. فأتلذذ هكذا بلحظات لذة وسط حرارة سرير ناعم، وبجسد امرأة أحبها!

مع نهاية السنة الأولى، صارت هذه المحادثات نادرة أكثر فأكثر، فنظام تازمامارت بدأ يطال معنوياتنا وصحتنا. ونحن ضعاف، مرضى، محبطون بسبب صمت المسؤولين، صرنا على يقين من أننا سنقضي هنا حياتنا كلها، صار "الشيء" تافهاً بالمقارنة مع ضرورة، البقاء، أحياء. علينا التشبث بأي شيء لكي لا نسقط في الهذيان، بالرغم من أن الجحيم استقر في جسم كل واحد منا وفي ذاكرتنا. فحكايات المغامرات والأحلام الفردية تركت مكانها لنقاشات جدية، فقد صار الخصاص ضاغطا، والاحباطات كبرت بقدر ما كان الوقت يمر. كانت الأجساد معنفة بالقلق، والألم، والحرمان، وتصيح في عزلة حبسها. وكان الشبان خصوصا الذين يحلمون باتخاذ زوجة وتأسيس بيت، أولئك الذين تركوا خطيبة أو صاحبة وراءهم، هم الأكثر تأثرا، ويعانون من ظلم وضرر أكبر.

كان النقاش عن الجنس يتخذ انعطافات تكاد تكون مأساوية، فالعلم، والدين، والمعتقد، والإشاعة... يضخمون الظاهرة إلى درجة أنهم يجعلونها غير محتملة. كان البعض يؤكد بأن تعهد القضيب ضروري للحفاظ على قدرته الجنسية، والمدافعون عن هذه الأطروحة هم الأغلبية. والبعض الآخر كان يرى بأن ضعف التغذية سينتهي "بقتله". كان اليوتنان منصت وهو خبير في الموضوع، بوصفه "طبيب" السّجن يقول لنا رأيه وبيقين مختص مجرب في أمور الجنس:

– أصدقائي، النصيحة التي أوجهها لكم هي نسيان الجنس، إننا لا نرى أبدا الشمس والخصاص في الأشعة ما فوق البنفسجية خطير على صحتنا وعلى قدراتنا الجنسية. سننتهي حتما للإصابة بالعقم. أن نلتذ جنسيا في حالتنا يعني موت مؤكد وسريع.

بلبلتنا كلمات اليوتنان، وخصوصا أولئك الذين لم يتزوجوا بعد، ويتمنون الحصول على أطفال في المستقبل، أودعت حكايات المغامرات الغرامية في أرشيف الذكريات. وباتت الأمور المقلقة تتجنب يوما بعد يوم وصارت الأسرار تخاف أن تسمع. وبين أولئك الذين تقلص قضيبهم وأولئك الذين صاروا عاجزين عن الانتصاب، حل القلق محل الثقة في النفس. كان البعض يتخذ الأمر مدعاة للهزل وللتخفيف من وطئة الجو المليء بالحزن والأسى.

"لم أعد أعثر على متاعي يقول أحد السجناء، فيواصل آخر" أبحث طويلا عن متاعي قبل أن أجده حين أذهب للمرحاض" ويزايد آخر: متاعي أخرجه كل صباح بإبرة مثل الحلزون! "بعد هذا تبدأ الأشياء الجدية في الظهور. آلام في الجهاز التناسلي، التهابات المسالك البولية، الإحساس بحريق البول، أكلان في الخصيتين... ومن أعماق زنزانته كان "الدكتور" منصت يضاعف نصائحه وتعاليمه:

– عليكم خياطة ثبان من قطع أغطيتكم، عليكم الحفاظ عليه دافئا، بإمكانكم خياطة جيب خاص لتجنب تعريضه للبرد. لا تغتسلوا بالماء البارد، وتجنبوا الاحتكاك مع المصطبة أثناء النوم، لا تنسوا أن برد الإسمنت لا يتسامح!.

إبان السنة الثالثة من الاعتقال أصبت بالتهاب بولي. أصبت بالهلع وأنا أعتقد بأنني أصبت بفحش وعضوي إنتهى. بدأت أحس بإضطراب نفسي لأنني كنت أعتقد بأن الحياة لا قيمة لها إن أنا فقدت ما يجعلني رجلا. الفحولة ليست لعبة وليست كلمة فارغة في مجتمعاتنا. كان يتوجب قبول الأمر، وكنت معذبا لفكرة عجزي عن القيام بواجباتي كزوج. كيف يمكن مواجهة زوجتي بعد عدة سنوات؟ كيف يمكن العيش مع هذه الكارثة؟ لأول مرة عبرت رأسي أفكار سوداء، لحسن الحظ، أعطاني منصت، مرة أخرى هو، نصائحه وذهب الألم في غضون أسبوع. كنا آنذاك في سنتنا الثالثة من نظام سجني جهنمي.

لكن، بقدر ما كان الوقت يمضي، بقدر ما صارت الأمراض التناسلية مزمنة. فكل يوم كان زميل أو عدة زملاء يتشكون أكثر فأكثر من شيء أو آخر. وكان غياب العلاج والأدوية والنظافة، والشمس، والأكل، والرياضة، والأوكسجين، والنور يساهمون

في مفاقمة صحتنا ووضعيتنا. بعد خمس سنوات صار الألم بلا حدود، وترسخ عميقا في أحشائنا. كانت الأجساد تعاني في تقهقرها، في ضعفها، وفي عزلتها، وكان منصبت يلعب دوما دور الطبيب ويضاعف الإرشادات والتطمينات. وبعد انصرام خمس سنوات من الاعتقال في ظروف لا إنسانية، كانت الأجساد قد استنفذت كل قدراتها على التحمل، كان شجعي هو أول ضحية في زنزانتنا، حين مات سنة 1977 بسبب مضاعفات نزيف تملكنا اليأس. لقد ضرب الموت ضربته وكان يتقَرَى أحوال كل واحد منا، حتى هنا كنا نعتقد بأننا سننجو، لكن موت صديقنا أقنعنا بأن علينا فقط أن ننتظر دورنا.

بعد الاتصال الأول بالعالم الخارجي سنة 1978، ألحقت إضافة برسالتي لأطلب من زوجتي أدوية كفيلة بعلاج الأمراض التناسلية، لكن أيضا كنا نعاني بشكل دائم من آلام في المعدة، والإسهال، وتعفنات معوية، مغص القولون، الدوار، الحمى، القيء، وجفاف، وسعار الأسنان... حتى الكلاب تعالج حين تصاب بمرض إلاّ في تازمامارت. لأن سجناء تازمامارت لم يكونوا يعتبرون مثل كائنات حية، فهم ينتمون من الآن فصاعدا لعالم الأموات ولا تتم معالجة الأموات. بالإضافة إلى الحرمان، كانت الأمراض تعبث في هياكلنا العظمية، تأكل ما بقي من لحم، تهصر أحشاءنا، تفرغ قوتنا وتقود هياكلنا العظمية المتحركة ببطء، لكن بيقين نحو موت أكيد. ولحسن الحظ، دخلت بعض الأدوية إلى هذا المكان الملعون من طرف كل الجن، معظم المرضى استفادوا من هذه الهبة السماوية، وشعاع أمل استقر في النظرات المنطفئة لظلال الرجال هاته، ورفع قليلا من المعنويات.

ثلاث سنوات بعد هذا الإنجاز، بدأ المال يأتي، وبإقتسامه صار بالإمكان إرضاء حاجة كل واحد. وصلت المضادات الحيوية وأدوية أخرى ضرورية لعلاج بعض الآلام. إن كان الجنس قد أخذ حيزا كبيرا في نقاشاتنا فإن حالاتنا الصحية هيمنت على كل الاعتبارات، ينبغي أن نبقى أحياء، هذا هو المستعجل، هذا هو الأساس.

بعد إطلاق سراحنا سنة 1991 وجد بعض زملاؤنا من البناية "ب" الأقل حظا لكنهم مازالوا أحياء، صعوبات دائمة في الإنجاب. بالنسبة لهؤلاء كان لتازمامارت الكلمة الأخيرة. مثل أولئك الذين دفنوا أسفل جدار السجن. يعرف السجانون أن غياب كل شيء سيجعل هؤلاء الرجال مرضى، مجانين، عاجزين، ومصابين بالعقم. تزوج آخرون وأنجبوا أطفالا، وهم يحمدون الله لأن ذاكرة تازمامارت سيتم الحفاظ عليها من طرف سلالة الناجين.

حالة الطويل

قبل تجديد الاتصال بالعالم الخارجي وسعادة لحظات الأمل، عرفت البناية "أ" في نفس السنة حدثا كبيرا. زار بلقاضي نفسه، مدير السجن مبارك الطويل في زنزانته ذات يوم من سنة 1981 وطرح عليه سؤالين:

– هل أنت حقا مبارك الطويل؟ هل زوجتك أمريكية؟

تأكد من هويته واطلع على أحواله الصحية قبل أن يتكلم معه في أشياء وأخرى، ويعلن له تحسنا قريبا في وضعيته. حدث كهذا لم يكن بالإمكان تخيله في تازمامارت. كانت تلك هي المرة الثالثة التي يضع فيها الرجل رجله في البناية منذ أن نقلنا سنة 1973. كان أمرٌ غير عادي بصدد الحدوث. كنا عاجزين عن قول ما هو هذا الأمر، لكن كان لنا يقين بأن مصيرنا يتحدد من خلال هذه الزيارة. لماذا اليوم؟ لماذا الطويل شخصيا وليس سجينا آخر؟ هل نجح، ومن خلال معجزة ما، في الحصول على العفو الملكي؟ وحده الملك يمتلك صلاحية العفو عن أعداء القصر. وإذا كان الأمر يتعلق بقرار السلطات تعريضه لعقاب آخر؟ أو أن المسؤولين تنبهوا لخطأ قضائي فادح يتعلق به؟ أو أن المدير اكتشف خللاً ويريد إعادة الانضباط والنظام لسجنه؟ أو أن الرأي العالمي علم بوضعيتنا ويضغط على السلطات المغربية؟ وفي هذه الحالة لماذا مبارك الطويل وحده؟ كانت الأسئلة تتوالى مرهقة أذهاننا، التي أضعفتها ظروف فظيعة ونظام سجني بربري ولا جواب أتى لتهدئة فضولنا. لكن كان للحدث أهميته لأنه نادر، وهو بمثابة معجزة. المدير نفسه في هذا المكان الذي حوله إلى قبر، بتعليمات من رؤسائه، لكائنات بشرية حكم عليها من طرف محكمة عسكرية وأدينت بمُدَد اعتقال مختلفة. كان ذلك بمثابة صدمة لنا. وأثبت مجرى الأحداث أطروحة الضغطَ

الخارجي. طلبت من الطويل بأن يدعو زوجته نانسي لمغادرة المغرب لتحسيس الرأي العام الأمريكي والدولي بحالتنا. وقد أتت هذه المبادرة، وبدون شك، أكلها.

بعد مجيء بلقاضي الدموي بأيام جاؤوا وأخرجوا الطويل من زنزانته. اختفى لساعات طوال وأخبرنا بأنه إلتقى لجنة مكونة من كبار الشخصيات جاءت من الرباط خصيصا لتكلمه، كان متفائلا وقال لنا إنه متفائل بمآل الجميع. بدأت سنة 1982، بعد أيام عادوا لأخذ الطويل لإجراء فحص طبي هذه المرة. في المرة الثالثة صور له شريط فيديو، كحجة دامغة على بقائه حيا. وكانت مفاجأة الخرجة الرابعة كاملة. فالحراس وضعوا مرتبة سيمونس للطويل في زنزانته، ووسادة، ولحافين جميلين، وأغطية جديدة. وجاء عبر طائرة هيلوكبتر من الرباط الكولونيل فضول شخصيا وأعطى للسجين طردا بريديا أرسل من طرف زوجته من الولايات المتحدة الأمريكية، منذ هذا اليوم استفاد الطويل من نظام خاص حتى أفرج عنه.

إن كانت وضعية الطويل الجديدة قد ملأت قلوب السجناء بالأمل، فقد ألقت بهم أيضا في آتون الشك والارتباك. أليس ما وقع سوى استراتيجية من السلطة لضرب معنوياتنا، وخلق الشنآن بيننا وذلك باستثارة حسدنا؟ لن تفعل السلطة هذا إن أرادت التخلص منا، لن تتردد في تصفيتنا واحدا واحدا برصاصة مسدس في الرأس، فهدف هذا الاختطاف وهذا الاعتقال يرضي انتقاما بهيميا. علينا أن نموت بالتقسيط في أطول مدة ممكنة، بأكبر فظاعة ممكنة وبأفظع وحشية ممكنة. الضغط الأمريكي أنقذ الطويل، زواجه بأمريكية هو من أنقده، ثقل إمرأة أمريكية كان قادرا على إجبار النظام على تخليص هذا الرجل من جحيم تازمامارت. كل الزوجات المغربيات مجتمعات لسن بوزن نانسي. فهل ذلك لأنها أمريكية أم لأنها ليست مغربية؟ هكذا، وهم يمزحون، كان السجناء يتحسرون، جميعهم، لعدم الزواج بأجنبية حين كنا في التدريب خارج المغرب. ولأنه من نفس دفعة الطويل كان الزموري، خصوصا، يعض أصابعه لأنه أضاع فرصة الزواج بأمريكية مثل صديقه مبارك الطويل.

كان الطويل يتلقى كل يوم ثلاث أكلات كاملة متوازنة، صباحا في منتصف النهار وفي الليل، كان يمضي أيامه في الساحة، مع الكلبة هندة التي اعتقلها المدير بلقاضي لأنها لم تأت له بطريدة ذات مرة. بفضل الطويل، تمكن أموات تازمامارت الأحياء من إعادة اكتشاف طعم الزبدة، المربى، والفواكه، ورهافة الصابون. أحدهم، ولأنه

نسي الصابون، شكله ورائحته أكل قطعته، معتقدا بأن الأمر يتعلق بقطعة جبن أو شيء ما يؤكل. كان الطويل يقتسم كل شئ معنا، وكان يلح خصوصا على أن تذهب المساعدة في المقام الأول للمرضى، وللأسف كان عدد الأشخاص لا يسمح لهم بتلقي ما يكفيهم. فالأمر يتعلق بوجبة رجل واحد تقتسم مع ثلاثين بالغ مُجوّعين منذ عقد على الأقل.

ثم في يوم جميل، أخبر أحد الحراس بأن الإدارة تلقت أمرا وأن عليه الاستعداد لمغادرة تازمامارت. بكينا مرة أخرى من الفرح ومن القلق مجتمعين. كتبت العناوين بسرعة في طرف ورقة، وكانت لكل واحد مطالب. في الغد نزلت طائرة هيلوكبتر في ساحة الثكنة لنقل الرجل السعيد المحظوظ. رافقته صيحات زملائه حتى خروجه. تشجيع حقيقي، كانت الحرية فاتحة ذراعيها له. ومن المستحيل ألا يمس هذا العطف الآخرين. إن نجا أحد فسينجو الآخرون. طار الطويل إلى وجهة مجهولة لكن في يوم مشمس. مع إقلاع الهيلوكبتر تسمرنا مجددا في الصمت، كنا من جهة سعداء للطويل، ومن جهة أخرى كنا حانقين على وضعيتنا التي بقيت بدون تغيير. ليحسنوا على الأقل ظروفنا اليومية إن لم يكن الإفراج عنا مبرمجا. بالنسبة لنا، فجحيم تازمامارت سيستمر، وسيصير أكثر ظلما، وأكثر لا إنسانية، وأكثر قهرا، وأكثر كراهة. فالتمييز بيننا جعل وضعيتنا غير قابلة للتحمل. كانت أعصابنا مشدودة، وصار الجنون يتخذ له مكانا بيننا بدل العقل والذكاء. لقد دأبنا، وبما أنهم جردونا من إنسانيتنا، على عادات قريبة من عادات البهائم، تكرار نفس الحركات ما يقرب من عقد، الدوران في الزنزانة كحيوانات في قفص طيلة أيام، ليالٍ، أسابيع، شهور، سنوات، زنزانة مظلمة وغير مضيافة، مع البرد الذي يهاجم العظامَ والجوع الذي يفرغ الجسد... كان لدينا رغبة عارمة في الصراخ، في قول لا لهذه الجريمة التي دامت أكثر مما يمكن، لكن من سيسمع صياحنا؟ من سيعير اهتماما لتوسلاتنا؟ إذ وصلنا إلى درجة من الإنهاك الجسدي والذهني فقدنا فيها قوة الصراخ بل حتى الاستماتة طويلا في مناقشة. لكن السعار كان بداخل كل واحد منا. والثورة ضد هذا النظام الذي نظم اختفاءنا، وأمعن في جعل ظروفنا جد قاسية، باستعماله أكثر الوسائل نذالة للوصول إلى أهدافه. في لحظة ما أذعن البعض لقدره، معتبرا نفسه قد مات وينتظر، ببساطة، رميه في حفرة. أمام الظلم صعدت إلى سطح أذهاننا المهدودة ردود الأفعال الإنسانية القديمة، فبدأنا نطرح على أنفسنا أسئلة وجودية عن قيمة مواطنتنا وعن معنى هويتنا، وعن انتمائنا،

عن الاختيارات التي قمنا بها بعد مختلف التدريبات التي قمنا به بالخارج، وأيضا حول فقر البلد، وآلام شعب محتقر، ومفقر، ومنكل به... نصعد مجرى ذكرياتنا، نتوقف عند التفاصيل وننتهي لفهم مشروعية ما قام به البعض منا ضد نظام غارق في تناقضاته، يغذي حقدا ضد الشعب، ويتبع سياسة تفكيك البلد وتفكيك قيمه. ثم يستولي الندم والشك فجأة على أذهاننا وكل بؤس العالم يتكالب علينا. هل لرجال مثلنا حق الخطأ؟

ثمانية وأربعون ساعة بعد ذلك. نزلت طائرة الهيلوكبتر مجددا في ساحة الثكنة وكانت المفاجأة عامة ـ أعيد مبارك الطويل لزنزانته مخفورا بالحراس .تحطم الأمل، إذن، بهدير محرك الطائرة وضخامة مروحيتها. في الغد، حكى لنا بأنه أقتيد إلى الرباط ووضع في قاعة كبيرة بستائر في النوافذ، أعطوه أكلاً وشراباً، ثم تحادث معه ثلاثة كولونيلات: فضول، إيبورك، والزرهوني لطمأنته. أمضى الليل في مكان غير بعيد عن البحر لأنه كان يسمع صخب ارتطام الموج على الصخور. في الغد أقتيد إلى القاعة الكبيرة، التي كان فيها البارحة. وجاء الجنرال حسني بن سليمان رفقة الكولونيلات الثلاثة للاطمئنان على صحته وتلا ذلك حصة تصوير، طلب فيها من الطويل بأن يتخذ أوضاعا طبيعية وأن يكون على سجيته. لماذا هذا التعامل التفضيلي؟ ألم يكن متزوجا من أمريكية؟ هذا هو أس التمييز. بعد إطلاق سراحه سيعرف بأن سفير الولايات المتحدة الأمريكية تابع المشهد من خلال الستائر وأنه أعطى من خلال رسالة للسيدة الطويل إنطباعاته حول ما رأى.

Joseph Verner Reed
Ambassador of the United States of America

March 23, 1985

Mrs Nancy Touil
191 Howells, Nebraska
68641

Dear Mrs. Touil,

I have received your letter of February 26 and want to respond as well and fully as I can to the questions you have posed. Essentially, I have little information further to what I described by telephone, but I can well understand your emotions at that time on learning that I had actually seen your husband and would be carrying home letters. I will, therefore, try to answer the questions in the order that you posed them.

1. I was summoned, after months of urging on my part, on very short notice to an office building in Rabat. There I was met by police and civilian officials who escorted me to an area on a lower floor where your husband was held.

2. The location where I saw him was clearly an office area, and I believe that he was brought there specifically for the purpose of having me see him and proving that he is alive and in relatively good condition. I was told nothing, one way or the other, about where he will be held in the future and have no cause for optimism that he was not returned afterwards to his normal detention site.

wanted
3. As you know, I had/very much to speak with your husband and, for that reason, had asked the Moroccan Desk officer to contact you in advance, without raising your hopes, since I could never be sure that the meeting would actually take place. I can only assume that the Moroccan authorities regarded the meeting itself as a concession to our many entreaties and did not wish to set a further precedent by allowing me to speak with him. As you know, all officials whom I have encountered remain extremely reserved about anything or anyone connected with the 1972 coup attempt.

4 I must be absolutely honest in saying that I have no indication whatsoever of any chances for an early release. I do not believe that the fact of my meeting with Lt. Touil has changed his situation in any way.

officials whom I have encountered remain extremely reserved about anything or anyone connected with the 1972 coup attempt.

4. I must be absolutely honest in saying that I have no indication whatsoever of any chances for an early release. I do not believe that the fact of my meeting with Lt. Touil has changed his situation in any way.

5. I do not have any new information about living conditions at the prison and, for that matter, cannot say with any precision where he has been held.

6. I am guardedly hopeful that the fact of receiving letters for you and your son may open the way for further two-way communication. I cannot be sure, however, at this stage. I naturally raised the matter with a senior police official at the time who held out some hopes and agreed to discuss the matter further with me. I, therefore, regard the communication to your husband which you enclosed in your February 26th letter as a test case. The top police official has been away from Rabat for the past two weeks, and I am therefore continuing to hold your letter because I believe it is important that I deliver it personally to him. Unfortunately, I will be in Washington for a week and, therefore, plan to seek an appointment with him in early April. I regret the delay, but want to attend to this important matter personally.

7. Unfortunately, I have little light to shed on this matter. Your husband was alone when I saw him and I gained no information about other prisoners. You may want to obtain from the State Department a copy of the 1984 Human Rights report for Morocco which contains as much information as we now have on general prison conditions, including those of men convicted in connection with 1972 coup attempt.

I very much appreciate your kind words and writing to the Secretary, but only regret that I am unable to provide further details in this long drawn-out and difficult case.

With best regards.

عاد الروتين المطبق لتازمامارت، المكان الأعلى، الجرم قاس وكريه، ومرت الأيام والليالي بأسى حياة كان كل شيء فيها موضوعاً تحت شارة الموت. كان ذهاب الطويل تجسيداً لأمل في إفراج سيتطلب وقتا طويلا. فحين سيلتحق بالولايات المتحدة الأمريكية سيتكلم عن الظروف القاسية لمن بقوا أحياء في تازمامارت، وبعون من بعض الجمعيات الحكومية، كانت حالتهم ستعرض أمام العالم، ولن يتأخر الضغط على النظام المغربي، حلمنا بهذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار بأن السياسة لها طرق لا يمكن سلكها. سقط أملنا مثل بصلة متعفنة. أخفقنا مرة أخرى. لحسن الحظ كان حذر الحراس قد تراخى، وبمساعدة من "جيف" ران نفس من استرخاء على المكان. كانت أبواب الزنازن تبقى مفتوحة لمدة طويلة في اليوم، وتسمح لنا بأن نتواجد في الممر، وأن نقوم ب "نزهات" وبتواطؤ من مولاي علي، كان "جيف" يترك الصنبور مفتوحا لساعات طوال، مما يسمح لنا بالتوفر على ما يكفي من ماء لغسل الزنازن، تسليك حفر المراحيض، غسل أسمالنا حين يكون الجو حارا... وقبل الخروج للممر، ورؤية بعضنا البعض والتحادث فيما بيننا ساعدنا الماء على البقاء في أقسى ظروف اعتقالنا.
ترافقت هذه الفترة أيضا مع دخول الأدوية بكميات كافية للبناية وتوزيعها على المرضى من طرف الحارس محمد، وسمحت هذه الفرصة للبعض بالتداوي والإفلات من الموت. وساهمت النقود، وبقوة، في تحسين حياتنا اليومية، جبن، حليب جاف، زيت الزيتون، شموع، أعواد ثقاب، فواكه، راديوات، بطاريات، كلها دخلت إلى مكان البؤس الإنساني. لو لم يكن هناك غياب للنور والشمس لأقسمت بأننا في نادي ميد بالمقارنة مع السنوات الأولى. وخصوصا بالمقارنة مع مساجين البناية الأخرى.
وما أن استعادوا قواهم حتى بدأ الناجون الذين التحقوا بنا يحكون لنا، الرعب الذي عاشه من بقوا أحياء هناك. ارتبط عبد الكريم الشاوي بصداقة معي، وصار يسهر علي حين أمرض. وكان يلعب دور المهدئ وينجح في تهدئة الأعصاب، كان يرفع معنويات المحبطين، وصار عرّاب ولدَيّ في تازمامارت، يحتفظ بصورهما عنده، وأقسم بأنه، إن خرج حيا من هنا وتزوج فسيسمي ولديه باسمي ولديّ. واستجاب الله لدعوته، بعد الإفراج عنه، تزوج وأنجب طفلة سماها هدى وطفلاً سماه خليل، وبفضل سماحته واستعداده الدائم للمساعدة صار الشاوي صديقا للجميع وبقي كذلك حتى أفرج عنا.

لم يكن الإفراج عنا ممكنا، ينبغي التذكير بهذا إلا لأن الخارج ضغط على الحسن الثاني. إن نجا مبارك الطويل، فبإمكان سجناء تازمامارت أن يأملوا بالنجاة هم أيضا. كافحت عائلات في الداخل باستماتة البسطاء لكي يتوقف الاعتباط وهدر الكرامة. حتى فرنسا ميتران لم تفعل شيئا لإنقاذ آل بوريكات، مواطنيها، وحدها صلابة الولايات المتحدة جعلت النظام ينكسر، النظام الذي أنكر دوما وجود تازمامارت وانتهى بإطلاق سراح من بقي حيا فيه.

التفتيش الكارثي لسنة 1982

كان بإمكان الأمور أن تمضي هكذا، لولا إهمال بلكبير وعدوانية الحارس مولاي سعيد. ارتكب بلكبير خطأ التسرع، حين كان بصدد تمرير مجلة كانت عنده من زنزانته لزنزانة أخرى. كان عليه انتظار ذهاب الحراس، سقطت المجلة بين يدي السادي مولاي سعيد ووقعت الكارثة. في الغد خضعت البناية لأول تفتيش، وقع ذلك في يوليوز 1982 وكان كارثيا بالنسبة لنا. انحطت معنوياتنا إلى الصفر وتبخرت آمالنا في الريح. خضعت كل الزنازن لتفتيش دقيق. أنارت كشافات قوية الزنازن كاشفة كل الجوانب بل إنها أنارت حتى الشقوق... وجدوا "كنوزا" علب سردين، أسمالاً مكدسة فوق المصطبة، بعض حبات الدواء، قنينة زيت كبد سمك الموري، راديوات ترونزستور، جبن، لباب خبز، جمعت لسنوات، مصاحف، شموع... رفض اليوتنان منصت إعطاء عبوة دوائه لمولاي سعيد الذي هدده بتعريته وتركه هكذا حتى الموت. تعالت الأصوات في الزنازن. لم يكن السادي مولاي سعيد ليجد صعوبة في تنفيذ وعيده. ولأنني خفت الأسوأ بالنسبة له تدخلت من زنزانتي ورجوت منصت أن يتخلص من أدويته دون مماحكة. انتهى بالإذعان وهو يتحسر، حين سمعني أصيح من زنزانتي استدار الحارس نحوي وقال لي:

- أنت يا صاحبي بالخصوص، سأتكفل بك شخصيا.

- مرحبا بك. أجبته. بوخزة قلب.

ما أن قال ذلك حتى طبقه، دخل مولاي سعيد أولا للزنزانة متبوعا بين إدريس ومولاي علي، حراس تازمامارت الذين لا قلب لهم. كان التفتيش دقيقا. فحص كل سنتمتر في الأرضية والجدران بتدقيق. وكانت دهشتهم كبيرة لأنهم لم يجدوا

مادة مشبوهة، لا دواء، لا شيء يرضي ساديتهم. كان الحراس الثلاثة يتحركون مثل ضواري في الزنزانة مرددين "هذا غير ممكن، هذا غير ممكن!" يئس مولاي علي وبن إدريس وغادروا المكان وبقي مولاي سعيد يحك أرنبة أنفه بسبابته ثابتا أمامي، وهو على يقين بأن الوضعية تخفي سرا عليه أن يفضحه مهما كلفه الأمر. كنت المسؤول عن الصندوق الجماعي الذي يتوفر على ما لا يقل عن 6.000 درهم. إن عثر عليها مولاي سعيد فهي مأساة حقيقية لنا جميعا. توقعت الخطر ووضعت ورقة من فئة مائة درهم في حزامي، بين السروال والثبان الذي خطته من غطاء رمادي. حذق في الحارس طويلا قبل أن يبدأ في تفتيش جسدي لي وبما يشبه غريزة حماية وضعت يدي في حزامي لأخفي شيئا. سقط الخنزير في الفخ، أمرني بسحب يدي وبدون عناء عثر على ورقة 100 درهم، ابتسم ابتسامة رضى أنارت وجهه المقدود من حقد وانعدام إحساس. صاح بظفر مثل كلب مسعور وهو يخاطب بن إدريس:

- السيد المقدم الأول وجدت عنده 100 درهم كان يخفيها في سرواله. كنت أعرف بأنني سأنتهي للعثور على شئ عنده.

عاد بن إدريس، انتزع الورقة من يد مولاي سعيد، تأملها طويلا وقال:

- من أين أتتك هذه الورقة؟ قالها بنبرة مهددة.

- هذه ورقة بقيت معي منذ سجني، لم أجد فرصة صرفها حتى اليوم، فالنقود لا قيمة لها هنا، بإمكانك الاحتفاظ بها، هي لك.

عاد في الغد ليقول لي:

- طيب سأحتفظ بالورقة النقدية، لكن لا ينبغي قول ذلك لأحد.

- أعطيكم كلمة شرف، أجبته وأنا أضحك.

مثل بعض زملائي كنت قد أعددت مخابئي لإخفاء "كنوزي" أولا هناك الحفر التي حفرتها في الجدران وفي جوانب ثقب المرحاض. كان التراب المستخرج يطرح شيئا فشيئا في لحظات الكنس، وبمرور الوقت، عوضت الأحجار وملئت الثقوب بلباب الخبز الذي كان يحك بالأرض ليتخذ لون طلاء الجدران، حتى أن أكبر المهندسين لم يكن بإمكانه التمييز بين شقوق الإسمنت والشقوق الأخرى المغطاة بلباب الخبز. غير أن أهم ما في كنزي لم يكن مخبأ في الجدران ولا في حفرة المرحاض وإنما معلقاً هذه

المرة في السقف. فبفضل قضيب النخل ومشبك حديدي صنع من سلك، كنت قد مررت أكياسي الصغيرة، المخاطة من قطع انتزعت من أسمالي، عبر ثقب التهوئة في السقف، وهناك طرف خيط صغيرة بلون الإسمنت يتجاوز الثقب بحوالي سنتمترين بالكاد يسهل استعادة الأكياس. تطلبت هذه العملية تدريبا طويلا ومهارة كبيرة. فما أن يمر المشبك من عقدة الخيط حتى يتوجب رفع الكيس ببطء، تمريره من الثقب قبل إنزاله في السطح، وترك طرف خيط غير مرئي بالداخل. بعد التفتيش، تتمثل العملية العكسية في تمرير المشبك في عقدة الخيط، ورفع الكيس حتى يصل علو الثقب قبل سحبه نحو الداخل. في الكيسين المخبأين في السطح أخفيت كل ما أملك. كنوز لا تقدر بثمن، أسلاك، غطاء علبة سردين، راديو، عدة بطاريات، صور طفليّ، أوراق، بعض أقلام بيك، مقص أظافر، مقص... لكنني أخفيت خصوصا مبلغ مال الصندوق الجماعي الذي جمع بعد الاتصال الأول. كنت بطل الترميق والإخفاء. وحده القبطان غلول كان يضاهيني في هذين المجالين.

لم تتوقف سادية الحراس ومدير السجن عند هذا الحد. فلأنهم صاروا حذرين، فقد قاموا بتفتيش آخر في شهر يوليوز من نفس السنة. كلف بلقاضي حراس البناية الأخرى بالقيام بهذه المهمة وأمرهم بالصرامة. كانوا أقل شعورا بآلامنا الإنسانية مثل بعض حراس البناية، وفي كل الأحوال كانوا قساة وشرعوا في عملهم باحتداد وبلا رحمة. إنتزعوا المراتب والوسائد، والخرق الأخرى المخاطة طيلة تسع سنوات من أطراف ما تحصلناه من صوف، ومن لباب الخبز، ومن أطراف أعواد النخيل التي تصلح لكنس الزنازن، وخصل الشعر... قصم ظهرنا هذه المرة التفتيش. لقد جردنا من كل شيء. وعاشت البناية إحباطا تاما. وتعرضت أعصابنا لضربة قاصمة وبدأت تنفلت، وانحطت معنوياتنا إلى التراب. ولأننا حرمنا من مرتباتنا، ففصل الشتاء يتوعدنا ببعض الكوارث. وأمام الانعطافة التي اتخذتها الأحداث، وأمام ابتزاز البعض وتهديدهم للحارس محمد. اتخذ هذا الأخير مسافة إزاءنا، كان يعرف الخطر المحدق به إن انكشف أمره، و لم يكن يريد مشاكل وقرر الانسحاب منتظرا مرور الموجة. وكان على علم أيضا بأنه مراقب ومشتبه فيه من طرف طيور الشؤم في السجن. ماذا بإمكانه أن يفعل وحده ضد نظام وضد تصلب بعض المساجين؟ هل له الخيار؟ هل بإمكان السجناء فهم الحساسية السياسية القصوى لحالتهم وهشاشة وضعيته هو؟ إن علموا ما يقوم به، فسيرمى هو أيضا في زنزانة ليتعرض لنفس المصير، لذا قرّر القيام بعمله بشكل اعتيادي ودون حماس. وإن امتنع عن مساعدتنا، فإنه لم يكن يؤذي أحدا.

لم يتوقف عن مساعدتنا لغياب الشجاعة. فبتصرفه هذا كان يحمي نفسه، ويحمي أطفاله وكذا عائلات المساجين من انتقام محتمل للنظام.

كلمة للتفكه: إبان تفتيش يوليوز 1982 عثر مولاي سعيد على مرآة صغيرة نسيت إخفاءها، كنت أستعملتها في جهاز "كبزال"

- ماذا تفعل بهذا؟ سأل الحارس وهو يقلب ويعيد تقليب الشيء في يده

- إنني أحلم بكوابيس منذ أن كنت طفلا، فنصحني فقيه بوضع مرآة تحت وسادتي قبل النوم، فهو يبعد الخيالات في الليل والأرواح الشريرة أثناء نومي.

نظر إلي نظرة غبية، وقلب الشيء في يده قبل أن يرميه فوق المصطبة، مثل منة يمنحها المنتصر للمهزوم.

ثاني مرحلة سوداء: 1982 - 1986

واصلت الحياة مجراها العادي في البناية مع طعم الموت في حلق كل واحد منا. بدون مواد "كنوزنا" ضعنا "لقد عرونا" كنا نقول. بمعنى أن كل ما جمعناه في حياة، بتضحيات جسيمة وصبر وخيال ومعاناة، انتزع منا في لمح بصر: خيوط، أغطية، مصبرات، مقصات أظافر، أدوية، بطاريات، كويرات لباب الخبز المجفف، خصلات شعر... كنز الباقين في تازمامارت الذي حول عالمهم إلى تعبيره البسيط، الحرمان المطلق، كما لو أن اعتقالهم لا يكفي لمعاقبتهم، لكن يجب أيضا تجويعهم، إذلالهم، دفنهم أحياء. ولتتويج انتقام أعمى، ينبغي حرمانهم من هذا الغبار الذي أعطى معنى لحياتهم التي صارت تشبه الموت أكثر مما تشبه الحياة. سادية، وحشية، حقد، بربرية... ولا كلمة قادرة على وصف هذا الشطط. لكن من يريد هذا؟ من أين تأتي هذه الأوامر اللاإنسانية؟ لماذا هذا التصرف البهيمي، إن كان الرجال قد أدوا من شبابهم، ومن حياتهم، ومن إجسادهم... ثمن جرائم الإنسانية برمتها؟ كانت معنوياتنا في الحضيض وأعصابنا مشدودة كوتر قوس، أكثر هشاشة مما مضى وأكثر ضعفا. خلد البعض للصمت، وأرخى البعض الآخر مكابحه منتظرا أياما أفضل. لحسن الحظ نجى جهاز راديو من التفتيش، وكانت الإشاعة تتناقل من أحد لآخر كالعادة، لنزع المصداقية من أحد وتحميل آخر مسؤولية الخطأ. بقي لدينا المال في الصندوق الجماعي، لكن ماذا بالإمكان فعله به؟ فلا أحد كان يتجرأ على طلب خدمة من الحراس، لأن لا احد منهم كان مستعدا للتضحية بأطفاله لمد العون لرجال محكوم عليهم في كل الأحوال بالموت. صار التوجس قاعدة، واستقر الشك في رؤوسنا لكي يسمم وجودنا العليل، سجانون مسلمون، ومن بينهم، هناك العديد ممن أدوا فرائض الحج ويحملون لقب الحاج، ويلتزمون بأداء الصلوات الخمس اليومية ويصومون شهر رمضان. أين عثروا على كل

هذا الحقد، كل إنعدام الإحساس هذا، كل هذه الوحشية التي لا يمكن تصورها؟ لا ينبغي لما يجري في الجزائر أن يدهشنا، إنهم رجال، يرتكبون، باسم الإسلام أفعالا بربرية أكثر دناءة وأكثر غرابة. كما لو أن هؤلاء يضعون جانبا عقولهم وإيمانهم لكي لا يسمعون إلا عقل الجريمة، وكراهية القريب، والقتل. كان الناجون من تازمامارت هم الذين تمت التضحية بهم في مذبح الحقد، باسم انتقام بهيمي. كيف يمكن مواجهة الله بهذا الجرم والجرائم الأخرى المرتكبة باسم الاستقرار السياسي لنظام فيودالي يتصرف بأساليب القرون الوسطى؟

كنا نعرف، بعدما حرمنا من كل شيء، أن بعضنا لن يجتاز فصل الشتاء، فالبرد والجوع والمرض يطالون كل الأعضاء قبل شل الجسم. فتعجز الأرجل عن حمل الأجساد. الألم في أعماق النفس، ألم المرض، ثم ألم الفراغ، الألم الذي يصعد، يصعد، ويستقر في الجمجمة ليعطي صداعا مروعا، ثم الصمت، في الليل، حين تستولي الظلال على الجدران وتجنن من هو أكثر صلابة. ثم هناك الحب الذي نسيناه، بقوة تركيزنا بانتظام على أشياء حيوية لبقائنا: شمعة، كرة من لباب الخبز، بطارية للراديو، جبن، قرص أسبرين أو علبة سردين... وبما أننا تقهقرنا لحالة حيوانية فقد نسينا بسمة طفلة ونسينا شكل وردة. وتختلط الألوان والأشكال والروائح في رؤوسنا المريضة، حتى أننا يمكن أن نعتبر قطعة صابون جبنا، وقطعة جبن قويلبا دوائيا، وبإمكان أحدنا أن يدخل يده في ثقب المرحاض ليلتقط ثلاث أو أربعة سردينات، وسط الفضلات، سقطن بسبب الإهمال، ويتذوقهن كما لو تعلق الأمر بكافيار أو سلمون مدخن. هذا هو الحقد، الحقد على الجسد، الحقد الأعمى على الذات، على الآخر. كل هؤلاء الذين يختفون الواحد تلو الآخر في هذا السجن الملعون، رَدَّ كائنات بشرية إلى حالة بهيمية، بالأحرى حيوانات. كانت الشُعُور تتدلى على الأجساد والأظافر ملتوية ومسودة من القذارة، وعدة طبقات منها تغطي الجلد، والعظام تنزف. ثم هناك العضلات التي تتشوه وتصير هي أيضا قطعا من الجلد، والهيكل العظمي الذي تضاءل فجأة، لا ينتصب مرة أخرى، ويحتفظ بنفس الوضع فوق الإسمنت البارد عدة سنوات. أو هناك أجساد تتحرك على أربع أو تزحف لكي تصل لسطل ماء أو صحن قطاني مطبوخ بشكل سيء. بأي انتقام يتعلق الأمر؟ إن المسؤولين عن الانقلابين أعدموا. وحكم على الآخرين من طرف محكمة ويمضون مدة حكمهم في أحد سجون هذا النظام المحزن

الذي حاكمهم. انتقام؟ كان ينبغي السير إلى ما وراء السجن، ما وراء العدالة، ما وراء القانون لإرضاء كراهية الآخر، سحقه، محقه إلى الأبد، رغم أن لغتنا هي من تقول بأن: اللي غلب إيعف. لكن في هذه الحكاية الوضيعة لم يكن المنتصر من كنا نتصوره، و لم يكن تازمامارت سوى الوجه الكريه لإخفاق نظام برمته وإخفاق رمزه.

لحسن حظنا، كان مبارك الطويل يتمتع بنظام سجني خاص. كان يدخر من حصة أكله ويعطي ما ادَّخره لبوحيدة، ويوزع ما أعطاه على أزيد من عشرين سجينا، نصف وجبة رجل واحد. مرة في الشهر كنا نحصل على قطعة صابون. مصادفة سعيدة. كان الطويل يركز جهوده على الأكثر إجهادا منا والزملاء المصابين. كان الغالو أحد ضحايا هذه الفترة السوداء الثانية. تمكن منه الإجهاد وشلت أطرافه السفلى و لم يعد يتحرك من مصطبته. كان الدود يأكل جسده وبالإمكان رؤية ضلوعه الممزقة. وحدها رأسه بقيت حية، الباقي من جسمه مات. لم يعد يحس بأعضائه والدود ينخر أحشاءه، و لم يعد يحس بالألم، لا يتشكى، ولا يتأوه. ينتظر فقط الخلاص. بيقين تام بأن لا شيء يمكن التحسر عليه هنا. لم تفارق البسمة وجهه، ووجد القوة للثرثرة، والمزاح، والعثور على الكلمة الطيبة لنيل التعاطف. الغالو، أينما كنت، فالتاريخ سيحتفظ بشجاعتك ولا ينساك زملاؤك.

جرجرت الحياة رتابتها مثل كلبة مريضة، ثم في يوم من أيام يوليوز صفق السادي بن سعيد باب زنزانة بن عيسى بقوة فاستثار هذا الأخير الصوت، سب بن سعيد: حمار. وكان ذلك كافيا لجعل الحارس يفقد صوابه. قفل كل الزنازن وبمساعدة من مولاي علي تكالب على الجسد المنهك وأشبعه ضربا بالعصى والركل ورغم ضعفه قاوم السجين بشجاعة ونجح في إصابة معنفيه. كنا عاجزين عن مساعدة زميلنا، فبدأنا بالصراخ بكل قوانا وفي خبط أبواب زنازننا بالأسطل. كان بن عيسى فتى جميلا، طيبا، وخدوما، ولا يتردد أبدا في التطوع للسهر على مريض، ومساعدة زميل، وحكاية ملحة لتخفيف معاناة الآخرين، فنان ومقبل على الحياة. هو الذي رسم زنزانته في ورقة، ذلك الرسم الذي سيراه كل العالم. بعد المذبحة، بقيت الزنازن مقفلة ولا أحد كان بإمكانه الذهاب عنده لإسعافه. تركه الحارسان المجرمان لمصيره المحزن. بعد أن أفرغاه من ما بقي من قواه وتركاه مضرجا في دمائه . بعد ذلك داهمته حمى عنيفة لم تفارقه. تدهورت صحته بسرعة حتى مات في يوليوز 1983. سهر

الزميل الرايس على تمريضه حتى آخر نفس. لم يعد الموت يضرب بانتظامه القاسي البناية الأخرى فقط وإنما صار يضرب دون تمييز في المكان. كل واحد ينتظر دوره وكل واحد يتساءل في أعماقه من جاء عليه الدور. الموعد الوحيد الذي ضرب لنا كلنا هو هذا، موعد مع الموت ولا شئ آخر يوجد خارج هذه الحقيقة المروعة.

في نفس السنة، أصيب رفيق آخر بمرض، يسمى محمد بطي، توسلنا "الجيف" بأن يسمح لنا بالذهاب لزنزانته، رفض، لكنه قَبِل مساعدة المريض فأعطاه الدواء والمقويات متخذا ما لا يحصى من إحتياطات. بدأ بطيئاً في إستعادة قواه، من شدّة الجوع كان يأكل كل ما طالته يده. تحسنت صحته ببطء حتى اليوم الذي أصيب فيه وسقط مريضا مرة أخرى ومات سنة 1984 من الإنهاك والمرض. بدا الموت أكثر قربا، أكثر إلحاحا، ولا يمكن تجنبه تقريبا.

تميزت سنة 1983 على الخصوص بوفاة الدليمي. وتراءى لنا أمل ما في الأفق. كنا نعتبره أحد المسؤولين المباشرين عن مأساتنا. وبما أنه مات فإن الأمور ستتطور، بدون شك، لصالحنا. مرت الشهور لكن الأبواب المصفحة للزنازن بقيت موصدة بشكل تام. وحدها الكوات كانت تفتح في الليل من طرف الطويل وتبقى كذلك حتى الصباح، ويسمح لنا هذا بالتواصل فيما بيننا. مع الحرمان والأمراض صار السن يثقل كاهلنا. وصلنا إلى هذا المكان الملعون في زهرة الشباب، فصمد البعض بشكل طبيعي لأن لديهم مدخرات، لكن بقدر ما كان الوقت يمضي بقدر ما تضاءلت القوى، وبدأت العظام في التقوس، وأصيبت المفاصل بالروماتيزم والعقول بالخبل. صارت الأجساد تتحمل بصعوبة البرد وصارت هشة وعرضة للالتهابات. كنا نسقط تباعا مثل ذباب، الواحد بعد الآخر. ضعاف، مرضى، نجرجر بقايانا على الأرضية الباردة لزنازننا. كنا نبكي دوما، لا بسبب العجز، لكن بسبب الملل من تحمل كل هذا الانحطاط بلا أي رد فعل. وحتى لو كنا نحبو نظرا لعدم قدرتنا على الانتصاب، فإننا كنا نبقى وقوفا في أذهاننا وفي كرامتنا. رجال لا يهبهم بلد إلا مرة أو مرتين في تاريخه. كان بإمكان الحارس محمد أن يستمر في تقديم العون لنا، لكنه تخلى بسبب الابتزاز والضغط الذي كان يتعرض له من طرف البعض. لكن ما العمل؟ وما الذي يمكن قوله لهؤلاء الرجال لإقناعهم بعدالة مطالبهم والخطأ الذي يرتكبونه بالتحامل على رجل كان من النادرين الذين ساعدونا؟ أيقال لهم بأن عدة عائلات تنكرت

لأبنائها الذين تورطوا في أحد الانقلابين. فبسبب الخوف، أو بسبب النذالة، هدد بعض الأقارب المبعوث بالإتصال بالشرطة، إن عاد مرة أخرى لإزعاجهم. هل ينبغي جرحهم أكثر؟ كنت أعرف عن طريق رسائل زوجتي ما يجري في الخارج. و لم أقل لأحد شيئاً، ثم من سيصدقني؟ الحل الوحيد هو الصمود حتى النهاية، رغم البرد، رغم المرض، رغم الجوع. لكن حتى متى؟ فهل لهذا النفق مخرج؟ ولأن الموت مبرمج فهو صار التتويج الوحيد لهذه المعاناة الطويلة. وقررت أن أعيشه بكرامة، والآخرون أيضا. ينبغي تجنب خلق مشاكل ل "جيف" مهما كلف الأمر، لكن الحفاظ عليه لم يكن مهمة سهلة في جو مكهرب وأعصاب مشدودة وشك، ويأس تام.

لم أشارك في هذا الإنقلاب، لم تكن طائرتي مسلحة. أنا ضحية للظلم الإنساني. باح لي أمقران بأن الدليمي يريد رأسي. لماذا؟ من كانا يرافقاني في السرب ومن كان معي برئوا. أما أنا فحكم علي بعشرين سنة. أمام هذا الظلم الأعمى. كنت آآخذ أمقران قليلا على عدم ثقته بي. لماذا لم يخبرني بمشروعه؟ كان يفكر، ربما، بأنه لا ينبغي حشد الكل وأن ثلاثة طيارين كافين وزيادة. لكن الجميع يعرف مكانتي في التصويب بالولايات المتحدة الأمريكية، فالمغربي الصغير من أولاد يعيش كان أفضل مصوب في دفعته (Top Gun). والطالب الوحيد المسموح له بالطيران في سرب مع نهاية التدريب. كنت أيضا طيار تجريب. فبعد صيانة الطائرات أنا من كنت أسوقها لإختبار نجاعتها. ذات مرة حدث اصطدام في القاعدة. تضررت الطائرة كثيرا. كان علينا إرسالها لإسبانيا لتشغيلها مجددا. طلبنا الإذن من القيادة العليا لإصلاحها في القاعدة بنفسنا. رفض الأمريكيون تحمل هذه المسؤولية. قمنا بذلك. وبعد إصلاحها طلبنا من الأمريكيين تعيين طيار لتجربتها. رفضوا، فجاء أمر من القيادة العليا مفاده بأن القبطان حشاد هو من سيقوم بالتجربة. أخذت معي القبطان الوافي، لأنه كان رئيس الوسائل التقنية والمسؤول عن إصلاح الطائرة. كانت الطائرة أشبه بطائرة جديدة. نجحت التجربة. حرص ممثل شركة "نورتروب" الذي كان في دولة إفريقية وسمع بما قمنا به، على رؤية ،وبأم عينيه، ما فعل المغاربة بطائرة من طائرات شركته. لم يصدق الأمر وهنأنا على إنجازنا. وذات مرة كان علينا القيام باستعراض أمام الملك في مراكش (استعراض 18 نوفمبر 1968) وكان علي أن أمر ب F5B حاملة قنبلة نابالم وألقيتها لأظهر مفعولها. كان أمقران معي. في وقت إلقاء القنبلة تعذر إلقاؤها، كررت محاولة إلقائها أربع مرات لكن دون جدوى، فغادرت المدار وتوجهت نحو توبقال

في الأطلس الكبير وقمت بإنعطافات شديدة (à 4G) ولا جديد. كنا إزاء خيارين: تفعيل الكراسي المقذوفة وترك الطائرة تسقط أو محاولة النزول مع قنبلة نابالم تحت الطائرة، وهنا الخطر قائم. يكفي الفشل في النزول لكي تنفجر القنبلة. طلبت رأي أمقران، فقال لي أن أفعل ما يمليه علي إحساسي. قلت له إنني سأحاول النزول. قرأنا الفاتحة وتشهدنا وأخبرت القاعدة الجوية بالوضعية وطلبت منهم الاستعداد لكارثة. ولا أعرف بأي معجزة تمكنت من النجاح في الهبوط، نزول هادئ، كأنني أسير على بيض. حتى أننا لم نحس بالعجلات. حين استعدنا أنفاسنا، هنّأني أمقران قائلا: "الله يعطيك الصحة" توقفت في نهاية المدرج وغادرنا الطائرة. جاء التقنيون لمعرفة سبب العطب، وجدوا أنهم نسوا ربط القنبلة بالتيار الكهربائي.

هل أراد الحفاظ علي أم أنه اعتقد بأنني لن أقبل؟ لقد تذكر، ربما، بأنه في الإنقلاب الأول رفضت الذهاب لقصف قصر الصخيرات بدون إذن من قائد القيادة العليا. وأراد، ربما، ألا يصطدم برفض آخر من طرفي.

ماذا كان بوسعي أن أقول له؟ من المستحيل علي، اليوم، أن أجيب عن هذا السؤال، وبإمكاني أن أزعم بأنه ونظرا لظروف تلك المرحلة، ولسني أيضا، فربما كنت سأقبل؟ ففي السياق السياسي لسنوات السبعينات كنا نحلم بالتحول إلى أبطال أو شهداء وذلك بالمساهمة في تغيير الأوضاع المتخلفة لبلدنا. كنا في عصر تحرر الشعوب المقموعة، وكنا نحلم بعالم أفضل. ورغم هذا فهناك سؤال يؤرقني: "هل أوفقير هو الرجل الصالح للمغرب؟" وأعتقد بأنه، وبسببه، فإنني لن أقبل. كنا لا نسمع إلا فظاعات عنه، وعلى العكس من هذا، كان بإمكاني مساندة أمقران لأنني أعرفه بحكم أنني عملت بجانبه لسنوات ولديّ تقدير واحترام له. إنه رجل نزيه جعلته الأوضاع السياسية للمغرب يثور وأراد أن يتغير كل شيء. وفي هذه الحالة لماذا تآزر مع أوفقير؟ كان أمقران ساذجا، ونظافة يده مشهود له بها، وثار ضد النظام معتقدا بأنه أمام فرصة لتغيير الوضع . ثم كان أوفقير يمسكه، ولا خيار له. لا ينبغي نسيان أن الجنرال كان الرجل القوي في البلد. وهو قد تورط سابقا في إنقلاب الصخيرات. أعتقد، أيضا، بأنه كان يعرف بأنه لن يبقى حيا بعد الانقلاب. فأوفقير كان سيقتل كل المتواطئين معه. اعترف الجنرال عبد السلام في المحكمة بأن أوفقير أعطاه الأمر بالذهاب للقاعدة وذبح كل الطيارين (فسر الأمر بوضع يده على عنقه) قبل نهاية

العمليات. هرب أمقران إلى جبل طارق على متن طائرة هيلوكبتر. لم ينتظر الأحداث التالية. ألم يقل أوفقير بأنه سينتظر الملك بكتيبة مدرعة إن فشلت محاولة السماء؟؟ ماهو مؤكد هو أن كويرة، زياد، بوخاليف، دخلوا العملية من أجل أمقران لا من أجل أوفقير.

في سنة 1983، عاد أربعة من السجناء الثمانية الذين نقلوا للبناية "أ" إلى بنايتهم... كان ذلك بمثابة مأساة بالنسبة لهم. إذ كانوا على يقين بأنهم لن يصمدوا لتعفن أو شتاء هناك. يتعلق الأمر بعبد السلام حايفي، عبد الله الفراوي، حميد بن دورو، غاني عاشور.

واحد من هؤلاء نجى من جحيم البناية الثانية.

الثلاثة الباقون معنا بعد تنقيلهم بقوا أحياء.

قبل ذهابهم أعطيناهم قدرا من المال وشرحنا لهم كيف عليهم أن يتصرفوا إن أرادوا البقاء أحياء. عليهم أخذ مثل من تنظيمنا وتطبيقه هناك، اتباع انضباطنا، محاولة إرشاء حارس لكي يوصل لهم الأدوية وقليلا من الأكل... فبقاؤهم يتوقف على قدرتهم، بشكل أساسي، على الصمود للزمن. لم تكن لهم، بكل تأكيد، الوسائل اللازمة لمواجهة فساد البناية الأخرى، لكن لا خيار لهم. لقد اقتسموا معنا تجربة جديدة برهنت لهم بأن البقاء ممكن، لكن عليهم انتزاعه بالصبر، والانضباط والتضامن. اتفق الكل على التنازل عن جزء من مال الصندوق الجماعي لأولئك الذين سيذهبون للجحيم الحقيقي في تازمامارت. ليلة ترحيلهم الثاني حتى زنزانة الطويل أغلقت بالأقفال. وبفضل نظام الخيوط حاولت إيصال مبلغ 3.000 درهم لبن دورو الذي كان في الزنزانة 28. ارتبك هذا الأخير ورفض المال. تكفل الطويل بإعطاء المال لساكني البناية الأخرى. ولا أحد عرف كيف صرف ذلك المال.

آواخر 1985، فطن بعض السجناء لخطورة وضعيتهم، وفهموا بأن عون "جيف" كان ضروريا لهم. وأنه من الواجب إعادة الأمور لنصابها مع الرجل مهما كلف الأمر. توسلوا لي بأن أفعل ما هو ضروري للحصول مجددا على ثقته ومكارمه. رفضت لتجنب تعقيدات لنا جميعا، فبما أن البعض لم يفهموا بأن كفاحنا واحد وأن كل واحد منا يعمل لنفس القضية، فعليهم تحمل تبعات فعلهم. كنا كلنا نسكن نفس

البناية، لا إمتياز، ولا صلة بالخارج وبالتالي لا أمل. زارني الزموري الذي كان يحل كل الحالات العويصة التي تعرفها البناية في زنزانتي وحدثني طويلا عن معنويات الزملاء ومعاناتهم، ويأسهم. وقال لي بأن لا أحد نسي مجهودات "جيف" في مساعدتنا. كانت وضعيتي غير مريحة، إن قبلت فهناك إمكانية لظهور نفس المشاكل وسيكون ذلك قاتلا ل"جيف"، وإن رفضت فإن كل الحقد سينصب علي وحدي لأن الوضعية صارت لا تطاق ويتبقى أن يقبل الحارس. كنت أعي بأن بقاءنا يتوقف على محمد وأيضا على عدد السجناء الذين يبقون أحياء. بقدر ما كنا كثر، وبقدر صمودنا بشكل أفضل لرعب تازمامارت. وربما سيكون أكثر صعوبة على النظام تفسير موت كل هؤلاء السجناء. وضعت شرطين:

– أنت رفيقي في السلاح، صديقي، لن أرفض لك أمرا. هذه الوضعية تخصنا جميعا بما أننا نركب كلنا سفينة الشؤم هذه. قل للآخرين بأن يتصالحوا أولا مع الرجل الذي مد لنا يد المساعدة وأن يطلبوا منه أن يغفر لهم صغائرهم . ثم عليهم أن يتركوه يعمل بهدوء، دون أن يعرضوه لمخاطر لا فائدة منها.

أجريت العديد من محاولات التصالح، ومن كل السجناء. صمد الحارس محمد لبعض الوقت ثم، تراجع، بمعجزة، أمام حجج الرايس. كان "جيف" متأثرا، بحق، لوضعيتنا. و لم يكن راضيا على إتخاذه مسافة إزاءنا، لم يكن يتمنى إلا أمرا واحدا: مساعدتنا. لكن الخطر كبير وعليه اتخاذ كل الاحتياطات لكي لا يندم بعد ذلك. ما وقع كان درسا إستوعبه المساجين. كان الرايس هو صانع هذا التصالح وأخبر الحارس بالاتفاق الذي حدث بين السجناء الذين أقسموا كلهم على عدم إزعاجه وعلى تركه يعمل وفق مشيئته. الكل يعرف إخلاصه وتضحيته. وما أن اطمأن لإخلاص الرجال له وتقديرهم لما يقوم به إتجاههم، فقرر معاودة نشاطه حتى يتسنى له مساعدتنا على تحمُّل العبث والبقاء وسط الرعب.

عم الفرح البناية. لم تكن استراتيجيتنا مختلفة عن الأولى. في المرحلة الأولى سيتم الإتصال من طرف حشاد وبلكبير، وعلى كل واحد منهما منح 3.000 درهم للصندوق الجماعي وبالإضافة إلى الأدوية المبعوثة من طرف صيدلية الرياض. وتتمثل المرحلة الثانية في إضافة رسائل الزملاء الآخرين الذين تتواجد عائلاتهم بالقنيطرة، الرباط والدار البيضاء بريد حشاد وبلكبير.

بفضل هذا الاتفاق عاد الوئام للبناية وعاد حس الزمالة ليملأ زنازن سجن العار والموت. بدأت الأخبار تروج وكان محمد ينسى سد أبواب الزنازن. ولأنهم تعبوا من الروتين بدأ الحراس الآخرون يغلقون أعينهم ويبقى أنبوب الماء لعدة ساعات وبدأنا نحس بما يشبه حرية. ثم جاء اليوم الذي طالما انتظرناه. أخبرني "جيف" بأنه سيذهب قريبا في عطلة. هيأت رسالتي قبل أن ألتحق بزنزانة بلكبير لأعينه على تحرير رسالته. تضمنت رسالتي تفسيرات حول الاتفاق الحاصل بيننا، وحول الحالة المعنوية والجسدية لكل واحد منا وتضمنت بعض الطلبات: إرسال الكثير من الأدوية والمقويات. في هذه الرسالة هناك عرض لحالة الطويل حتى يتم تحسيس العائلات بالظلم في مقتلة تازمامارت: "بصدد وضعيتنا، كتبت لزوجتي، إننا نعيش دوما تحت نفس النظام (عش أو مت) محرومين من حقوقنا، واحد منا فقط يتمتع بكل حقوقه: أكل متوازن (لحم كل يوم ، بيض في المساء، زبدة ومربى في الصباح .الخ) مرتبة، شمس، صابون، إنه الطويل، تمكنت زوجته من الدخول في تواصل معه عن طريق السفارة الأمريكية. إنه يتلقى الطرود والبريد بانتظام منذ 1984.

في نفس هذه الرسالة طلبت من زوجتي بأن تتدخل لدى المسؤولين الكبار للدولة لكي تثير انتباههم للمأساة التي يعيشها عسكريو سجن تازمامارت. إن لم يفرجوا عنا فلنتمتع على الأقل بنفس ما يتمتع به زميلنا الطويل. تضمنت الرسالة بعض الجمل ذات الأهمية البالغة: "ماغوتي بخير، قضيتنا في يد الجنرال مولاي حفيظ العلوي والجنرال حسني بن سليمان، أطرقي بابيهما لتتمكني على الأقل من أن ترسلي لي طرود بقاء".

طار "جيف" أخيرا، حاملا معه بريد الأمل. قفلت أبواب الزنازن علينا بصخب وعاودنا الانتظار، الشاق، المؤلم، والذي يتخلله هبوب ريح، نعيب طائر مشؤوم، نباح كلاب بعيد وخصوصا صمت أكثر سمكا أحيانا من ضباب خريف.

فترة إسترخاء : 1986 - 1991

مضت الأيام في رتابة بلا اسم، ضاغطة، ولا واقعية. ولأن الأذهان عذبت بالانتظار فإنها صارت تسافر بين الأحلام الأكثر جنونا، والإستيهامات التي لا يمكن تصديقها والأمل الأكثر غرابة. هذا الأمل الذي خذلنا حتى اليوم، والذي عليه، رغم كل شيء أن يظهر في يوم أو آخر في إيهاب علامة تطمئننا، وتخفف ثقل مرارتنا. كلنا كنا على وعي بأهمية عملية الفرصة الأخيرة هذه. هل سيكون القدر من جهتنا هذه المرة؟ وإن تراجع "جيف" في آخر لحظة؟ فوضعية البلد لا تقبل أي انفلات. فكل كلمة أو حركة في غير محلها تفسر مباشرة على أنها عدم إخلاص للعرش وخيانة للوحدة الوطنية. وكان تازمامارت موضوعا محرما لا ينبغي النطق باسمه، لأن النظام قرر هذا. ووضع كل وسائله القمعية في خدمة مزاجه البارانويي.

إن تازمامارت لا توجد، إذن، إلا في الأذهان سيئة النية والتي تريد الشر للبلد! كان كل مغربي حذرا، ويبرهن على برودة دم، ويعرف خصوصا، كيف يخفي عواطفه وآراءه السياسية، ويخفي رأسه في الرمل وينتظر مرور العاصفة. لكن عاصفة المخزن لم تمر. والحديث عن تازمامارت يعني اختيار، وعن طيب خاطر، مكان مميز في الأماكن السرية الكثيرة للاعتقال والتعذيب المخصصة من طرف النظام لغير "الموائمين" من رعايا الملك. هل كان الحارس محمد أكثر شجاعة من الآخرين لمواجهة صواعق الشيطان؟ أم أنه كان غير واع بالخطر المحذق به؟ في هذه الحالة كما في الأخرى، كان محمد ملاكا مبعوثا من السماء لكي يساعد المساجين في هذه المقتلة الملعونة. وإن كانت هذه هي إشارة القدر؟

1986، أربعة عشر سنة في الجحيم، وسقوط عدة قتلى في صفوف التازمامارتيين وخصوصا في البناية «ب»، أربعة عشر تصرمت، عرفنا بأن الزمن يلعب ضدنا،

وبقدر مايمر الوقت بقدر ما يتضاءل الأمل وتضعف معنويات الرجال شيئا فشيئا، ينبغي التحرك بسرعة، ولكن كيف؟ وماذا يمكن القيام به في حالاتنا؟ نحن نعرف بأن الشخص الوحيد الذي تتعلق به حياتنا هو الملك. لهذا كان ينبغي العمل في هذا الاتجاه منذ البداية، وحده الملك بإمكانه إنهاء محنتنا، بما أنه هو من أعطى أمر سجننا هنا، وعلينا أن نوجه شكوانا له، أن نستجدي عطفه، أن نتوسل له، أن نطلب عفوه من حلال رسالة، كان الاتفاق بالاجماع، والكتابة للملك بما أنه يبقى ملاذنا الأخير وملجأنا النهائي، قمنا بإجراءات إنجازا ذلك، تدبرنا ورقة وقلما يكتب «بشكل جيد». تخيرنا الجمل ، قرأناها وأعدنا قراءتها عدة مرات صححناها، أعدنا تركيبها، جودناها.. جلالته يحب سماع المديح،جلالته يحب أن يعظم ويستعطف. ينبغي أن نجعل أنفسنا مذنبين أكثر فأكثر في عينيه لكي يصير عفوه إيثارا للخير من جانبه. أجهد أحمد المرزوقي نفسه في إتقان كتابة الرسالة، انكب في زنزانته على الكتابة مثل تلميذ نجيب أمام ورقة الامتحان. كان موضوع هذا الامتحان هو «الحرية» كتبت عريضتين في نفسه اليوم بالعربية، قرءتا وأعيدت قراءتهما. وأعجب بهما الجميع كانت الصيغ صائبة، قوية والكتابة جميلة، مرت الورقتان من يد ليد ووقعتا من طرف ثلاثين معتقل في البناية «أ» وأنظر نسخة من الوثيقة في الصفحة التالية.

عاد الحارس محمد لعمله. كانت أعيننا المتنبهة تفحص كل حركة من حركاته، تتابع كل تحرك منه. لا شيء يفلت من حراستنا. الأبواب تفتح وتغلق بصخب معدني كبير. و لم تعد العيون تنغلق لا نهارا ولا ليلا. كانت الأيام تمر في قلق مبهم وأكثر جنونا. كان محمد الذي لا يفارقه حارسان ينجز عمله ويذهب، متجنبا عيوننا لكي لا يفضح إحساسا ما أو علامة ما. حتى هذا كان محسوبا في تازمامارت. ولحسن الحظ كان الحارس يعرف ما يفعل، وكان يعرف بدقة بأن إحدى الزنازن الفارغة تنتظر استقباله إن ألقت به خطوة خاطئة بين يدي الجنون العبثي للمدير. مرت الأيام، الساعات... مثل رصاص أذيب في عروقنا، حتى أننا بدأنا نفقد الأمل، معتقدين بأن محمد أخل بوعده، بسبب الخوف أو ضيق الوقت. هكذا مرَّ أسبوع في الانتظار القاتل، واستقر مجددا الروتين القاتل في البناية. فقد تعودت العيون على الحركات الفارغة من المعنى، والمفرغة من كل أمل. لم نعد نحرص على استكناه الفعل المحرر أو الحركة المطمئنة. الأبواب التي تفتح وتغلق، قطاني البؤس التي تعوم في حساء ماء داكن، الحراس الذين يدخلون ويخرجون بسحنات مكفهرة، نفس سحنة كلب

بسم الله الرحمان الرحيم (ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) صدق الله العظيم.

تزممارت 1/8/86

نبذة عن الأوضاع التي يعيش عليها الضباط وضباط الصف السابقون المشاة والطيارون في السجن العسكري بتزممارت

نحن الموقعون في هذه الورقة الضباط وضباط الصف السابقون المشاة والطيارون المعتقلون في حادثتي 10 يوليوز 1971 و16 غشت 1972 والمحبوسون حاليا في السجن العسكري بتزممارت نعطي فكرة مصغرة ونظرة مركزة عن مأساتنا الطويلة وما عشناه المعصية الشديدة التي آلت إليها أحوالنا في السجن العسكري بتزممارت معتمدين على صدق حسن في كل ما نقول والله علينا رقيب شهيد.

كنا قبل حلول الحادثتين أطرا شابة يافعة أغلبيتها الساحقة حديثة عهد بالتخرج من المدارس العسكرية. وقد كنا جميعا ولا زلنا كاملين من أشد ما يكون الالتزام بشعارنا المقدس الخالد الله الوطن الملك وكان أكبر همنا دعم الإشعاع إلى مستوى حسن من مليكنا وقائدنا الأعلى بنا وذلك بالتفاني في العمل والكمال في الانضباط وعمق الصدق في الإخلاص والولاء. ولم نكن نشك أدنى شك في كل ما يحال إلينا عن رؤسائنا من طرف الجنرال الذي: "إنهم [illegible] الأعلى بينكم فلئن أطعتموهم أطعتم مليكم وإن عصيتموهم فقد عصيتموه" ومن هنا انطلاقا من هذه النقطة الحساسية التي تمثل سبب كل ما لحق بنا سقطنا في الشرك الذي نصبه لنا رؤساؤنا حين استغلوا ثقتنا وقلة تجربتنا وإعراضنا عن كل ما يمت إلى السياسة بصلة فوضعونا لتطبيق مآربهم الجهنمية موهمين إيانا في المرحلة الأولى أننا سنقوم بمهمة عادية ثم زيفوا لنا الحقيقة في المرحلة الثانية [illegible] ما لم يشعروهم أننا نعمل في إطار شرعي يخدم مصلحة العرش والملك. فما بطلت علينا الحيلة ولم ننتبه إلا ونحن في مستنقع غدرة وطعنة ألجمتنا دهشة وشلت في عقولنا التفكير. وعندما زالت الغشاوة وظهرت الحقيقة بكل مرارتها وشدة وطأتها [illegible] وسلمنا أنفسنا لأول وحدة شرعية. اعتقلنا وحوكمنا بعقوبات تتراوح بين السنة والمؤبد. واعتقلنا في السجن العسكري بالقنيطرة الى السجن المركزي بنفس المدينة. وبعد إطلاق سراح الفوج الأول ثم الثاني جمعنا طيارين ومشاة لأول مرة ونقلنا إلى السجن العسكري بتزممارت في 7 غشت 1973. ومنذ تلك الأوقات انقلبت حياتنا فجأة ولسبب لا نعلمه إلى معاناة شديدة وعيشة نكدة في عزلة تامة جردنا فيها من أبسط حقوق السجين. فالزنزانة علبة ضيقة مظلمة ليس فيها ضوء ولا ماء والهواء يتسرب إليها بالاقتصاد. فكل من دخلها حيا لا يخرج منها إلا ميتا. ومعنى ذلك أن الخروج إلى الشمس معدوم وزيارات الأسر والمراسلة معها والتطبيب والتمريض والحلاقة ووسائل النظافة والوقاية كلها معدومة بالمرة. زد على ذلك أن الفراش والغطاء معا يتكونان من لحافين باليين. أما التغذية فهي كالتالي [illegible] من سنة 1980 الى اليوم: نصف رغيف مع كأس قهوة تكاد أن تخلو من السكر في الصباح. مغرفة من الفول أو الحمص أو العدس في الزوال ومغرفة من الشعرية في المساء. وجفنة لتراب من الماء لكل سجين في اليوم الواحد. أما اللحم فمرة في كل شهر أو شهرين فيه صغير لا يدلي خمسين جراما في قليل من الحالات. وقد انضافت إلى كل هذه العوامل عامل البرد الشديد الذي يدوم مدة تقارب ثمانية أشهر من السنة حيث تهبط درجة الحرارة في كثير من الأحيان إلى ما تحت الصفر. وينجم عن ذلك من خلال الماء المتجمد في الصباح وأما في الصيف فالحرارة تجثم بشكل لا يطاق في حالة معها إلى الدخيلة الوسخ والزنازن العفنة بجحافل الذباب والباعوض والبق والعقارب مع زيارات ليلية من حين إلى حين لثعابين عطشى تبحث داخل الزنازن عن الماء.

في هذا الإطار المجحف الحافل بكل السلبيات بدأنا مشوار المحنة والعذاب [illegible] في دهشة واستغراب عن سر هذا النظام الجديد المتميز بالعزلة والشدة والمعاناة الشاقة. فاكتنفنا الغموض ولحت بنا الحيرة ولم نجد لهذا اللغز مخرجا. وسألنا الحراس وتلك الحراس معنا لا يتكلمون بالإشارة الصارمة الأمر والمتدرك لم يتركوا أبدا [illegible] لنا مرة للتفقد يبقى خارج العمارة. ولم تمض الأشهر مكتملة حتى تبدلت أحوالنا وسقطت شعورنا ودب الهزال والضعف إلى أجسامنا وكلت من شدة الظلام أبصارنا فغدونا في مظهرنا كسكان الكهوف في العصور البدائية الموغلة في القدم. ولو قدر لرجل شجاع أن يرانا لولى فرارا ولم يعقب. وبرزت الأمراض فينا والأوبئة [illegible] فسالت [illegible] واندفاع. وهكذا سقطت الضحية الأولى سنة أشهر فقط من تاريخ تحولنا إلى هذا السجن ثم سقطت الثانية والثالثة وهكذا حتى أصبح عدد الوفيات على معدل اثنين في كل سنة وقد بلغ اليوم الى 24 في ظرف 13 سنة

والمراحل التي يقطعها السجين من مرضه الى وفاته مراحل معدودة محسوبة اللهم الا
في حالة واحدة وذلك حين أغلقت دورات المياه من قلة الماء فتجمع الماء
العفن بما فيه من كثير من أوساخ الزنازن ولم يبرح أحد في هذا البأس مخافة
الحصيلة ثقيلة تمثلت في وفاة العديد من السجناء جراء طغيان الرائحة
الكريهة والأوبئة المختلفة. أما إن السجين يصاب ولا يزال فقطع
في المرحلة الأولى ليتحول بعدها الى الشكوى من عضو معين من أعضاء جسمه
ثم يلزم الفراش تحت وطأة الحمى ثم بعد ذلك يصاب بالشلل الكامل فلا
يقوى على ارتياد المرحاض لقضاء حاجته في زنزانته ثم ينقطع عن
الأكل تماما وبعد هذه المرحلة مباشرة يفقد عقله تماما ويظل طوال يومه
وليله وحيدا يصرخ ويهذي ولا أحد يقترب إليه أو ينجده سوى الى أن
يلفظ أنفاسه على مهل وسط دهشة في مستنقع رهيب من مختلف الفضلات
الافرازات والنفايات والنزيف الشديد. وقد تحول الضحية الى هيكل عظمي
ليس للدود ما يأكل فيه الا جلدا رقيقا متقرحا مهترئا ملتصقا على تلك
الجثة في خاصية المهلبين بعد أن يفرغ الحراس عليه قنينة من سائل الكريزيل
لتخفيف وطأة الرائحة الشديدة ثم يحملونه الى الساحة حيث يتناهى الى
مسامعنا في كل مناسبة من هذه المناسبات وقع المعاول والفؤوس.
ونختم بالحالة الصحية العامة التي نوجد عليها اليوم علما أن السواد الأعظم منا أصيب
بمرض العمى في درجات متفاوتة إذ مثلا بالنسبة لي الى الباب لأخذ طعامه
حبوا ومتأثرا بها زحفا وقلة قليلة لا تقف الا استنادا على الحائط
أما بعض الأمراض فهم في حالة متأخرة جدا تتسم بالعصبية تارة وبالهذيان تارة
أخرى مع إشارة عابرة الى ثلاث حالات من الحمق الكامل وحالة واحدة
لشلل شامل. وهذا ونشير أيضا منذ وصولنا الى هذا السجن ونحن نتطلع بإعجاب
كبير الى مجيء لجنة عامة لتفقد أحوالنا ومعاينة أوضاعنا معاينة
مباشرة لترى بأم العين وتتحقق من كل ما نقول. ولكن بدون جدوى. ويجدر
الذكر أن معظم السجناء قد أنهوا محكومياتهم ولم يطلق سراح أحد منهم بل أن
جل المتوفين قد قضوا نحبهم وهم مكملين لعقوباتهم بسنين عديدة. ومن مجموع
58 الذي قدمنا به مات 26 ويبقى 32 أغلبهم السابقة كان لها أن تنسرح حسب
ما حكمت به المحكمة منذ سنين. وإن الكل ليوجد في حالة تشرف على الموت
الأكيد الا أن يلطف الله بلطفه الخفي. ولهذا نتوجه دعوة حارة ونداء
على أن تناشد أمرها المسؤولين مناشدة انسانية أن يوقفوا هذه المعضلة قبل
أن يصبح الكل في خبر كان. وهذا الله سائر الإنسان كل من لديه قلبه يحمل على
عقيدة ما تبيننا واشتد ما من قريب أو بعيد. (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)
صدق الله العظيم. والسلام

النقباء
عبد اللطيف بلكبير (المشاة)
صالح مشاد (كوماندو)
محمد غلول (المشاة)
أحمد الوفي (الطيران)
عبد الحميد بن دورو (المشاة)
محمد بن العربي منصيب (المشاة)
محمد الزموري (الطيران)
عبد العالي مربي الصغير
محمد بن ميمون الغالي
محمد مجاهد ملازم أول
عبد الرحمان الصدقي
عبد الكريم السعودي
احمد مراق
ادريس شبرق
محمد الرايس (مرشح)
عبد السلام حايض
العربي الكداودي
محيي بلا بيبون

ضباط الصف
المفضل الماغوتي مساعد أول
ادريس المغوتي رقيب أول
عبد الكريم الشاوي رقيب
أحمد الرجالي
محمد العبياوي
عبد الله أعكاو
لحسن أوحياد
احمد بوحبرة
ميمون الفاخوري
محمد بوعملات
عفا المجدوب
عاني عاشور
طيب لونشيب

المملكة المغربية
القوات المسلحة الملكية
السجن العسكري بتزممارت

تزممارت فاتح غشت 1986

من الضباط وضباط الصف السابقين بسجن تزممارت

إلى

صاحب الجلالة والمهابة القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية

الموضوع : طلب العفو

بسم الله الرحمان الرحيم : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. صدق الله العظيم.

نحن الموقعون أسفله الضباط وضباط الصف السابقون المشاة والطيارون المعتقلون في حادثتي 10 يوليوز 1971 و16 غشت 1972 والمحبوسون حاليا في السجن العسكري بتزممارت، نرفع إلى المقام العالي بالله حضرة صاحب الجلالة والمهابة قائدنا الأعلى ورائدنا الأسمى أعظم آيات الولاء والإخلاص مقرونة بأجل وأعمق مشاعر التعلق والوفاء وبعد.

مولانا الهمام : لم تفتنا أية فرصة منذ اعتقالنا في التماس جميل صفحكم وعظيم عفوكم. وعندما أطلق سراح الفوج الأول ثم الثاني من رفقائنا في السجن المركزي بالقنيطرة تبدلت أحوالنا إلى معاناة شديدة لسبب نجهله ونقلنا إلى السجن العسكري بتزممارت في 7 غشت 1973. ومنذ تلك الآونة ونحن نحاول جادين في كل مناسبة وغير مناسبة بإلحاح شديد وإصرار عظيم في السماح لنا بكتابة طلب العفو من طرف الإدارة ولكن الأبواب والمسالك سدت كلها في وجوهنا.

مولانا الهمام : إننا نشهد الله ونشهد ملائكته في الدنيا والآخرة أننا أبرياء كل البراءة من جميع التهم الموجهة إلينا ذلك أننا ذهبنا ضحية الغدر والخديعة والمكر من رؤسائنا الذين استغلوا انضباطنا ونفذ جهلنا لفائدة أغراضهم الدنيئة موهمين إيانا أننا نعمل في إطار شرعي يخدم العرش العلوي المجيد.

مولانا الهمام : إن الأمل العظيم ليحدونا في التماس شامل عفوكم وعظيم مغفرتكم. ونحن إذ نسعى سعينا هذا نقصد فيكم أبانا العطوف وقائدنا الملهم ورائدنا الأعظم سليل الدوحة المحمدية ونبراس الدولة العلوية الشريفة. وإننا يا مولانا لمتمسكون شديد التمسك بشعارنا المقدس الخالد الله الوطن الملك. ملتحمون وراء شخصكم المجيد المعظم إلى آخر رمق من حياتنا.

حفظ الله مولانا الهمام ورائدنا المقدام بما حفظ به الذكر الحكيم والسبع المثاني العظام وأدامه ذخرا للبلاد وملاذا ورحمة للعباد وقر عينه بوارث سره وولي عهده سمو الأمير سيدي محمد وصنوه الجليل مولاي رشيد وكل الأميرات الشريفات والأسرة العلوية المجيدة قاطبة. إنه سميع مجيب.

والسلام على مقام مولانا المنصور بالله.

حسناد صالح رقيب سابق ...

عبد اللطيف الكبير نقيب سابق المشاة

احمد الوافي نقيب سابق الطيران

غلول محمد نقيب سابق المشاة

المنصوري محمد ملازم سابق الطيران

محمد بن الحبيب مذديب ملازم سابق المشاة

عبد العالي المجريوي مديني ملازم سابق المشاة

نعالنوش محمد ملازم سابق المشاة

عبد الرحمان صديقي ملازم ثاني سابق المشاة

اسماعيل محمد ملازم ثاني سابق المشاة

ادريس الطيبي الشتيوي ملازم ثاني

الملازم الثاني السابق المشاة احمد مرزاق

السعودي عبد الكريم ملازم ثاني سابق

المرشح محمد الرايس المشاة المرشح

المساعد الأول سابقا المعطي عبد السلام ماكوري

الدغوغي ادريس رقيب أول سابق الطيران

احمد الحبابي رقيب سابق الطيران

محمد العفياوي رقيب سابق الطيران

عبد الرحيم الشاوي رقيب سابق الطيران

عبد الله اعكاو رقيب سابق الطيران

لحسن أوهيلم رقيب سابق الطيران

محمد بوغلاط رقيب سابق الطيران

عقى المجدوب رقيب سابق الطيران

ميمون فاكوري رقيب سابق الطيران

احمد بوحيدة رقيب سابق الطيران

بن دورو عبد المجيد نقيب سابق

حبوها عبد السلام ملازم سابق

يبين عبد العزيز ملازم ثاني المشاة

عبد العزيز الداودي ملازم ثاني سابق ""

غلاني علاتو رقيب أول سابق المشاة

بوشعيب سكيها رقيب ثاني سابق الطيران

معنف، ثم الأصوات تعاود إيقاع أيامها المظلمة، وكل صوت يصير لوحده معاناة والصمت اختبارا، خصوصا الأصوات التي تأتي من الخارج، نباح الكلاب، نعيب البوم، نهيق حمار.... ماذا يشبه كلب بالنسبة لنا؟ وطائر فوق غصن؟ وبسمة طفلة؟ وطعم حلوى أو قبلة؟ لم تعد حقيقة هذه الأشياء الصغيرة توجد بالنسبة لنا. ولا يوجد إلا اليأس والمرارة، ثم الفراغ. والألم في الرأس والجسد. في آخر الأسبوع الأول بعد عودته، إغتنم "جيف" فرصة وألقى علبة في زنزانتي، بنفس خفة المرات السابقة. ولا أحد رأى شيئا، لا السجناء ولا الحراس. جرت الخدمة كما هي العادة، في رتابة كاملة. رفض الأكل المرور من حنجرتي. إنتظرت إغلاق البوابة المركزية للبناية قبل أن أرتمي على الكنز الذي يقبع في مكان ما من الأرضية أو فوق الألحفة الداكنة التي تصلبت بفعل طبقات من القذارة. كانت أطرافي ترتعد و لم أتمكن من التحكم في عواطفي. إندلقت دموع من عيني وفاضت على وجنتي الفارغتين. كنت أبكي من سعادة هذه المرة، كنت أعرف بأن الصلة ربطت وأن العالم الخارجي لم يتخل عنا. داعبت العلبة، حملتها نحو شفتي، حضنتها، بل إنني جازفت بخطوات راقصة، لكن ضعف رجلي أوهنني بسرعة. جلست على المصطبة، هذه المصطبة التي استقبلت جسدي آلاف المرات وأكلت جلدي. مر وقت هائل منذ أغلقت البوابة الرئيسية، و لم أتمكن من فك خيط العلبة لأعرف ما تحويه. كما لو أنني كنت أريد أن أتلذذ أولا برائحتها، كما لو أنني كنت أريد إطالة هذه المتعة التي نسيتها. وأخيرا، شرعت في العمل. فتحت الكوة وأعلنت للزملاء الخبر السعيد. لقد حصلنا عل أدوية ومقويات. ورسالة من زوجتي مرفوقة ب 3.000 درهم لفائدة الصندوق الجماعي. لبلكبير رسالة من خالته و3.000 درهم. أرسل أب الماغوتي رسالة و500 درهم. وحصل الوافي على نفس القدر من المال ورسالة من زوجته. وبالنسبة لعبد الرحيم صدقي فقد جاءته رسالة و1.500 درهم. رغم أن النتائج لم ترض الجميع فقد قبلوها و لم يتبرموا لأنهم صاروا يعرفون أن كل التفاتة نحو أحدهم تخص الجميع. أعلنت لزملائي أن زوجتي وبنتي نجحتا في الاقتراب من الملك في غولف دار السلام وأعطتاه رسالة تطلبان فيها عفوه عن سجناء تازمامارت. كانت الأمور، إذن تجري في صالحنا. ولا ينبغي فقدان الأمل. الخبر جعل السجناء يقفزون فرحا. لم يقل المتشككون شيئا. كانوا يعرفون من يملك مصيرهم بيديه ولا أوهام لهم عن المصير الذي قرره لنا. رغم الشك، عمت البهجة البناية وعاد جنون الأمل ليملكنا من جديد.

كلبة تازمامارت

كان الطويل يحكي لنا كل يوم عن "مغامراته وجولاته" في الساحة. يخبرنا عن النمل الأسود الذي لا يتوقف أبدا عن دأبه بإنضباط عسكري. يحدثنا أيضا عن الأوزاغ والعقارب وعن الجدران وعن أكشاك المراقبة والجبل الذي يشرف على الثكنة، عن الشمس حين تعلو السماء وعن طيران البوم ثم دخلت، ذات يوم، هندة لحياتنا. حديثنا الطويل عن كلبة دخلت ساحة السجن ولا يعرف بأي معجزة تم ذلك. سنعرف من خلال بعض الحراس بأن الكلبة المسكينة حكم عليها من طرف المدير وستسجن مع العسكريين. لماذا؟ كان الرجل، ببساطة، مجنونا. فلأنها لم تأته بطريدة في يوم صيد حكم عليها بخمس سنوات سجنا واعتقلها في الساحة. ودخلت مرة للبناية، كانت الأبواب مفتحة. طافت على الزنازن واحدة واحدة. بدأت من الزنزانة 1 ثم 2 ثم 3. وهكذا دواليك حتى الزنزانة رقم 29. كم كانت دهشتنا حين رأينا الحيوان يدخل لكل مخدع. تطوف، تشم الجدران، والألحفة قبل الذهاب لتحتك بصاحب الزنزانة. وتركتنا نداعبها حتى أن بعضنا بكى من التأثر. تذكر عبد الرحيم صدقي كلبه فعانق الكلبة كما لو أنها امرأة وقبلها من خطمها. بقيت طويلا في الساحة ثم اختفت. قال الحراس بأن المدير أعطاها لأحد أقاربه.

كانت المأساة الأشد لا إنسانية تدور في البناية الأخرى، ولأن الطويل صار حرا في حركاته فقد كان يقترب أثناء غياب الحراس منها وينقل لنا تفاصيل الرعب الذي يعيش فيه رفاقنا في السلاح. أخبرنا بموت رجل غامض يسمى الميلودي وقال لنا بأن الإخوة بوريكات الذين وصلوا للسجن سنة 1981 كانوا في وضعية مزرية.

كان الغالو مسمرا على مصطبته منذ أربع سنوات مرت. وأعضاؤه مشلولة كلية. كانت صحته تتراجع يوما بعد يوم. وحاول كل واحد أن يساهم في التخفيف من

آلامه. هذا هو تازمامارت أيضا. تضامن في كل المحن، والتعاون والزمالة التامين رغم الشنآن والتقلبات السيئة للقدر. خلق تازمامارت وآلامه صلات صداقة متينة بيننا نحن الذين لم نختر العيش مجتمعين، وفهمنا بأن بقاءنا يتوقف على جهد كل واحد منا، ينبغي تجنب إيذاء الآخر والمس به لكي يسود الوئام بيننا، ولكي لا يختفي الأمل كلية، مهما كان أسودا. كان الطويل يساعدنا بالأدوية والأكل ويزور الغالو بانتظام لكي يرى هل يحتاج شيئاً، ولم يكن الغالو يحتاج لشيء، ولو كان في حاجة لكل شيء. لكن الحصول في تازمامارت على دواء أو بعض الغرامات من اللحم والزبدة هو بمثابة الجنة. زرته مرة في زنزانته رفقة الطويل، سأله هذا الأخير:

– هل تعرف هذا الرجل؟

رفع الغالو عينيه وإنفجر ضاحكا:

– طبعا أعرفه، إنه القبطان حشاد، غريب إنه يشبه سالامبو.

وحده رأسه كان يتحرك، أما الجسم فقد اجتاحته كلية الديدان. كانت جراحه المفتوحة تنز بالصديد وترسل رائحة لحم جيفة. لم يعد اللحم يكسي ضلوعه وحتى الجلد في بعض الأماكن، وحدها الدموع في هذه اللحظة كان بإمكانها أن تعبر عن شيء آخر في مكان الآلام والموت هذا، لم يعد هناك ما يمكن القيام به. البكاء على هذا الرجل الذي اختار مهنة لا نبكي فيها، لأن البكاء، هنا هو علامة بأن الألم يتجاوز كل المآسي الإنسانية، كل البؤس المعروف، كل المظالم الممكنة. العودة لحالة الغالو، أيضا وأيضا، لكي نقول ببربرية البعض، وشجاعة آخرين، لنتذكر قولة ميكافيل: "هناك طريقتان للمواجهة: واحدة بالقانون والأخرى بالقوة، الأولى خاصة بالإنسان والأخرى بالحيوان" ولنقول أيضا بأن الرغبة في الإنتقام والكراهية لا يدمران إرادة الإنسان بسهولة، وإلا كيف يمكن تفسير هذا الاحتضار الطويل وفي هذه الحالة لعدة سنوات؟ بإمكان الانتقام والكراهية أن يدمرا الجسم لكنهما لا يدمران أبدا الشجاعة والإرادة، ولا الكرامة خصوصا، وكانت إرادتنا هي البقاء أمام جلادنا.

تمضي الأيام دون أن يأتي ما يعكر صفو الظلم، أو يعكِّر ما هو أكثر قساوة وأكثر لا إنسانية فيه. للموت رائحة جيفة وهي تحوم مثل طائر جارح جائع. منذ موت الغالو عوض إحساس بالخسارة مكان الأمل، حتى الطويل الذي كان يتمتع ببعض الحقوق

لم يطلق سراحه رغم تدخل السلطات الأمريكية. أخبرني الحارس محمد أنه سيذهب قريبا في عطلة، أخبرت زملائي، فعاد سعار البريد مجددا. في رسالتي المؤرخة ب 7 يوليوز 1987، أشرح لزوجتي بأنه لم يطرأ أي جديد على وضعيتنا في مكان البؤس المطلق هذا. وأتمنى أن يحمل لنا المستقبل بعض السلام، ولو بريدا منتظما وبعض الأدوية. كان الطويل من حين لحين يتلقى طردا يحمله له اليوتنان فضول بطائرة هيلوكبتر. لماذا نحن لا؟ ونتائج تدخل دار السلام؟ في نفس الرسالة طلبت منها، ومهما كلفها الأمر، الإتصال بعائلة الرايس لكي تخبرهم بوضعيته وتعقد بهذا صلة بينه وبينهم."طيه بريد بلكبير ورسالة لعائلة الرايس، ألحي على أخ بلكبير لكي يفعل ما هو ضروري بالنسبة له، لأنه يريد، مهما كلف الأمر، تلقي أخبار عن أولاده. ضمي إلى بريدي بريد الزملاء. أرجوك، عزيزتي، افعلي ما في وسعك نحوهم".

غادر "جيف" تازمامارت في آخر يوم يشبه كل الأيام بعد القيام بعمله. أخذ البريد وسافر مثل المرات السابقة. ثم بدأ الانتظار مجددا، قاسيا، لا نهائيا، واحيانا غير محتمل. فعودة "جيف" ستحمل لنا معها أخبارا عن العائلات، المال، الأدوية، الصلة الوحيدة التي لنا مع الخارج. والأكثر من هذا، فعليه أن يحمل لنا معه مرة أخرى الأمل الذي نسيناه كلية، يحمل لنا معه فكرة أن كل شيء مازال ممكنا. كانت عودة الحارس محمد انتصاراً، انتصارُ الصبر على البربرية. لقد شهدت المرحلة الثانية لمساجين تازمامارت في الاتصال مع ذويهم نجاحا، كان ينبغي حمد الله وشكره على أن سهل هذه العملية. بعد ذهاب الحراس قرأت رسالة زوجتي لزملائي ووزعت عليهم البريد. حصل الرايس، هو أيضا، على رسالة من زوجته بالإضافة ل 500 درهم،.حصل الوافي على رسالة من زوجته و1.500 درهم. رسالة للزموري مع 1.500 درهم من صديقه عبد الجليل الركراكي من القنيطرة. وتلقى صدقي بريدا و3.000 درهم، وأخ غلول أرسل رسالة و1.500 درهم. وحصل أوصياد على نفس المبلغ ورسالة من أخيه، بلكبير1.500 درهم ورسالة. ورسالة لي مع مبلغ 3.000 درهم بالإضافة لعلبة مقويات وأدوية.

عرفت البناية لحظة فرح. مرت الرسائل من يد ليد. كنا نبكي من الفرح والامتنان عانق بعضنا البعض، وهنأنا بعضنا على هذا الانتصار على قوى الشر. مثل أطفال ربحوا مقابلة ضد فريق خصم. المال متوفر الآن، وسيساعد، كما ساعد في إبقاء هذه الهياكل العظمية حية أكثر ما يمكن من وقت ممكن، حتى آخر حدود قوانا، حتى آخر

خفقة من قلوبنا، لم تكن لنا النية في التخلي، ولا الاستسلام. لقد فهمنا بأننا واضعوا جسر في تاريخ بلدنا، وأننا مكلفون بمهمة، وهي أن نحيا لنشهد بعد ذلك، لنقول الفظاعة التي يقوم بها النظام، وبطريقة اعتباطية ضد أبناء هذا الوطن. البقاء حيا لكي لا تموت الكلمة أبدا، فضح سجان الأزمنة المعاصرة وإعادة ترتيب صفحات تاريخ المغرب في الاتجاه الصحيح. كان يتوجب أن نبقى أحياء لكي نتكلم باسم أولئك الذين دفنوا على طول جدار تازمامارت. سينجو أحدنا على الأقل لكي لا تنسى الذاكرة، لكي لا ينسى التاريخ، لكي لا ينسى الحجر، لكي لا ينسى الدم.

وضع المال في الصندوق الجماعي، وحافظ "جيف" على الفيتامينات والأدوية عنده لكي نتجنب الشكوك وحملات التفتيش المحتملة. كان هو صيدلي البناية، ومزودنا بالحبوب والسيرو وأكياس الدواء الصغيرة. فما أن يسقط أحد السجناء مريضا حتى يأتيه بما هو في حاجة له. لكن وضعيتنا كسجناء وهميين كانت تؤثر فينا كثيرا فلا شيء كان يحدث لتحديد قدرنا مرة واحدة وإلى الأبد. كنا نود أن نعرف ما ينتظرنا خارج هذا الانتظار القاتل. نسمع كل ستة أشهر هدير الهيلوكبتر التي تنزل في الساحة لكي تعطي للطويل البريد، والدواء، الحلويات، والشوكولاطة، ومواد أخرى. أما نحن، العزاب أو المتزوجون بمغربيات فقدرنا كتب بالمداد الأسود للاحتقار والإهمال. لكن علينا ألا نسقط في فخ السلطات السجنية. علينا ألا نفقد الأمل وأن نبقى متضامنين رغم كل شيء. بدأت اللجان المختصة في تنظيم البناية تعمل لكي تتجنب سقوطنا في اليأس. كان الكشف عن المرضى وشراء المأكولات يملأ أكبر حيز من وقتنا. واتفقنا فيما بيننا على أن يذهب قدر من المال إلى البناية الأخرى. تكفل الطويل بإعطاء القدر المالي إلى سجين وشرح له كيف بإمكان ذلك أن يساعدهم. مضت الأمور بشكل جيد شيئا ما حتى 7 ديسمبر 1987، حيث نزل علينا خبر كالصاعقة. لقد نقل الحارس محمد والحارس مولاي علي، الوحيد الذي يتفاهم مع "جيف" إلى البناية الأخرى، وتركانا في حالة إحباط ويأس لا مثيل لها. كان لدينا قدر لا بأس به من المال في الصندوق. لكن ما الفائدة منها إن لم يكن هنا شخص لصرفه لنا؟ عوض الحارسين محمد ومولاي علي بالمقدم الأول فريح والسرجان مولاي الطاهر. كان الأول رجلا لا يرحم، أما الثاني فكان سريعا مثل البرق، كاد أن يكسر أيدي العديد منا لأنه كان يقفل أبواب الزنازن بسرعة بعد توزيع الأكل. لقبناه "سر فر" فحركاته

سريعة جدا. بما أن المال لم يعد يصلح لشيء فقد أعيد لأصحابه. كل واحد استعاد ما ساهم به وواصلت الحياة مجراها الرتيب والملئ بالحرمان. لكن الجو تبدل، حتى في جانب الحراس الأكثر قساوة بدأ إحساس بالملل يمكن الشعور به. أكثر من خمسة عشر سنة من نظام سجني موحد وفي مكان أكثر أسى من زك الأرض، وأمام روتين حيواني مهين... بدأ الحراس يتركوننا على هوانا، فهم على يقين بأننا لم نعد قادرين لا على حفر نفق لنهرب، ولا إجتياز السور في ليل بدون بدر، كنا ضعافا، مستنزفين، لا نستطيع الوقوف على أرجلنا، والأكثر مقاومة منا كانوا يتجرجرون على الأرض لكي يصلوا للمرحاض أو لطبق الأكل. كنا أموات تازمامارت الأحياء.

بسبب نزلة برد شددة سنة 1988 ألزمته المصطبة لعدة أيام، كان الرايس يحس بأن قواه تتبدد، فاغتنم وجود مولاي الطاهر في زنزانته ودس ورقة من فئة خمسين درهم في جيبه مع كلمة مكتوبة: تيتراسيلين، وهمس له في تجويف أذنه "أرجوك أعط هذا للصيدلية" وقعت المعجزة ونجح الرايس في اجتياز مرضه. إبتداء من هذه اللحظة فهمنا بأن الحراس الأكثر قساوة يمكن أن يُبْدُوا بعض الضعف أمام ورقة مالية. أعلن لنا الرايس النبأ، وقال لنا: "أصدقائي باب الطلبات فتح وسرفر رهن إشارتكم" و لم يكن يلزم سوى تكرار نفس الشيء واهتبال الفرصة. انهالت الطلبات على "سَرْفَرْ" مثل مطر خريف، سريع وحيوي. كان يرضي كل الطلبات وشهدت البناية دخول مواد رفاهية: زيت الزيتون، جبن، بطاريات، أدوية بكثرة، مراهم جلدية... وكذا عدة أجهزة راديو تعمل أربعة وعشرين ساعة فانهالت أخبار العالم على تازمامارت. كان المال سيد المكان وسيد الموقف.

ذات ليلة وفي صمت مطبق سمعنا أنة خفيفة صادرة من زنزانة الغالو تلاها صوت سقوط، سقوط جسد رخو من فوق مصطبة. حبسنا أنفاسنا ونحن نلصق آذاننا بالأبواب الحديدية قبل أن نبدأ في مناداة زميلنا، لا جواب، سقط الغالو من مصطبته. بدأنا نصرخ جماعيا لكي ننذر الحراس. كان صوت كل واحد يحاول أن يعلو على صوت الآخرين "العساس عتقوا الروح" كان كل سجين يخبط بوابة زنزانته بعنف ويصيح بقوة لمن يريد أن يسمعه بأن حياة إنسانية في خطر. دام الصراخ حوالي نصف ساعة قبل أن يأتي الحراس حاملين كشافات ضوئية. بعد

جلبة سألنا أحدهم عن ماذا يقع، فأحيط علما بالمأساة. فتح زنزانة الغالو قبل أن يدخل في غضب أعمى. لم يفهم كيف يمكن إزعاجه من أجل أمر تافه كهذا. بعد تأنيبنا وسبنا سمحوا لغلول والطويل بإعادته إلى المصطبة. كان الغالو ما زال حيا لكن جسمه لم يعد، من وهنه، سوى كومة عظام. وضعه الزميلان في الأرضية لكي يجنباه سقوطا آخر. وأحاطاه بالألحفة وغطياه على قدر استطاعتهما، وشدا من أزره قبل أن يعودا لزنزانتيهما.

جرجر الغالو مرضه طويلا بشجاعة وإذعان، لقد تألم أكثر مما تألم سجين في تازمامارت. كان لحمه يتساقط مزقا وصارت ضلوعه مرئية من بين أسماله. ولم ينل الشلل لا من ضحكته ولا من اتقاد ذهنه. وحده رأسه بقي حيا بينما استقال كل جسده من الحياة. مات في يناير 1989. وأدخل البناية في مأتم كبير، وحدهما الدموع وترتيل القرآن كانوا يخففان من وطئتهما. تأثرنا كثيرا بموت الغالو الذي كان بالنسبة لنا التعبير الأمثل عن البربرية والظلم الأكثر فداحة.

لكن جوا من الحرية بدأ يهب على البلد. كل الإذاعات لا تتحدث إلا عن الديموقراطية، الحرية، وصارت حقوق الإنسان مطروحة على ضوء جدول أعمال الهيئات الدولية. وصارت المساعدات الخارجية بالنسبة للأنظمة الاستبدادية والقمعية مرهونة بإدخال شعوبها في مسار الديموقراطية. ولأن المدافعين عن حقوق الإنسان كانوا يشيرون لنظام الحسن الثاني، فقد أضطر للتراجع، بل إنه خلق وزارة لحقوق الإنسان لكي يواصل الاستفادة من مساعدات المانحين الدوليين. تابعنا في مقتلة تازمامارت، وبارتياح، التحولات التي يعرفها العالم إذ كان مسموحاً لنا بالأمل.

استئناف الاتصالات: 1989

سريع كالبرق، كان "السر فر" يستجيب لما لا يحصى من طلباتنا، لذا فقد كان يأتي بسرعة على مدخراتنا. من حين لحين كان يأتي لرؤيتي ليقول لي: "سيدي القبطان، أقسم لك بأنني لا املك ما أتسوق به لأولادي اليوم!" أدس في جيبه في كل مرة ورقة لكي يواصل مساعدتنا بدون تردد. وفي كل مرة كان يذهب فرحا، وعلى يقين بأننا بعثنا من العناية الإلهية لتازمامارت للزيادة في مداخيله الشهرية. لو لم تكن الرشوة وباء يدمر الاقتصاد والنزاهة، فإنه في حالة كحالتنا يمكن الإعتقاد بأنه الاختراع المخزني الأكثر عبقرية.

سمحت التحولات السياسية الجارية في العالم بتوقع قرب حل: مجئ البريسترويكا في الاتحاد السوفياتي سابقا بزعامة غورباتشوف، مفاوضات خلق اتحاد للمغرب العربي، وصول الاشتراكيين للحكم في فرنسا، ضغط الجزائر وإسبانيا على المغرب في موضوع الصحراء... رد فعل بعض منظمات حقوق الإنسان الدولية، التي صارت على علم بمأساتنا، العنيف تجاه نظام الحسن الثاني، إذاعة RFI كانت تبدأ برامجها اليومية (إفريقيا صباحا وإفريقيا ليلا) بذكر الشروط اللا إنسانية التي كنا نعيش فيها. كنا من قبرنا، نتابع الأحداث بإهتمام كبير. ونحن على يقين بأن مصيرنا ستحسم فيه الضغوط الخارجية. كبر الأمل في قلوبنا يوما بعد يوم. لكنه لم يدم طويلا. طلب الطويل،الذي أحبطته بعض تصرفات زملائنا، نقله للبناية الأخرى. عمل المقدم الأول فريح من تلقاء نفسه على نقله، لكنه أعاده لزنزانته بعد ثمانية وأربعين ساعة بأمر من المدير. عاد الطويل لزنزانته وتمترس وراء صمت طويل. طلبت منه في يوم ما أن ينسى هذا الحادث وأن يقوم بالتفاتة للمصالحة مع زملائه. فعليه، وبأي ثمن أن يقنع أحد الحراس بربط الاتصال بعائلاتنا. كان السرجان بوكبش مؤهلا للقيام بهذه المهمة، كان يبني دارا ولا

يتحدث إلا عن غلاء مواد البناء. مقابل بعض الأوراق الخضراء، أنجزت المهمة، فقام الحارس بوكبش بمهمته الأولى سنة 1989، أخرج من مقتلة تازمامارت رسالة خطيرة تشرح الظروف الفظيعة التي نعيشها في السجن. هذه الرسالة الطائرة سترج الرأي العام الدولي وستطوف العالم. في السنة الموالية، وإبان الأزمة الفرنسية - المغربية التي ولدها كتاب جيل بيرو صديقنا الملك، والذي كان له وقع قنبلة في فرنسا وسمح للعالم بمعرفة هذا الجرح النازف. قام الحارس بوكبش بمهمته الثانية من أجلنا. وكان في أمتعته بريد لعدة عائلات. كانت إذاعة البوليزاريو تهاجم المغرب وتفضح كل مساوئ النظام وتقوم بقراءة يومية لفقرات من كتاب بيرو مع التعليق عليها.

حصلت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان (Humain Right Watch) على هذه الرسالة ونشرتها في نفس السنة عن طريق (Middle East Watch) وحصل البوليزاريو على الرسالة وأذاعها على أمواج إذاعته. تمكن المساجين من الاستماع للرسالة، كلمة كلمة، عن طريق أجهزة الراديو. كان فرحنا كبيرا في البناية التي ستعرف حدثا سعيدا في تلك الفترة. سقط فرخ حمام من عشه في الممر، أخذه المرزوقي وعالجه وربَّاه حتى صار بإمكانه الطيران. اقترحت على زملائي أن نسميه فرج، كما لو أننا ندعو رحمة الله لتشملنا، فوافقوا. كان المرزوقي يحكي لنا كل يوم عن تطور أحوال فرج. وكل واحد يترك له فتات الخبز لأنه صار رفيق الجميع. وما أن بدأ يطير حتى صار هو فرح البناية. كان يذرع الممر بسرعة كبيرة ثم ينزل في إحدى الكوات. وما أن وصل الطائر لسن النضج حتى كان علينا أن نتخذ قرارا: هل نبقيه أم نتركه يذهب؟ وبأسى كبير، قررنا منحه الحرية لأننا، وبحكم فقدانها، كنا نعرف قيمتها. كنا على يقين أنه لا ينبغي حرمان أي كائن حي من الحرية. طار فرج، إذن، لكنه لم يترك المكان إلا بعد محاولات كثيرة. عاد بعد عدة شهور رفقة أنثى، كما لو أنه أراد أن يريها من تكفل به حين كان في حاجة لذلك. بقي الزوجان للحظات فوق سقف القصدير ثم طارا وإلى الأبد.

في نفس السنة كتبت عريضة من طرف ضباط فرنسيين، ورفاق سلاح للضباط المغاربة وأرسلت لرئيس عصبة الدفاع عن حقوق الإنسان بالمغرب. طالبين منه فيها التدخل لإيقاف هذا الظلم الذي يتعرض له ضباط وضباط صف محتجزون في تازمامارت. حرر هذه العريضة القبطان هيبرت ليجونيديك، معلمي السابق في

(3) Tazmamart le 1/7/89 lettre volante

Voici un petit aperçu ~~[illegible]~~ très succint de notre situation. Tout suivait le cours normal jusqu'au 7 Août 1973 où sans préavis nous avons été transférés les yeux bandés de nuit à la forteresse militaire de Tazmamart province Rachidia. A partir de cette date tout changea. Enfermés dans des cellules en beton armé, mousées, sombres démunies des moindres nécessités pour la vie d'un être humain à savoir : eau (5 litres par jour) lumière (pas de fenêtres pas d'électricité), hygiène (pas de savon pas de coiffeur pas de nettoyage), literie (deux couvertures usagées) vêtement insuffisant vu conditions climatiques (il neige en hiver ~~pas de chauffage~~ ~~[illegible]~~). Il faut noter la disposition des cellules et l'étroitesse du couloir central : il règne une atmosphère infernale pour raison de bruit et de résonnance, impossible de dormir de jour et de nuit ; ce-ci cause beaucoup de dépits des états de névroses et des maladies mentales.

Quand à la nourriture une implacable monotonie, insuffisante en quantité et médiocre en qualité : un pain rond de 400 gr. souvent rassi un verre de café fade le matin ; à midi quelques légumineuses flottant dans un bouillon sans saveur le soir un bol de soupe ou de pâte alimentaire préparées à l'eau. Une fois par mois et lors des fêtes nationales et

religieuses le directeur se montre genereux, ils nous servent de la viande (un petit morceau de quelques gr. malodorant souvent un os).

Les conditions de vie et le regime très pauvre, le froid la chaleur torride ont causé l'epuisement total de notre corps ce qui a pour conséquences des états de maladies de tout genre bien sur et qui aggrave ces maladies le manque de soleil, manque de mouvement et le manque de soins médicaux. Les cellules s'ouvrent 3 fois par jour juste le temps de servir et elles se referment. Puis si le malade est livré à lui même, pas de pitié ou il marche ou il crève". Jusqu'à present il y a eu 27 morts sur 58. Ceux qui restent ne sont pas brillants, beaucoup sont alités et font leur besoins sous eux et restent ainsi jusqu'à la mort.

Ce regime de reclusion totale et d'isolement de nos familles et du reste du Maroc (car il y a toujours les mêmes gens qui s'occupent du gardiennage qui ont pris l'habitude des choses et sont devenus totalement indifferents agissent en notre défaveur; s'il n'y a pas de contact avec les familles, ils vous promettent ce qu'ils vous promettent il n'y aura pas de changement. La plupart des détenus ont purgé leurs peines depuis des années et attendent d'être secourus si non nous allons tous périr et dans des conditions inhumaines nous serons alors enterrés clandestinement et sans les rites de l'islam dans la cour de la forteresse -

مدرسة الطيران بمراكش سنة 1957. وبعثت نسخ من هذه العريضة لـ: الفيلالي (الوزير الأول) رضا كديرة (مستشار الحسن الثاني) إدريس البصري (وزير الداخلية والإعلام) جلال السعيد (رئيس البرلمان) هوبيرت فيدرين، دانيال ميتران، الأميرال سانغيناتي، الجنرال بويس، وزير الدفاع، CLCRM ،AMF ،ASDHOM ،OMDH ، LMDH، AMDH ASADH، العصبة الفرنسية لحقوق الإنسان.

بدأت السنة الموالية 1990 باسترخاء كلي، لقد ربطنا الصلة مجددا بعائلاتنا بفضل الوضعية المالية لبوكبش وكانت الإحتياطات من المال مهمة. في تلك السنة بدأ ميمون الفاغوري وهو من شباب القوات الجوية يفقد عقله. كان يتحدث على سجيته، فقد انتهى مجرى الأحداث إلى النيل منه. شرح لنا ذات يوم بأنه وجد الوسيلة لمغادرة تازمامارت، الانتحار، فما أن يرمى في الحفرة حتى يحفر نفقا ويعانق الحرية، على الواحد أن يخرج أول من جحر الفأر هذا، ولمغادرة جدران السجن الملعون فليس هناك خيار آخر. عنفناه لفظيا، لكنه وأمام جدية الآخرين أقسم بأنها مزحة بسيطة. لكننا لم نكن نعرف متى يمزح ومتى يكون جديا.

تميزت هذه الفترة بحدث ناذر، أفقنا ذات صباح على صخب محرك ضاغط. راجت شائعات مرة أخرى، كل واحد يقدم فرضية، وقبلنا في النهاية البداهة، فسلطات السجن تحفر على طول السور حيث دفن زملاؤنا، هي البداهة نفسها. دام صوت المحرك الضاغط أياما بفعل صلابة الأرض المشكلة من صخور. إنها حفرة جماعية لنا نحن الذين بقينا أحياء وتلافينا الموت، طمس وإلى الأبد آثار الجريمة وآثار العار. لن تكترث السلطات ببعض الهياكل العظمية خصوصا وأن الوضعية السياسية للبلد كانت مراقبة من طرف المنظمات الدولية وهيئات حقوق الإنسان. صرنا نشك في الأكل الذي يعطانا، والماء صار مشتبها فيه. فبإمكان قهوة الصباح أن تحتوي على مادة سامة. سيسممونا حتما، وإلا فرصاصة في الرأس ستنهي الأمر. كنا، أموات تازمامارت الأحياء، على يقين بأن الوقت قد حان لنقول وداعا للحياة، مرة وإلى الأبد. بدأنا نقرأ آيات من القرآن ونصلي. ثم بكينا بدموع حارة، لا من خوف، وإنما من يأس ألا نرى أبدا الحرية، وأن لا نرى أبدا الشمس أو أولئك الذين تركناهم جانبا، أطفالنا، عائلاتنا، أصدقائنا... كانت الأعصاب مشدودة، وبين هواة الطرق الفظة وبين أولئك الذين يوثرون الوسائل الودية اندلعت الخصومات. لأن الخبر شاع في

YVIAS le 16.09.1989

Monsieur le Président de la
Ligue Marocaine de Défense des
Droits de l'Homme.

Monsieur,

Sa Majesté le Roi du Maroc a admis dernièrement (hebdomadaire "le Point" en date du 12 Décembre 1988) qu'il n'avait jamais gracié les militaires des deux coups d'état de 1971 et 1972. Par là même il reconnaissait les détenir toujours en détention.

Ces militaires furent autrefois nos compagnons d'armes; certains furent nos amis, nos élèves dans des écoles militaires françaises, nos camarades de promotion.

Nous apprenons bien tard leurs terribles conditions de détention, leur isolement total.

Nous savons aussi que, pour le plus grand nombre, leurs peines ont été purgées depuis longtemps et qu'elles le seront, pour presque tous en 1992.

En cette année du bicentenaire de la déclaration des droits de l'homme et du citoyen,

où le Maroc célèbre le soixantième anniversaire de son Roi, nous vous prions de tout faire pour obtenir de sa Majesté, la libération de ces hommes; quels qu'aient été leurs crimes il y a maintenant 17 et 18 ans, ils ont droit au respect du verdict prononcé contre eux, et à des conditions de détention humaines et non dégradantes.

Ainsi pourrait être mis fin à une situation qui nuit à l'image du Maroc et aux liens d'amitié entre nos deux pays.

Nous vous prions de croire, Monsieur le Président, à l'assurance de notre totale considération.

Capitaine Hubert LEGONIDEC - Bourg - 22930 YVIAS

Colonel Gilbert ROUBION 70 rue du Lac [illegible]
78 320 Le MESNIL ST DENIS

Lieut. Colonel DAVID Robert 7 Rue du Ruisseau 31 470 ST LYS

Colonel JAN Michel 1 Av. Bellefrières 72 500 [illegible]

Cdt André TREHIOU Goas Vian 22580 PLOUHA

Lieutenant Colonel Morel Jean Ty Guard Plehedel 22290 LANVOLLON

Colonel F. HENRY Quemper Guezennec 22 260

Guezennec

تازمامارت بأن السلطات قررت التخلص من أجسادنا المزعجة. كان ينبغي ألا يستثار سجانونا والانتظار بأن يشملنا الله برحمته. فقد حدد مصيرنا إلا إذا وقعت معجزة. إننا نعرف بخل النظام، ونعرف بأنه أعمى وبلا رحمة إن تعلق الأمر بإنقاذ جلده. لن يجد أي غضاضة في التخلص من بعض الناجين من سجن العار لإنقاذ صورته، صورة العار. كان يتوجب الابتهال والانتظار، لم يكن لنا خيار آخر.

أذاعت عدة محطات إذاعية أخبارا عن سجن تازمامارت وأذاعت البوليزاريو رسالتنا الأخيرة كاملة. فقدت "حديقة الحسن الثاني السرية" غموضها. هل هذا أمر جيد أم سيء؟ في كل الأحوال وغداة إذاعة هذه الرسالة توقف المحرك الضاغط وإلى الأبد.

في الأول من يناير 1990 نادى مجاهد ميمون وطلب منه تقديم السطل لتلقي حصته من الماء. لم يجبه ميمون. كان معلقا بحبل صنعه من أطراف غطاء، والجدار مبقع بالدم، والأظافر تركت خدوشا في الطلاء الإسمنتي. كان جسد ميمون باردا، والسطل والألحفة ملقاة على الأرض، لقد نفذ فكرته، معتقدا بأنه بهذا سيفلت من رعب تازمامارت. الصحو بعد كابوس صغير، حفر التراب باليدين والخروج حيا من الجهة الأخرى للسور. غير أن جثث تازمامارت لا تغادر أبدا المكان. كانوا مصطفين على طول سور السجن، بعد أن ألقي بهم في حفر وغطيت بالجير الحي والزلط. لم يكن ميمون يعرف بأننا لا نخرج من تازمامارت، سواء أحياء أو اموااتا؟ كان، وبدون شك، في حاجة إلى هذا المعتقد ليعيش انقداح أمل ممكن بداخله، أمل الحرية.

مازالت جدران تازمامارت تحمل آثار دمه، آثار جرم، خرج الدم من فمه وأنفه وسال في الإسمنت البارد للزنزانة، تاركا في الجدران والأرضية آثار معاناة مريعة وغير مقبولة.

جرت هذه الحادثة في المغرب. تحت حكم الحسن الثاني وفي القرن العشرين.

إطلاق سراحنا: 1991

خاطبني المقدم الأول بن إدريس الملقب "WirMan" أي رجل الحديد أو أيضا "السلك" بالعربية، ذات صباح ، قائلا:

– إن شاء الله. سأذهب هذه السنة لمكة لأداء فريضة الحج.

– هنيئا، أجبته، لا تنسى بأن تدعو لنا هناك، ربما يستجيب الله لدعائك فيسرع إطلاق سراحنا.

خفض الرجل رأسه و لم يجب. لم تكن له ذرة طيبة لكي يدعو لمعذبي تازمامارت. وكان بصدد الذهاب لمكة للتطهر من الأفعال الإجرامية التي قام بها تجاه كائنات إنسانية ردها إلى ما يشبه كائنات، مهدودة وضعيفة، شبيهة بخيالات رجال أو فزاعات. كنت أعرف بأن الرجل بلا قلب. كان من الحراس الأكثر سادية. لكن الفرصة أتيحت لجعل الغول في صفنا، ولا ينبغي تضييعها.

– تعرف، سيدي المقدم الأول، الآن وقد اختارك الله للذهاب لدياره المقدسة ومسح رأسك بالحجر المقدس، عليك البدء بفعل الخير حتى يقبل الله توبتك. هل تعلم ما على الحاج ترديده حين يكون هناك؟

– ماذا يردد؟ غمغم، لكنني لا أعرف شيئا، أنا. الكل يذهب لمكة، حتى أهل البوادي الذين لا يعرفون القراءة والكتابة!

– المشكل ليس في معرفة القراءة والكتابة، لكنه مشكل احترام الشعائر والالتزام بما ينبغي ترديده. الأمر يتعلق بمسألة حفظ فقط. عليك حفظ بعض الصيغ عن ظهر قلب، صيغ سترددها مع الحجاج الآخرين ما أن تصل لمكة. وإلا سيكون سفرك بلا فائدة وحجك غير مقبول.

– ماهي هذه الصيغ التي علي حفظها؟ هل تحفظها أنت؟

– نعم، أعرفها، وكل يوم، إن أردت، سأحفظك مقطعا، وستكون جاهزا قبل السفر.

لزم "Wir Man" أكثر من عشرة أيام لحفظ جملة واحدة "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، لبيك!"، كنت أغتنم فرصة هذه الدروس لكي أتنفس هواء الممر بما أن زنزانتي تبقى مفتوحة إبان إعطاء الدرس للغول. وفي اليوم الموالي، توسلت له بأن يترك أبواب باقي الزنازن مفتوحة ليتنفس السجناء قليلا من الهواء ولو لبضع دقائق . وهي حسنة ستحسب له في ميزان حسناته من طرف الملآئكة. وافق رغم تبرمه واشترط ألا يتعدى فتح الأبواب عشر سنتمترات. تبدأ الأبواب، وعلى التوالي في الإنفراج لكن الحارس، صاحب القلب الأسود يبدأ في الصراخ:

– أنظر الحاج، أنظر السجين في آخر الممر، أترى إنه فتح بابه بشكل كامل.

لم يسمح الله لهذا الرجل المشؤوم بزيارة قبر النبي، ولا أداء شعائر الحج في مكة، فقد إجتاحه مرض ومات سنة 1989. عوض ب "جيف" وقوبلت عودته بحماس وفرحة عارمة. وابتداء من هذه اللحظة كانت الأبواب تبقى مفتوحة وكنا نخرج كلنا للممر لكي نروح عن أرجلنا ونستنشق بعض الهواء النقي. بل إن البعض كانوا يصلون بجسارة حتى البوابة المركزية للبناية ومن هناك كانوا يرون زرقة السماء والساحة المحزنة للسجن.

ابتداء من سنة 1990 تغيرت حالة تازمامارت وصرنا أكثر استرخاء، فبالإضافة إلى الزنازن التي تبقى مفتوحة اليوم كله، كان الماء يوزع بوفرة، وحتى الأكل عرف بعض التحسن الملموس بفضل نقود الصندوق الجماعي. وجد الحارس "سرفر" وسيلة نتفنا وذلك بإقتراحه أشياء علينا للشراء ولكن بثمن باهض. كانت خدماته تكلفنا غاليا لكن لا خيار لنا. كان محمد يساعدنا بقدر استطاعته لكنه كان يرفض مس نقودنا. في يوم عيد كبير، جاء بعشرين قطعة من (بولفاف) ووزعها علينا، كان يحملها في جيبه.

كان العا لم بأسره يتحدث عن تازمامارت ومساجينه المدفونين أحياء، وكان السؤال عن هذه المقتلة يطرح بشكل آلي كلما اعطى الحسن الثاني حوارا لصحفي أجنبي. في

dernière lettre

Tazmamart le 6.10.90

Ma chérie.

Louange à Dieu le tout puissant.

Une occasion d'or m'a été offerte et je n'ai pas voulu la rater. Notre ancien ami est rentré dans notre batiment par affaire et je lui ai demandé de faire un saut pour moi car je n'ai plus d'argent. Il a accepté. C'est un miracle chérie.

Quand à moi je vais mieux qu'avant et le moral est bon. Ma rétention urinaire a diminué de moitié et, je fais de mon mieux pour ne pas m'énerver. Mon espoir est grand de vous revoir prochainement et revoir les enfants. L'intervention des organisations internationales en notre faveur, la naissance du conseil nationale des droits de l'homme etc.. m'encouragent à tenir bon et Dieu est grand.

Je suis avide de connaitre de tes nouvelles et de celles des enfants, plus particulièrement le résultat du B.A.C de Khalil.

② Tout court. Ce nom me plaît beaucoup parce que je le prononce chaque fois que je révise mon coran et plus particulièrement le verset suivant : «

قل إن هدى الله هو الهدى

La visite de notre ami Legoasidec m'a fait énormément plaisir. Il était très chic et correct avec moi et m'a invité deux fois chez lui. Tu lui passeras un grand bonjour de ma part et tu lui diras cette phrase : "Sois courageux, mais prudent en vol". Mes hommages à sa femme.

Comment va Hadja, tu lui diras de tenir bon pour moi. J'ai une envie folle de la revoir pour lui raconter beaucoup de choses. Prends soin d'elle. Et toi chérie comment vas-tu, je n'ai pas besoin de t'encourager ou te donner les conseils tu es la personne qui soutient tout et sans toi tout s'effondrerait. Prend la vie du bon côté et laisse faire la volonté de Dieu. Les enfants ont grandi et sont arrivés et cela grâce à toi bien sûr. Moi

Tu me dira Chéri tout ce que tu as de nouveau de notre problème. Notre vie à Tazmamart et toujours la même. Réclusion totale ; pas de soleil pas de médecin, pas d'hygiène et nourriture pauvre. Par manque de soleil nous sommes devenus pâlis comme du coton.

Nos enfants sont adorables, Houda me parle beaucoup de toi et m'a fait une description détaillée de la nouvelle villa. Toutes mes félicitations Chéri, je te demande d'aménager un petit coin pour mes prières (Mihrab) et penser aménager une petite piscine. J'avais les mêmes idées que toi en ce qui concerne l'aménagement de Mg Ben Selham, je suis sûr que c'est devenu joli maintenant.

Tu sais Chéri tu me feras énormément plaisir si dorénavant tu appelleras notre fille Houdallah (الله هدى) et non Houda

aussi c'est grâce à toi que je respire encore. Tu es la plus belle Dame du Monde et je t'aime plus que moi même. Dorénavant je ne t'embêterai plus jamais des problèmes de mes camarades. Un seul si tu peux faire quelque chose pour lui MAGOUTI à mon oublié de. (si tu as quelque chose entre les mains pour lui tu me l'envoies).

Il va y avoir peut-être un changement de gardiens, ainsi à titre de précaution envoie moi un peu d'argent ma cassette est vide.

— 1000 DH pour l'ami et 2000 DH pour moi (100 DH en billets de 10 DH) et 500 DH en billets de 50 DH et reste en 100 DH.

Ci-joint deux petits mots pour les enfants je n'ai plus de papier pour écrire plus. N'oublie pas quelques médicaments, : Une a Day, Floxapen et Tétracycline.

Je t'embrasse chaleureusement chérie et j'embrasse Hadjé et toute la famille. Envoie moi une petite montre si possible.

Ton mari Hachad qui t'aime.

Hachad

سنة 1990 قام الحارس محمد بآخر مهمة له وأعطى رسالة لزوجتي، تعبر الرسالة عن تفاؤلنا برؤية في يوم قريب، نهاية هذا الكابوس.

في هذه السنة، ولأول مرة منذ سبعة عشر سنة. جاء فريق من الحراس لتعويض من مات ومن أحيل على التقاعد. كانت المفاجأة التي تنتظرهم في تازمامارت تفوق ما يمكن تخيله. لم يتوقعوا رؤيتنا على تلك الحالة و لم يتخيلوا بأن كائنات بشرية ستعامل بأسوأ ما تعامل به الحيوانات. كانت الصدمة كبيرة لهؤلاء الحراس الذين لم يرافقوا محنتنا منذ بداية اعتقالنا. كان الحراس الجدد يبكون لرؤية الجثث المتنقلة التي صرناها، يبكون لعجزهم أمام حالتنا. كان سلوكهم إزاءنا مطبوعا بالتعاطف بخلاف الساديين الذين كانوا شاهدين على التدهور الذي نعيشه، سنة سنة، تدهور لقوانا العقلية والجسدية. لقد أتخموا، ربما، بالشعائر الجهنمية لتازمامارت فصار لمعظم الحراس رد فعل حيواني، وبما أنهم فقدوا كل تصور للخير والشر ففي قلوبهم لم يعد هناك سوى الشر.

بدأت سنة 1991 بفرح نسبي وأمل في رؤية آخر النفق أخيرا. وجاء حدث مهم ليرج أكثر حياتنا. التحق بنا أربعة ناجين من البناية "ب" لكي يملأوا زنازن الموتى. كم كان إستنكارنا حين رأيناهم يصلون، فزاعات مفككة، أشباح من العالم الآخر، وفي حالة ميؤوس منها. لم تعد أجسادهم سوى هياكل عظمية ومكسورة مثل تماثيل طين وضعت في الشمس طويلا. كانت جلودهم ملتصقة بعظامهم، وأضلاعهم تنزف، والعيون زائغة وغائرة في محاجرها، شعورهم ولحيهم تتدلى حتى الأرض، مجرد هياكل عظمية خرجت توا من قبورها، وحده النفس يبقيهم أحياء. أمامهم كنا أبطالا رياضيين أقوياء. أربعة ناجين من الجحيم. كيف تمكنوا من الصمود أمام الموت. وكيف نجحوا في تجنب قدر بناية الرعب؟

بدون صلة مع الخارج، بدون دواء، ولا أكل، بدون ماء كاف، ولا نور، ولا تنظيم، ولا ود فيما بينهم. الأبواب والكوات مسدودة طيلة سنوات، مجمعين على أنفسهم في زنازنهم المظلمة. لقد عاشوا منفصلين تماما عن عالم الأحياء طيلة نصف حكم الحسن الثاني، هم عروا، حقا، جحيم تازمامارت، المحنة الحقيقية. هم قاموا بالرحلة إلى الماوراء وعادوا منهكين كلية، الجلد محروق، مغطى بعدة طبقات من القذارة، الأفكاك بدون أسنان ولا اضراس، الأظافر ملتوية، الضهور مقوسة، الأرجل نحيلة ومقوسة. كانوا بالكاد يقفون على أرجلهم، يسيرون بأرجل حافية وبصعوبة كبيرة وهم يتكئون على الجدران. كان من الصعب التعرف عليهم، فسكيبة وهو عسكري شاب من

القوات الجوية، في زمن الانقلاب العسكري الثاني، كان أنيقا، وبطلا رياضيا كبيرا ب متر و80 سنتمتر، لم يعد سوى ركام من الجلد والعظام، مقوساً حتى الأرض، لقد فقد هيئته الإنسانية وصار قزما بما أنه تضاءل بعدة سنتمترات، كان عاريا مثل غصن سحب من جمر. لزمهم أسبوع ليتكيفوا مع محيطهم الجديد. كانوا حذرين إزاء الكل ويرفضون الكلام مع الآخرين. ورفضوا لمدة طويلة لبس ثياب، كانت لسكيبة فلسفته: قتل الشر بالشر، أخبر الجميع بأنه يمارس اليوغا وأنه وصل لمواجهة البرد وهو عار.

في نار جهنم البناية الثانية بقي فقط الإخوة بوريكات ووضعيتهم مزرية، بايزيد ومدحت باتا مسمرين بالأرض، وحده علي مازال بوسعه التحرك. قال الداودي: "إن بقوا ستة اشهر أخرى في البناية الملعونة، سيموتون كلهم، هذا مؤكد!".

سكيبة، الداودي، عاشور وبين بين!.

أي كلمات بإمكانها أن تقول جهنم الذي عاشوه؟ أي كلمات بإمكانها أن تخفف عن ذاكرتهم كل القساوة واللاإنسانية التي عاشوها؟ أي جمل من شأنها أن تنسيهم زملاءهم الذين بقوا هناك مدفونين بالقرب من الجدار؟ ينبغي فقط تكريمهم وأن نقول لهم شكرا لأنكم صمدتم حتى اليوم، لكي تشهدوا فقط على الرعب، أن تقولوا لكل الناس ما كان عليه تازمامارت، أن تقولوا للعالم ما هي المعاناة التي تعرض لها رعايا الحسن الثاني في سجون البربرية. إن الشهادة ضد النظام الكلياني وضد الاعتباط هما، ومن الآن فصاعدا، انتصار على الطغيان والظلم. ينبغي وضع تماثيل لهؤلاء الرجال في قلب كل مدينة مغربية للتذكر، وللتاريخ ولكي لا ينسى الإنسان أبدا بأنه وفي كل مكان من العالم يوجد رجال مجانين يعذبون، ويقتلون، يرفسون الكرامة الإنسانية... بإسم أمن الدولة والاستقرار السياسي.

بقي أموات البناية "ب" الأحياء معنا أربعة أشهر، حيث عملنا فيها على زرع الروح في أجسادهم، هياكل قديمة منهكة ومفرغة أخذناها وحاولنا، شيئا فشيئا، أن نعطيها شكلا إنسانيا. وما أن خرجوا من عزلتهم القاتلة حتى استعادوا طعم الحياة بما أن الفرق بين ظروف "أ" وظروف "ب" كان بما يميز الجنة عن جهنم. كان زملاؤنا: الداودي، سكيبة، عاشور، بين بين، والإخوة بوريكات في قلب الجحيم.

غداة ليلة 14 أو 15 شتنبر 1991 حكيت لأصدقائي حلما شاهدته. نفق طويل ومظلم وضيق ولا نهائي، كنت أسير فيه دون أن أعرف هل سأصل إلى نهايته. كانت

قواي تهجرني شيئا فشيئا. لكنني كنت أعرف بأن خلاصي يتوقف على الجهد الذي أبدله، وأنه، لا خيار لي، تبعا لهذا، إن أردت إنقاذ نفسي. علي أن أسير أيضا، أسير لمدة طويلة، وأخيرا ظهر لي قبس في البعيد. توجهت نحو القبس التي تحول شيئا فشيئا إلى نورٍ كبر وكبر حتى خطف البصر. كان المخرج وراء هذا النور. وصلتني أصوات واضحة، أصوات أناس يرتلون القرآن ووجدت نفسي في الخارج.

سخر مني الأكثر تشاؤما، وطلبوا مني بلع حلمي مجددا والعودة للحقيقة الصلبة لتازمامارت. كان الحلم واضحا، وفهم سجناء تازمامارت مغزاه. لكنهم كانوا على حق في عدم تصديق إمكانية الإفراج عنّا. فإن أمضوا سنوات طوال محبوسين في هذا المكان الملعون، فما الذي يمنع المسؤولين من إبقائهم حتى نهاية ايامهم. وبما أن الأغلبية دفنت تحت السور، فمن تبقى من المجموعة سيتبعون نفس الطريق.

لا نحلم في تازمامارت، لكننا نعيش الحقيقة الصلبة للأيام والليالي، حقيقة فصول الشتاء والصيف، حقيقة المرض أيضا، والخصاص في الأكل، والعلاج، والماء، والنظافة، والضعف الجسدي، والجنون والموت.

في الغد كان الحراس متحمسين. فوجئنا ل "جودة" وجبة الفطور الذي قدم لنا وأعطي الأمر بأن نتحرر من خرقنا لأنهم سيوزعون علينا ألبسة جديدة. علينا ألا نحتفظ بأي شئ فوق أجسادنا، لا شيء. استولى الارتباك علينا، إنهم بدون شك بصدد خداعنا. ويريدون التخلص منا بالطريقة الأكثر حقارة. كما لو أنهم يريدون معاقبتنا على صمودنا لمدة أطول أمام الموت. عبرت صورة إبادة اليهود من طرف النازيين في الحرب العالمية الثانية أذهان البعض منا، تعريتنا لتصفيتنا. رفض الأمر، إن لم يكن من الموت بد فيجب أن نموت بكرامتنا. لم يخلع أي سجين ثيابه، ثم إن أجسادنا تعودت على أسمالنا التي تقوت بالقذارة حتى صارت أشبه بالدرع الذي يحمينا من تقلبات الطقس وضد لسعات الحشرات. كان أوصياد يصرخ بانه سيموت إن خلع "حلاسته". نجح الحارس محمد في إقناعنا بأن علينا أن لا نخاف. وطمأننا. لم يفهم المسؤولون بأن هذه الأسمال صار جلدا ثانيا لنا. ثمانية عشر سنة من القذارة، من التعرق في نفس الخرق، انتهت إلى تحويل الثوب إلى جبيرة جبص تحمي جلدنا.

– أتوسل لكم، قال جيف، إنهم لن يعدموكم، إنهم يريدون منحكم ثيابا جديدا لأنه سيفرج عنكم قريبا!

ساعات من المفاوضات، والتجاذبات، ومن المساومة وأخيرا تنازلنا ولبسنا ثيابنا الجديدة، سروال وقميص كاكي لكل واحد وحذاء رياضي. حوالي منتصف النهار وضعونا، اثنين في الزنزانة، كانت وجبة الغذاء مدهشة، لحم وتحلية! لم نكن نعرف ما ينبغي التفكير فيه إزاء هذا التغيير المفاجئ. آخر وجبة لسجين؟ مضى النهار في إفتراضات، وتعليقات، وتحقيقات... وكل واحد كان يغترف من قناعاته وشكوكه، في كل الأحوال لن يتأخر الأمر وسنعرف ما رسى عليه مصيرنا. الموت أو إطلاق السراح. وكنا نفضل ألف مرة الموت على مواصلة التعرض لصنوف الفظاعات في هذه الحفرة الملعونة.

حوالي آخر النهر، إرتجت جدران الزنازن لهدير محركات شاحنات عسكرية ركنت في الساحة المركزية. وتردد الصوت الحاد والهستيري للكولونيل فضول مثل القدر: "أسرعوا! بحق الله" كان يكرر بدون توقف. فتحوا أبواب الزنازن وأخرجونا واحدا واحدا إلى الساحة، حين وصل دوري، سألني فضول:

– ماهو اسمك؟

– القبطان حشاد

– هل تعرفت علي ؟

– لا!

– طيب، سنرى هذا فيما بعد.

ألبسني دركيان جلبابا من جلابيب المخازنية، ووضعا قطعتي قطن فوق عيني قبل أن يشدا شريطا أسود على رأسي. وتعرض الآخرون لنفس الشيء. وضعوا قيودا في أيدينا. هل بقيت لنا قوة لنفر حتى لو أردنا ذلك؟ كنا عصاة هددوا حياة أمير المؤمنين، كنا أيضا رجالا خطيرين ولا ينبغي المجازفة بأي خطر معنا. كدسونا في شاحنات مغطاة وغادر الموكب المكان. كان الليل قد نزل. لن يغادر ثلاثون من ثمانية وخمسين زميل أبدا سجن تازمامارت. وما زالت أجسادهم في المقتلة الكريهة مخبأة تحت السور، ينخرها الدود والجير الحي، أكثر من النصف صُفي على مذبح انتقام أعمى وبربري.

حمل أحد الإخوة بوريكات فوق محفة ووضع أمام أرجلنا وسط صفين من كراس خشبية. كانت صحته من السوء بحيث أنه لم يكن يستطيع المشي، ولا البقاء واقفا، ولا حتى الحركة، تشوه جسده كلية وخرجت حدبة من بين كتفيه. غير أن مرحه لم يفارقه. دام فالس الشاحنات الليل كله. وكانت الاهتزازات والمنعطفات إختبارا أكيدا لأجسادنا المنهكة والمفرغة من كل حياة إنسانية، مكسورة، ومطموسة. كنا نحس بكل إهتزاز في أعمق أعماق لحمنا، البعض يتأوه، البعض الآخر يبكي في صمت، والبعض الآخر كانوا يكتفون بصر أفكاكهم وتلاوة بعض الآيات القرآنية. لم تتوقف شاحنات الليل إلا بعض الدقائق لكي تسمح للسائقين ببعض الدقائق من التوقف يروحون فيها عن أرجلهم ويتناولون كأس قهوة. كان خشب الكراسي يدمي ضهورنا ويجرح عظامنا النازفة. طلب من هو ممدد في محفة إناء ليتبول فيه، لا جواب، ولأنه يئس من إستجابتهم فقد قال: "طيب. سأتبول في سروالي!" دعى الرايس الدركيين لإعطاء قنينة فارغة للمريض، إن تبول في سرواله فإن رائحة كريهة ستنغص السفر الذي ليس مريحاأصلا. مرت قنينة فارغة من يد ليد ونجح علي بوريكات في تفريغ مثانته بدون تبعات سيئة.

وصلت الشاحنات إلى مكان الوصول في الغد صباحا. كان السفر عذابا حقيقيا بالنسبة لنا، الأخير ربما، والأكثر قساوة. لم تعد أجسادنا سوى كومة عظام وحديد القيود كان يقطع الجلد الذي يغطي عظام اليد.

حلمي! السير الطويل في نفق مظلم.

أعطيت أوامر، أنزلنا واحدا واحدا، ساعدت أيدي الجثث، ووجهتها نحو مكان مجهول من خلال ساحات، ودرج للصعود، وممرات للعبور، وأبواب للاجتياز... ثم طلب من كل واحد منا أن يجلس. مرتبة! نعومة، برودة الألحفة... كانت الأيدي تتحسس، وسادة ناعمة، نزعت الجلابة والقيود والعصابة السوداء، أدمى النور وبياض الجدران عيني، ثم تعودت العينان النور شيئا فشيئا. حجرة كبيرة، مصبوغة بالأبيض، بنوافذ عالية، طاولة وكرسي في ركن، سرير كبير بألحفة بيضاء ونظيفة. كل واحد من الناجين من تازمامارت سيعتبر هذه الحجرة جنة. داعب الرجال الوسائد والمراتب وبكوا. ومن حجرة لحجرة وجد بعض المساجين القدرة على ترتيل القرآن.

وتأكد حلمي التنبؤي.

جاء رجال بوزرات بيضاء دقائق بعد ذلك، حاملين أطباقا في أيديهم، وبنبرة لبقة دعوا كل واحد من السّجناء إلى تناول فطوره: قهوة بالحليب، مربى، زبدة، هلالية، ياغورت، فواكه، خبز محمص... مواد نسوا وجودها، بما أنهم حرموا من هذه الأشياء ثماني عشرة سنة محوا طعم هذه المنتوجات وأسماءها من ذاكرتهم. كان الفطور ببساطة سحريا نحن الذي عدنا من الجحيم حيث كان غياب كل شيء اختبارا يوميا لا يحتمل. جحيم الأزمنة المعاصرة حيث يكسر الرجل الرجل ويعيده لحياة الحيوان ليرضي عطشه للانتقام. بعد الظهر جاء الكولونيل فضول زار كل واحد منا وطرح نفس السؤال على الجميع:

– هل تعرفت عليّ؟

– نعم، أجبت، أنت اليوتنان فضول.

– لم أبق يوتنان، أنا كولونيل!.

طمأنني على عائلتي. قال لي بأن زوجتي في القنيطرة وأنها شقت طريقها، وولديّ يتابعان دراستهما في فرنسا. فكل شيء، إذن، جيد بالنسبة لي. لم أقل شيئا. فكرت في ثمانية عشر سنة من نار جهنم وكل هذه الخسارة، أمضت زوجتي أجمل سنوات عمرها تنتظرني، ولدي كبرا محرومين من الحب الأبوي، ولدي كبرا من دون أب. طفلة لها من العمر سنة (1972) وطفل في بطن أمه. نعم كل شيء جيد بالنسبة لي. وبما أن الكولونيل يعتقد ذلك، فلأنه حقيقي. هو يجهل، بدون شك، أنني أعرف كل شيء عن عائلتي وأن ثماني عشرة سنة من حياتي ذهبت في تازمامارت، ووسمتني إلى الأبد، في جسدي وفي ذاكرتي. كل شيء جيد بالنسبة لي! هؤلاء الرجال الذين حطمت مصائرهم، ومزقت عائلاتهم، والذين قلبت حياتهم رأسا على عقب ونهبت ذكرياتهم إلى الأبد، فما بقي فينا ولن يتبقى إلا ذاكرة تازمامارت.

تناوب علينا أطباء من مختلف الاختصاصات الواحد بعد الآخر لفحصنا، وعلاجنا، و"ترميم" هذا الحطام الإنساني قبل إعطائه لأهله. ينبغي إنقاذ ماء الوجه، إظهار هؤلاء الرجال في "أفضل" حال. وحتى إن نجحوا في إعطائهم مظهرا إنسانيا، كيف يمكن شفاء جراح الروح؟ وجراح القلب؟ والمظالم؟ وثمانية عشر سنة من العزلة، والرعب، والموت البطيء والإهانة القصوى؟ ماذا سنشفي إن كان الألم في مكان آخر، في ذاكرة بلد وشعب، حين يكون الجرح عميقا ولا يلتئم؟

بعد عدة أسابيع من العلاج وكوكبة أطباء الأسنان وفالس المحللين النفسيين، وأطباء الأعصاب والدماغ، والعظام، والأمراض الباطنية، والعيون، والحنجرة والأنف والأذن، وأطباء القلب، وصل الكولونيل فضول ذات يوم، مرفوقا بعدة شخصيات أخرى، اطمأنت البعثة على صحة وحوش جيراسيك بارك المغربي وكانت راضية على عمل صناع المركبات الأطباء. وهنأت بحرارة مرمقينا على فعاليتهم. في نهاية الزيارة أخبرني الكولونيل فضول بنبرة ظافرة:

– جلالته الملك الحسن الثاني، نصره الله شملك بعفوه الملكي. ستلتحق بأهلك! لقد عفى عنك جلالته! انس ما جرى وابدأ حياتك. اختر مهنة أخرى لتعيش من مدخولها، انس أنك كنت جنديا! هذه هي الحياة، ماذا تريد!.

لم أجب، استدار نحو مرافقيه وقال لهم:

– هذا صلب ولا يطبخ بسرعة

– ثماني عشرة سنة في نار الطبيخ. قلت له بالعربية، ألا تكفيكم؟

انس، أدر الصفحة، كما لو أن ثماني عشرة سنة لم تحدث، كما لو أن بالإمكان نسيان الحقد والبؤس، كما لو أن صفحة تازمامارت السوداء يمكن إدارتها بسهولة وبفضل عفو ملكي. ثماني عشرة سنة من حياة ضائعة ومرمية وسط قراص جدران التاريخ، وممحوة بإرادة المقررين وحدها، لكن الذاكرة لا تنسى، ولا التاريخ، فتازمامارت قد كتبت بمداد العار في جبين البلد، لأن بعض الناس كانت لهم سلطة مطلقة واستغلوا ذلك وأفرطوا فيه. تازمامارت لا ينسى، تازمامارت لا ينسى.

وزعوا علينا بدلات جديدة، أقمصة، وأحذية، وبيجامات، وألبسة رياضية وأكياساً فيها كل أدوات النظافة والحمام. كنا في مدرسة هرممو، المكان الذي انطلق منه أول انقلاب ضد الملكية، هرممو كرمز والعودة لمربع البداية، كما لو أن الماضي لم يوجد، كما لو أن الذين أمضوا ثمانية عشر سنة من عمرهم في تازمامارت كانوا في عطلة أو أنهم لم يغادروا أبدا هذا المكان. فالدائرة اكتملت، لكن من هرممو لتازمامارت، من تازمامارت لهرممو، مرت ثمانية عشر سنة. دفنت ثلاثون جثة في تازمامارت وحطمت ثمان وعشرون حياة إلى الأبد، بحقد الحراس، سوء نية المقررين، ووحشية زبانية النظام... ثماني عشرة سنة في الطرف الآخر للحياة، ثماني عشرة سنة من معاناة لا إنسانية، تمخضت عن وفاة ثلاثين شخصاً، أتمنى أن ينغصوا إلى الأبد نوم كل من كان على صلة كبرت أو صغرت بآلامنا.

ينبغي التذكير دوماً بتازمامارت لكي لا يُنسى، لقد حوكمنا وصدرت في حقنا أحكام، لقد حرمونا من حقنا في العدل وحقنا في الحياة. لا ينبغي أن يقال لنا ولعائلاتنا انسوا وأديروا الصفحة. إن هذه الصفحة من تاريخ بلدنا كتبت بآخر نفس من تضحيتنا، كتبت بدم بن عيسى، وفاغوري، وميمون، وغالو، وبن دورو، وحايفي، وفاراوي... إن قائمة الرعب طويلة. ودامت ثماني عشرة سنة في أسوأ ظروف يمكن لكائن إنساني أن يتخيلها. و لا يمكننا إزاء هذه الأجساد المدفونة تحت سور تازمامارت أن نفعل كما لو أن... لايمكن أن نقول لهم، هم، انسوا وأديروا الصفحة. لهؤلاء الرجال الذين ماتوا مظلومين، لن ينسى التاريخ ولا يمكن للذاكرة أن تسامح أبدا المسؤولين عن هذا الرعب المبرمج.

ذات صباح ركبنا، نحن خمسة ناجين من تازمامارت في شاحنة عسكرية أوصلتنا للسجن المركزي بالقنيطرة. كان السفر أقل سوءا من سفر تازمامارت نحو هرمو. لأول مرة لم توضع القيود والعصابة أثناء نقل الجثث المرمقة، والتي تكاد تكون جديدة بفضل العلاج، الفيتامينات، والهرمونات، والمقويات... إستقبلنا مدير السجن في مكتبه وقرأ لنا رسالة العفو الملكي. كانت الساعة قد بلغت الثامنة ليلا:

– من هذه اللحظة، أيها السادة، أنتم رجال أحرار.

نظرنا إليه دون أن نفهم ما يقع، ولا كلمة أحرار، أحرار! ماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة لرجال دفنوا ثماني عشرة سنة و لم تعد لهم أي مرجع ، أي مكان إرتباط؟ من حسن حظي كانت عائلتي تسكن على بعد خطوات من السجن:

– يمكنني، إذن، أن أذهب؟ تساءلت بإندهاش، أنا أسكن بالقرب من هنا.

– لا ينبغي إزعاج العائلات في هذه الساعة المتأخرة، لا مجال لهذا! أنتم هنا ضيوفي لهذه الليلة، أيها السادة وقواعد الضيافة لا تسمح لي بأن أترك ضيوفي وسط الليل، مرحبا بكم، هنا أنتم في داركم!.

أحسن القول السيد مدير السجن المركزي للقنيطرة. كانوا كأنهم في دارهم؟ بل بالأحرى كانوا في دارهم. لقد صار السجن دارهم الأولى، بلدهم، مسقط رأسهم، قبرهم، هذا المسار العكسي غريب. كما لو أن المسؤولين، وبدون وعي، كانوا يبحثون عن صعود الزمن، لا لمحو الأخطاء، ولكن لاستقصاء المكان الذي أخفق فيه المخطط

الشيطاني، البحث عن حبة الرمل التي عطلت ميكانيكا قمعهم، كنا "ضيوف" السجن، لا المدير. أمضينا الليل في مكتبه حيث بقينا ساهرين حتى الصباح، محاطين "بكرم" المكان وسيد المكان. وهنا تفرقت مصائرنا، وأركب كل واحد منا سيارة كبيرة وأرسل إلى وجهة مجهولة تحت خفارة جيدة. وجدت نفسي في بناية أخرى في مكتب آخر، وأمام مسؤول في وزارة الداخلية القائد العلمي. تمنى لي هذا الأخير قدوما طيبا وحدثني طويلا عن عائلتي. وطمأنني عن مآل أهلي. وكان يشدد على أن "كل شئ جيد" في غيابي، شقت الزوجة (الصيدلانية كما يسميها) طريقها والولدان يواصلان دراستهما في فرنسا وينجحان بدون مشكل. طفلان مباركان من الله. كانت الحياة، إذن، جميلة بالنسبة للناجين من تازمامارت.

لماذا يصرون كلهم على طمأنتي على مصير عائلتي؟ هل وقع مكروه لأحد أولادي؟ هل جددت زوجتي حياتها، مثلما فعلت أخريات، بعد أن تعبت من انتظار زوج لن يأتي أبدا؟ هل ضرب الموت في عائلتي؟ لماذا كل هذه المواعيد مع هؤلاء وأولئك؟ لماذا لا يتركونني أعود إلى داري ببساطة، بما أنني رجل "حر"؟ لا، الأمور لا تجري هكذا مع المخزن. أنا ربما رجل "حر" لكن علي أن أخضع للشعائر المفروضة من طرف دولة المخزن التي أرادت أن تقول لي بأنني دوما أحد رعايا النظام وأن حريتي تبقى حرية مؤقتة، حرية مشروطة، ضرب من الضغط النفسي، إعادة تنشيط للخوف من المخزن وتحريك لدينامية الخضوع للسلطة. تبدأ حرية كل مغربي هناك حيث يقرر المخزن أن تبدأ. بالنسبة لي أنا، وبالنسبة لباقي الزملاء لا تبدأ الحرية من أي مكان، لأن علينا أن نصمت، ألا نكشف أي شيء عن محنتنا. نسكت، ننسى. ولم يكن لإخراج هذا المسار من هدف إلاّ تنشيط وعينا إزاء قوة المخزن الهائلة في حالة نسينا ذلك. لم نكن، إذن، أحراراً كلية بما أنه كان علينا أن نخضع لكل المتطلبات الرمزية وغيرها للمخزن. أحرار! لم نكن كذلك. ولن نكون كذلك أبدا. وحتى لو كنا في الخارج، فإن ذاكرتنا ستبقى أسيرة ذكريات تازمامارت، جدران تازمامارت، برد تازمامارت، جوع تازمامارت، أمراض تازمامارت، موت تازمامارت، حتى ونحن أحرار سنبقى هناك، بعيدين وراء جدران الأحياء، لأنه، في مكان ما، قتل المخزن آمالنا، وقتل مستقبلنا، وأحلامنا وحطم مصائرنا. الناجون من تازمامارت، كنت أعرف بأنني سأبقى دوما مسجونا في سجن العار، ذهنيا، وعن طريق تذكر عدة زملاء دفنوا هناك ورأيتهم يعانون، وسهرت عليهم في احتضار وهجروا عالم الأحياء، عالم العار والانحطاط

دون أن يتشكوا أبدا ولا أن يضعفوا، مثل أبطال بدون مجد. كانوا يئنون من حين لحين لكي يتأكدوا من أن الجسم لم يذهب إلى المكان الآخر من الحياة، وأنه مازال يستجيب لألم المرض، ونهم الدود الذي كان يلتهم اللحم بعد أن اخترق الجلد، إنهم لم يتحسروا أبدا على شئ، و لم ينزلوا أبدا أيديهم. يتأوهون ليتأكدوا بأن نفس حياة مازال يسكن تلك الأجساد الإنسانية التي لم تعد كذلك، فقد صارت مجرد جثث مرمية في جحيم زنزانة بدون نوافذ، بدون تهوية، بدون إمكانية خروج ولا علاج ولا أكل كاف، بدون شمس ولا نور.

أول استعراض عسكري جوي بطائرات الميغ سنة 1961 بمكناس

المملكة المغربية

الحمدُ لِلّه وَحْدَهُ   وَلا يَدومُ إلّا مُلْكُه

الحسن
محمد بن يوسف
ابن الحسن الله
وليه

يُعلَمُ مِن كتابنا هذا أسماهُ اللّهُ وأعزّ أمرَهُ أنّنا بِحوْلِ اللّهِ وقُوّتِه أنْعمْنا على

الليوتنان صالح حشاد

بالفوج الثاني للسّلاح الجوي الملكي

بوسام العرش من الدرجة الرابعة

رَعْياً لِما لَهُ مِن أهْلِيّة واعْتِبارٍ لَدى جَلالَتِنا فَلْيَكُن لَهُ هذا الوِسامُ مَصْحوباً بِاليُمْنِ والسّعادَة بِفَضْلِ اللّهِ وعِنايَتِه.

حُرّر بالقصر الملكيّ بالرباط في 17 نونبر 1965

وَسُجّلَ هذا الكتابُ الشّريفُ تحْتَ رقم 141,2078

مُدير التشريفات الملكية والأوسمة

العلوي

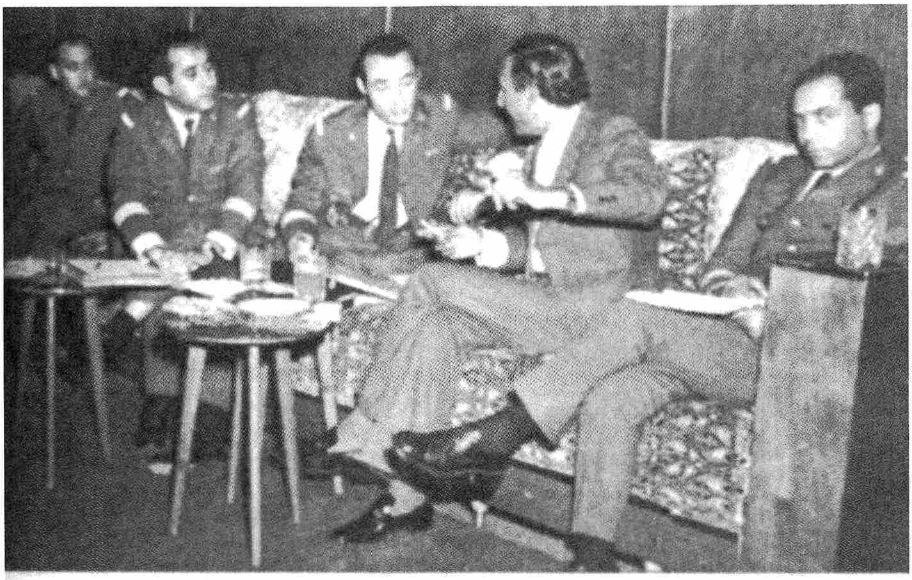

أفقير بنادي الضباط برفقة : حشاد، أگزول، أمقران وبامعروف ، 1972

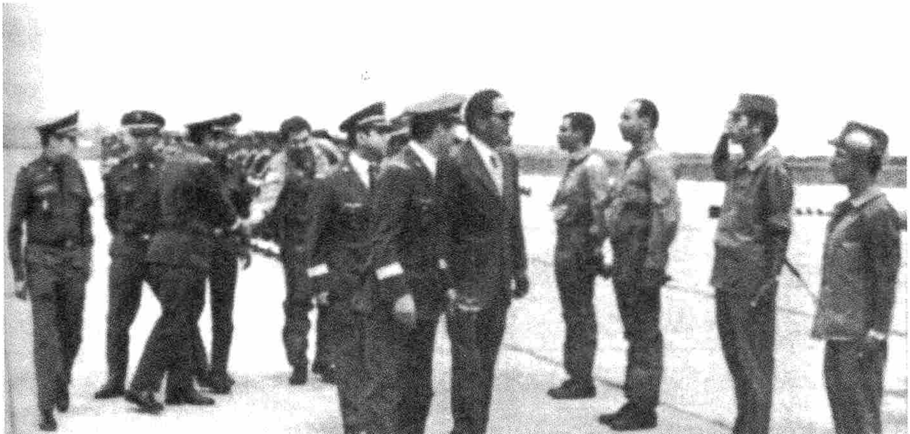

أفقير برفقة أمقران يتفقد الطائرا ت F5

آخر طلعة طيران يوما قبل الانقلاب في الصورة قائد القاعدة الأمريكية بالقنيطرة والزميل مبارك الطويل

حشاد رفقة كويرة والوافي، 1971

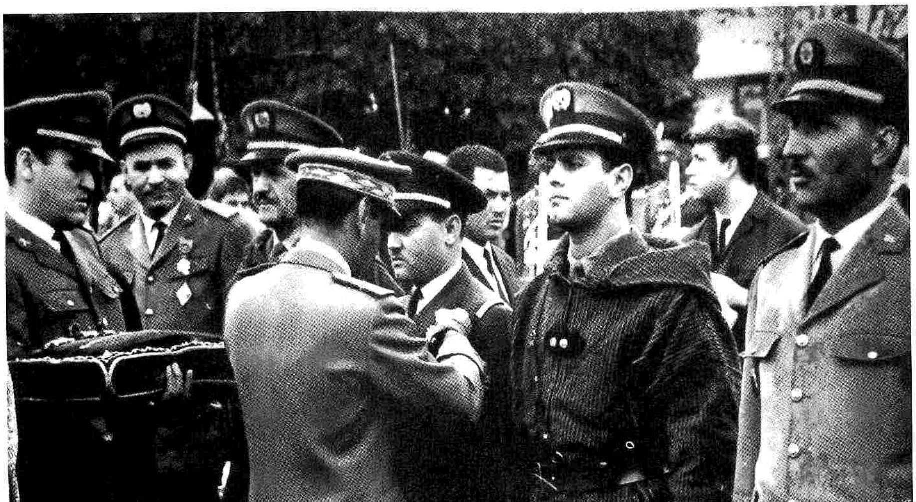

جلالة الملك الحسن الثاني يوشحني بوسام العرش من درجة ضابط، 1973
بعد حرب الرمال

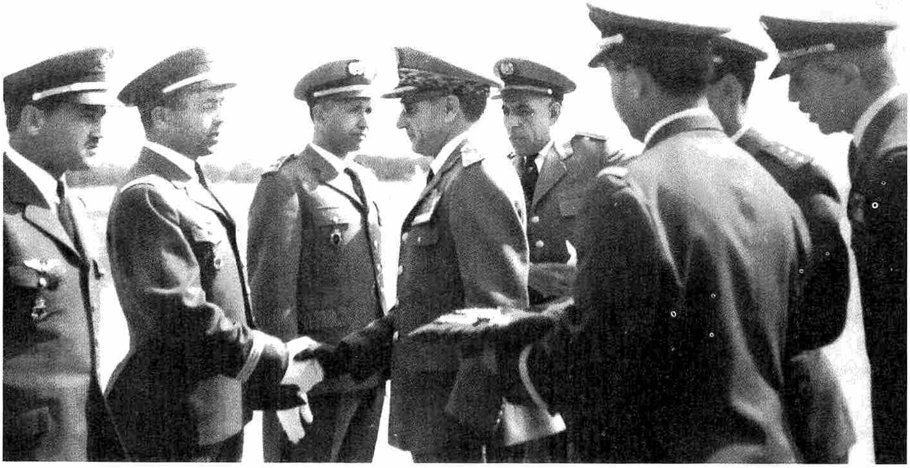

1963 بعد حرب الرمال الجنرال ادريس بن عمر يوشحني بوسام الحرب رفقة زميلي الكولونيل ماجور بامعروف

حشاد وابنته هدى 1971

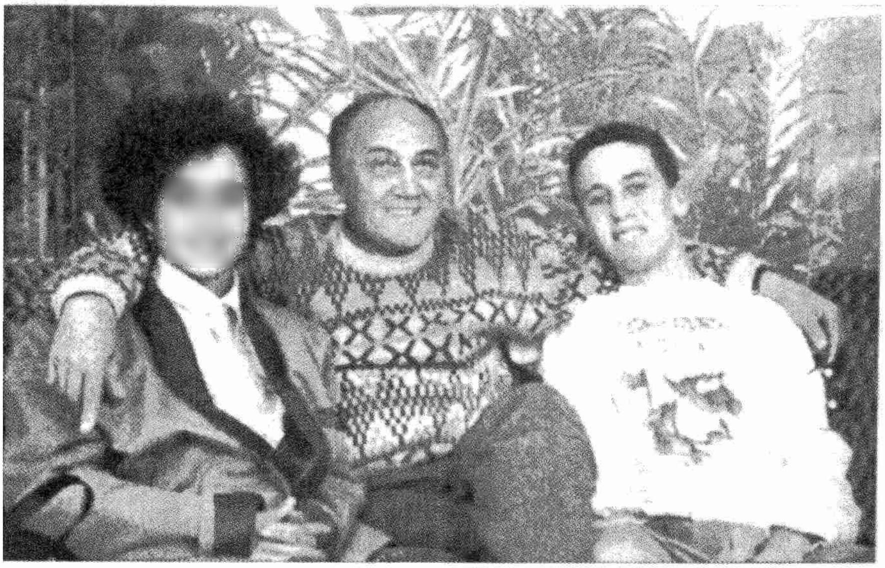

حشاد وعائلته بعد الإفراج 1991

حشاد وعائلته بعد الإفراج 1991

مدام عايدة حشاد
وهدى وخليل
1972

هدى
1972

كفاح امرأة

يلزم أكثر من رجال سياسة قادرين على الاستماع، والنقاش، واقتسام سلطتهم. يلزم نساء قادرات على انتهاك المحرمات الأبدية، يلزم على الخصوص نساء يتضامن فيما بينهن لا لطرد الرجال، ولكن للسماح لكل امرأة، هناك، حيث تريد أن ترفد الحياة العمومية بنصيبها الخاص من الإنسانية.

إليزابيث جيجو

انقلاب 1972

قلب زلزال 16 غشت 1972 حياتي كلية وحياة أهلي ورمى بنا في عالم الرعب رغم أن لاشيء كان يدفعنا لتوقع وقوع حدث مأساوي. لم يخطر على بالي بأن انقلابا يتم التحضير له ضد طائرة البوينغ التي تقل الحسن الثاني من فرنسا، كما لم يخطر على بالي أيضا أن زوجي سيورط في هذه القضية التي كان يجهل عنها كل شيء، عشرون سنة من عمرنا ستوسم بجمر قمع نظام لم يكثرت بنداءات الأبرياء وتعامل بصمم وعمى مع معاناتنا.

كانت الحرارة في ذلك اليوم خانقة، تذيب الحجر. قررت أن أبقى في البيت لأغنم بعض الوقت مع بنتي هدى التي كانت في شهرها الخامس عشر. كما هي العادة، مضى اليوم بهدوء، وفي حدود الخامسة مساء، وحين خفت الحرارة، قررت أن اخرج من بيتي للذهاب للعمل. أوقفني جنود أمام باب الخروج ومنعوني من مغادرة القاعدة. حاولت أن أعرف ماذا يقع. طرحت أسئلة على الضباط و لم أحظ منهم إلا بالصمت .كانت الحركة غير عادية لكنني لم أعط أهمية لهذه البلبلة، فالأمر ربما يتعلق بزيارة شخصية مهمة للقاعدة أو هي عملية مراقبة قررت في آخر لحظة من طرف ضابط ما. عدت على عقبي إلى جوار بنتي كنت منزعجة لكن غير قلقة لأنني كنت أجهل ما وقع قبل ساعات وأن زوجي هو أيضا، كان في قلب العملية. لم أر شيئا، ولا سمعت شيئا بينما كانت المأساة التي ستقلب حياتي تدور فوق رأسي.

حوالي السابعة مساء رن الهاتف، كان زوجي في الطرف الآخر، طلب مني ألا أغادر البيت وألا أقلق وأنه سيفسر لي كل شيء حين يعود، ثم قفل الخط. لم أجد الوقت حتى لأطرح عليه سؤال ماذا يقع. لحظات بعد ذلك اتصل السيد ماغوتي مفضل وطلب مني طمأنة زوجته وأن أخبرها بأنه سيتأخر في العودة هذه الليلة. كان آل

ماغوتي جيراننا، يسكنون وراءنا بالضبط. كنت أبعد من أن أتخيل بأننا ممثلو مأساة كبيرة. أشعلت التلفاز لأشاهد برامج الليلة، وفي نشرة أخبار الثامنة والنصف، أعلن الخبر: طائرات حربية تابعة للقاعدة الجوية الثالثة بالقنيطرة هاجمت البوينغ الملكية أثناء عودتها من فرنسا، لم يصب أحد بأذى وعاد صاحب الجلالة لقصره بالرباط سالما. جاءت السيدة زياد والسيدة العربي عندي، وعرفت منهما بأن زوجي كان ضمن سرب الخفر الملكي، أحسست بالدوار وتجمد الدم في عروقي وانفلتت الأرض من تحت قدمي. كنت أعتصر هدى بقوة بين يدي، أسمع المرأتين تتكلمان وأفهم شيئا فشيئا خطورة الوضع. حوالي العاشرة مساء سمعت وقع أحذية عسكرية في الخارج ثم اجتاح جنود مسلحون المنزل باحثين عن زوجي. كانوا تحت إمرة القائد قماح، قلبوا الدار سافلها على عاليها، ومشطوا غرفة النوم، الخزانات، الحمام، الحديقة. سألني القائد قماح: "أين هو زوجك، سيدتي؟" فأجبته أنني لا أعرف مكانه منذ أن خرج في الصباح للالتحاق بعمله، فذكرني بالمكالمة الهاتفية التي تلقيتها حوالي السابعة مساء في اليوم نفسه. لقد سجلوا المكالمة، لا أعرف السبب الذي دفعني للإنكار: "سنرى كل هذا أمام الجنرال!" صاح "طيب، سنرى!" أجبته.

كان وقع الأحذية العسكرية يصتك على الأرضية الخشبية الملمعة. عشت كابوسا حقيقيا، كان تواجد هؤلاء الجنود يصيبني بالدوار، عشرات الجنود ببزات عسكرية، عصبيين، وبنظرات شزراء يتحركون في كل الاتجاهات. أفرغوا محتويات الدرج، واسقطوا أشياء، وفتشوا الخزانات بدون تحوط.... ولأنهم لم يجدوا زوجي فقد انتهوا بمغادرة الدار. أمرني القائد كماح بحمل بعض الأغراض ومرافقته ربما لتمضية الليلة في نادي الضباط مع العائلات الأخرى أو للخضوع لاستنطاق آخر من طرف "الجنرال". كنت أتأهب لحمل بنتي بين يدي حين جاء ضابط آخر ليخبرني بأن علي ألا أغادر بيتي وأن أنتظر تعليمات القيادة العليا. غادر الضابطان فخرجت لرؤية ماذا يقع من حولي، كان جنود المشاة يقومون بدوريات في الأحياء المنارة بشكل سيء، من جهة أخرى كانت دور ضباط وضباط الصف الأمريكيين تواصل مجرى حياتها الهادئ. في رأس الزقاق كان جنديان يعنفان السيدة زياد وهم يسحبانها من يدها أمام باب دارها، أصبت بارتباك. هل سيأسروننا نحن أيضا رفقة أطفالنا؟ عدت لداري وتمددت على سريري مبلبلة بالمشهد الذي رأيته.

حوالي منتصف الليل قرعت السيدة زياد باب بيتي، أراد الجنود نقلها لنادي الضباط لتمضية الليلة مع الأطفال، ثم تخلوا عن ذلك في آخر لحظة. حاولنا طيلة الليل التقاط محطات أجنبية بحثا عن أخبار حول ما يجري ببلدنا ،لكن بدون فائدة. حوالي السادسة صباحا من اليوم الموالي جاءت السيدة الطويل باكية وارتمت بين يدي، فعرفت منها بأن أزواجنا أوقفوا حوالي الخامسة واقتيدوا نحو وجهة مجهولة. ذهبوا برؤوس مرفوعة، سألتني عن مضاعفات ما وقع على حملي، كنت في شهري السابع. كلفت الخادمة بالسهر على هدى ولبست جلبابا وركبت سيارتي، خمنت بأن السيدة أمقران قادرة على أن تفسر لي ما يجري. كان موكب من المدرعات وسيارات R16 سوداء يمر أمامي ويسد الطريق في وجهي، كانت كل سيارة عالقة بين مدرعتين ولا سبيل لرؤية ما بداخلها، أسكت المحرك وتجمعت على نفسي، بعد مرور الموكب توجهت نحو منزل الكولونيل أمقران. كانت أخته فاطمة بعتبة البيت، أخبرتني بأن السيدة غادرت البلد البارحة على الساعة العاشرة صباحا. غادرت فاطمة وتوجهت نحو منزل القائد كويرة، أكدت لي زوجته وقوع انقلاب، وبنبرة غاضبة قالت لي: "بما أنهم قاموا به ، ليتحملوا النتائج!"

فقدت آخر قواي، وبقيت مسمرة في الأرض لوقت طويل، لم أجد كلمات أقولها لها، ماذا يمكن أن يقال في ظروف كهذه؟ وبما تنفع الكلمات حين يكون لديك إحساس بأن كل شيء قد ضاع؟ تذكرت ابنتي وقررت العودة إلى المنزل. اعتصرتها إلى صدري وبكيت بكاء صامتا، بقيت العائلات في منازلها. كان الليل طويلا بلا نهاية وكنت لا أعرف أي شيء عن زوجي، في اليوم الثالث جاءت مجموعة من الجنود يقودها القائد بوطالب إلى البيت من أجل القيام بإجراءات الحجز. استقرت مجموعة من الدرك في المطبخ بآلة كاتبة. لاحظ القائد بوطالب حالتي فطلب مني أن أجلس. حدث نفس السيناريو الذي حدث في الليلة الأولى، اصطكت الأرضية تحت وقع أحذية الجنود الذين يذرعون الدار في كل الاتجاهات.

خضع كل شيء للتفتيش، والمراقبة، والفحص. قلبت الكتب ووثائق طيران زوجي، الأغراض الخاصة، أشهر جندي في وجهي كتابا معتقدا أنه امتلك الدليل الذي لا يدحض على خيانتنا: "أنتم شيوعيون" صاح بظفر، ولأن موضوع الكتاب يتعلق بشيء آخر فقد حدقت فيه وقلت له:

– سيدي هذا الكتاب يتحدث عن الحرب بين العرب وإسرائيل، هذا واضح في غلاف الكتاب لقد خلطتم بين الصهيونية والشيوعية.

طلب القائد بوطالب من الجندي بأن يضع الكتاب ويصمت، توجه بعضهم نحو خزانة قبالتنا، فتحوا الباب واكتشفوا حقيبة معدنية مقفلة كسروا القفل وأخرجوا المحتوى، شهب منيرة حمراء، وخارطة، وتقرير، عرض الجندي الذي أراد أن نكون شيوعيين ما اكتشفه على الجميع وخصوصا الشهب وحاول فك أسرار الخارطة والتقرير، ولكن صبره نفذ فتخلى عن المحاولة فأدخل محتويات الحقيبة في ظرف بريدي كبير. سألني دركي هل أتوفر على جواز سفر وأمرني بإعطائه إياه توا، واستجبت لذلك، لم أكن أعلم آنذاك بأنني أفقد بهذا أول حقوقي وأنني سأناضل خمسة وعشرين سنة لاستعادة هذه الوثيقة.

– والحلي؟ أين هي الحلي؟ ومضمة (حزام) الذهب أين خبّأتها؟ لن تقنعينني بأنك لا تمتلكين مضمة ذهب! أخرجيها.

تهاطلت الأسئلة عن الحلي من كل مكان ودامت لبعض الوقت. لم أكن أعرف عن ماذا يتحدث هؤلاء ولا فائدة هذا النقاش حول الحلي. صاح أحدهم بأنني ربما بعت الحلي لتمويل الصيدلية. فهمت حينها بأن هؤلاء الرجال يعتقدون بأننا أغنياء والفرصة مواتية لهم للاستيلاء على شيء ثمين. كنت ضائعة على حافة البكاء، قلت لهؤلاء بأنني لم أمتلك في يوم من الأيام مضمة ذهب وأنني مولت صيدليتي بفضل قرض بنكي، وما عليهم إلا أن يتحققوا من ذلك لدى البنك إن كان ذلك يهمهم.

في الثالثة مساء، أوقف الدركيون أبحاثهم لكي يتناولوا طعاما، آنذاك ظهرت أمي خارجة من المطبخ، تحررت من جلبابها وأعدت لنا كأس شاي بالنعناع، تطاير الشرر من عيون الحرس، كيف تسللت من الحزام الأمني، المراقبة المسلحة في مدخل القاعدة؟ فهمت من النظرة التي ألقتها علي أنها استفادت من تواطؤ بعض الخيرين لتصل إلي، لحسن الحظ مازال بهذا البلد بعض الشجعان المليئين بحب الخير.

في الساعة السادسة مساء، غادر المحققون المكان ليعودوا في الغد لمواصلة إجراءات الحجز وإعداد محضر لذلك، ليلة أخرى بدون نوم وبدون أي خبر عن رجالنا. عبرت ذهني الصورة القاتمة للإعدامات المتلفزة لانقلابيي الصخيرات؟ هل ينتظر نفس المصير زوجي ورفاقه في المحنة؟

عاد نفس الرجال في اليوم الرابع، جنود ودرك، لتتميم شكليات البحث. حوالي نهاية الصبيحة قدم لي دركي المحضر وطلب مني توقيعه، وأمام رفضي حدجني بنظرة غاضبة.

لن أفعل ما لم أقرأ المحضر. ذهلت وأنا أقرأ أول السطور: "أنا السيدة الراشدي عيدة، أقر بأن زوجي صالح حشاد قد شارك في الانقلاب ومهاجمة البوينغ الملكية".

لماذا يتم الزج بالعائلات في هذه القضية؟ رفضت توقيع المحضر وأعدته للدركي الذي هددني بإخبار رؤسائه بعدم تعاوني معهم. لم أشاهد الأحداث ولم أر شيئا ولم أسمع شيئا بالنسبة لي زوجي ذهب للعمل كما هي العادة ولا شيء آخر، لا علم لي بأي شيء. غاب الدّركي زهاء ساعة تقريبا، وحين عاد أخبرني بأن المشكل حل.

تكالب علي التعب والإحساس بالمرارة وقلة النوم والحرارة الخانقة لشهر غشت في دار بنيت بمواد مركبة ولها شكل نصف برميل، وعانيت من الدوار والرغبة في التقيء. كانت بنتي تبكي بدون انقطاع فهي لم تعد ترى والدها وكان صخب المحققين المتواصل يرعبها، وكلما اقترب منا جندي أو ضابط تنفجر باكية كأنها ممسوسة، ولأنني كنت أنا أيضا مبلبلة بما وقع فقد فقدت الشهية والنوم، وفي ظرف أيام قليلة فقدت عدة كيلوغرامات من وزني وفقد بطني حجمه وتزايد قلقي ساعة بعد ساعة. حاولت إقناع نفسي بأن علي أن أرتاح لأستعيد قواي، لكن الأحداث المتلاحقة لم تترك لي لحظة سلام واحدة، ولأنني كنت أسيرة الوقائع الجارفة صرت أنسى أن آكل أو أستريح كما ينبغي أن تفعل امرأة حامل.

في اليوم الموالي، وفي نهاية الصبيحة، ظهر ضابط في المنزل مرفوقا ببعض الجنود وأخبرني بأن علي مغادرة المنزل في نفس اليوم، أخذت بنتي بين يدي، وطلبت من أمي والخادمة بأن يتبعاني وصحت فيهم:

– سنذهب حالا! وإن كان ذلك يرضيكم، أضرموا فيها النار.

تذكرت النهب الذي تعرضت له دور الضباط الذين شاركوا في انقلاب الصخيرات بحسب ما كان يتهامس به الناس، وخصوصا دار لكبير بلبصير المتواجدة بمنطقة وادي زم والتي نهبت من طرف عامل خريبكة في ذلك الوقت. وقلت بأن نفس السيناريو سيطبق علينا. أمام تصرفات كهذه من طرف الجيش والدرك غادرت الدار بدون أي

تحسر، كان اليوتنان السكتاني، وهو زبون للصيدلية ينظر إلي صامتا، استدرت نحوه وقلت له:

- ما هذه التصرفات السيد السكتاني؟

نظر في وجهي وطلب مني أن أهدأ، ثم نصحني بأن أحمل أغراضي الشخصية وبعض ملابس بنتي. شرعت أمي والخادمة في جمع الثياب ونجحتا في تكديس أكبر قدر ممكن في حقائب أو رزم، وأنقذنا زربية ومجموعة من الألحفة، كومت كل ذلك في سيارة سيمكا 1000 وكنت أستعد لمغادرة المكان، أمرني الضابط بأن أنتظر وكلف أربع جنود بحراسة السيارة، وعاد بعد بضع دقائق أقل تشنجا من ذي قبل، وأعطى الأمر بإفراغ السيارة وعدم مغادرة القاعدة، فقد تلقى أمرا من القيادة العامة بضرورة بقاء العائلات في عين المكان. اتخذ الجنود مكان حراستهم في الأركان الأربعة للحديقة، كان ممنوعا علينا الخروج أو تلقي زيارات و لم يكن مسموحا للعائلات بالتواصل فيما بينها ، وكان الأكل يأتينا من نادي الضباط، تنهمر الأوامر بدون توقف، والأوامر المضادة، وهذا يفسر نجاعة الإدارة المغربية.

اندهشت حين جاء قريب لي، ضابط في الدرك، لزيارتي وتفقد أحوالي، مكسرا بذلك الأوامر، وبرهن هذا الرجل بفعله هذا على شجاعته وكرمه اللذين منحهما لي طيلة عشرين سنة من المحنة والنضال من أجل إطلاق سراح زوجي.

توالت الأيام بنفس القلق الآسر، نفس الخوف، نفس التوجس. بقيت دائما بدون أخبار عن زوجي. كانت الأسئلة تتزاحم في ذهني وكل يوم يمضي كان يقوي يقيني بأنني لن أراه أبدا، ماذا وقع له؟ أين يعتقلونه؟ هل يأكل ما يكفيه؟ لكن السؤال الأكثر درامية والذي ينغص علي أوقاتي هو التالي: هل عذبوه؟ كنت أعرف بأنه، في وضعيات كهذه يكون المحققون بلا رحمة إزاء من تورط في مثل هذه القضايا التي تتعلق بمؤامرة على النظام. بعد أيام أبديت رغبة في الالتحاق بعملي الذي لاشك أنه عانى من غيابي، فجعل ذلك من خاطبتهم في هذا الشأن يضطربون، وذهبوا للاستشارة وتلقي أوامر، وأخيرا سمحوا لي بالذهاب ولكن تحت مراقبة شديدة، ولساعة أو ساعتين في اليوم. كان دركي يرافقني في كل تحركاتي ولا يفارقني قيد أنملة، أستغل هذه اللحظات القصيرة لأخبر عائلتي وأصدقائي بما استجد من وقائع وللقيام ببعض المهام ثم أعود مباشرة إلى القاعدة. دامت هذه الوضعية شهرا تقريبا،

في منتصف شهر شتنبر، سمحوا لنا بأن نخرج لكن علينا أن نعود لدورنا قبل الخامسة مساء، توقيت حظر التجول.

كانت الفوضى في القاعدة الجوية، والجنود ينهبون كل ما تطاله أيديهم، فقد سرقت مكاتب الضباط الموقوفين وجردت سياراتهم من كل ما تحتويه، و لم يعد يجرؤ ضباط القاعدة الذين كانوا غير معنيين بما وقع أن يقتربوا منا. صاروا يتجنبون الاحتكاك بعائلات المعنيين بالانقلاب حتى السيارة المتنقلة التي كانت تزودنا بمشتقات الحليب غيرت مسارها متجنبة دورنا. لقد تلقى التاجر، بدون شك تعليمات أو أنه وببساطة خاف أن يعاقب من طرف أسياد القاعدة الجدد. في مثل هذه الظروف يبالغ البعض في إظهار ولائه وبيعته للنظام، ولحسن الحظ كان الأكل يوزع على العائلات صباح مساء. اختفى الخدم والمكلفون بالحدائق، فاجتاحت الأعشاب الطفيلية والذباب الفضاءات التي كانت خضراء ومنظمة، توقفت المكيفات وصارت الدور أفرانا حقيقية، تجعل من الجنود والدرك يتصببون عرقا وتدفعهم للتساؤل كيف يمكن العيش في هذا الاحتباس الحراري و لم يكن في وسع معظم السكان شراء مكيف أو مروحة كهربائية بسيطة.

محاكمة لإعطاء العبرة

بدأت الإشاعة في الانتشار والتبلور، فالضباط المتورطون في انقلاب البوينك الملكية سيحظون بمحاكمة عادلة، وكان ذلك بمثابة ترويح عن العائلات. كانت ساعات الحرية التي تمنح لنا توفر لنا حيزا زمنيا لتبادل المعلومات والأخبار، ورغم أن الأستاذ فاروقي كان محامي أمقران فقد قبل بأن يكون محامي زوجي. وبما أنه كان في التشكيلة غير المسلحة التي لم تطلق النار على الطائرة فقد كان من المتيسر الدفاع عنه. غير أن تفاؤل الأيام الأولى أخلى مكانه للقلق، فقد صارت حالة زوجي معقدة، فصالح كان نائب قائد القاعدة وقائد العمليات، وأخذ عليه وكيل الملك سلبيته في الأحداث، فبوصفه قائدا كان يتوجب عليه القيام بما في وسعه لإنقاذ الملك. كان لهم في ذلك حجة، فالقبطان حشاد لم يقم بأي رد فعل لإنقاذ الملك! كيف يمكنك أن تشرح لهم بأن الأشياء لم تكن بتلك السهولة وسرعة جريان الأحداث لم تكن تسمح لأي أحد باتخاذ قرارات وتنفيذها.

يوم 11 أكتوبر حوالي السابعة صباحا، ظهرت علي علامات المخاض المؤلم جدا وفقدت الكثير من الماء، طلبت من السيدة زياد بأن تنقلني لمصحة الخطابي هناك حيث ولدت في المرة الأولى. قادوني مباشرة إلى قاعة الولادة حيث ولد ابني خليل ثم أعادوني إلى الغرفة رقم 1. لم تفارقني أمي. في الغد تقدم دركيّان للمصحة وطلبا أن يرياني وأخبراني أن زوجي متورط في الانقلاب الذي كاد أن يودي بحياة الملك وأنه سيتمتع بمحاكمة عادلة، وعلي إذن أن أكلف محاميا يقوم بالدفاع عنه. وضع كل المتمردين في السجن العسكري بالقنيطرة، لكن لم يسمح لهم بعد بتلقي زيارات. عرضا علي ما يشبه دعوة وجعلاني أوقع محضر استلام، ما أن ذهب الرجلان حتى هاتفت الأستاذ فاروقي لأخبره بما جرى للتو، فأكد لي أنه سيقوم بالواجب. عدت

لسكني في القاعدة بعد بضعة أيام برضيعي بين يدي. لا يمكنني وصف ما كان يعتصر قلبي من ألم ممض، فهذا الطفل ولد في ظروف مأساوية ووالده في الأسر، ولأنه كان علي التحرّك بدون توقف، فقد تركت طفلي لأمي التي رعتهما أكثر مني، قال لي الأستاذ فاروقي ذات يوم:

- سيدتي، لن أخفي عنك بأن حالة زوجك شائكة. فبقدر ما ملف أمقران واضح بقدر ما ملف زوجك معقد. أعرف ما علي فعله في حالة أمقران لكن حالة حشاد تقلقني، يمكنني أن أربح قضيته كما يمكنني أن أخسرها. لكنني أحتفظ بالأمل، علي أن أنبهكم لهذا لتهيئتكم نفسيا لمواجهة الواقع، لكن كما قلت لكم آنفا لم نفقد الأمل بعد.

حوالي آواخر أكتوبر، تقدم نحوي ضابطان وطلبا مني بدلة عسكرية من بدل زوجي ربما ليتقدم بشكل لائق للمحاكمة. شرع في المحاكمة أواخر شهر نونبر، أواسط شهر رمضان، كانت الجلسات تقام في الليل بعد الإفطار وتنتهي في آواخر الليل. محفل حقيقي، رجال ونساء وأطفال يتكدسون على طول الأروقة لرؤية مرور الشاحنات العسكرية المغطاة والمخفورة من طرف الدرك والتي تنقل الانقلابيين نحو محكمة القنيطرة. كانت المحاكمة مغلقة، فباستثناء المحامين وبعض الصحافيين لم يسمح لأحد بحضور أطوار المحاكمة.

وهم مكدسون في مكان غير بعيد من المحكمة. كانت العائلات تنتظر كل يوم حدوث معجزة رؤية سجينها من خلال الغطاء الذي يحجب المساجين، ومن حين لحين تنهار أم باكية أو يغمى على أب عجوز وسط رعب الآخرين. المعلومات الوحيدة التي تصلنا هي تلك التي تقدمها الإذاعة والتلفزة، كان الناس يتنازعون الجرائد اليومية لرؤية أولئك الذين تجرؤوا على تعريض حياة الملك للخطر. كانت الآراء متباينة لكن الإعجاب كان يتفوق دوما على النقد والمؤاخذة. ومثل الآخرين صرت موضوع فضول بالنسبة للجميع، كان الناس ينظرون إلي بتمعن دون أن يجرؤوا على الاقتراب مني، في السوق، في المخبزة، في البنك، في عملي، كلما وضعت رجلي هناك كان الناس ينظرون إلي بفضول، بحسد أحيانا وبإعجاب، ونادرا ما نظروا إلي باحتقار وازدراء. كان الناس يعتبرون الانقلابيين أبطالا في الوعي الشعبي وكان ذلك يروقني.

ظهر عسكري شجاع ذات يوم في الصيدلية ببدلته العسكرية وطلب معلومات حول دواء تردد لبعض الوقت ثم وشوش لي في تجويف أذني:

– زوجك يقول لك بأنه يحس بالبرد، إنه في السجن، سآتي في الغد في نفس الوقت لآخذ قميصاً صوفيًا له.

اختفى الرجل كما جاء، دون أن يثير الانتباه له، وعاد في الغد لأخذ القميص دون أن يتفوه بكلمة واحدة، لبس القميص لكي يفلت من التفتيش، وما أن دخل السجن حتى خلعه وأعطاه لحشاد. بضعة أيام بعد ذلك، أتاني برسالة قصيرة كتبت بخط زوجي، ومنذ هذا اليوم صارت الرسائل هي الصلة الوحيدة بيني وبين زوجي طيلة تسعة عشر عاما وأربعة أشهر. كان الزمان يمضي وتحمل معها الإشاعات أخبارا وفرضيات ومواربات ومسلمات وفي النهاية لم نكن نعرف أين هي الحقيقة وأين هو الخطأ. حوالي نهاية الشهر طالب وكيل الملك بأربعة عشر إعداما وكان اسم زوجي ضمن القائمة. كان هذا اليوم بالنسبة لي يوم حداد، جاءت زبونة لي باكية لتنقل لي الخبر الذي ورد في الراديو. لم أعرف كيف أتصرف، فجسامة الوضعية جمدت عضلاتي، لم أكن قادرة على الحركة، ولا على الكلام و لم أكن أعرف ما علي قوله وما علي التفكير فيه. أربعة عشر إعداما، انتهيت إلى أن علي أن لا أستسلم فالوضعية تتطلب مني شجاعة أكثر وحضور بديهة أكثر. ركبت سيارتي وعدت للبيت، كانت العائلات تبكي بدموع حارة وتتأوه وتندد بالظلم. كان الأمر أشبه بمأتم، هاتفت المحامي الذي طلب مني مقابلته في الغد، طرح علي السؤال التالي:

– هل كان لزوجك علاقة صداقة أو عمل مع الكولونيل الدليمي؟ هل تعرفون هذا الضابط؟.

أجبت بالسلب، فلم يسبق لزوجي أن حدثني عن هذا الرجل الذي لم تكن لنا أي صلة به، في ذلك الوقت لم يكن الدليمي له تلك الشهرة المحزنة ولا صلة لنا به.

أخبرني الأستاذ فاروقي بأن الدليمي يريد رأس زوجي، وهذا ظلم فاقع بما أن هذا الضابط ضحية وقاض في الآن نفسه. ألم يكن موجودا في الطائرة الملكية أثناء وقوع الأحداث؟ كيف له أن يحكم على انقلابيي هذا الانقلاب الفاشل؟ ثم إن زوجي لم يكن يستحق هذا الحكم بما أنه طار في طائرة بمقعدين وغير مسلحة. وكان إلى جانبه اليوتنان الدكالي ابن أخ الكولونيل الدكالي مرشد القوات المسلحة الملكية. لم أفهم أي شيء في هذه الحكاية. ذهب مقاوم، صديق لأبي للقاء رئيس المحكمة في داره وفسر له بأن الحكم على حشاد بالإعدام خطأ قضائي كبير وإن نفذ فيه هذا الحكم فسيكون

في ذلك ازدراء لا يغتفر للعدالة. أخبره الرئيس بأن الكولونيل الدليمي الذي يجهل كل شيء عن القانون يسبب له الكثير من المشاكل، فبالنسبة له على الجميع المثول أمام فيصل الإعدام. دخلت الهيئة القضائية المشكلة من عسكريين ويقودها رجل قانون مرموق المداولة، كان شهر رمضان على وشك الانقضاء، وليلة عيد الفطر صدرت الأحكام في وقت متأخر من الليل. كانت العائلات مكدسة أمام المحكمة تنتظر أخبار عن أولادها، جاء دركي مرفوقا ببعض المحامين، حاملا قائمة الأحكام، صدر حكم نهائي بإعدام أحد عشر متهما، وحكم على صالح حشاد بالسجن عشرين سنة، أي حياة كاملة. كان المشهد مثيرا، الرجال يبكون، النساء يتمرغن في التراب ويحفرن بأظافرهن في وجوههن أخاديد، والأطفال يصيحون، حاول رجال بوليس طمأنتنا وهم يبحثون عن كلمات مواسية.

إلى جانب قسوة الأحكام انضافت فظاظة لحظة إصدارها، فلتقوية فكرة الانتقام اختار من يقررون عيد الفطر لإصدار أحكامهم، ثم سيعدم انقلابيو البوينك ليلة العيد الكبير، أي قسوة، وأي غياب للرأفة، اختيار هذين الموعدين الدينيين لإدخال القلوب والبلد في حداد .بما أن الأحداث تقع في بلد اللاعدالة فلا ينبغي طلب ما لايمكن للقدر منحه. طلبت من الأستاذ فاروقي أن يقدم طلب نقض، فالدكالي الذي كان يرافق زوجي حصل على البراءة، بوبكر ودحو اللذان كانا يقودان الطائرتين غير المسلحتين برئا أيضا، فلماذا إذا لم يبرأ زوجي؟

في أواسط نوفمبر، نقلت مجموعة المتورطين في الانقلاب إلى السجن المركزي بالقنيطرة واصلت مطالبتي بحقي في زيارة زوجي ووجهت طلبات لوكيل الملك وللمحكمة العسكرية، بقيت طلباتي بدون جواب. حوالي آواخر شهر ديسمبر رفض طلبي بنقض الحكم، و لم يعد لي إلا طلب العفو. ولان الأستاذ فاروقي أحبط بقساوة الحكم فقد كان متحفظا على تقديم طلب عفو، لم يكن يوازي حزني إلا عجزي، لم أكن أعرف ما الذي يتوجب فعله، ومثل العائلات الأخرى أذعنت لانتظار ما تأتي به الأيام.

كنا مازلنا نسكن المنزل الوظيفي بالقاعدة، وفي شهر ديسمبر هذا كان البرد قاسيا، نفس قساوة حكم المحكمة، وتوقف الأمريكيون الذين كانوا يزودوننا بالفيول لتدفئة البيت عن فعل ذلك، حتى هم تركونا لمصيرنا. فهمت أنني، ومنذئذ، صرت وحيدة وأن علي الاعتماد على نفسي، فقررت المبادرة لتجنيب أبنائي الموت بالبرد، علي أن أشتري

الكازوال بنفسي، وعلي أن أسهر على كل ما يتعلق بأسرتي، لم يعد لي ما يكفي من قوة لرعاية ابني، لحسن الحظ كانت أمي تقوم بذلك في مكاني، كان لدي انطباع بأن إعصارا مر بحياتي ودمر في طريقه كل شيء، لكن لم يكن من حقي أن أستسلم، كان لدي طفلان ورجل كسره ظلم الرجال إلى الأبد.

كانت الأيام تمضي في رتابة وخوف. ومثل الآخرين، كنت أنتظر معجزة وهذه المعجزة، وعلى رأي الجميع لا يمكن أن تأتي إلا من الملك، عفو ملكي، عدد كبير من الناس كان يعتقد ذلك. في شهر ديسمبر جاءت السيدة السعدية ميداوي لتمد لي يد المساعدة، فوصفت لي كيف وقع تفتيش دارها، فقد بقَرُوا الأسِرَّة وكسروا كل شيء مقفل. حتى أصص الطين فتشت وكسرت، كانوا بصدد البحث عن شيء ما، وعجزت السعدية عن معرفته، وربما فعلوا ذلك عن عمد. كان لزوج السعدية عم مقاوم في جيش التحرير لم يتحمل الظلم الذي ساد في البلد غداة الحصول على الاستقلال واستيلاء انتهازيين على مقاليد الأمور ففضل المنفى في الجزائر، وبسبب هذه الحكاية عاش الميداوي عدة أحداث في الجيش كان يؤدي فيها ثمن ما قام به عمه، والحكم عليه بالإعدام يزكي هذه الفرضية.

لم يسبق للسعدية أن ذهبت للمدرسة وكان لها ستة أطفال، وبالقليل الذي كانت تملكه نجحت في مواجهة معظم مشاكل حياتها الجديدة. كان الانتظار اختبارا حقيقيا لأولئك الذين كانوا في وضعيتي، لم نكن نعرف أي قدر كتب لنا، لم تكن دموعنا تنضب، وكل يوم كان اختبارا جديدا لنا، وكنا ضائعين بين الإشاعات والافتراضات. أوشك رمضان على الانقضاء و لم نفقد الأمل كلية، كنا نفكر أن الملك سينتهي بالعفو على البعض للبرهنة على الرأفة في شهر الغفران هذا، انتهى شهر رمضان بانقشاع مهول لأوهامنا.

لم يأت العفو الملكي، ويوم 13 يناير 1973، يوم الوقوف بعرفات حيث يتجمع مسلمون قادمون من كل بقاع العالم ليلة العيد الكبير، عيد الأضحى، تم إعدام الإحدى عشر متهماً في ساحة الرماية بقاعدة القنيطرة.

تصفية وحشية

تصفية جبانة! من أجل إعطاء العبرة، ولإرضاء نزوع انتقامي لا رحمة فيه، إن الحماقة والانتقام الإنسانيين انتصرا على الحكمة والتسامح. كان لاختيار يوم إعدام الأحد عشر محكوماً عليهم بالموت حمولة رمزية كبيرة. جعل الشعب برمته يعيش مأتما وتحويل عيده إلى عزاء. لقد حاكموا الشجاعة، الشهامة، الاستقامة، ورفض المظالم الاجتماعية، والإخلاص للوطن وجندلوهم. كانت الرسالة واضحة فالعدو الأشد شراسة كان سيتجنب هذه الحماقة التي لا تغتفر. أن يعدم أحد عشر ضابطاً وضابط صف شاباً من القوات الجوية ليلة العيد الكبير، في الوقت نفسه الذي يتوجه فيه المسلمون إلى الله معترفين بذنوبهم وطالبين الغفران! أي قسوة هذه! وأي وضاعة هذه!

كان لدي انطباع بأن الله أعرض عنا وتركنا لمصيرنا. كنت مثل حيوان جريح يدور على نفسه وهو يكرر بأن البلد لا يستحق كل هذا الحقد وكل هذا الظلم. كنت أبكي وأنا أفكر في كل العائلات التي تم طعنها بطريقة لئيمة. وفهمت بأن القدر لن يكون له أي رحمة بمن بقوا وعليهم أن يتوقعوا الأسوأ. رن الهاتف ونقلت لي السيدة الوافي الخبر معتقدة بأنني لم أسمع به. كانت عند السيدة زياد، والعائلات مذهولة مجروحة حتى النخاع: "أي رعب هذا! يوم العيد الكبير! هذا ظلم! هذا غير إنساني ! أين هو هذا العفو الذي ما فتئوا يحدثونا عنه؟" كان أبناء الميداوي يحيطون بأمهم وهي منهارة تماما، وأقرب منها للموت من الحياة. غادرت عائلتا العربي ومهدي القاعدة وذهبتا عند ذويهما في المدينة. بقيت فاطمة أمقران وعائلة كويرة في المكان وهي مصدومة إزاء ما وقع ، لم أكن أعرف ما علي فعله و لم أكن أصدق كلية ما يقع. هذا أكثر قساوة من أن يكون حقيقيا، أخذت سيارتي وتوجهت نحو السجن المركزي، اعترضني حارس ومنعني من المرور مهددا إياي بسلاحه. فسرت له

سبب زيارتي، أظهر لي قائمة معلقة فوق باب دخول السجن، تضمنت القائمة أسماء الأحد عشر الذين أعدموا: أمقران، كويرة، بوخاليف، العربي، الميداوي، بلقاسم، بحراوي، كمون، زياد، بينوا، حذق الحارس في للحظة، وأمام دموعي ردد الآية الكريمة: "لا تحسبوا الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" عدت وأنا أردد الآية بداخلي. في مدخل القاعدة، كان الاستياء والغضب باديا على وجوه الجنود العاملين، كانت هناك ثلاث نساء جئن من تيفلت بلباسهن الجبلي التقليدي باحثات عن أخبار العربي، غادرت عائلة هذا الأخير القاعدة ربما لتلتحق بعائلته في تيفلت. حين عدت إلى البيت، حضنت طفليَّ بقوة وأنا أحدثهما عما وقع كما لو أن بإمكانهما فهم ما أقول. كنت في حاجة لهذا القرب الحميمي معهما، حاجة حركها دون شك إحساس بالذنب لأنني لم أهتم بهما كما يجب. كانت السماء مثقلة بالغيوم السوداء، وأظلم الجو. كان البرد يجمد عظامنا، وتحركت عاصفة عاثت في أشجار حدائقنا، كانت السماء تشارك هي أيضا في جو الحزن والأسى هذا. بعد الظهر أخبرت عائلات القتلى بإمكانية تسلم الجثث حتى يتسنى لكل واحدة أن تدفن فقيدها بحسب توصيته. دفن العربي في تيفلت، كنا كثر نسند زوجته في محنتها الصعبة. عبر الميداوي عن رغبته في أن يدفن بفاس قرب قبر بن دريس، وهو أحد كبار أعضاء جيش التحرير. دفن زياد وبلقاسم في مقبرة سيدي البوخاري بالقنيطرة وكان موكب الجنازة الذي سار خلف النعشين مثيرا، وسط الحشد حاول شرطيون بلباس مدني أن يلتقطوا خفية صورا للمشاركين في الجنازة، لم يكن للنظام أي احترام لأرواح القتلى. مر دفن الضباط بحزن ورعب وتكتّم كليّ. حرصت الشرطة على أن يمر العزاء وكأنه لم يكن، ولإخافة المشاركين في الجنازة كانت الشرطة تأخذ صورا للجميع، وبحسب رغبة أمقران وكويرة اقتيدت جثتاهما إلى مقبرة مدينة شفشاون، في مدخل المدينة اعترض عامل الإقليم الموكب ورفض دفنهما في مقبرة المدينة، فدفن الرجلان في مقبرة صغيرة بالجبل.

بعد وقت قصير طلب مني مغادرة السكن الوظيفي في أسرع وقت ممكن، وهذا ما أمرت به العائلات الأخرى، وبدأت المشاكل المادية تظهر، باستثناء السيدة زياد التي كانت معلمة ابتدائي وأنا، لم تكن النساء الأخريات يعملن ولا يتقن أي مهنة، وعليهن مواجهة المطالب الملحة لعدة أطفال، وبما أن أزواجهن كانوا ضباطا مستقيمين فإنهم لم يتورطوا في سرقة الوقود ولا في الرشوة، و لم تكن لهم مساكن موازية، كانوا رجالا

شرفاء ويعيشون في نقاء، لذا لم تكن لهم مدخرات جانبية. عاشت السيدة العربي اكتئابا طويلا وانتهى بها الأمر إلى العيش في حالة نفسية مزرية، كادت فيها أن تجن ونجت من ذلك في آخر المطاف. لا أحد كان يفهم أو يقبل ما وقع، فأمام هذه الوحشية الكبيرة يكون الكائن أعزل، هشاً، وغير آمن، لم يكن لنا الخيار. كان علينا التصرف إن لم نرد أن نرى أنفسنا في الشارع رفقة أولادنا. غادرت العائلات القاعدة في منتصف شهر فبراير، باستثناء نانسي الطويل ذات الجنسية الأمريكية التي سمح لها القباج قائد القوات الجوية بالقيادة العليا بأن تسكن في القاعدة الجوية الثالثة، وعلى منْ الوطنُ وطنهم المغادرة.

وبعد كل مشاكل سكننا الجديد، كان علينا مواجهة المماحكات الإدارية وكذا تفاصيل اليومي. كان قبول كراء منزل أو شقة لعائلات الانقلابيين معجزة ويتطلب شجاعة لا مثيل لها، لقد تحولنا إلى منبوذي المجتمع الحديث، وامتلأت قلوب الناس بالخوف. إننا لانمزح مع المخزن الذي قرر بأن المتورطين في انقلاب البوينك وعائلاتهم صاروا أعداءه. صار لزاما خوض معركة حقيقية من أجل الحصول على عداد ماء أو كهرباء، وصار لتسجيل الأطفال في المدرسة والحصول على وثيقة إدارية أبعادا هائلة... والأكثر روعة هو الحصول على موافقة لزيارة المساجين: يبدأ المارثون من السجن المركزي بالقنيطرة الى إدارة السجون بالرباط، مرورا بالقيادة العليا للجيش، وزارة العدل، رئاسة المحكمة العسكرية. كنت أرمى من مصلحة لمصلحة، ومن طابق لطابق، ومن مكتب لمكتب، ومن إدارة لإدارة، ومن بناية لبناية. لا أحد كان قادرا على توجيهي أو أن يقول لي بوضوح من هو المكلف بالترخيصات. كنت مثل كرة مضرب الطاولة يلقيها الواحد للآخر في لعب انعدام مسؤولية تافه. وأنا منهكة تماما قررت أن أذهب لأرى محامياً لأستشيره بهذا الصدد وأطلب منه القيام بشيء ما، فرأيت رجلا متعبا، محطما، مريضا، تقاسيم وجهه مشدودة وحالته الجسدية متعبة. لقد أنهته صدمة الإعدامات. كان بصدد إجراء عملية جراحية في مصحة بالرباط وأجبروه على أن يهجر سريره في المصحة لحضور لحظة إعدام موكله الكولونيل أمقران. جاءت الشرطة للبحث عنه في الثانية ليلا وأخذوه للسجن المركزي بالقنيطرة قبل توجيهه لمكان الإعدام، كان عزاؤه الوحيد هو شجاعة المحكوم عليهم، كانوا كلهم بروؤس مرفوعة، وكان كويرة يردد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك!" أخبرني الأستاذ الفاروقي بأنه كان مروعا

لرؤية عدد الضباط الذين حضروا إعدام رفاقهم في السلاح. تصفية من أجل إعطاء العبرة ورسالة سياسية واضحة. طلب أمقران من رفاقه في المحنة أن يسامحوه، فخاطبه العربي قائلا:

– إنه لشرف أن يموت الواحد بجانبكم سيدي الكولونيل!

وأمام فيصل الإعدام ردد زياد وبوخاليف:

– عاشت الجمهورية الديموقراطية الشعبية المغربية!

نصحني الأستاذ الفاروقي، وهو يرى حالتي السيئة، بأن أحافظ على هدوئي وقواي ومعنوياتي لأحصل على هذا الترخيص المشهود. ستكون المعركة شرسة والطريق طويلا جدا ومليئا بالحواجز والمطبات، لكن لم يكن لي خيار. استعادت الحياة مجراها العادي بالنسبة للعامة بعد إعدام الضباط، إلا بالنسبة لزوجات وأطفال القتلى. أعد لي المحامي طلبا موجها للمحكمة العسكرية حتى يعطوني رخصة للزيارة، كل مسؤول كان يرسلني عند آخر، سأقضي شهورا بين المصالح والإدارات والطوابق، والبنايات، والمكاتب... وهكذا سأنتظر هذا الترخيص لمدة عشرين سنة.

تهديدات وتخويف

في شهر أبريل 1973 ذهبت رفقة السيدتين الوافي والأمين إلى وزارة العدل لطلب رخصة الزيارة. قررنا لعب الكل للكل، وأفهمنا المسؤولين بأننا لن نغادر المكان ما لم تتم الاستجابة لطلبنا. بعد الكثير من الشد والجذب استقبلنا الكاتب العام للوزارة. إننا نطلب فقط رخصة لزيارة أزواجنا المحكوم عليهم، أخبرنا بأن هذه الحالات ليست من اختصاص وزارة العدل وإنما العدالة العسكرية.بما أن الأمر يتعلق.بمسجونين ينتمون للقوات المسلحة. عدنا بخفي حنين. غادرتنا السيدة الأمين بدعوى أنها ذاهبة لاستشارة قريب لها في الرباط. في طريق العودة لاحظت أمي بأن سيارة تتبعنا، سيارة من نوع بوجو 404 داكنة اللون وبدون ترقيم، رغم إلحاحها لم أرد تصديق ما تقول. بدأ الظلام ينزل والسيارة تسير دوما خلفنا، فجأة تجاوزتنا وقامت بارتداد مفاجئ أمامنا لكي ترمي سيارتنا في المنحدر. خففت السرعة وببرودة دم نجحت في إعادة توجيه المقود فاستقرت السيارة من جديد في الطريق. خففت سيارة البوجو من سرعتها واعترضت سيارتي. توقفت في جانب الطريق وطلبت من سيارة أجرة كبيرة التوقف، قلت للسائق بأن "أنذالا" يتحرشون بنا، فنصحني بأن أسير خلفه حتى يتسنى لسيارته حماية سيارتي. تبعته حتى القنيطرة، تبخر المعتدون في لمح البصر، لكن سيارتهم كانت مركونة أمام فندق. نصحني صديق للعائلة كان قاضيا آنذاك بأن أقلص زياراتي وتنقلاتي وأن أنسى مصالح الجيش. من حين لحين كنت أتلقى أخبارا عن زوجي وكنت أبعث له بعض الترميقات الصغيرة ولكن بطريقة سرية: ثياب داخلية، أدوية، بعض المواد الغذائية، وعن طريق وساطة بعض الحراس كنت أتلقى كل أسبوع أخباره. لكن هذا لم يعفني من أن أذهب بانتظام للسجن المركزي لرؤية الكيفية التي تتطور بها الأمور. كانت الإدارة مصرة دوما على أن ترفض لنا حق الزيارة، غير أنه

وفي حالة واحدة، ليلة عيد المولد النبوي جاء بعض الدركيين الذين يحرسون بوابة السجن عندي وطلبوا مني أن أجلب الأكل لكل المجموعة، كان ذلك استثناء بمناسبة العيد ولا يجب أن يعرف أحدا هذا. كان الدركيون على وعي بأنهم يرتكبون خرقا للقوانين ويعرفون ما ينتظرهم إن انكشف الأمر.

يوم 27 مارس 1973، تلقيت الرسالة الأولى من زوجي شرح لي فيها ظروف الأسر في السجن المركزي بالقنيطرة. أعطوه رقم 18149. طلب مني أن أبعث له قليلا من النقود لشراء السجائر وحاجيات شخصية. اعتقدت بأنه بإمكاني رؤيته لإعطائه النقود، لكن التعليمات كانت واضحة: لا زيارة! واصلت القيام بالإجراءات لدى السلطات المعنية. حررت رسالة للبروتوكول الملكي شددت فيها على أن زوجي كان ضحية خطأ قضائي وأرفقتها بصورتي إبني. ولأنني لم أتلقّ أي جواب فقد قررت الذهاب لرؤية الكولونيل الوزاني المسؤول عن البروتوكول في ذلك الوقت. استقبلني في مدخل القصر الملكي وقال لي بلطف بأن علي أن أترك بعض الوقت يمضي على هذه القضية قبل أن أقوم بأي إجراء. قفلت راجعة في حالة إحباط قصوى. وأنا أرى في كل لحظة ظهور سيارة غير مرقمة تريد دفعي نحو المنحدر، لكن لا سيارة جاءت لتلهيني عن حالة انقشاع الأوهام والخزي التي كنت فيها.

يوم 8 غشت 1973، جاء سي عبد السلام حارس السجن الذي كان ينقل لي أخبار زوجي عندي في مكان عملي وأخبرني بأن مساجين الانقلابين نقلوا إلى سجن عسكري آخر، ربما في جنوب المغرب. و لم يعرفوا لا اسم هذا السجن ولا المنطقة التي يتواجد فيها، لكنه سمع بعض العسكريين المتورطين في أحداث الصخيرات وأولئك الذين لهم علاقة بانقلاب البوينك الملكية نقلوا لسجن عسكري يتواجد في منطقة قصر السوق (الرشيدية حاليا). جاء الدّرك عندهم في الثانية ليلا و لم يتركوا لهم الوقت لجمع حاجياتهم. هدني الخبر و لم أعرف ما علي القيام به. إنه اختبار آخر لعائلات المحتجزين، وتساءلنا جميعا هل سنراهم مرة أخرى؟ وهل الأمر يتعلّق باختطاف حقيقي أو بترحيل فعلي؟ تعقدت الأمور أكثر فأكثر وغاب بصيص الأمل أمام هذا الفعل الإجرامي.

أحمد خربوش

في بداية شهر سبتمبر، تقدم رجل في الخمسين من العمر، بقامة فارهة، ووجه أكله الجدري إلى الصيدلية وطلب أن يتحدث إلى مالكتها. اقتربت منه طمأنني وجهه الباسم، همس لي بأنه يعمل في المكان الذي يسجن فيه زوجي ونقل لي أخبارا عنه. أخذت الرسالة التي سلمها لي واختفيت في مكتبي، لا شك في الأمر، فالأمر يتعلق فعلا بخط زوجي وإمضائه. كانت دهشتي وفرحتي بلا حدود. قرأت وأعدت قراءة الرسالة عدة مرات، كما لو أنني أريد أن أتأكد من حقيقة الأمر، ولأتشرب مزيدا من الأمل الذي زرعه هذا الحدث بداخلي. وافق الرجل على مرافقتي إلى الدار حتى يتسنى الحديث على راحتنا. عرفت،إذن، بأن مجموعتي الإنقلابيين الفاشلين نقلوا إلى مكان يبعد كيلومترات عن الريش وأنهم وضعوا في قلعة عسكرية تسمى تازمامارت. رفض الرجل دعوة تمضية الليل في المنزل، عليه أن يلتحق بأهله بسوق الأربعاء وأن يزور عائلات أخرى. وعدني بأن يعاود الزيارة بعد بضعة أيام ونصحني بأن أستجيب لرسالة زوجي وأن أحضر بعض الأغراض الشخصية (ملابس داخلية، جوارب، راديو، أوراق، أقلام، أدوية...) لقد زار الرجل عائلة بلكبير في فاس وله رسالة للسيدة الرايس التي تشتغل في عيادة الدكتور هادي مسواك، طبيب أمراض الأنف والحنجرة بالرباط. عرفت من فم الرجل بأن عائلتي عبابو وشلاط ذهبتا إلى تازمامارت على أمل الحصول على معلومات عن مسجونيها، لكن الرجلين لم يكونا ضمن معتقلي هذا السجن. لم تكن هذه الأسماء تعني لي شيئا في ذلك الوقت لأنها تعود لانقلابيي الصخيرات. تملكني إحساس غامض بالفرح الممزوج بالقلق، هل ما أعيشه حقيقة أم هو حلم لن يتأخر في الانقشاع؟ كنت أعرف بأن الخروج من الحلم سيكون قاسيا لأنه سيدخلني أكثر فأكثر في الواقع الذي قدر لنا نحن الزوجان.

كان الأصدقاء وعدة أفراد من العائلة يتجنبون زيارتنا، تاركيننا لقدر عائلة انقلابية. تقلصت دائرة معارفنا بشكل كبير. كنا وحدنا، فباستثناء بعض الأقرباء الشجعان فضل الآخرون تجنبنا لكي يتلافوا تقديم حساب للمخزن إن ظهروا معنا. كانوا يعرفون بأننا مراقبون بشكل لصيق وينصح بألا يقترب منا أو يقال بأن لهم صلة قرابة معنا.

غادرنا أحمد خربوش في نفس اليوم وهو يعدنا بالعودة، ووَفيَ بوعده. أعددت كل ما طلبه زوجي وانتظرت عودة رسول الأمل، فلكوني عرفتَ بأن زوجي حي ملأني ذلك أملا وراحة، وفي الآن نفسه اجتاح كل حزن العالم قلبي بسبب هذا الظلم الأصم الذي أصاب مجموعتي الصخيرات والبوينك الملكية وعائلاتهم. ألم تحاكم هؤلاء الرجال محاكم عسكرية وتصدر في حقهم أحكاما بالسجن؟ لماذا يوضعون هكذا في مكان سري؟ ومن وراء هذا القرار؟ تزاحمت الأسئلة في رأسي دون أن أجد لها جوابا، عزائي الوحيد هو أن زوجي ما يزال حيا هو ورفاقه في المحنة، وبما أنهم لم يقتلوهم أو يعدموهم، فالأمل في رؤيته عائدا لن يفارقني. كانت عزلتي وأعبائي العائلية تثقل كاهلي، لم أتعود مواجهة المشاكل اليومية، فبما أنني زوجة ضابط فلم أكن أعرف أي شيء عن تفاصيل الحياة اليومية للناس، فالخدم يقومون بكل شيء وتمضي حياتنا في انسياب ويسر. ثم فجأة، وبين عشية وضحاها صار لزاما علي أن أقوم بكل شيء أنا بنفسي ووحدي. كنت أغرق في مشاكل اليوم المتعددة حتى أن وجودي صار يترك جانبا ماهو أساسي، والأساسي هما طفليّ، فقد صرت أراهما قليلا ولا أعتني بهما كما أحب أن أفعل، ولحسن الحظ كانت أمي هنا وتعوضني بجانبهما. ولحسن الحظ، فعبد الكبير، وهو ابن أخت صالح، كان يتابع دراسته في القنيطرة ويعيش معنا، كان يلعب دور الأخ الأكبر لهما. إن حضور هذين الشخصين خفف عني وجعل المشاغل العائلية أقل ثقلا.

عاد الحارس أحمد في آخر الأسبوع والتحق بي مباشرة في الدار. أعطيته علبة الحاجيات كانت لديه مهام أخرى تخص مساجين آخرين، فرفض مرة أخرى تمضية الليل بالمنزل، غادر نحو تازمامارت حاملا معه أخبارا وأدوية وأشياء مختلفة لمنسيي النظام. قبل أن يغادرني، وعدني بأن يعود خلال عطلته القادمة وسيحمل لي أخبار زوجي. وهكذا فحوالي شهر أكتوبر، ضرب لي موعدا في سوق الأربعاء بمدخل المدينة قرب الميزان البلدي، كما لو أنه بدأ يقدر جسامة ما يقوم به وأراد أن يحيط نفسه

ببعض التحوطات، تفهمت موقفه تماما، فالعودة عندي هي أفضل طريق لانكشافه، صيدليتي ومنزلي كانا تحت مراقبة دائمة، كانت المخاطر حقيقية وكبيرة، و لم يكن من حقي أن أعرض حياته للخطر. كانت لدينا كلنا مسؤولية حماية هذا الرجل الذي هو صلة وصلنا الوحيدة مع معذبي تازمامارت، ركبت سيارتي وتوجهت وحدي لسوق الأربعاء. كان أحمد في انتظاري في مكان الموعد، أبلغني أخبارا عن زوجي وأعطيته علبة صغيرة ورسالة مرفوقة بصورتين لطفلينا، فارقته وأنا آمل في تغيير محتمل لشروط الاحتجاز بتازمامارت، ربما لن نتأخر في الحصول على ترخيص لرؤية المحكوم عليهم، ولو لمرة في الشهر أو ثلاثة أشهر؟ كنت أعرف بأن الطريق طويلة وينبغي الاستعداد للقيام بذلك السفر الذي لاينتهي. لكنني كنت مستعدة لكل شيء، ومهما كانت الظروف التي علي مواجهتها للقيام بهذا الحج تجاه زوجي، كنت على وعي بأن الصراع قد بدأ وعلي ادخار كل طاقتي، فأنا أعرف الآن بأن زوجي في تازمامارت وأنه حي وهذا هو المهم.

حوالي أسبوعين بعد هذا، زارتني السيدة سعاد لامين التي كان زوجها معتقلا مع زوجي لتخبرني بأن الحارس أحمد انكشف أمره، هل هذا ممكن؟ لقد كشفوا أمر صلة وصلنا بتازمامارت وانهارت كل امالي، لقد نصحها ضابط في الهندسة بأن تأتي لزيارتي لكي تخبرني بما يلي:

– صلتكم بمساجين تازمامارت ضبط، اصرفي نظرك عن هذا وإلا ستتعرضين لأعمال عدائية، لا تكن لك أية أوهام، إنهم لا يحترمون أي شيء ولا أي شخص. لتنظري ما فعلوا بالدكتور عمر الخطابي، إنهم قادرون على إحراق صيدليتك.

لم يترك التهديد أي لبس حول نوايا من يراقبونا. انثالت صورة سيارة بوجو 404 التي حاولت أن تلقي بي في المنحدر بطريق القنيطرة في ذهني. كنت أعرف بأنه لا ينبغي المزاح مع النظام في الأمور التي تضع مصداقيته وصورته في الخارج موضع مساءلة. فكيف يمكن أن تفسر للرأي العام الدولي بأن الضباط وضباط الصف المتورطين في الانقلابين الفاشلين ضد الملك، والذين حوكموا من طرف المحاكم، تم اختطافهم بهذه الطريقة ووضعهم في معتقل يلفه صمت مطلق؟ بأي قانون؟ وكيف يمكن تفسير هذا الازدراء الكبير للقانون في البلد؟ وكما يقع في كل كارثة تحل بي، لم أعرف ما أقول ولا ماعلي التفكير فيه. انتهيت بقول:

– لا أعرف أي شخص و لم يأت أبدا شخص ما لينقل لي أخبارا عن زوجي. إنني لا أعرف حتى أين يوجد، ولا يحتاجون لكل هذه المبررات لكي يجعلوا حياتي أكثر قساوة مما هي قاسية. إن أرادوا إحراق صيدليتي فمن سيمنعهم؟ فليحرقوا صيدليتي، إذن، مثلما حرقوا حياتي، لكن يمكنك أن تطمئني هذا الرجل وقولي له بأن تهديدهم لا يثيرني فلدي تأمين.

منذ هذا اليوم وسيارة فيات 124 ذات لون أخضر فضي بدأت تحوم حولي. كان الضابط، المكلف بحراستي ينتمي للاستعلامات العسكرية. كلموني عنه حين كنت مازلت اسكن في القاعدة، تظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئاً غير عادي وواصلت حياتي بما يمكن من اعتيادية. جاءت عندي السيدة الطويل وأكدت لي حقيقة المعلومات وأخبرتني بأنها سمعتها من فم حارس آخر في الخميسات قام بربط صلة بينها وبين زوجها. حاولت أن أحافظ على هدوئي، وأنا أنتظر بصبر وإذعان ما تأتي به الأيام. كنت على يقين بأن في الأمر لعبة ما وأنني لن أتأخر في رؤية صديقنا أحمد خربوش. هذا لم يمنعني من أن أخاف على مصيره. إن صدق الخبر فإنه، بلا شك، سيتعرض لعقاب قاس، المسكين أحمد! هذا قدر البلد فالأشخاص الأقل نذالة هم الأكثر عرضة للعقاب والنبذ والنميمة.

لم يظهر إلا في سنة 1976، ثلاث سنوات بعد ذلك، أخبرني بأن زميلا له وَشَى به وأوقف حين وصل للريش، وضعه الكولونيل بلقاضي في نفس ظروف المساجين الآخرين وأنه أفلت من ذلك بأعجوبة صنعها تواطؤ الحارس محمد الذي اختلس الرسائل، الحجة الدامغة على تورطه في تواصل المساجين مع عائلاتهم، ولأنهم لم يعثروا على حجج ضده، فقد أحالوه على التقاعد، لأنها كانت رغبته. عض بلقاضي مدير السجن أصابعه بعد ذلك. فقد أقسم أمام شهود بأنه لو علم بأن مصير خربوش سيعرف هذه النهاية السعيدة لما أخبر القيادة العليا، بل لوضعه في زنزانة حتى آخر عمره. حافظت على علاقة جيدة بأحمد الذي جاء لزيارتي عدة مرات رفقة زوجته.

مرت سنة 1974 في عزلة تامة - لم يعد هناك أي تواصل بيني وبين زوجي، لا خبر، وتزايد الضغط علي، ولا أعرف مع من سأتواصل في الأمر ومن سأطلب عونه. صار جو الارتياب السائد في البلد مقلقا، والناس الذين كان قد بقي لهم بعض الود نحونا انتهوا هم أيضا مبتعدين عن دائرتنا. في سنة 1973 وقعت أحداث مولاي بوعزة

وخنيفرة وكل المناطق التي تمردت فيها مجموعات جاءت من الجزائر وليبيا يقودها الفقيه البصري على النظام. التحق بهم آخرون في الغابات وبدأوا المقاومة. توالت الاعتقالات وراء الاعتقالات وغلف غطاء رصاصي كل البلد. تفاقم الوضع السياسي المهترىء ولجأ النظام للقبضة الحديدية. هكذا علمت باعتقال الدكتور عمر الخطابي، عاش البلد عملية واسعة لاعتقال مناضلي اليسار. عاودت المحكمة العسكرية للقنيطرة أشغالها، فقد دارت فيها أطوار محاكمة مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أواخر 1973 في جو من القلق والغموض، وفي نهاية محاكمة صاخبة أصدرت المحكمة أحكامها بإعدام 26 معتقلاً وعشرات السنوات من الاعتقال لعدة مناضلين وبراءة ما يناهز المائة. وكما هي العادة اختارت السلطة مناسبة عيد ديني لإعدام المحكوم عليهم آنذاك. هذه المرة وقع ذلك بعيد عيد المولد النبوي. وتم اختطاف مساجين السجن المركزي واقتيدوا إلى مركز سري للاعتقال. لم يكن النظام يكترث لأي شيء وبدأت سياسته في القمع وانتهاك حقوق الإنسان تتبدى بشكل أوضح. كان الوضع صعبا جدا وهناك قبضة حديدية بين النظام والقوى الحية للبلد.

ذات يوم تلقيت في عملي رسالة مجهولة المصدر يعرض فيها مرسل مجهول تقديم أخبار عن زوجي، علي أن أودع جوابي في مصلحة البريد الرئيسي بالخميسات حيث سيجري اللقاء إن أنا وافقت، بلبلتني الرسالة والاقتراح. أقول لنفسي بأن علي أن لا أتراجع أمام أي فرصة، فقد أثبت لي بعض الحراس بأنه يوجد أناس لهم إيمان صادق في هذا البلد، ومن جهة أخرى خفت أن أسقط في فخ، لعلها أجهزة الاستخبارات التي تريد أن تعرف هل انكشف سر تازمامارت؟ ثم هناك بعض الأشخاص أيضا الذين يريدون اغتنام الوضعية والنصب على عائلات المحتجزين. كنت في ورطة، ورغم ذلك آليت على نفسي ألا أترك أي فرصة لها صلة بمصير زوجي وكتبت جوابا، إذن، للرسالة واقترحت على المجهول أن يأتي للقائي في صيدليتي، وهي مكان عمومي لا أحد يمكنه أن يشتبه فيه وأنا سأكون في أمان، لم يصلني أي جواب.

بعد ثلاثة أسابيع قضيتها في مولاي بوسلهام رفقة أطفالي، استأنفت عملي وأنا أجتر رتابة اليومي. في شهر أكتوبر طلب رجل ما أن يراني، ضخم الجثة ويبدو أن له معرفة بكثير من الأشياء، انحنى نحوي: هل لديك أخبارا جديدة عن زوجي؟ لا! لا أخبار لدي، فأخبرني بأن زوجي وضع حدا لحياته في زنزانته. ماجت الأرض تحتي

وكدت أن أفقد الوعي. كان الرجل حازما، وحين رأى حالة الانهيار البادية علي ذهب مباشرة دون أن يترك لي وقت طرح أسئلة عليه، ما العمل؟.

فبما أن سجن تازمامارت كان موضوعا محرما، فلا أحد بإمكانه أن يقدم لي توضيحات عن مصير زوجي. ارتأيت أن أذهب عند الدرك لأطلب منهم معلومات. أدخلوني لمكتب ضابط فأخبرته بما سمعت من الرجل. حاول أن يهدئني قائلا بأن الأمر يتعلق بمعلومة زائفة. فلو وقع ذلك لقام الدرك بإخباري، فالأمر ربما يتعلق بمزحة ثقيلة، ونصحني بأن اسأل من ينقل لي مثل هذه الأخبار هل بإمكانه تأكيدها أمام الشرطة. لم أر بعد ذلك أبدا هذا الرجل.

مرت الشهور بصعوبة، وبدون مفاجأة، وجاءت أخت العربي زيان لزيارتي. كانت تسكن آزَرُو وزوجها الفرنسي كان المسؤول عن الضيعة الملكية بأَدَارُوش، أخبرتني بأنها ذهبت لتازمامارت لتسأل عن وضعية أخيها ورسمت خريطة لكي أتبين مكان السجن. اعتقلها درك الريش وأبقوها 24 ساعة رهينة عندهم. وبعد إخبار القيادة العليا جردوها من بطاقتها الوطنية وأوراق السيارة وأمروها بمغادرة المنطقة وألا تضع أقدامها مجددا فيها، وإلا ستكون العواقب وخيمة عليها. وفي نفس السنة زارتني زوجة صدقي لسؤالي هل لدي أخبار عن تازمامارت، لقد وصلت حتى بوابة الثكنة وطُرِدْتُ من طرف عسكريين مسلحين، كنت أعرف بأنه لا أمل. وأن الذهاب إلى تازمامارت لا يفيد بما أن للسلطات عيوناً تراقب بها حركة كل واحد منا، سأُطرد أنا أيضا أو أعتقل. ولأنه كان يحس بضياعي وحزني قرر أبي أن يذهب لزيارة الجنرال حفيظ العلوي، وهو وزير التشريفات بالقصر الملكي، الرجل الأكثر تأثيرا والأكثر قربا من الحسن الثاني وأحد رجال النظام الأقوياء، وبعد عدة محاولات ورغم تدخلات أصدقاء، يئس أبي، لأنه لم ينجح في الاقتراب منه أو الحديث معه، ورفضت كل مساعيه. عرف بأن هؤلاء الناس لا يمكن الاقتراب منهم أو بكل بساطة لا يمكنهم التطرق إلى هذا الموضوع المحرم مع أي كان. ألم يكونوا هم أول من استهدف في انقلابي الصخيرات والبوينك الفاشلين؟ ألم يرد المتمردون كنسهم لوضع نظام جديد. ربما أكثر عدالة وإنسانية؟ كنا إذن، إزاء أعداء مصممين، والآن هم المنتصرون وهم بصدد تذوق طعم الانتقام من الخاسرين بكل ما يلزم ذلك من قسوة ووحشية لا تمس المتمردين فقط بل وعائلاتهم أيضا.

أحمد عصمان

وأنا أعيش ضياعا تاما قررت أن أخبر المسؤولين والرأي العام. ماذا لو كان مدير السجن يتصرف من تلقاء نفسه؟ علي أن أخلص النية وأن أتصرف قبل فوات الأوان. قررت إذن أن أذهب لسكرتارية الوزير الأول أحمد عصمان لكي أعرض مشكلي، فهو رئيس الحكومة أي أنه الرجل الثاني بعد الملك الذي بإمكانه أن يصدر قرارات تخص شؤون الدولة. كنت على يقين بأن القضية ستجد حلا ما أن يصير الوزير الأول على علم بملابساتها بعد انتظار طويل أخبروني بأن الوزير الأول لن يسمح له وقته بمقابلتي وعلي أن اشرح له المشكل من خلال رسالة. كانت لدي واحدة مكتوبة بالعربية من طرف قاض مرموق. وعدني السكرتير بأن الرسالة ستضم للمراسلات الموجهة للوزير الأول، لم يصلني أي جواب عن رسالتي. للسيد أحمد عصمان من المهام حتما ما يشغله عن الاهتمام بمصير بعض الجنود الذين تجرأوا على تعريض حياة الملك للخطر. كان وزيرا أولا آنذاك، يعني لا شيء في الواقع، فوحدهما الخوف وانعدام الشجاعة يحكمان تصرفاته تماما مثل معظم الشخصيات الهامة التي لا توجد إلا لأداء أدوار شكلية. لا يمكن لأحمد عصمان الوزير الأول وصهر الملك أن يفهم آلام امرأة وحيدة أمام سلطة عمياء. إزاء مطالب الأناس البسطاء، لم يكن الوزير الأول للمغرب، وإنما موظف الحسن الثاني، منح صمت هذا الرجل معنى لتمردي.

كانت الأيام تمضي بطيئة والحرارة خانقة في صيف متلكئ، وكانت داري تحت مراقبة دائمة فهناك شرطي يتابع من البناية المقابلة خروجي ودخولي ورؤية من يزورني وأخذ أرقام السيارات المركونة أمام الدار. إبان الأسبوع الأول من شهر غشت كانت سيارة كبيرة للشرطة مركونة على أمتار من داري، قررت ألا أسقط في لعبتهم فأبدأ في التخفي أو أظهر لهم بأنني خائفة. وواصلت حياتي اليومية بأكثر ما يمكن من الاعتيادية.

كان أحمد عصمان وصهر الحسن الثاني في تلك الفترة يعرف. لا يمكنه أن يقول إنه يجهل، فهو في قلب السلطة طبعا، فقط كان عاجزا عن الكلام عن هذا المشكل مع الملك، رغم أنه الوزير الأول لجلالته وينتمي للعائلة الملكية، لكن هل يكفي ذلك لكي يمنح شجاعة طرح بعض الأسئلة؟ الظاهر أن لا، بما أن الرجل لم يرد على رسالتي. ينبغي أن أعرف هذه البديهية منذ البداية، كنا في ضفة وهم في أخرى، لكن على هذا ألا يحبطني لديهم سجونهم وشرطتهم لكن لدي تصميمي وقدرتي على الصبر وعلى الوقت أن يلعب لصالحي.

الجنرال حسني بن سليمان

أواخر 1974، زرت لأول مرة الجنرال حسني بن سليمان، قائد الدرك الملكي، استقبلني في مكتبه وخاطبني قائلا:

– اهدئي، سيدتي، ما وقع لزوجك يمكن أن يقع لكل ضابط تورط في هذه القضية. أنصحك بالصبر، وأن تثقي في نفسك، فالأمور ستهدأ في النهاية ولن تتأخري في الحصول على معلومات عن زوجك، أعدك بأنني سأخبرك ما أن يكون لدي أخبارا جديدة!".

كان حزني قويا رغم أن أملي بقي عصيا عن الانكسار. غادرت هذا الرجل وأنا أتساءل هل علي أن أثق فيه أم لا. المهم في كل هذا هو أنه يعرف ويطلب مني أن أصبر، لكن لماذا؟ ألم يحاكم رجالنا من طرف محاكمهم؟ من طرف قضاتهم؟ ألم يسجنوا في سجونهم، بأمر من هؤلاء القضاة؟ ماذا يريدون أكثر؟ لماذا الصبر؟ وكم سيلزم من الوقت لذلك؟ لم يكن لي ما يكفي منه لأبقى بيدين مضمومتين، كنت أعرف بأن المعركة ستكون طويلة وصعبة.

تميز شهر يوليوز 1975 بإشاعة هرب مجموعة عبابو، شلاط المنتمين ل PF3 وبمغادرة الجيش الأمريكي للقواعد التي كان يتواجد فيها حتى ذلك اليوم. غادرت السيدة الطويل القاعدة هي الأخرى واستقرت في المدينة. وتابع إبنها أمين دراسته في نفس مدرسة إبني. في شهر يوليوز هذا هرب الكولونيل محمد عبابو، القبطان شلاط، المساعد الأول عقا، الملازم مزيريك وهم الناجون من انقلاب الصخيرات الفاشل والحسين المانوزي، النقابي والمحكوم عليه غيابيا في محاكمة مراكش لمناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية واختطف في تونس من طرف شرطيين تونسيين ومغاربة بلباس مدني، بعد أيام أذيع بلاغ في الراديو وعلى شاشة التلفزة يعلن القبض على

الهاربين، رفض واحد منهم أن يسلم نفسه فقتل (يتعلق الأمر بعقا). عينت أجهزة الاستخبارات شرطيا بلباس مدني لترصد خطواتي كما لو أن لي علاقات مع الهاربين الذين لم أكن أعرفهم حتى في ذلك الوقت.

في 6 نونبر1975 وقعت "المسيرة الخضراء" لاستعادة الأقاليم الجنوبية المحتلة من طرف إسبانيا، كل طاقة البلد تركزت حول مشكل الصحراء هذا، واهتمام كل الشعب تركز على هذا الحدث. كنت أعرف أن مشكل مختطفي تازمامارت سيسقط في النسيان وسيدفن كلية.

لم أذعن لهذا الاحتمال، زرت القائد القباج الذي كان يقود البوينغ الملكية أثناء عودتها من باريس وطلبت منه أن يتدخل لدى السلطات العسكرية حتى يتسنى لي مقابلة زوجي، فسر لي، بدون لبس، بأنه غير قادر على أن يفعل أي شيء اتجاه هؤلاء، فالمشكل يفوقه ويفوق الجميع. عرفت بأن الجميع يعرف ويرفض الاقتراب من الموضوع، كما لو أن المشكل يتعلق بسلطة لا يمكن لأحد تحديها أو مساءلتها بصدد هذا الموضوع، كل واحد كان يعتقد أنه يفعل الأفضل، لكي يتجنب فقدان امتيازاته أو ربما لكي لا يتعرض لمشاكل، هناك أحد ما بإمكانه أن يحسم في هذا الملف وأن يتخذ قرارات لكن من هو؟.

مرت سنتا 1976 و1977 بدون تغير ملموس وبدون أن يصلنا أي خبر من تازمامارت. كان لدي انطباع أنني أعيش في الظلمات وأن هذه الظلمات تصير كثيفة شيئا فشيئا بقدر ما يمضي الوقت. أصادف السيدة الوافي من وقت لآخر، نجحت في الحصول على عمل في البنك الشعبي وتشبثت به بكل يأس وضعها الصحي الهش. والتحقت السيدة لامين بن سليمان لتشتغل في مؤسسة تعليمية حتى يتسنى لها تربية أبنائها الثلاثة. واصلت الحياة مجراها العادي المشكل من عادات صغيرة وبعض الناس "يتحفونا" من حين لحين من طفح شرهم مثل هذا الرجل الذي كان يلبس بدلة حارس والذي اشترى شيئا ما وسألني بين نظرتين متهمتين:

– أصحيح، سيدتي، انك تطلقت من زوجك لتعيدي بناء حياتك؟.

استشطت غضبا، لم يكن الرجل يعرف من أي معدن أنا، حدجته بالنظرة الأكثر احتقارا وأجبته:

– لماذا تريدون مني أن اطلب الطلاق؟ زوجي ليس قاتلا، ولا لصا، ولا مرتشيا، إنكم مخطئون بصددنا، وقل لمن بعثوك فإن بقيت امرأة واحدة لمواجهتهم فسأكون أنا هي تلك المرأة.

طردته من صيدليتي بفظاظة وطلبت منه ألاّ يضع رجله مرة أخرى هنا وإلاّ استدعيت الشرطة. لم ينتظر هذا الرد الانفجاري من طرفي وتظاهر الزبناء الموجودون أنهم لم يسمعوا شيئا.

في سنة 1977، جرت الانتخابات النيابية، في فترة الدعاية الانتخابية حصلت على حق زيارة محمد اليازغي مرفوقة بالأستاذ جواد العراقي وعبد الكريم البصيري. عبّروا لي لفظيا عن تضامنهم وتمنوا لي المزيد من الشجاعة في المعركة التي أخوضها! في نفس السنة، وضعت ملفا للحصول على جواز السفر. استدعاني الباشا ليخبرني بأن ملفي ليس كاملا لأنه يفتقد موافقة الزوج، شرحت له ما يعرفه مسبقا. بعث الملف إلى مصالح العمالة، على العامل أن يتخذ قرارا في هذا الملف الشائك. لم يشغل العامل نفسه بشكليات كهذه، ونقل الملف إلى وزارة الداخلية غاسلا يديه من الأمر. أعطتني مصالح العمالة رقم وتاريخ إرسال ملفي وطلبوا مني اللجوء لوزارة الداخلية لطلب جوازي. عاودت الكرة سنة 1979 بدون نتيجة، أعددت عدة ملفات مرات عديدة، رغم أن السلطة أفهمتني ذات يوم، بأنني أضيع وقتي.

كان شهر يناير فظيعا، فقدت على التوالي أمي بالتبني وأبي. ماتت أمي بسبب أزمة ربو يوم 9 يناير ومات أبي يوم 11 من نفس الشهر بعد نزيف دماغي. فقدت كائنين عزيزين وسندين في ظرف 48 ساعة، وحطمني موتهما تماما. كانا يعتبران صالح بمثابة ابنهما، ومستهما هذه القضية في كرامتهما واعتزازهما بنفسيهما، وحين لملمت جراحي ذهبت لرؤية الأستاذ الفاروقي لكي يراسل الوزير الأول رسميا بصدد موضوع إمكانية زيارة زوجي. بعثت الرسالة يوم 21 مارس 1978، وبقيت بدون جواب (أنظر نص الرسالة).

في هذه الفترة حاولت السيدة أمقران متابعة الحكومة الإنجليزية قضائيا، فبعد فشل الإنقلاب غادر أمقران وميداوي قاعدة القنيطرة على متن طائرة هيلوكبتر وتوجها لجبل طارق حيث طالبا باللجوء السياسي الذي رفض من طرف السلطات الإنجليزية. لقد أعيدا للمغرب وحكم عليهما بالإعدام ونفذ. ربحت السيدة مليكة أمقران

محمد الفاروقي
محام
مقبول لدى المجلس الاعلى
الهاتف : 266 66
شيك البريد 45_609
الرباط

الرباط في 21 / 3 / 1978
الرباط ـ 81 شارع علال بن عبد الله

كتاب مضمون مع ارجاع
الاشهاد البريدي
بالاستلام

م : 792

حشاد سالم
ض /
النيابة
ملف جنائي : 8200/10588 ع م
حكم : 7 / 11 / 1972
استفسار عن مصير سجين
مع التماس الاذن بزيارته للعائلة

معالي السيد الوزير الاول
الوزارة الاولى
المشور السعيد ـ الرباط ـ

معالي الوزير الاول ،

يشرفني تذكيرا بكتابي الحامل لتاريخ 5 أكتوبر 1973 أن أنهي الى كريم علمكم أني كلفت من زوج السجين سالم حشاد بالكتابة الى معاليكم وفي اطار مالكم من اشراف على شؤون العدل العسكري ملتمسا التفضل بافادة موكلتي زوجة السيد سالم حشاد ، المحكوم عليه بالسجن 20 سنة عن مقر اعتقال هذا الاخير والاذن لها بزيارته وفقا لما يسمح به نظام السجون ببلادنا .

ان موكلتي اضطرت الى الالتجاء الى جنابكم بعد أن ظلت كل مساعيها في الحصول على رخصة لزيارة زوجها دون جدوى .

وهي لا ترغب في أكثر من اجراء هذه الزيارة في حدود ما يسمح به القانون ورعيا للرابطة الانسانية التي تلزمها باحاطة السجين المذكور بحالها واولاده .

ان موكلتي لها عظيم الامل في حسن تفهم معاليكم واعتباركم

../..

= 2 =

الكامل لهذا الجانب الانساني .

وتلتمس الى جنابكم التفضل باصدار تعليماتكم للجهة المختصة لمساعدتها على زيارة زوجها .

وتفضلوا معالي الوزير الاول بقبول فائق تقديري واعتباري.

الدعوة وعوضت على هذه الحماقة السياسية، أنهت دعوتها القضائية تلك أي إمكانية لعودتها للمغرب. هجرت ألمانيا بلدها الأصلي وذهبت للعيش في استراليا ومنذئذ لم نسمع أبدا أي خبر عنها.

محمد الشربادوي، الملاك المسمى "دجيف"

مرت السنة بنصيبها من الأسى، لكن كلما غلف السواد الوجود، يأتي شعاع نور ليقول لي بأن الأمل لم يمت كلية. وهكذا، رأيت ذات يوم ظهور رجل سيصير صانع تواطؤ طويل وصبور بين مساجين السجن الملعون وبيني. هذا الرجل يسمى محمد الشرباوي وكان يعمل حارسا في سجن الأسى، وزوجي مثله في ذلك مثل معظم المساجين يدينون له بخلاصهم. بقامة طويلة ووجه سمح، كان الرجل كريما ومفعما بالنوايا الطيبة. تقدم ذات يوم من شهر يونيو سنة 1978 وانتظر بصبر دوره ليكلمني داخل الصيدلية. اندفع نحوي ومد لي يده مسلما. في راحة يده وضع طرف ورقة وسلمها لي، فهمت بأن الأمر يتعلق برسالة مهمة لها صلة بزوجي. لم ينتبه العاملون لشيء، تظاهرت أنني أعرفه منذ مدة طويلة وسألته عن أشخاص وهميين وأعطيته أخبارا عن عائلتي. جعلت منه فلاحا يبحث عن كراء قطعة أرض بجانب أرضي في بني ملال، لا مشكل في الأمر، لكن عليه أن يحدث الحاجة التي عليه أن يضبط الأمر معها. لم يفهم محمد شيئا من هذه الحكاية العجيبة التي ابتكرتها لكي لا أولد شكوكا. اكتفى بتحريك رأسه والقيام بحركات موافقة. طلبت منه أن يعطيني خمس دقائق ثم سأقوده عند الحاجة لإنهاء الأمر. وافق مرة أخرى بحركة من رأسه، انزويت في مكتبي الوقت الذي فتحت فيه الورقة الصغيرة المطوية، عرفت خط زوجي، دون إضاعة الوقت دسست الرسالة في حقيبتي وغادرت الصيدلية مع الحرص على أن أقول للعاملين بأنني ذاهبة لداري وأن بإمكانهم مهاتفتي في حالة الضرورة. ونحن في السيارة شكرني على حفاظي على هدوئي أمام الزبناء والعاملين وصلنا للدار، كانت الخادمة تستعد للمغادرة واقترحت علي أن تبقى، فأفهمتها بأنني قادرة على تدبر أموري وأن الرجل جاء لوقت وجيز لضبط مشكل ارض مع الحاجة.

تركت ضيفيَّ مع الحاجّة وأغلقت باب حجرتي، وفتحت الرسالة. كانت مؤرخة بسنة 1978 وتحكي ما وقع لأحمد سنة 1973، صلة وصلنا الأولى. وهذا ما يفسر انقطاع التواصل فيما بيننا. كانت كلمة زوجي مرفوقة برسالتي الأخيرة سنة 1973 والتي استلمها محمد وقت اعتقال أحمد من طرف مدير السجن بلقاضي. كان الرجل يريد أن يمنحني حجة دامغة على حسن نواياه. حكت الرسالة الشروط اللاّإنسانية التي يعيش فيها مساجين انقلابي 1971 و1972. عرض علي محمد ما يكابده هؤلاء الرجال، وأعطاني أخبارا عن كل سجين، وعن الأمراض والمعاناة وأخبرني بأسماء من ماتوا.

عدت إلى عملي، وصرفت العاملين في وقت انتهاء العمل، وبقيت لوحدي بعد أن أغلقت الصيدلية لأحضر الأدوية التي طلبها زوجي. وكتبت في ورقة شروحات كيفية استعمال كل دواء، تزودت ببعض المؤن من حانوت قريب وعدت للبيت. قبل أن أقتسم مع محمد وأبنائي طعام العشاء، قررت كتابة رسالة لزوجي أضمنها أخبار العائلة، أمضى الرجل الليلة معنا وفي الخامسة صباحا سافر لمكناس حيث سيستقل الحافلة التي ستقله للريش، أعطيته نقودا، وأدوية، وحاجيات شخصية طلبها زوجي. أرفقت رسالتي بصورتين لابنيَّ وثالثة لأمين الطويل مرفوقة بكلمة من نانسي لزوجها. أخبرته بهذا وأعطيته الكلمة المكتوبة بالإنجليزية من طرف زوجها والتي كانت ضمن الورقة المطوية.

ترددت في إعطاء أنباء للسيدة الوافي عن الحالة الصحية لزوجها لأنها أخبرتني، قبيل هذا، بأنها على اتصال به من خلال جندي ينحدر من الدار البيضاء، يعمل حارسا في تازمامارت. في الساعة الخامسة رافقت صديقنا إلى محطة الطاكسيات وعدت إلى داري، كنت في حالة من الغضب والاستثارة حتى أنني لم أفارق سريري هذا اليوم. كانت الحاجة منهارة هي أيضا لأنها عرفت الظروف التي يعيش فيها المساجين. يومان بعد هذا زارتني السيدة الطويل وتحدثنا طويلا عن استراتيجية ينبغي أن نتبعها معا، لكن ما العمل؟ بكل تأكيد، كنا قد قررنا بأن نقاوم حتى النهاية. لكن القضية لم تكن في أيدي كل من نقترب منهم، كانت حياة أزواجنا، بكل تأكيد، في يدي الرجل الوحيد الذي يملك مقادير أمورنا: الحسن الثاني.

الكل كان يعرف

كان ابني وابنتي يَخِزاني بأسئلة عن أبيهما، لم تعد حجة تدريب في الولايات المتحدة الأمريكية تكفي، واستنفدت كل التبريرات سألني خليل ذات مرة:

- بما أن أبي في الولايات المتحدة الأمريكية ولا يمكنه المجيء لرؤيتنا، لماذا لا نذهب نحن لزيارته هناك؟

- لكن كيف؟

- بالطائرة مثل أمين الطويل

- لكننا لا نملك ما يكفي من نقود لشراء التذاكر للسفر في الطائرة.

- ما عليك إلا أخذ النقود من البنك!

وعدته بأن أفكر في هذه الإمكانية وأن آخذهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية ما أن تسمح لنا الإمكانيات المادية بهذه النزوة. الحل هو طرق جميع الأبواب والاتصال بكل الشخصيات النافذة في هذا البلد والقادرة على إنقاذ مختطفي تازمامارت من موت مبرمج. كان قراري جاهزا، هل يمكن أن يقع لي أفدح مما وقع؟ ينبغي التحرك بسرعة، أعددت برنامجا وبدأت تطبيقه.

المحجوبي أحرضان

ألقت بي زيارة محمد الثانية في مرارة لا حدود لها. أخبرني بأن نظام المساجين لم يتغير وهم يخافون على حياتهم، بالنسبة له فمدير السجن سيكوباتي ورجل سادي ينبغي فعل شيء، وإلا فكل المساجين سينفقون وسط جدران العار والصمت. لم أعرف ما الذي يتوجب فعله ولا من أتصل به. نصحني زبون برؤية السيد المحجوبي أحرضان زعيم الحركة الشعبية ووزير دولة وصديق الحسن الثاني بحسب أقوال هذا الزبون. أعرف السيد أحرضان بالاسم والشهرة، بما أنه المدافع عن الامازيغية بالبلد، وأعتقد أنه قادر بدون شك على مساعدتي. أمازيغي، أقول لنفسي، ومع شهرته كرجل جريء فسيكون لأحرضان، بدون شك، شجاعة أكبر لإثارة انتباه ملكه لظلم لحق بعناصر من جيشه. اقترحت علي صديقتي فاطمة، وهي معلمة، مرافقتي. سافرنا نحن الثلاثة إلى الرباط، كنت مستثارة لفكرة أن هذا الرجل السياسي سيكون قادرا على إنهاء مشكلي. حين وصلنا كانت سيارة السيد الوزير تغادر المسكن، نزل الرجل وأشار للسيارة بالتوقف. شرحت حالتي للسيد أحرضان الذي استشاط غضبا عجز عن إخفائه كلية. الأمر يتعلق بموضوع محرم لا أحد يقدر على مفاتحة جلالته فيه، وأنني لا أُقَدِّر خطورة هذا المسعى ولا نتائجه الوخيمة إن ارتكب جنون النطق باسم الانقلابيين أو اسم تازمامارت أمام الملك. كان أمازيغي الأطلس المتوسط (منطقة المحاربين والرجال الأحرار) وزير دولة وزعيم واحد من أهم الأحزاب السياسية، ولهذا جئت لرؤيته. لم ينتظر الرجل الذي رافقني رد الفعل الانفجاري من طرف زعيمه، بقي جامدا، لا يعرف ما يقول. بدأت أفهم بأن الخوف كان أكبر من الشجاعة السياسية، وأن هذا الرجل سليط اللسان كان يخاف أن يدافع عن العدالة والحق أمام الحسن الثاني الذي صنعه، كان إحباطي كاملا وسقط الرجل في عيني.

بعد مدة، أخبرني الرجل الذي وجهني لرؤية الوجه الكاريزماتي للحركة الشعبية بأنه التقى مرة أخرى مع السيد الوزير وأن هذا الأخير مستعد لمساعدتي إن كانت لدي مشاكل شخصية لكنه من المستحيل أن يتدخل عند الملك في أمر العسكريين الذين عرضوا حياته للخطر. إنها مسألة شائكة لا تتعلق إلا بالملك الذي جعل منها مسألة شخصية لم يكن بوسع السيد المحجوبي أحرضان أن يقدم لي أي مساعدة، ولا أي عون بما أنه ليس بإمكانه حتى أن يطرق موضوع انقلابيي الصخيرات والبوينك أمام الملك.

المعركة تتواصل

عاد الحارس محمد لرؤيتي حوالي 1979. لم تكن المعلومات التي قدمها لي عن زوجي ورفاقه مفرحة. أعطاني بريدا للسيدة الطويل، فرغم المساعدة التي يحملها لهم فالوضعية تبقى حرجة لأن مدير السجن رجل مجنون حقا ويفتخر بحماية الملك والدليمي. لا لجنة بإمكانها أن تحقق في أوضاع السجن فهو يدعي بأنه ليس مطالبا بتقديم كشف حساب إلا للقصر والدليمي. كانت له حرية التصرف كما يشاء، وبدون عقاب. نقل لي رسائل شفوية لعائلات الوافي، مغوتي، الزموري. أخبرتني السيدة الوافي بأن مرسولها يأتي لرؤيتها مرارا لأخذ النقود، وصار متطلبا ومزعجا. قبل ذهاب الحارس محمد أجبت عن رسالة زوجي، وشرحت له وضعية البلد وجو الشك الذي نعيش فيه. وضعت الفيتامينات والأدوية بعناية وحرص في علبة، خصوصا الأكثر فائدة والأكثر فعالية: المضادات الحيوية، مضادات القيء، مضادات داء الدوالي، مضادات الالتهاب، مضاد للسعال، مركبات تنشط الإفرازات، مضادات للإسهال، مرهمات للعيون. كتبت شروحات لاستعمال كل دواء وأعطيته قدراً كبيراً من المال لحاجيات المساجين في عين المكان: جبن، بيسكوي شمع، بطاريات الترانزيستور، الصابون، أوراق للكتابة، أقلام. لم يكن بالإمكان إثقال محمد بهذه الأشياء التي سيتم تقادفها من طاكسي لطاكسي وحافلة لحافلة. كنت أقدر كثيرا الحذر الذي يتصرف به، رافضا أن يعطيني هويته الحقيقية وعنوان سكنه. كان يقول بأنه مجرد صديق للعائلة وانه يريد مساعدة هؤلاء المساكين لكي يكون في سلام مع ضميره. لم أكن أعرف إذن إلا اسمه الشخصي "محمد" بل إنني كنت أتساءل هل الاسم مختلق.

في يوم أحد، استقبلت السيدة الطويل عدة نساء يعملن بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية، طلبت مني أن ألتحق بهم. دار النقاش حول مبارك الطويل، عرفت النسوة

بأن زوجي يعاني من نفس المصير، فنصحنها بأن تكتب للرئيس الأمريكي لتعرفه بحالة نانسي الطويل وتطلب منه التدخل لفائدة زوجها المحتجز في تازمامارت. وبخصوص باقي المعتقلين؟ هزت النساء رؤوسهن، فلا يمكنهن التدخل في الشؤون الداخلية للمملكة. يمكنهن فعل ذلك بالنسبة لنانسي لأنها مواطنة أمريكية. ابتلعت ريقي، فالزوجات المغربيات لا يساوون فلْساً. حافظت على هدوئي وأنا أشرح لهن بأن الأمر لا يتعلق بمشكل سياسي، وإنما بمشكل إنساني يمس حقوق الإنسان. فهؤلاء المساجين حوكموا من طرف محاكم، فلماذا ليس بإمكانهم أن يتمتعوا بحقوقهم الأكثر بساطة، لم يردن أن يسمعن دفوعاتي، وأمام فشلي في إقناعهن انسحبت وأنا أتمنى لهم النجاح في مسعاهن. بعد بعض الوقت انتقلت نانسي للرباط لتكون قريبة من مكان عملها.

إبان سنة 1980، زارني الحارس محمد مرتين أو ثلاثة. لم تكن أخبار تازمامارت مفرحة و لم تتحسن ظروف الاعتقال، واستأنف سيناريو الأدوية. قبل محمد بصعوبة أن يعطي زوجي عددا من مجلة جون أفريك، لم ينجح في أن يعطيني أخبارا عن رشيد الأمين وعن شمسي، فالرجلان، ودون شك، كان مسجونان في البناية التي يختص بها آخرون فحراس بناية ممنوعون من الذهاب للبناية الأخرى. كان من المستحيل، إذن، معرفة مآل الرجلين. في زيارة محمد الثانية أو الثالثة، كان هناك بريد للسيدة الطويل كلمتها في الهاتف. جاءت لتلقي بريدها وقرأت الرسالة في حضوري. طلب منها زوجها أن تغادر المغرب في أقرب فرصة وأن تلتحق بالولايات المتحدة الأمريكية. إذا ذهبت فلن تضع رجلها مرة أخرى في المغرب لأن وزير الداخلية سيرفض منحها تأشيرة العودة، وخشيت أيضا أن لا يسمح لها بمرافقة ابنها ووالده مغربي. كان رأيي واضحا، فبما أننا لم ننجح في حلحلة الوضعية في الداخل، ربما سيكون من المجدي فعل ذلك من الخارج. انتهت السيدة الطويل إلى فهم أنه الحل الوحيد وغادرت المغرب في نفس السنة عن طريق سبتة بتواطئ مع بعض الأصدقاء. كانت رسالة غشت 1980 موقعة من طرف زوجي وهي لا تترك أي شك حول نوايا السلطات المغربية بقتل مهددي حياة الملك الذين أخفقوا في انقلابهم. روعتني تفاصيل العار الذي يتعرضون له وسط لامبالاة عامة. كانت هذه الرسالة نداء استغاثة، فلا أحد يقبل الوحشية التي يعامل بها هؤلاء الرجال. فهم مسجونون في زنازن فردية بدون رؤية الشمس والضوء، جوعى، وبدون إسعافات و لا صلات مع العالم الخارجي، وفي شروط نظافة لا إنسانية، أي كارثة هذه! أي ظلم! وأي حقارة!.

استشاط الدكتور الخطابي غضبا حين قرأ الرسالة (هي الرسالة التي نشرها جيل بيرو في كتابه صديقنا الملك) و لم يفهم كيف يمكن لمساجين أن يكتبوا بمثل هذه الدقة والبصيرة في مثل هذه الظروف. أعددت نُسخاً من الرسالة وفرقتها على كلّ من يستطيع مساعدتي. بنصيحة من الدكتور عمر الخطابي جاء علي أومليل لرؤيتي بصفته رئيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان. تحاورنا طويلا حول الرسالة وظروف الاعتقال. أخذ معه نسخة من الرسالة ووعدني بعمل ما يتوجب وإدراج هذه المأساة ضمن جدول أعمال الاجتماع القادم لمنظمته، دامت اتصالاتنا ثلاث سنين.

في سنة 1981، بما أنني لم أتلق أي إشارة من السيدة الطويل، فقد قررت بأن أكتب لها لأعرف هل هناك جديد ما من جهتها. تكلفت قريبة تقطن في باريس ببعث الرسالة من هناك، لم أتلقَ أي جواب منها. أخبرني السيد علي أومليل في يوم ما بأن مبعوثا لمنظمة العفو الدولية في مهمة بالمغرب. رجوته أن يلاقيني به، حدد الموعد في مدخل فندق هيلتــون (اليوم حياة ريجينسي) ذهبت إلى هناك، وبما أنني لم أر الرجلين فقد دخلت للبحث عنهما داخل الفندق. لكنهما لم يكونا هناك، وأنا خارجة رأيتهما قادمين. قلقا لرؤيتي خارجة من الفندق بينما الموعد حدد خارجه، طرحا علي هذا السؤال:

– لكن ماذا كنت تفعلين بالداخل؟

أجبت بأنني لحاجة طبيعية ذهبت لمراحيض الفندق. ألحا على مغادرة الرباط. توجهنا نحو المحمدية. في الطريق وجه لي ممثل منظمة العفو الدولية عدة أسئلة حول حياتي: عملي، عدد أطفالي وسنهم، أوقفت سيارتي أمام فندق الميريديان، طرحت الأسئلة السياسية خلال تناول وجبة، أولا حول الانقلاب وضلوع زوجي في هذه الحكاية من عدمه، ثم حول مكان احتجاز المتمردين، إجراءات العائلات، زيارة المساجين... كان يسمعني باهتمام حتى النهاية. وأخبرني في النهاية بأن منظمته لا يمكنها أن تأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عن عسكريين حملوا السلاح في انقلاب. منظمة العفو الدولية لا تهتم إلا بحالات المعتقلين السياسيين، فأجبته يومها:

– لكن سيدي، هل تقارنونا بالديموقراطيات الغربية، في بلدان العالم الثالث، الجيش قوة "سياسية"، لأنها منحدرة من الشعب. ثم لكل واحد طريقته ووسيلته في التعبير. الشاعر يعبر بواسطة الشعر، والكاتب بالكتابة، والعسكري بالسلاح. تدخل

السيد علي أومليل لكي يطلب بأن يتم التعاطي مع المشكل من وجهة نظر إنسانية. أعطيت ممثل منظمة العفو الدولية نسخة من رسالة جاءت من تازمامارت سنة 1980، وهي تشرح ظروف اعتقال المساجين. قرأ الرسالة باهتمام، ودخل في صمت تأملي طويل قبل أن يطرح السؤال التالي:

– هل سبق لكم أن سمعتم عن رجل اسمه المانوزي؟

لم يعن لي الاسم شيئا، لم نكن نعرف أي شيء عما يجري في المغرب، وخصوصا ما يتعلق بالمشاكل السياسية. فالصحافة لا تتناول أبدا تقريبا هذه الأحداث المختلفة. سمعنا، وطرح عدة أسئلة حول السياسة العامة بالبلد. عدنا إلى الرباط وافترقنا على وعد: ستعمل منظمة العفو الدولية كل شيء للدفاع عن ملف محتجزي تازمامارت.

حتى سنة 1980 لم أكن أعرف كل عائلات المحتجزين الذين أفلتوا من انقلاب الصخيرات، كنت أعرف عائلتين، عائلة بلكبير وعائلة الصفريوي، لأنهما جاءتا عندي في مسعاهما الإداري وأنهما نجحا أخيرا في عقد صلة مع ابنيهما من خلال أحد حراس السجن. في نفس السنة زارتني زوجة وأب المغوتي طلبا لأخبار عنه، كان الماغوتي مازال حيا. سرد أحد أعداد جون أفريك الأحداث الدامية لسنة 1981 في الدار البيضاء، صورة الغلاف فيها حشد بشري بكلمة "إضراب" مكتوبة بحروف كبيرة. طلبت مني بنتي هدى أن أشرح لها كلمة إضراب ولماذا هناك النار في صورة غلاف المجلة، قفزت على المناسبة لأشرح لها بعض الأشياء:

– حين يكون الناس غير راضين عن أوضاعهم، فإنهم يغضبون على المسؤولين ويخرجون للشارع للتعبير عن عدم رضاهم. وفي بعض المرات، يحرق بعضهم السيارات ويكسرون زجاج المحلات التجارية، تعرفين هدى والدك وبعض رفاقه لم يكونوا راضين عن الوضعية السياسية للبلد فثاروا للتعبير عن عدم رضاهم. اعتقلهم المسؤولون في سجن لا يمكنهم أن يخرجوا منه، ولا يمكن لعائلاتهم أن تزورهم. لكنه سيعود لنا يوما ما! احكي لك هذا لأنني قدّرْتُ أنكِ الآن فتاة كبيرة، ومن حقك أن تعرفي، لكن لا تخبري أخاك بما سمعت، إنه مازال صغيرا.

سمعتني بانتباه وتأثر ما قلت:

– هناك حيث يوجد، هل لدا بابا الطعام، واللباس والغطاء؟

قلت لها نعم، وأحسست بالارتياح لرؤية بنتي تشاركني في سر مصير والدها، في الغد اقتربت مني وهمست لي:

- قل لي ماما لمن كنت أشبه حين تركني بابا (في أي سن كنت)؟

التفتت ثم أشرت بالأصابع إلى رضيع له بضعة شهور، كان لهدى خمسة عشر شهرا حين اعتقل والدها، دار الأسبوع كله بين سؤال وجواب. استجواب حقيقي.

أوساط حكومية وبرلمانية

في نفس سنة 1981 قررت إخبار الأوساط الحكومية والبرلمانية بإختفاء زوجي. وجهت إذن برقية للبروتوكول الملكي، للوزير الأول، لرئيس البرلمان، لزعماء كل الأحزاب السياسية. هذا هو نص البرقية: "بدون أخبار عن زوجي القبطان صالح حشاد المحكوم عليه ب 20 سنة سجنا من طرف المحكمة العسكرية للقنيطرة، في قضية انقلاب 16 غشت 1972. سجن تحت رقم 18149 في السجن المركزي بنفس المدينة، سأكون ممتنة لكم إن ساعدتموني في الحصول على معلومات عنه أو زيارته وتقبلوا، سيدي، فائق تقديري واحترامي"

أشركت كريمة الوافي في سر ما انتويت فعله وطلبت منها أن تفعل نفس الشيء، وهذا ما قامت به، لم تجب عائلة غلول عن اقتراحي، وفهمت بأن غياب التضامن بيننا ستكون له نتائج وخيمة بالنسبة لنا كعائلات، وبالنسبة لمن هم مسجونون في أرذل الشروط التي يمكن لأناس أن يتحملوها.

طيلة سنة 1982 زارني الحارس محمد مرتين وجلب معه بريدا لعدة عائلات، ثلاثة أظرفة واحد بالنسبة لمجموعة الدار البيضاء، والثاني لمجموعة الرباط، والثالث لمجموعة القنيطرة. تكلفت السيدة الوافي بتوزيع بريد الدار البيضاء، وتكلفت بتوزيع بريد القنيطرة وعلى السيدة الرايس أن تتكفل بالعائلات المتواجدة في الرباط. لم تأت لأخذ البريد كما اتفقنا، فقامت السيدة الوافي بالاتصال بعائلتي أوصياد وغلول وتسليمهما الرسالتين. ومن جهتي اتصلت بأب مغوتي وخالة عبد اللطيف بلكبير، ونجحت في أخذ الجواب وقدر من المال لبعض المساجين: مغوتي، صدقي، والوافي. لم تأت العائلات الأخرى في الوقت لأنها لم تكن تعرف مختلف الإكراهات التي تتطلبها هذه

العملية، تكتم، وقت، تنقل، فعالية. فالأمر لا يتعلق بوضعية عادية لمساجين عاديين، كان رجالنا "خونة" يحبسهم النظام في سر مطبق. و لم يكن لنا حتى حق ندب مصيرنا ولا مصير رجالنا. كانت كيفية احتجاز هؤلاء كافية لأعرف النوايا المميتة للمسؤولين. ولا تسمح هشاشة وقتامة الوضعية التي يعيش فيها المحتجزون بأي هامش للخطأ، ينبغي التحلي باليقظة، وخصوصا أن قائمة الموتى ما فتئت تكبر. وردت قائمة المختطفين في الرسالة التي تلقيتها هذه السنة من تازمامارت. فالقائمة تتضمن تسعة عشر إسما: القوري محمد، بوتو موحى، الياقدي المحجوب، بومعقول محمد، جيلالي الديك، كويان عمروش، عبابو عبد العزيز، شمسي محمد، العيدي محمد، قسراوي قاسم، رابحي عبد السلام، شجعي محمد، أزيان العربي، ابونسي التهامي، موهاج علال، بحباح إدريس، الهدان بوشتى، قينات محمد، البصيوي رباح وفي نفس علبة الرسائل وجدت كلمة من منصف (أنظر الصورة) (صفحة 122).

أرفقت بالجواب الذي بعثته إلى زوجي كلمة إلى كل المجموعة لرفع معنوياتهم ولأشرح لهم بأن أناس يقاتلون من أجلهم في الخارج "أنتم ضباط، قلت لهم، ينبغي أن تبقوا رؤوسكم مرفوعة، وأن تحافظوا على كرامتكم، وأن لا تيأسوا، أعدكم بأنني لن أنزل يدي ما دمت في هذه الوضعية".

كان غضبي كبيرا هذه السنة حين عرفت بأن مبارك الطويل يتمتع بامتيازات وأن الآخرين يموتون بالتقسيط، لا يمكن للقساوة هنا إلا أن تكون لها هنا صورة الميكافيلية. كيف سيحس هؤلاء الرجال الذين ردوا إلى حالة حيوانية أمام واحد كان يقتسم مصيرهم منذ مدة ثم بدأ يأكل ويشرب ويخرج للشمس؟ لماذا هو وليس الآخرون؟ لأن زوجته أمريكية. لأننا نحن المغاربة لا نساوي شيئا بالنسبة للنظام، لسنا سوى "رعايا صغار" لا يذكرون، ويمكن تقليمهم وتسخيرهم في كل حين. أمام كل هذا الاحتقار، آليت على نفسي على أن أظهر للمسؤولين ما الذي يرتكب في حق العائلات المغربية، التمييز داخل السجون، نظام خاص بالنسبة للأجانب وأزواجهم وبالنسبة لأهل الوطن الجحيم. الأمر غير ممكن، يردد البعض، وهم على يقين بأن الأمر يتعلق بأخبار زائفة لخلق الفرقة بين عائلات المحتجزين وتحطيم تآزرهم. ولمن أراد أن يعرف كيف حصلت على هذه المعلومة، فقد أخبرتهم بأن السيدة نانسي الطويل هي التي أخبرتني بتحسن شروط احتجاز زوجها، معتقدة أن الآخرين استفادوا من

هذا النظام الجديد في السجن. كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لحماية صلة وصلي بتازمامارت.

في يوم 4 يناير 1983- استدعيت لمفوضية الشرطة المركزية، مصلحة السياسة. لبست وتزينت لهذا الحدث لكي لا أمنح لمن يلاحقونني فرصة ملاحظة أنني تعيسة، يائسة ومحبطة. دعاني عميد شرطة للجلوس ووضعني في صورة موضوع الاستدعاء. فقد تلقت مصالحهم مذكرة من الاستعلامات العامة في الرباط تتحدث عن تواصل بيني وبين زوجي عن طريق مساعد. أنكرت الأمر وقلت بأنني فقدت الاتصال بزوجي منذ غشت 1972 ومنذئذ لم يأت أي واحد ليخبرني عن مآله. وجهت عدة طلبات لكل المؤسسات الحكومية والبرلمانية طالبة منهم العون. لكن إن استدعيتموني للحديث عن اتصال بيني وبين زوجي، فلأنه مازال حيا؟ نظر العميد إلي مليا ثم قال لي بأنه لا يعرف شيئا وأن الاستعلامات العامة هي من كلفته بإجراء هذا البحث. تظاهرت بأنني أجهل كل شيء عن مصير زوجي ورجوته أن يدلني على مسار أتبعه:

– امرأة صلبة مثلك عليها أن تقاتل، لماذا لا تذهبي لرؤية الكولونيل الدليمي؟ ربما سيساعدك؟

كان الأمر بالنسبة لي غير قابل للتحقق فأنا أعرف الكولونيل ولا أعرف أين يمكن أن أجده

– في المرة التي سيكون فيها بضيعته في سيدي قاسم، سأخبرك، ينبغي المحاولة في هذا الاتجاه.

غادرت هذا الرجل بأمل جديد، غير أنه في 25 يناير 1983 قتل الكولونيل الدليمي إثر انفجار سيارته. كان الجو في المغرب مفعما بانعدام اليقين، وبالشك والوشاية. كنا نخاف من بعضنا البعض ويتحول كل خصام إلى محاكمة سياسية ما أن يؤكد أحد المتخاصمين أن خصمه سبّ الملك أو قال أن الصحراء ليست مغربية. زارني أخ بلكبير وهو مهندس معماري في الرباط، للمرة الثانية بعد زيارة 1982. أعطيته نسخة من الرسالة التي تلقيتها سنة 1980 والتي تصف الشروط اللاّإنسانية التي يعيش فيها المحتجزون. ظهر النص كاملا في كتاب جيل بيرو موقعا من طرف عبد اللطيف بلكبير. هذه الرسالة، والتي هي مخطوطة في الأصل كتبت ووقعت من طرف زوجي.

أخبرني المهندس بأن المساجين تعرضوا بسبب اكتشاف مجلة عند أحدهم، لتفتيش صارم وجردوا من كل شيء أي كل الكنوز المتراكمة طيلة سنوات احتجازهم: أطراف خيوط، أطراف غطاء، لباب الخبز، أسلاك، أدوية، راديو الترانزستور، أوراق أقلام، علب سردين خاوية، بطاريات، كعب غزال. وحكى لي عن إحساس مساجيننا بالإحباط وتخيلت ألاسوأ. فهؤلاء الحراس المتروكون لهواهم بإمكانهم أن يرتكبوا فظاعات. سيكون الانتقام، بدون شك، أقسى من التفتيش، لم يكن هناك انتقام، هل بالإمكان أن يكون هناك عقاب أكثر من أن تسجن صباح مساء في زنزانة ضيقة ومظلمة لسنوات طويلة؟ هل هناك معاناة أكثر من معاناة هؤلاء الرجال الذين يعاملون أسوأ من معاملة الفئران؟ بقي الموت. فلماذا لا يعدمون وينتهي الأمر كله وبلا رجعة؟ لماذا كل هذا التوحش؟.

الابتذال لا يقتل، عقدا بعد اختفاء زوجي جاء ضابطان من القوات الجوية لمقابلتي في الصيدلية. اعتقدت بأنهما ينقلان لي أخبارا عن المحتجزين. لا لقد جاءا للمطالبة، وباسم القيادة العليا، بشهرين من الأجرة (شتنبر وأكتوبر 1972) اللذين أودعهما الجيش في حساب زوجي بعد اعتقاله. قلت لهما بأن يذهبا للمطالبة بهذا المبلغ لدا المعني بالأمر، فعلى القيادة العليا معرفة عنوانه.

لم يعط الحارس محمد أي إشارة حياة، ودام صمته سنتين طويلتين، ومن باب الاحتياط مر الحارس هذه المرة عن طريق أخ زوجي في قرية أولاد يعيش ومنحه رسالة لي، وحصل عن الجواب عن طريق نفس الشخص. رفض المجيء للقنيطرة فالوضع خطير، كانت تلك هي الفترة التي رأيت فيها مجددا علي أومليل وأعطيته نسخا من مجموع بريد محتجزي تازمامارت ليعطيه لمبعوث جديد لمنظمة العفو الدولية. كان هذا الرجل في طريقه لجنوب إفريقيا من أجل قضية نلسون مانديلا، وتوقف في مطار الدار البيضاء، لكن ومنذ اعتقال الأستاذ بن عمرو وبضغط من السلطات جمدت الجمعية المغربية لحقوق الإنسان أنشطتها، و لم أر بعد ذلك أبدا علي أومليل.

الجنرال مولاي احفيظ العلوي

في سنة 1984، جاءتني فكرة مقابلة أحد أقوياء المغرب: الجنرال مولاي احفيظ العلوي. حصل قريب لي، ضابط في الدرك الملكي على عنوانه في مراكش، في ذلك الوقت لأن الملك كان هناك. نصحني أعضاء كتابة الجنرال بانتظاره أمام المدخل. لتزجية الوقت ومخاتلة ملله أمطرني الحارس بالأسئلة، بهدف معرفة، وبأي ثمن، موضوع زيارتي. قلت له بأنني زوجة ضابط اختفى في الصحراء، لم يجد الرجل ما يقوله مجددا بصدد هذه التعلّة، وسمح لي بأن أنتظر الجنرال دون أن يحاول أن يعدني أو يلحق بي أذى. انتظرت ساعتين. توقفت سيارة الجنرال أمام البوابة، جريت نحوه خفض زجاج باب السيارة وطلب مني ماذا أريد، وما أن قلت له أول جملة حتى أمر السائق بأن ينزل وأشار إلي بأن أركب في المقعد الخلفي للسيارة وأن أعطيه هويتي. أريته البطاقة الوطنية ثم بدأت مرافعتي. سمعني حتى النهاية. ثم نظر إلي نظرة صارمة وطلب مني أن أكتب له رسالة أعرض فيها مشكلي. كانت لدي رسالة في حقيبتي حررها المحامي جواد العراقي إلى الملك الحسن الثاني، قيل فيها من بين ما قيل: بأن العفو والرأفة من خصال الملوك. أخذ الرسالة، وقرأها بتمعن، وتأكد من أن عنواني موجود في الرسالة قبل أن يعدني بأنه سيفعل كل ما في وسعه لإنهاء هذا المشكل. نبهوني لمزاج الجنرال الصعب، لكنه لم يوبخني ولا عنفني كما اعتاد أن يفعل مع الآخرين. ربما جئت في يوم طيب وحرصت على أن أكلمه بخطاب الزوايا. دام الانتظار ستة أيام، وفي يوم زواج ابنه، تقدمت مجددا نحو قصره، استقبلني في مكتبه، ذكرته بزيارتي له في مراكش، وأعطيته رسالة جديدة. أخذها، وقرأها، ونظر إلي بصرامة وأمرني بأن أتحلى بالصبر، بدا لي يومها رجلا مرهقا، فقد حيويته وطاقته، لم يجب أبدا عن رسائلي، و لم يرفع أصبعا صغيرا لتغيير ظروف اعتقال محتجزي تازمامارت، رغم أنه كان قادرا على كل شيء.

الدكتور الخطيب والسيدة بوليفار

عملا بنصيحة بعض الأصدقاء ذهبت لرؤية الدكتور الخطيب في مصحة التعاضدية المتواجدة بشارع الجزائر. رجل مؤثر وشخصية سياسية. قيل لي إنه من الأشخاص القلائل القادرين على الحديث مع الملك بدون تحذلق. كانت سعادتي بلا حدود. حين انتهيت من بسط مشكلي له. نظر إلي للحظة كما لو أنني أخرج من فيلم رعب أو خيال علمي قبل أن يجيبني بأنه لا يستطيع فعل أي شيء لأن الملك لم يعد يستقبله رأسا لرأس، تحطم أملي تحت أرجل هذه المعلمة السياسية التي تخاف هي أيضا أن تذكر مشكل الضباط وضباط الصف الذين اختطفوا من السجن المركزي بالقنيطرة. حيث كانوا يمضون أحكامهم. لم أكن أعرف أن "الزعامة" تتواءم مع الجبن وغياب الشجاعة السياسية.

استأذنته، والدموع تملأ عيني، وقف وتبعني حتى الباب. وأمام حالتي شبه المنهارة. طلب مني العودة والجلوس مجددا. أعطاني إسم إمرأة علي الاتصال بها: السيدة بوليفار والتي تدير قصور الملك في مراكش. كانت تسكن جناحا في فندق المامونية وكانت لها قدم وسط محيط الملك. نصحني بألا أكشف مصدر معلومتي هذه. صديقة مقربة من القصر في الماضي ولن أخسر شيئا بالذهاب لرؤيتها. وأضاف:

– لقد سقطنا إلى أسفل سافلين!

عدت إذن إلى مراكش، وأنا أقول لنفسي بأنها تملك، ربما، حلا لمشكلتي. استقبلتني السيدة بوليفار في جناحها بالمامونية، واستمعت لي مطولا. أريتها صورتي طفلي، لكي أؤثر في عواطفها. قالت لي بأنها ستستشير أولا مولاي علي قبل أن تعطيني جوابا بالتلفون. خمسة عشر يوما بعد ذلك، وبما أنني لم أتلق مكالمة تيلفونية من طرفها، قررت أن أهاتفها:

– لقد ناقشت مشكلك مع صديقي، أجابتني ، فنصحني بالبقاء بعيدة عنه. بإمكانه أن يشكل خطرا علي!

عود على بدء ومعنويات في الحضيض.

زارني محمد بوكبش، وهو حارس آخر في تازمامارت في نفس السنة. أسمر، ممتلئ، قامته متوسطة والوجه مأكول بالجذري. زارني في الصيدلية وقدم لي هويته وموضوع زيارته. اقترحت عليه أن نذهب لداري. لم يكن له أي بريد لي، لكنه كان يحمل رسالة لعائلة بلكبير. إن الحاجة بلكبير هي من نصحته بزيارتي لأخذ أدوية للمحتجزين. لم أر هذا السيد أبدا فيما مضى و لم يحدثني زوجي عنه. وبما أنني لم أتلق بريدا منه فقد ترددت كثيرا قبل أن أسلمه 2000 درهم وعلبة أدوية. قلت لنفسي بأن علي أن أستجيب لنداء "ذوينا" حتى ولو لم يتوصلوا أبدا بما أرسلت لهم. أن لا تبعث لهم شيئا، يعني فقدان الأمل. غير أن علي وحتى في لحظات شك، أن أتق في إخلاص هذا الحارس وأن أذهب إلى أقصى ما يتيحه الأمل، ففي كل الأحوال، هذا الأمل هو من أعانني على مواصلة المعركة. وكلما أغلقت أبواب في وجهي، وكلما إنتصر اليأس على مقاومتي، وكلما غلف الليل عيني، يتراءى شعاع نور في أخر هذا النفق الشاق والطويل. يتراءى مرة في صورة حارس، ومرة أخرى في شكل يد ودية خرجت من الظلمات وامتدت لي، ومرة أخرى في شكل كلمة تشجيع... لم يكن من حقي إغلاق باب يفتح في وجهي ولو أن هذا الباب يخفي شكا أو يحوي خطرا.

في نفس الفترة تلقيت استدعاء من وزارة العدل مع الأمر التالي التوجه لمكتب "زيد" حاملة معي البطاقة الوطنية، شهادة حياة جماعية لأبنائي وصورة لزوجي. كان المكتب المعني يتضمن مصلحة العفو التي يقودها دومو في ذلك الوقت. كنت مستثارة وسعيدة، وعلى يقين بأنني وصلت إلى خاتمة متعبي. شرحت للرجل موضوع زيارتي، اعتقال زوجي، الانقلاب، المحاكمة، والسجن والرقم الذي أعطي له تم إخفاؤه... استمع لي، وضغط على زر. جاء رجل، أعطاه دومو الاستدعاء وقال له:

– استدعيتم هذه المرأة، فتصرفوا معها إذن.

دعاني للسير وراء الموظف الذي أخذ الاستدعاء، وما أن دخلنا مكتبه حتى قال لي:

– لا نملك ملف زوجك، أوكلت لنا هذه المسألة من طرف الجنرال مولاي حفيظ العلوي، لدراستها، استدعيناك لنقول لك بأننا سنكتب للمحكمة العسكرية لتبعث لنا

ملفه إن أرادوا تمكيننا من جواب، سنستدعيك ما أن نحصل على جواب. في انتظار ذلك أتركي لنا هذه الوثائق!

– عن طيب خاطر، لكن أعطيني وصل إيداع.

رفض ذلك. ففهمت بأن كل هذه السينما كانت طريقة مؤدبة لتقول لي السلطات بأنها معبئة لكي لا تحل المشكل. فما أن ألقى الجنرال بهذه القضية إليهم حتى تخلصوا منها بإلقائها لوزارة العدل، وباستدعائي من طرف وزارة العدل المزعوم فهي تتظاهر بالاهتمام بالمشكل. لكن وبما أنها لا تتوفر على ملف السجين، فهي لا يمكنها أن تتصرف. وكل هذا الإخراج المسرحي كان بلا فائدة.بما أن الجنرال كان يعرف، وكان بإمكانه إستعمال ثقله ونفوذه لإنهاء هذه المسخرة. فهمت بأن لا أحد بإمكانه أن يحرك إصبعه في قضية محتجزي تازمامارت. كل واحد يؤدي دوره في مشهد ونحن، شعب هذا البلد، ضحايا سيناريو رديء.

أحمد رضا كديرة

كتبت، بنصيحة من بعض الأصدقاء، رسالة لأحمد رضى كديرة، مستشار الملك، لأقول له هذا: "سيدي، لي الشرف العظيم أن ألتمس من سيادتكم تمكيني من مقابلتكم متى سمح وقتكم بذلك، ويتسنى لي وضعكم في صورة حالة زوجي السيد صالح حشاد الذي اعتقل وسُجن إثر أحداث 16 غشت 1972. وسأجرؤ على التعويل على تفهمكم لتستجيبوا لطلبي هذا. ولتمنحوني فرصة بسط هذا المشكل الحاسم بالنسبة لي ولمستقبل طفليّ. وسأبقى رهن إشارتكم لتقديم أي توضيح ترونه مفيدا. وأشكركم مسبقا على تفهمكم وتقبلوا فائق التقدير والاحترام، السيد..."

أرفقت طلب عفو موجه إلى الملك بهذه الرسالة، إن بعثت هذا البريد للبروتوكول الملكي فهذه هي الطريق المثلى لكي لا يصل لغايته، قررت، إذن، بأن أعطيه الرسالة يدا بيد. فوجئت لعدم رؤية كشك حراسة ولا حارس أمام باب داره في تمارة، فتحت لي خادمة صغيرة الباب وطلبت مني، ماذا أريد؟ لم يكن السيد كديرة موجودا. لكن زوجته كانت هناك، استقبلتني وأدخلتني إلى صالون:

– ادخلي، سيدتي، سنكون في وضع أريح بالداخل!

كنت منبهرة ببساطة هذه العائلة، حين نعرف بأن أصغر موظف مغمور في وزارة الداخلية والذي له أصغر مساحة من السلطة يتصرف كملك. أخبرت السيدة بمن أكون وشرحت لها سبب زيارتي. لم تنس انقلاب 1972، ففي المحاكمة كان زوجها يدافع عن الشاب حميد بوخاليف. الذي حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه، وتبعا لها، فزوجها احتفظ بذكرى أليمة من هذا الإعدام. حدثتها عن قضية الطويل و لم أخف عنها استنكاري وغضبي لهذا التمييز بين المساجين. فلأنها أمريكية، نجحت نانسي الطويل في الحصول على نظام خاص بزوجها. بدأ يخرج للساحة، يأكل أكلا لائقا،

يستحم وينام في سرير لائق، كانت تكتب بإنتظام لزوجها وتم ترسيم حالته ما أن طلب السفير لأمريكي رؤية الطويل وأن تحسن ظروف اعتقاله. لقد نجحت، إذن، في جعل مسؤولي بلدها يسمعونها، أما أنا فناذرون هم الأشخاص الذين "تجرأوا" على سماعي والسلطات المغربية التي بعثت لها عدة رسائل لم تجبني أبدا. تزامنت زيارتي لدار آل كديرة مع زيارة الكولونيل الشنا، والذي جاء هو أيضا محاولا حلحلة حالة ابنته السيدة فاطمة أوفقير وأبنائها المحتجزين في سجن سري. سمعتني السيدة كديرة دون أن تقاطعني قبل أن تعبر عن إدانتها لكل ما يجري، قبل أن أغادرها، أعطيتها رسالة لزوجها وطلب عفو للملك. ولدت وعودها بداخلي أملا، ودعتني لزيارتها في كل حين. هاتفت السيد كديرة، أسبوعين بعد ذلك لكي أحصل على أخبار. فأجابني مستشار الملك، شرحت له سبب المكالمة فدعاني لمقابلته في داره. استقبلاني، كديرة وزوجته في فيلا تمارة وتناولنا موضوع تازمامارت، قرأ السيد كديرة طلب العفو وطلب مني أن أتحلى بالصبر. الموضوع شائك وعليه أن يستغل وضعية مواتية لكي يسلم الرسالة لجلالته. ثم ذكرت زوجته حالة الطويل، فطرح أحمد رضى كديرة علي السؤال التالي:

– هل الوقائع التي تحكينها صحيحة؟

– لماذا سيدي المستشار، سأحكي لكم أكاذيب؟ أنا على يقين مما أقول. ثم اقرأوا ما كتب زوجي، لأن زوجته أمريكية، فالسيد الطويل يأكل ويشرب ويخرج للشمس وترك الآخرون في حالة حيوانية. هذا عار!.

بقي السيد كديرة صامتا:

– خاطبت السيدة نانسي الطويل رئيسها فاستجاب بسرعة و إيجابية لندائها، أنا أخاطب مسؤولي هذا البلد لكي يوجد لهذه القضية حل، لا يمكن لهذا الجحيم أن يستمر بالنسبة للمحتجزين ولعائلاتهم، للأسف، لا أحد يريد هنا أن يتدخل في هذا الأمر، ولا أن تكون له صلة به. لا أطلب شيئا آخر غير شروط عادية لاعتقال هؤلاء الرجال، سيدي المستشار.

حاول أن يهدئني وحول الحوار إلى أسئلة عن عملي، أطفالي، سنهم، دراستهم، وسألني هل السلطات تخلق لي مشاكل بسبب وضعية زوجي. دامت المحاورة بعض الوقت ثم غادرت آل كديرة على أمل أن يتمكن مستشار الملك من فعل شيء ما لكي

يتوقف هذا الارتجال. كنت على يقين بأنني طرقت الباب الصائب، وأن المسألة، من الآن فصاعدا، مسألة وقت. تسلحت بالصبر وانتظرت.

في بداية 1986، عدت لرؤية السيدة كديرة، كانت بصدد الاستعداد للسفر إلى فرنسا، في اليوم نفسه بسبب مشكل صحي خطير. تألمت كثيرا لوضعية هذه السيدة التي وفي كل زياراتي لها أبدت لي تفهما وتضامنا. قبل أن نفترق أعطتني رقم كتابة زوجها ونصحتني بأن أهاتفه من حين لحين لأحصل على أخبار جديدة. فالعاملون بالكتابة على علم بمشكلي وبإمكانهم إخباري بتطورات الملف.

إتصل السيد كديرة بالأستاذ زيان وطلب منه أن يعد طلب عفو رسمي وإرسال ملف زوجي. أعطى الأستاذ الفاروقي الملف للأستاذ زيان وأكد له أطروحة الخطأ القضائي بما أن زوجي لم يكن على علم بالانقلاب و لم يهاجم البوينك الملكية.

إبان عطلتنا في مولاي بوسلهام، تلقيت زيارة من كبير بلكبير الذي حمل إلي بريدا من تازمامارت عن طريق حارس ينحدر من تازا، يسمى "الشويبيني" أو "التازي". عليَّ أن أعدَّ علبة أدوية للمجموعة، رسالة لزوجي، وقدرا من المال. عدت للقنيطرة وتصرفت بحسب السيناريو المعتاد. انتظار ذهاب العاملين، اختيار الأدوية والمقويات بدقة قبل تلفيف كل ذلك في علبة صغيرة. في هذا اليوم، أضفت عشر عبوات «one day» استجلبتها من قاعدة أمريكية في إسبانيا، وتحوي كل حبة من هذا المقوي كل الفيتامينات التي يحتاجها الجسم لأربع وعشرين ساعة. لم يصل البريد أبدا إلى من بعث لهم. كان السرجان محمد كخطي قد حصل قبل هذا على التقاعد، و لم يعد أبدا إلى تازمامارت، ولأنه لص، فقد احتفظ لنفسه بما يمكنه أن ينقذ عدة أرواح. كان غضبي عاصفا بإمكانه نسف كون برمته. كان هذا الرجل على وعي بالضرر الذي يلحقه بهؤلاء المحتجزين بتصرفه هذا. كان يعرف في أي شروط يعيش المساجين وسمح لنفسه بإيجاد وسيلة لسرقة الأمل القليل الذي يأتيهم من الخارج. تزاحمت عدة أسئلة في ذهني. وإذا كان هذا الرجل قد أرسل من طرف السلطات لكشفنا؟ وإذا أفشى ما نقوم به لرؤسائه؟ أي عقاب سيتعرّض له رجالنا في ذلك المكان الملعون حيث يتعامل معهم كفئران؟ كانت أعصابي مستنفزة، ولا أستطيع أن أحاول معرفة أكثر مما عرفت. أردت مقابلة هذا الرجل مجددا لكي أطرح عليه عدة أسئلة وأن أطلب منه إعادة كل ما أخذ. رفض كبير بلكبير أن يعطيني عنوان هذا اللص.

عبد الرحيم بوعبيد

بإلحاح من عدة أصدقاء، قررت زيارة الكاتب العام للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية السيد عبد الرحيم بوعبيد. قرر السيد غلول وهو مهندس معماري بالقنيطرة وأخ القبطان غلول مرافقتي إلى الدار البيضاء، هو وصديقنا المشترك عبد الرحمان الصياد. حين وصلنا للمقر المركزي للحزب في أكدال طلب مني مُرافقيَّ أن أنتظرهما. غابا مدة نصف ساعة وحين ظهرا، أخبراني بأنهما قابلا السيد المهدي العلوي، عضو المكتب السياسي الذي طلب منهما تهيئة موعد سري بيني وبين السيد بوعبيد، فالموضوع حساس وخطير في الآن نفسه. سخطت بل إغتظت. ولم تكن لي رغبة للعبة هذا اللعب، لا اقترح أي شيء غير شرعي على هذا الرّجل. أريد أن أراه لأناقش معه مشكلا إنسانياً: شروط إحتجاز مساجين تازمامارت. لم يكن يعادل انزعاج مُرافقيّ إلا غضبي. حتى في جهة الاشتراكيين لم يكونوا أكثر شجاعة وأكثر تصميما. بدأت أعتقد بأن الجميع سواسيو وأن السياسة والخوف، يقومان بعمل جيد. إذا لم يتمكن هؤلاء من مساعدتي، فهذا يعني بأن لا أحد يقدر على ذلك. عاد مُرافقيَّ، يومين بعد هذا الحدث، لرؤيتي في الصيدلية وطلبا مني توقيف ما أقوم به لأن ذلك صار يشكل خطرا على الجميع. حافظت على هدوئي وقلت لهما:

– أعتقد أنني لا أقوم بأي شيء غير قانوني، زوجي مسجون في مكان ما وأريد أن أعرف أين هو وكيف هي حاله. أريد أن يتم التعامل معه كسجين عادي. كل رفاقه في خطر ولا يمكن أن أتركهم لمصيرهم. وتبعا للقسم الذي أقسمته فأنا مجبرة على مساعدتهم. فهؤلاء الرجال يوجدون في وضعية خطرة، محكوم عليهم بالموت، وواجبي كزوجة لأحدهم، وكطبيبة صيدلانية، وخصوصا ككائن بشري، أن أمنحهم الأمل حتى آخر نفس. إن كان بإمكاننا التخلي عن مساجين تازمامارت فأنا لا يمكنني ذلك.

الكولونيل بن علي

في نفس السنة قررت الاتصال بكل من هم على قرب ما من الملك. إما بوظائفهم، أو مكانتهم أو علاقاتهم. لا يمكنني أن أعول على السياسيين فقط، بما أنه وبصيغة وأخرى، فهم يظهرون عجزهم عن الكلام مع الملك. مواجهة هذا الأخير كانت، إذن، قضية خطيرة جدا. بدأ طوافي من الكولونيل بن علي رئيس المكتب الثاني بالجيش. بعد الكلام المعتاد مع الخدام ومحاولات معرفة سبب الزيارة. استقبلني الكولونيل في مكتبه باللباقة الواجبة اتجاه امرأة جاءت وحدها لطلب خدمة أو امتياز. بسطت له مشكل زوجي. وشرحت له أنني لا أعرف أين يوجد وأن من شأن الجيش إخباري، وأنه من واجبي كزوجة أن أقلق على مآله وأكدت على أن هؤلاء الرجال حوكموا وعليهم أن يتمتعوا بشروط اعتقال عادية. فحتى قضاء البلد لا يُحترم. لا أريد استخلاص أفكار متسرعة لكنني أعرف أن الأوامر أعطيت من فوق بما أن لا أحد قادر على إعطاء معلومات عن خمسين ضابط وضابط صف كانوا يمضون أحكامهم في السجن المركزي بالقنيطرة، واختفوا بين عشية وضحاها. أحد ما يعرف، فأنا لا أبحث عن إبرة وسط كومة تبن.

استمع لي بانتباه، وبدا عليه الانزعاج من أقوالي، تردد لحظة قبل أن يقول لي بأنه يجهل كل شيء عن هذا المشكل. فهو لا يعرف مصير الضباط وضباط الصف المتورطين في الانقلابين ضد الحسن الثاني. وهو يتأسف، قال لي، على عدم قدرته على مساعدتي. وضعته إذا في صورة المصير المحزن لمحتجزي تازمامارت وشرحت له بأن لدي قائمة طويلة للشخصيات التي سأتصل بها وأنني لن أتوقف عند هذه الزيارة. أعطيته طلب عفو للملك بمناسبة مرور ربع قرن على توليه الحكم. صار هذا رد فعل تلقائي لدي. قال لي بأنني فعلت خيرا بتوفري على هذه الرسالة وأخبرني بأنه مجبر على إعلام رؤسائه بهذه الزيارة.

الجنرال القادري

في الأسبوع الموالي، زرت لادجيت DGET لمقابلة مديرها، الجنرال القادري، اعترضني ضابط الاستقبال في المدخل. وبرد فعل تلقائي أعطيته بطاقتي الوطنية وقبل أن يسألني عن سبب الزيارة. قلت له بأنني جئت لزيارة الجنرال في موضوع زوجي. وأعطاني هو نفسه الجواب:

– زوجك عاطل عن العمل، تبحثين له عن عمل؟

– نعم، هذا هو الأمر.

رفع الحاجز وتركني أمر. في الممر صادفت الكولونيل الفيلالي الذي خرج لتوه من مكتب الجنرال، كنت، هذه المرة أيضا، أتوفر على طلب عفو موجه للملك ورسالة توضيحية. استمع لي الجنرال كالآخرين، باللباقة الواجبة لامرأة. لو عرف موضوع زيارتي لما قبل أبدا مقابلتي. سردت للمرة العاشرة حكايتي أمام هذا الرجل محاولة أن أجد تعبيرات بليغة، ما أمكن، وأنا أستحث كرامة القوات المسلحة الملكية ونزوعها للعدل ونكران الذات. لم ألعب دور المرأة اليائسة لأنني كنت كذلك حقا. لكنني لم أبك أمام هذا الرجل لكي لا أعطيه انطباع أنهم حطمونا وأنهم بلغوا مرادهم. رغم هذه الوضعية التي لا تحتمل أردته أن يعرف بأننا ما زلنا نحتفظ بما يكفي من كرامة لمواصلة المعركة، وأن لا شيء سيوقف تصميمنا. لأننا نناضل من أجل قضية عادلة ولا أحد بإمكانه أن يوبخنا على ذلك. كان للجنرال نفس جواب الكولونيل بن علي:

– أنا مجبر على الإخبار بزيارتك من هم فوق، سيدتي، صدقيني، لا أعرف أي شيء عن موضوع هؤلاء الرجال، حالتهم لا تتعلق بي كما تعرفين، إنها قضية داخلية تخص الجيش وحده هو الكفيل بتقديم أجوبة حول مآل أطره.

إن كان من الواجب توبيخ أحد، فيجب توبيخ هؤلاء الرجال المتواطئين بالصمت مع المأساة الأكثر لا إنسانية في أواخر القرن هذه.

الكولونيل فضول

عاد اسم الكولونيل فضول فجأة إلى ذهني، إنه المسؤول عن ترحيل المحتجزين والوسيط المميز بين مبارك الطويل والأوساط الأمريكية. كان عنصرا مهما في هذه المأساة، لسذاجتي، اعتقدته بأنه سيقول لي شيئا أو يدلني على مسار أتبعه. أخبرني ضابط الحراسة بأن الكولونيل سيغيب طيلة الصبيحة. تركت معلومات عني للضابط وعدت لداري بالقنيطرة. رن الهاتف حوالي الواحدة والنصف. كان في الطرف الأخر الكولونيل فضول أراد أن يعرف موضوع الزيارة.

– الموضوع خطير، سيدي الكولونيل، لا يمكنني أن أسر لكم به من خلال التلفون، سآتي لرؤيتكم.

حدد لي موعدا في الساعة السادسة عشر. قبلت من باب الأدب كأس الشاي الذي قدمه لي. بسطت مرة أخرى مشكل المحتجزين الذين لا نعرف أي شيء عنهم منذ اعتقالهم سنة 1972، وأولئك الذين أنهوا مدة اعتقالهم و لم يظهروا، وآلام العائلات، رجوته أن يقول لي مآل هؤلاء الرجال، وهل سيعانقون الحرية في يوم ما، وهل قررت إبادتهم... كنت أعرف بأن رجال السلطة يفتقدون حس الواقع. ولكي أجعله يفكر، ذكرته بحالة الحاج أحمد بلفريج الذي كان يملك أعلى منصب في البلد بما أنه كان ممثل الملك، فبسبب إبنه، خسر كل شيء وصار مجرد مواطن بسيط، ينتظر أمام البوابة المركزية لسجن القنيطرة لكي يسمح له بزيارة إبنه. لم يفهم التلميح، وحذق في بنظرته المتسائلة، بدا أنه ارتبك بفعل ما قلت له. قال لي مثل الآخرين بأنه يجهل كل شيء عن المعنيين، وأنه أضاع أثرهم منذ السجن المركزي في القنيطرة 1973. وفي اللحظة التي كنت أهم فيها بمغادرة مكتبه، ناداني، وقال لي:

– انتظري، سيدتي، حاولي من جهة الأميرة للا مريم، لكنني لم أقل لك أي شيء.

طلبت منه أن يهيئ لي مقابلة مع الجنرال بن سليمان.

– الجنرال لا يستقبل النساء! رد بنبرة مقتضبة.

– رغم، أجبته، أن نصف الناخبين المغاربة نساء!

الجنرال حسني بن سليمان (مكرر)

كان قائد الدرك الملكي مؤهلا أكثر من غيره لإخباري عن مصير زوجي، ثلاثة أيام بعد زيارة الكولونيل فضول تقدمت لمكتب حسني بن سليمان في الصباح حوالي التاسعة والنصف للمرة الثانية. دارت المحادثة بين ضابط الحراسة وبيني بحسب الأعراف. الاسم، الاسم الشخصي، المهنة، موضوع الزيارة. جئت من أجل موضوع شخصي. هاتف الضابط الكتابة العامة. طلبوا مني بطاقتي الوطنية فأخذها دركي إليهم، إنتظرت فجاء دركي آخر للقائي وأخبرني بما يلي:

– الجنرال ليس هنا. يوجد في اجتماع بالقيادة العليا للقوات المسلحة الملكية، لقد سجلنا المعلومات اللازمة وسننقلها للجنرال حين يعود. سيتصل بك بكل تأكيد.

تذكرت أقوال الجنرال فضول. ربما لا يستقبل الجنرال النساء! غادرت المكان غاضبة. قبل أن أغادر الرباط. جاءتني فكرة زيارة السيدة حسني بن سليمان في منزلها. لن أخسر شيئا، وقررت أن أمضي إلى النهاية. يعني أن أطرق كل الأبواب. كانت لي مناسبة عرفت فيها السيدة بن سليمان في القنيطرة، حين كان زوجها عاملا للإقليم. دعت، في يوم ما، زوجات الضباط وكنت من بينهن. أخبرني دركيو الحراسة بأن السيدة ستغيب اليوم كله. تركت لهم معلوماتي وعدت إلى منزلي. هاتف درك القنيطرة منزلي و لم يتركوا رسالة. وفي الصيدلية، أخبروني بأن الدرك هاتفوني هنا أيضا وتركوا الرسالة التالية "لا تعودي للرباط لكن إتصلي بسرية الدرك بالقنيطرة" هاتفت للتو للسرية. قال لي الكومندار الراضي بأن لا أتعب نفسي وأنه سيأتي لرؤيتي. كنا نتعارف بما أننا كنا جيران لسنوات طويلة. جاء، ودون أن يضيع الوقت، فقد تناول موضوع زيارة القيادة العليا للدرك:

– نعم، أجبته، لقد ذهبت لرؤية الجنرال في مكتبه لكنه لم يكن هناك. ثم ذهبت لرؤية زوجته وكانت غائبة. تعرفون جيدا، السيد الراضي، بأن لا مشكل لدي لكن طفليَّ كبرا ويطلبان والدهما، إنهما يريدان أن يعرفا ما حل به ويطلبان رؤيته... لقد قررت زيارة كل المقربين من الملك حتى أفضح هذا الظلم وهذه المأساة، قل للجنرال بأنه ليس الأخير في قائمتي!

– إنه هو من أمرني بأن أقابلك، انشغل ويريد أن يعرف سبب زيارتك فقط، إنه لن يستطيع مقابلتك لأن جلالة الملك بعثه في مهمة للولايات المتحدة الأمريكية!

– إذن، سيستقبلني حين يعود.

سلمت رسالة للكومندار الراضي. ووعدني بأن يفعل ما هو ضروري لدى الجنرال، وافترقنا على هذا الوعد.

الأميرة مريم

كانت نصيحة الكولونيل فضول تدور في ذهني منذ مدة. لكن من يعرف الأميرة لكي يحصل لي على لقاء معها؟ لجأت، مرة أخرى، إلى صديقتي ثورية برادة. نادتني هذه بعد عدة أيام لتقول لي إن السيدة لمرابط، اليد اليمنى للأميرة في الأعمال الإجتماعية للجيش، يمكنها أن تستقبلني. ذهبت لرؤيتها. استقبلتني وحكيت لها حكاية الآلام. بدا أنها مستنكرة حين أخبرتها بالتمييز الجاري في تازمامارت. لأن نانسي الطويل من جنسية أمريكية، فزوجها يتمتع بنظام خاص بينما يتعرض الآخرون لجحيم احتجاز لا إنساني بقدر ما هو اعتباطي. كان من المستحيل على السيدة المرابط أن تحدد لي موعدا مع الأميرة، لكنها وعدتني بأن تعطيها رسالة إن كتبتها، تضعها لها مع البريد اليومي. تعودت منذ مدة على تسليحي برسائل للتوضيح، وطلب العفو، والإخبار، والاستغاثة. كنت قد حضرت مسبقا رسالة أترجى فيها الأميرة بأن تساعدني في مساعي. كنا في شهر فبراير 1986، قبيل عيد العرش.

لم أتلقَ أي جواب عن هذه الرسالة.

فهمت لماذا تم الاستماع واحترام أمريكية، أمريكية بالتعريف تعني مواطنة. كائن إنساني يعترف له بحقوق. أما نحن المغاربة فنحن مجرد رعايا لا حقوق لهم. لأن النظام لا يعتبرنا كائنات بشرية. وإلا كيف سنبرر أن خمسة وثمانين ضابطاً وضابط صفّ اختطفوا في منتصف الليل بينما كانوا يمضون أحكامهم في سجن الدولة؟ كيف يمكن تبرير معاملة هؤلاء الرجال طيلة ثلاث عشرة سنة وسط لا مبالاة الجميع؟ من قرر مصير هؤلاء في عدم احترام تام لقوانين وعدالة البلد؟ كانت عدة أسئلة تؤرق ذهني لكن لا جواب شاف كان لينير طريقي.

بونعيلات وحسن الأعرج

1986. قررنا تمضية عطلة الربيع لطفلي في مدينة بني ملال لكي نرى العائلة. وبما أنني في المدينة فقد قررت الذهاب لرؤية بونعيلات والذي هو صديق المقاوم الكبير حسن الأعرج. قيل لي أن هذا الأخير له علاقة حميمية مع الحسن الثاني وبإمكانه مفاتحته في أي مشكل. استقبلني بونعيلات بلطف وبعد أن استمع لكلامي، وعدني بأن يرى ما يمكن فعله. سيكلم صديقه ويعطيني جوابا. هذا الجواب لم أتلقاه أبدا. نفذ صبري. فقررت أن أهاتف بونعيلات الذي أخبرني بأن حسن الأعرج لا يمكنه في كل الأحوال أن يتدخل في قضية الطيارين المتورطين في الانقلاب ضد البوينك. إنها قضية شائكة وأنه ليس مستعدا للخصام مع أي أحد من أجل مصير أي أحد. لم تستعمل هذه الألفاظ في محادثتنا. لكن حيث يرفض أناس شاركوا في المقاومة التدخل لإصلاح ظلم بيّن. فينبغي الاعتقاد أن المقاومة لم تنفع في شيء. وبكل تأكيد لم تنفع في تقويم التجاوزات التي يتعرض لها المجتمع. في ماذا نفعت التضحية بكل تلك الأرواح إن كان بعض مقاومي الماضي قد طووا، ببساطة، الصفحة؟ قبل هذه القضية، لم أكن مسيسة ولا مناضلة. لكنني كنت أحتفظ بالأمل في الرجال الذين صنعوا التاريخ في هذه المدينة. كنت أحتفظ على الخصوص بصورة الكرامة والتضحية التي قام بها علال بن عبد الله، والزرقطوني... وكنت اعتبر من بقوا كأبطال يمكنهم أن يتدخلوا، في كل حين، لإصلاح المظالم. لقد أخطأت خطأ جسيما.

كنت أعرف أن عليّ أن لا أنتظر أي شيء من أحد، لكنني لن أنزل يدي. لا أحد يريد أو يستطيع رفع اصبع من أجلنا. بقي الملك، الوحيد، ربما، الذي بإمكانه حل هذه العقدة، وإن توجبت رؤيته، سأفعل ذلك.

الحسن الثاني: محاولة الفرصة الأخيرة

لم يتبق لي إلا هو. اتصلت بكل من لهم سلطة أو يدعون إمتلاكها. لا أحد كان بمقدوره أن يقوم بحركة في صالحنا. كان قراري جاهزا. سأقابل الملك، إذن، وبأي ثمن. لكن كيف يمكن الوصول إليه. فالدوائر المتمركزة من حوله والتي تحميه لن تسمح لي أبدا بالاقتراب منه. لن أخسر شيئا في المحاولة. إجتهد الأصدقاء في العثور على الوسيلة المثلى للوصول إليه بدون عوائق. لكل واحد رأي أو اقتراح. كلهم كانوا يريدون أن تجد هذه القضية مخرجا يحفظ ماء وجه الجميع. وكان هناك شعاع الأمل الذي لم يفارق أبدا معركتي كامرأة مغربية وجدت زوجها المحكوم من طرف محكمة عسكرية مدفونا في مركز سري للإحتجاز وفي ظروف مرعبة وقاسية.

نوفمبر 1986، أخبرتني صديقة بأن الملك يذهب بانتظام للعب الكولف بدار السلام وشجعتني على الذهاب. قلت لنفسي إن بإمكان بنتي أن تقترب منه بشكل أبسط مني. فبما أن الأمر يتعلق بطفلة، فمن المحتمل أنهم سيتركونها لتقبيل يده. علي أن أهيئها قبليا. وأدربها على الحركات التي ينبغي القيام بها وتلقينها الكلام الذي ينبغي قوله عن ظهر قلب. صباح 9 نوفمبر 1986، اتخذنا قرار الذهاب لدار السلام، بنتي وأنا، لمقابلة الملك. مهما كلف ذلك من ثمن. دخلنا الكولف الملكي بدون مشكل. فلأن الحارس إعتقد بأنني سيدة من الحاشية أو علية القوم فلم يكلف نفسه رؤية بطاقة هويتي ورفع الحاجز ليفسح المجال أمامنا. حوالي الحادية عشر وضعت التدابير الأمنية وجاء الملك في الساعة الواحدة والنصف. لقد أخطأناه في الدخول وعلينا أن نكون أكثر انتباها عند نهاية الحصة. بقينا في المطعم رفقة أصدقائنا الذين حاولوا الترويح عنا. كانت تقاسيم وجه هدى مشدودة من الخوف. و لم نتمكن لا أنا ولا هي من أن نأكل شيئا. فالمهمة التي تنتظرنا كانت جسيمة بالنسبة لنا. فبما أننا وصلنا إلى ما وصلنا إليه، فسنحصل، بدون شك، على نتيجة إيجابية. أليس ملكا؟ اليس هو آخر حاجز

ضدّ الصمت الذي يقتل سجناء تازمامارت؟ ألسنا جزءا من "شعبه العزيز" والذي هو مسؤول عن مصيره؟ في الساعة السادسة عشر سرنا لإنتظاره بجانب الطوار، غير بعيد من المكان الذي يمر منه موكبه. نصحت أصدقاءنا بأن يبتعدوا عنا أو يغادروا الكولف لكي لا يتحملوا وزر ما قمنا به. فقاموا بذلك وهم يتحسرون. حوالي الخامسة إنتشر رجال الأمن من جديد. فالملك بصدد مغادرة الكولف. حشد من الدرك، والشرطة بلباس مدني، وعناصر من الجيش، وحراس شخصيين... كانوا على أهبة الإستعداد. كانوا يجرون في كل الاتجاهات وكل حركة يتم افتحاصها، كل حركة يتم الإعلام بها وتسجيلها. إقتربت مع هدى. أمرنا ضابط درك أن نبتعد:

– من فضلكم، سيدي، إننا لم نر أبدا جلالته عن قرب. أتركونا نراه.

تكلمت بالفرنسية فاعتقد الضابط أن الأمر يتعلق بأجانب. فنصحنا بالبقاء فوق الطوار، لأنه سيمر من أمامنا. تزايدت دقات قلبي. كنت أرتعد من الخوف أمام كل ذلك البروتوكول. كانت هدى، بدون شك، تحس نفس الضعف مثلي. ظهر الملك فجأة، مرفوقا بحاشيته. استدرت نحو هدى وقلت لها إنها اللحظة المنتظرة. اندفعت كصاروخ ورسالتها في يدها تجاه الملك. وسط رجال مضطربين وحراس نافذي الصبر. جاء ضابط الدرك وصوّب نحوي سلاحه، صحت:

– اتركوها، اتركوها، أنا من أرسلتها. الحسن الثاني ملك كل المغاربة، اتركوها تراه!

وضع حارس حدا لجري هدى، أخذها واقتلعها من الأرض. كان الملك محاطا بشخصيات أجنبية فأعطى أمره للحراس بتركها تقترب. كلمت الملك في شأن والدها المحبوس في تازمامارت. وذرفت كل دموع جسدها، وبعد هذا اللقاء، أخذها حارسان واركباها سيارة مرسيدس 190 لإقتيادها للقصر الملكي حيث سيلتقيها الملك. أعطوني أمرا بأن لا أتحرك من مكاني وأن أنتظر عودة البنت. سار الموكب وأحسست فجأة أن الأرض تميد تحت قدمي. سألني ضابط درك هل لدي سيارة. وسمح لي بأن أتبعهم إلى قصر دار السلام. جريت كمجنونة. طبعا، نسيت أين ركنت سيارتي. وجدتها بصعوبة، انطلقت متوجهة نحو القصر، حين وصلت إلى المدخل، أمروني بركن السيارة وألاّ أخرج منها. نفذت ذلك. جاء رجال درك وبدأ أول استجواب في السيارة: الاسم، الاسم الشخصي، زمان ومكان الإزدياد، العنوان، اسم الأم، اسم الأب، المهنة، عدد الأطفال، التعليم الإبتدائي والثانوي والعالي، أي مدينة. نهاية الدراسات العليا، الاستقرار في القنيطرة، العنوان الشخصي والمهني، والسؤال الأخير كان كالتالي:

– من أخبركما بأن جلالته سيأتي للكولف اليوم؟

أجبت عن كل الأسئلة وأنا أفكر في بنتي التي ستكون في رفقة الملك في هذه اللحظة. ليست سوى لحظة سيئة وستمر. قريبا سيتم إعادة الأمور إلى نصابها وسيحصل صالح على العفو. والآخرين أيضا على ما يبدو. يكفي الوصول إلى الملك وإخباره بهذا الظلم الفادح الذي يتعرض له بعض أبنائه والذي يطال أجسادهم وكرامتهم. بعد استجواب الدرك، جاء دور رجال المديوري، نفس السيناريو ونفس الأسئلة. مرت بطاقتي الوطنية من يد ليد. قلت إنني معتادة على مرافقة ابني لدار السلام وأنني رأيت جلالته في الأسبوع الماضي. ومن هنا جائتني فكرة المجيء اليوم لمحاولة مقابلة الملك. لا أحد قال لي شيئا ولا أعرف أي أحد قريب من القصر لكي يخبرني بتحركات الملك. ما أن انتهى الاستجواب حتى وضعت رأسي فوق المقود وانتظرت. عبرت رأسي صورة مأساوية، فقد تنبهت لخطورة حركتي، ولا مسؤوليتي. استعدت جري بنتي نحو الملك، وكيف أن حراسه والدائرة الأمنية المحيطة به فوجئوا واتخذوا وضعية استعداد، كان بإمكان أحدهم أن يخرج سلاحه ويطلق النار، وهو يعتقد بأن حياة الملك في خطر. ما قيمة حياة بنت من الشعب أو حياة الشعب كله إزاء حياة جلالته؟ استولى علي فجأة قلق ما، إحساس بالذنب.

لم يكن من حقي وضع حياة بنتي موضع خطر. لم ترد دموعي المنهمرة أن تتوقف. كنت بلا وعي حين اعتقدت أن الأمر هين. لم أقدر تبعات فعلي هذا. وصلت هدى بالكاد للخامسة عشر سنة ولا حق لي في إقحامها في حكايات الكبار.

ظهرت هدى في الساعة التاسعة عشر مرفوقة بكولونيل من الدرك. ارتمت بين يدي وأنهمر بكاؤنا نحن الاثنتين. أخبرني الكولونيل أن جلالته منشغل جدا ولا يمكنه أن يستقبل هدى. ثم قال لنا أن نعود للقنيطرة، فالليل لن يتأخر في النزول. والملك يطمئننا أنه سيدرس الملف ويتخذ ما يلزم. صاحت هدى:

– أريد أن أعطيه هذه الرسالة يدا بيد!.

أخذ الكولونيل الرسالة ووعد بأن يضمها للملف. عدنا للقنيطرة.

منذ هذا اليوم، صرنا، طفلي وأنا، تحت مراقبة بوليسية. سيارتان (واحدة رونو 12 والأخرى سيمكا أوريزون) تتبعاني في ذهابي وإيابي صباح مساء. وحين لا تتوقفان أمام الدار تفعلان ذلك أمام الصيدلية. وكانوا يعدون إستمارات للأصدقاء القليلين. ويسأل الأقارب عنا من طرف الشرطة والدرك. وهكذا تعرض أخ زوجي محمد في

أولاد يعيش لإستجواب من طرف الدرك الذين كانوا يحققون في ممتلكات زوجي. لم يكن صالح يملك شيئا فكل ما تملكه العائلة هو ملكي أنا وملك أطفالي. إرث من جدي من جهة الأم، وأراد الدرك التحقيق مع والدي بالتبني اللذين ماتا سنة 1978، الحمق.

عمد درك خريبكة من جهتهم لاستجواب بعض أفراد العائلة وحتى أصدقاء الطفولة منذ المدرسة الابتدائية. كانت الأسئلة سخيفة وخرقاء الواحد أكثر من الآخر. لكن الأسئلة الأكثر سوءا والأكثر انحطاطا هي تلك التي كانت تطرحها أجهزة الاستخبارات العامة DST فالعاملون معي كانوا يتعرضون في نهاية كل يوم للمضايقة بالأسئلة، حتى زملائي لم يفلتوا من غارات المحققين. من يزور السيدة حشاد؟ من هم الأشخاص الذين يخالطونها؟ هل لها بعض العيوب؟ هل تتعاطى الكحول؟ هل تدخن؟ هل تخالط بعض الرجال؟ ماذا تعرفون عن تصرفاتها؟

كان الأطفال أيضا موضوع تحقيق رسمي لدى الهيئة الإدارية بالثانوية. أرادوا أن يعرفوا هل يتناولان المخدرات؟ هل يمارسان البغاء؟ هل يخالطان صبيانا سيئين؟... تلويث سمعة الناس إيجاد وسائل للضغط على العائلة. لم أكترث لكل هذه الصغائر فالأمل ولد من جديد. لقد وصلت حتى الملك وهو الوحيد الذي بإمكانه القيام بالتفاتة لصالحنا. ألم يعد بأن يدرس حالتنا ويقوم بعد ذلك بما يتوجب القيام به. كنت على يقين من أنني طرقت الباب الجيد والأمر سيتطلب أياما فقط لإيجاد حل مرض لقضيتنا. ولن يتأخر أهلنا، أي الضباط وضباط الصف المتورطين في انقلابي 1971 و1972 في الحصول على حريتهم. ألا يقال عن الملك الحسن الثاني أنه رؤوف وغفور؟ انتظرنا بكثير من الصبر والأمل هذا العفو والغفران ! ولا أحد منهما جاء ليدق على باب يأسنا. لم يكن هناك شك هذه المرة. فآخر شخص يمكن أن نراه رأيناه. لكن جلالته لم يكن مستعدا للمسامحة. وبالنسبة للبنت الصغيرة التي كانتها هدى، وبالنسبة للرأي العام الوطني كان الكل سيخرج كبيرا من هذا الإختبار. لكن الله قرر شيئاً آخر بالنسبة لهؤلاء الرجال.

ينبغي الاعتقاد أن مصير الناجين من انقلابي الصخيرات والبوينك كان يحتد في البقاء غامضا. لقد حلت لعنة ملكية بمحتجزي تازمامارت، ولا أمل في الافلات منها، أي لعنة موت مؤكد ومبرمج قرر من فوق.

حرب صليبية من أجل جواز سفر

وأنا أخوض معركتي كان طفلاي يواصلان دراستهما بجدية ومثابرة، رغم النكبة، لم يكونا يعرفان والدهما إلا من خلال الصور. لأكافئهما قررت أن أهديهما عطلة في الخارج. إن تجميع كل الوثائق يتطلب مجهودا نضاليا، وضع الملفات في مصلحة الجوازات والبلدية التي ترسل الملفات للأمن الوطني قصد إجراء تحقيق. إنتظار عودة الملفات مع نتائج التحقيق. منذ الإجراء الإداري الأول رفض ملفاتي لأنها تفتقد لوثيقة أساسية "موافقة الأب" ولا يمكنني الحصول على هذه الوثيقة. إن آجلا أو عاجلا سيطرح المشكل لأنني قررت بعث طفليَّ لمواصلة دراستهما في الخارج. ويتوجب خوض معركة ذلك مبكرا. حاولت التحايل، فحررت إذنا بإسمي ووضعته في الملفات، إذن الأم. رفضت السلطة لأمر. فوحده إذن الأب يقبل في هذا الأجراء. "كانوا" يعرفون بأن والد طفليَّ غير قادر على إعداد هذه الشهادة. ثم أنا والدتهما، والحاضنة لهما وليس لي أي حق تجاههما؟ أعمل وأعول عائلتي، ولا أحد طالب بأن يأتي الأب للإستجابة لحاجيات طفليه. لكنهم يشترطون وجود إذن الأب بالنسبة لجواز السفر. وأنا أيضا في حاجة لإذن الزوج للحصول على جواز سفري. وبدون هذا لم يكن ممكنا الحصول عليه. غريب هذا التناقض الذي نعيش فيه. يمكنني أن أحصل على رخصة سياقة لقيادة سيارة. يمكنني أيضا أن أحصل على عمل ويكون تحت إمرتي عمال. علي أن أؤدي ضرائبي وأقوم بواجبي كأم ومواطنة. لكنهم يرفضون حقي في الحصول على جواز سفر. رمزيا جواز السفر رديف للحرية، رديف لمكان آخر ممكن، حيث يمكن للكلام أن يتحرر وعقدة اللسان تنحل. كنت أعرف بأنني لن أكون مواطنة مستقلة لأن النظام لا يريد منا إلا أن نكون رعايا خاضعين ومحرومين من الحرية:

– هل أنت متزوجة؟

– نعم

– هل زوجك حي؟

– نعم

– في هذه الحالة الشهادة واجبة! هذا هو القانون. أعطني هذه الوثيقة موقعة ومصادق عليها. وسنعد لك جوازي الطفلين في غضون أسبوع!

كنت أنسحب دوما بمرارة ظلم لا حدود له وإحساس بالخسران. يتضمن ملفي هذه الإشارة "لا اعتراض، لكن هي زوجة رجل ضليع في انقلاب 16 غشت 1972 وحكم عليه بعشرين سنة" وبسبب هذه الإشارة أو الملحوظة كانت ملفاتنا تستبعد تلقائيا. حكم على صالح، لكن على العائلة أيضا أن تعاقب. وبالتالي فالسلطة تعاقب كل الأفراد الذين لهم صلة عائلية بالإنقلابيين. لذا عمد البعض لإنكار أو التنصل من صلتهم بهم. بل ذهب البعض إلى تغيير الإسم لتجنب المشاكل مع المخزن. محبطة، ومستاءة من الإدارة وألاعيبها المقيتة قررت الذهاب لرؤية العامل شخصيا لكي يجد حلا لهذا المشكل، الذي ليس مشكلا بالأساس. وضعت ملفاتي لدا كاتب مدير ديوان العامل. وهاتفوني بعد بضعة أيام لدعوتي للمجئ لسحب ملفاتي. استقبلني العامل أخيرا في مكتبه. وشرح لي بأنه لا يقدر على القيام بأي إجراء في هذا الملف.

– إنني أتحمل المسؤولية الكاملة عن طفليَّ في غياب والدهما. والعدالة ستستدعيني إن هما قاما بفعل خارج عن القانون. في هذه الحالة فأنا مسؤولة عنهما، وأنا من أواجه هذا المشكل. تعرفون بأنه من المستحيل الحصول على إذن الأب وتعرفون السبب. لم يقم الأطفال بما يبرر معاقبتهما. أنتم رجل قانون، سيدي العامل، ولن تقبلوا بأن يتم التعامل هكذا مع أطفالكم!

نهضت وغادرت مكتب العامل بدون إستئذان. بعد ذلك بأسبوع دعاني مدير ديوانه من خلال الهاتف، للمجئ لأخذ جواز سفر طفليّ.

في سنة 1985. أرسلت طلبا لوزارة الداخلية للحصول على جواز سفري، و لم يكلفوا أنفسهم أبدا عناء الرد. ولأن بعض المسؤولين انزعجوا لهذه الوضعية ولإلحاحي فقد اقترح علي بعض المسؤولين المحليين بأن أطلب الطلاق لكي أجد مخرجا لهذه

الوضعية العويصة، في انتظار عودته، رفضت ذلك، فجواز سفر ليس الأوكسجين الذي أتنفسه ولا الماء الذي أشربه، وليس الأمر حيويا بالنسبة إلى هذه الدرجة. عليهم فقط أن يعرفوا بأنهم يحرمونني من حقي لأنني زوجة أحد "المتمردين" على النظام ثم ورغم الحصول على جواز سفر فلم يكن بإمكاني مغادرة البلد لأن لدي إستمارة عند شرطة الحدود. لقد بعث وزير الداخلية إدريس البصري قائمة من الممنوعين من السفر إلى كل النقط الحدودية. كانت القائمة تتضمن أسماء أفراد عائلات الضباط وضباط الصف المتورطين في إنقلابي 1971 و 1972. وكان إسمي فيها. و لم تكن السلطة تجد حرجا في إنزال "المشتبه فيهم" من الطائرات وطردهم من الديوانة. فبعد تسجيل حقائب زوجة الكومندار إبراهيم عمي الذي أعدم بعد إنقلاب الصخيرات وركوبها الطائرة أجبرت من طرف شرطة الحدود على النزول.

وعاود الروتين مجراه المعتاد

زارني الحارس محمد الشربادوي مرتين، مرة في اواخر شهر نوفمبر 1986 والثانية في شهر يوليوز 1987. جاء معه ببريد لعائلات بلكبير، غلول، صدقي، الرايس، مغوتي، الوافي، أوصياد. عاودنا خوض المعركة. نجحنا في تجميع النقود والبريد قبل سفر صديقنا الذي أخبر بمحاولتنا مع الملك. كانت علبة الأدوية والمقويات جاهزة في نفس الوقت مع أجوبة بريد محتجزي تازمامارت.

في شهر ديسمبر 1986، حدث أول لقاء بين وزير الداخلية إدريس البصري والمعارض المغربي الفقيه البصري في باريس. وبحسب بعض وسائل الإعلام التي أوردت النبأ وكشفت اللقاء، فالأمر يتعلق بمفاوضات بين القصر والمعارض ستفضي إلى عفو عن الفقيه إن قبل العودة للوطن. وسيطال العفو أيضا بعض المعتقلين السياسيين. بل إن عودة الفقيه حددت في يوم 20 غشت 1987. وبما أنني لم أسمع ذكر المساجين العسكريين فقد ذهبت لرؤية الدكتور عمر الخطابي لأقول له كل ما أفكر به اتجاه هذه المسخرة. عفو عن الفقيه البصري فقط رغم أن الجميع يعرف بأنه متورط في إنقلاب 1972 ويحسب من ضمن الذين دفعوا الطيارين للقيام بالإنقلاب. كيف يمكن له أن يتجاهلهم اليوم؟ كيف يمكن أن يقبل مفاوضة عودته بينما يتعفن رجال في تازمامارت بسببه؟ أي عار للبلد إن خان رجال مثله رجالهم وقضيتهم؟.

لم يعد الفقيه البصري للبد في ذلك الصيف. في حوار مع مجلة جون أفريك وضع شروطا لعودته إلى المغرب واشترط بأن يقدم الملك على عفو عام نحو كل المساجين السياسيين، مدنيين وعسكريين. وأعلن بأنه سيعود حين سيفرج عن كل هؤلاء المساجين لا قبل ذلك. هذا القرار رفع من معنوياتي، فالأمل مازال ممكنا.

ظهر الحارس محمد مجددا في يوليوز 1987. قبل دعوتي وبقي ثمانية وأربعين ساعة بيننا. ولكي أجعله يحس بالأمان، فقد أبعدت الصباغين الذين كانوا يصبغون الدار. هذه المرة كان هناك بريد لكل العائلات. حرص الأخوان غلول على مقابلة مبعوثنا. ورفض محمد أن يقابل أيا كان، وهو أمر ولد بداخل غلول إحساسا بالإهانة. علينا كلنا أن نحمي هذا الرجل الذي يبقى صلة وصلنا الوحيد مع ذوينا هناك. فإن عدد الحارس محمد الإتصالات واللقاءات فهو سيخاطر بإنكشاف أمره. وهو لم يكن يبحث عن التعرض لصواعق المخزن وتيتيم أبنائه. كان يقيس مخاطر فعله هذا ويعرف، بالتجربة، بأنهم سيكونون بلا رحمةإن إنكشفت مساعيه. رفضت أن أضع حياته وحياة عائلته في خطر. كنا كلنا نعرف بأن البلد كله يقع تحت مراقبة بوليسية شديدة، وأن عائلات محتجزي تازمامارت كانت موضوعة تحت مراقبة خاصة من الشرطة. كان الحذر والفطنة يتطلبان منا صرامة وتكتما.

سنة 1989، زارنا جانين وهيبرت لوجونيديك. كان هيبرت لوجونيديك معلما في مدرسة الطيران بمراكش حيث تلقى صالح خطواته في مجال الطيران كطالب طيار. ولأنه سمع نبأ اعتقال زوجي فقد جاء للتضامن معنا. لقد تعب كثيرا في الحصول على عنواننا، وبما أنه كان يطير مع زوجي فوق منطقة بني ملال، فإنه تذكر بأن تلميذه كان يريه دوما قريته الصغيرة: أولاد إيعيش. اتصل بدرك قصبة تادلة الذين نصحوه بالإتصال بقائد أولاد يعيش، وهو ماقام به. جعله القائد يلتقي بفرد من العائلة الذي أكد له نبأ الإختطاف وأعطاه عنواننا. حين عاد لفرنسا اتصل بزملاء فوج صالح القدامى ووضعهم في صورة المأساة التي يعيشها أحدهم في سجن سري بالمغرب. وقعت عريضة يوم 16 شتنبر 1989 من طرف عدة ضباط فرنسيين وبعثت لوزارة الخارجية الفرنسية وإلى سفير المغرب في باريس. ووجهت نسخة للديوان الملكي، بمناسبة عيد ميلاد الحسن الثاني الستين، وهي سنة مرور ستين سنة على إعلان حقوق الإنسان والمواطنة. ذكرت هذه العريضة عسكريي إنقلابي الصخيرات والبوينك، وذكرت بثلاث حقائق أساسية: عدة شخصيات وأوساط حكومية وغير حكومية كانت على علم بتازمامارت، عدم احترام الأحكام الصادرة في حق المتمردين، الظروف الفظيعة لإحتجاز هؤلاء. كانت العريضة، لنذكر بهذا، تعني كل العسكريين المتورطين في إنقلابي 1971 و 1972.

في نفس السنة، جاء الحارس محمد بوكبش، الملقب "تيفليليست" برسالة من زوجي مؤرخة ب 3 يوليوز 1989. شرحت هذه الرسالة الظروف المتردية واللا إنسانية التي يعيش فيها المساجين. بدأت همّة بعض العائلات النشطة تفتر. فلا أمل رغم نضال مستميت لمدة ستة عشر سنة.. بدأ أخ بلكبير، والذي كانت أمه الحاجة عائشة هي أخت غير شقيقة زوجة وزير الدولة أحمد العلوي، يباعد بين زياراته ثم أوقفها و لم يعد يأتي لرؤيتي في موضوع أخيه. وتذرع بأن هذا لا يفيد في شيء. ماذا نستطيع أمام النظام؟ فلا أحد يقدم لنا أخبارا أو حتى يجيب عن رسائلنا. لا أحد يتحرك ورجال الحكم يخافون ذكر هذا المشكل أو نطق إسم السجن فقط، وعلى ما يبدو، فالشجاعة ليست من شيم "أقوياء" هذا البلد. فوطنت نفسي على مواصلة المعركة مع عائلتين أو ثلاثة.

أواخر 1989. كانت لجنة من منظمة العفو الدولية ستأتي للتحقق من وضع هذه الحقوق في المغرب. وكان من المحتمل، أن يقابلوا الحسن الثاني في مراكش حيث كان آنذاك. لم تحدث الزيارة ولا اللقاء. في نفس السنة شهد العالم سقوط جدار برلين، وعبر قلوب الناس شعاع أمل.

الدكتور عمر الخطابي

حفيد عبد الكريم العظيم، أسد الريف. كان ذلك الرجل المعتز بنفسه قد نذر نفسه للديموقراطية وحقوق الإنسان في المغرب. ومن القلائل الذين دعموا قضيتي منذ البداية بدون تراخ ولا تخل. كان حاضرا في كل مرة أكون فيها بحاجة إليه. رجل صريح يعرف قيمة الكرامة لأنه أدى ثمنا من صحته في نضاله من أجل تحرير الشعب المغربي. وهو من الناذرين الذين قاوموا عن مبدأ محاولات القصر لتقريبه منه. في سنة 1990 بدأ ضرب من الضغط الأجنبي القوي على المغرب في مجال إحترام حقوق الإنسان. كان البلد تحت مراقبة الإتحاد الأوروبي وكانت المساعدات والقروض مشروطة باحترام حقوق الإنسان. ووجد المغرب صعوبة كبيرة في البرهنة على أن ليس هناك إنتهاكات في هذا الصدد. فالسجون مليئة بمعتقلي الرأي والإعتباط المخزني هو السائد. كان للشرطة عيون وآذان في كل مكان. وكل التعلات كان جيدة لإيقاف والحكم على المواطنين، شبانا أو عجزة، وبدون تمييز في النوع.

هاتفني الدكتور عمر الخطابي في مارس 1990، لكي أذهب لرؤيته مباشرة. فبوساطة من الطاهري، نظم لي مقابلة مع مجموعة من السيناتورات الأمريكيين الذين يمرون بالمغرب، ولأنهم مختصون في حقوق الإنسان، أرادت المجموعة إجراء لقاءات ومقابلات مع مسؤولي جمعيات المجتمع المدني وضحايا إنتهاكات النظام. حدد الموعد في الرباط بحي اكدال بالرباط على الساعة الرابعة عشر. ذهبت للموعد، كان الطاهري يعرف عني بعض الأشياء لذا لم يجد صعوبة في التعرف علي. طرح علي سؤالين:

– هل أنت السيدة حشاد من القنيطرة؟

– هل أنت مغربية أم أوروبية؟

طلب مني بعد ذلك أن أتبعه. وأمام بناية طلب مني أن أنتظر، فسيأتي فؤاد عبد المومني للقائي واختفى. بقيت في السيارة. كان الإنتظار طويلا ، طويلا جدا. يمر الوقت ولا أحد جاء. لو لم يكن عمر الخطابي الذي نظم هذا الموعد، لخيل لي أنها مزحة أو فخ نصبته الشرطة. كنت مصممة على تمضية الليل في المكان إن توجب ذلك. ومصممة على لقاء السيناتورات. في النهاية وصل فؤاد عبد المومني في الساعة التاسعة عشر. فاتحته لكي أتأكد من هويته وقلت له بأنني أنتظر من الساعة الرابعة عشر. هل نسي الموعد بيننا؟ يظهر، أن أمرا ما اعترضه في آخر لحظة و لم يمتلك أي وسيلة لإخباري. ركب سيارتي وسرنا نحو فندق تيرمنيس حيث يتواجد السيناتورات. غاب عبد المومني زهاء عشرة دقائق وظهر رفقة رجلين. سألاني هل أعرف مكانا معزولا حيث بالإمكان الكلام في هدوء ودون الأنظار المتلصصة. ولا أفضل هنا من مكان عمومي لكي لا نثير الإنتباه ونحن وسط العموم. جلسنا في صالون فندق سوفتيل. ملأت الأسئلة العديدة والدقيقة للسيناتورين حول محتجزي تازمامارت حيزا كبيرا من الليلة. ثم سألاني عن الإجراءات التي قمت بها أنا أو باقي العائلات لدا السطات المغربية. فشرحت لهما كيف أنني طرقت كل الأبواب والتقيت كل الشخصيات المؤثرة في البلد وأنني وصلت حتى الملك الذي عليه أن يعرف، هو أيضا. حدثتهم عن مساعي، ومحاولة آخر فرصة مع هدى والتي وعدها الملك بالقيام بشئ ما. كان علينا أن نحصل على هذا الأمل؟ لم أكن اعرف. أردت أن أسير لأقصى الأشياء، وبما أن لا أحد استجاب لي. فقد قررت القيام بهذه المحاولة الأخيرة. الملك يعرف، إذن، ومنذ البداية ربما. لا شك في هذا منذ أن وصلت هدى إليه وكلمته في شأن والدها. فهِمَ السيناتوران أن لا أمل يمكن انتظاره في الداخل، بما أن الملك نفسه لم يبادر لإنهاء هذا المشكل. قبل أن نفترق، أعطيتهما نسخا من الرسائل الخارجة من تازمامارت سنة 1989. والتي تصف الشروط المرعبة التي يعيش فيها المساجين. صدما لقراءة الرسالة واشترطا رؤية الأصلية، لذا وجها لي الدعوة لتناول الغذاء معهما. بعد الغد، ارتأيت أن فندق الفردوس بشاطئ الأمم سيمكننا من تمضية وقت هادئ مع السيناتورين والسيد فؤاد عبد المومني. إبان تناول الوجبة أريتهما النسخة الأصلية للرسالة التي طلباها. تأكدا من صحة التوقيع والكتابة. بما أن الكتابة والتوقيع يعودان لزوجي. بعد هذه الجلسة منحاني بطاقتي زيارتهما: ايدوين . ب. ريكوش (Attorney Alraw) وسالم ميزهند (Senior-Middle East Watch) وهما معا من نيويورك. عدت بهما إلى الرباط

وودعاني مع وعدي بأنهما سيتكلفان بهذا الملف. وعلي في حالة وجود مشاكل أن أخبرهما. ظهر الأمل مجددا وله هذه المرة وجه أمريكي. بعد فترة زمنية، بعث لي السيناتوران مقتطفات من جرائد تفضح وجود معسكر سري للاعتقال جنوب المغرب. حيث يتعفن، في شروط فظيعة متمردوا انقلابي 1971 و1972. لقد ذكر اسم تازمامارت في الولايات المتحدة الأمريكية أخيرا!.

كريستين السرفاتي

في ربيع 1990، كانت السيدة كريستين - دور السرفاتي في زيارة للمغرب. هاتفتني وعبرت لي عن رغبتها في التعرف علي. ولكن في تكتم شديد. اتفقنا على اللقاء في مرآب الودايا. جاءت سيارة رونو 12 فاكون وخرجت منها كريستين متنكرة تحت غطاء. نزلت، أخذتها وسرنا نحو شاطئ الأمم حيث تناولنا طعام الغذاء. تحدثنا عن نضالاتنا من أجل إطلاق سراح زوجينا. طرحت علي عدة أسئلة. أعطيتها كل المعلومات التي لدي. اضطربت لما سمعت مني. أعطيتها نسخة من رسالة 1989، والتي تصف الظروف اللاّإنسانية والفضائحية التي يعيش فيها السجناء. حوالي الساعة السابعة عشر أخذتها إلى المكان الذي ركبت معي فيه وجاء أصدقاؤها لأخذها مجددا.

في بدايات صيف 1991، رأيت السيدة كريستين- دور السرفاتي مجددا في مقر المنظمة المغربية لحقوق الإنسان. بقينا وجها لوجه في السيارة بعد الإجتماع تبادلنا بعض الأخبار.

في اللحظة التي كنت بصدد إنزالها قرب السفارة الفرنسية اقترحت عليها المجئ لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في المنزل. قبلت عن طيب خاطر، لكن، يومان بعد هذا، اعتبرت شخصا غير مرغوب فيه من طرف السلطات المغربية وأجبرت على مغادرة البلد. في شهر شتنبر، من نفس السنة، تعرضت السلطات لأكبر هزيمة في مجال حقوق الإنسان، فقد أطلق سراح أبراهام السرفاتي وطرد إلى فرنسا بفعل الضغط الدولي. برر وزير الداخلية إدريس البصري هذا الفعل أمام ميكروفونات القناتين الرسميتين للتلفزة المغربية بأن السيد السرفاتي له جنسية برازيلية. لا أحد صدق هذا. لم يكن لنظام الحسن الثاني خيار أمام ضغط الأوساط الدولية التي كانت على علم بالإنتهاكات الجسيمة والكثيرة للحقوق الإنسان بالمغرب، اضطر للتنازل لتقديم صورة جيدة عنه في ساحة دولية صارت تشك في الخطاب الكاذب حول حرية التعبير وحقوق الإنسان. هبت ريح حرية على المغرب، وجاءت من الخارج. حين سئل أبراهام السرفاتي في مطار أورلي من طرف الصحافة تحدث عن جحيم تازمامارت أمام كاميرات التلفزة.

جيل بيرو و"صديقنا الملك"

في أكتوبر 1990، ارتج العالم لصدور كتاب جيل بيرو: صديقنا الملك. عرّض ما ورد في الكتاب العلاقات بين فرنسا والمغرب لأزمة كبيرة. لكن لا شيء منع صدور هذا الكتاب الذي يحكي، من بين ما يحكيه، عن محاولتنا مع الملك. ذكر اسمي واسم بنتي في صفحات هذه المفرمة. كان معظم الناس يجهلون ما في الكتاب، لكن الجميع تعبأ، عن طيب خاطر أو مجبرا للتنديد بالفضيحة الخسيسة والابتزاز الذي يتعرض له البلد من طرف المستعمر القديم. كانت فورة عامة وكل واحد كان يبتدع سبابه الخاص. طبعا، لا ينبغي أن نتلقى دروسا من أحد. ففرنسا تتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب، الذي حصل، وكما هو معروف، على استقلاله منذ 1956. كان إستنكار بعض الصحافيين في ذروته، وكانوا يتنافسون في التزلف والكلام المبتذل. عبئ الشعب من طرف السلطات المخزنية وبعثت ملايين برقيات الإستنكار من كل ربوع الوطن لقصر الإليزي، ولوزارة الداخلية، ووزارة الخارجية. كلفت هذه العملية التي يجهل الشعب كل شيء عنها ملايير. وفتح كتاب صديقنا الملك الحدائق السرية المغربية وقدم للقارئ الفظاعات الجارية فيه. لم يعد تازمامارت سرا بالنسبة لمن قرأ الكتاب، وكانوا كثرا. فهنا في المغرب قرأه الناس في خفاء. وكانت الوسيلة الأكثر أمنا هي الفاكس أو الفوطوكوبي.

وسط الجلبة التي خلقها صدور كتاب: صديقنا الملك. جاء الحارس بوكبش من تازمامارت حاملا بريدا لعدة عائلات (غلول، الرايس، بلكبير، الوافي ، أوصياد، صدقي، الزموري، حشاد) كنت سعيدة ولكنني أيضا إرتبكت. فالوضعية حساسة وللسلطة جواسيس في كل ركن. كنت أعرف بأن مراقبة عائلات المساجين ستتزايد وأن ابسط خطأ سيكون كارثيا بالنسبة لنا وللمحتجزين والأكثر من هذا لصلة الوصل

بيننا. لم أقل له أي شيء عن الوضعية الراهنة. قبل بأن يبقى أربعا وعشرين ساعة معنا. الوقت اللازم للإتصال بالعائلات لإعطائهم البريد وتلقي أجوبة منها وقليلا من النقود. وضعت الأدوية بعناية في علبة وعاد الحارس إلى تازمامارت حاملا معه قنبلة حقيقية.

ضمن بريد المساجين. كانت هناك رسالة جماعية تصف حالتهم المعنوية والجسدية. فبعضهم شل منذ سنوات. وبعضهم يتحرك وهو يتجرجر على الأرض. مات العديد منهم بعد آلام مروعة أو أصيبوا بالجنون. وضع ميمون فاغوري حدا لحياته شنقا بحبل صنعه من أطراف غطاء. صارت الوضعية حرجة، لن يتحمل رجالنا سنة أخرى في هذا الجحيم.

لكن ماذا بوسعنا فعله؟ قمنا بكل ما بإمكاننا القيام به. لكن الوضعية بقيت منحسرة. غير أن هناك خبراً، بدا لي بأهمية كبرى ويمكنه أن يجعل الرأي العام الفرنسي يتحرك. فالرسالة تذكر إسم ثلاثة إخوة: بوريكات، وهم من جنسية فرنسية، ويتم إحتجازهم في تازمامارت مع الإنقلابيين. كانت هناك فرصة لوضع حكومة إشتراكية فرنسية أمام مسؤولياتها السياسية والتاريخية، المعنية أكثر بمصالحها الإقتصادية أكثر من قدر ثلاثة مواطنين مغاربة لهم جنسية فرنسية ومن أصول تونسية. قمت بعمل عدة نسخ لهذه الرسالة وأعطيتها لكل شخص ذاهب للخارج. وكان الهدف هو إخبار الرأي العام الفرنسي. إنتشر الخبر بسرعة ونشرت يومية ليبيراسيون مقالا عن تازمامارت، مكون من عدة أعمدة به أسماء من مات ومن بقي والظروف التي يعيشون فيها. حين نشر هذا المقال هاتفتني السيدة كريستين دور -السرفاتي لأؤكد لها خبر الإخوة بوريكات. لم يعد لي، وقد رميت حبات النرد، و لم يعد هناك ما يتم إخفاؤه، ما أخشى فقدانه أنا أيضا.

صارت تازمامارت تتواجد في الواقع المغربي، لا في خيال أعداء وحدتنا الترابية وفي رؤوس بعض المرتزقة الذين يغارون من الرخاء والإزدهار الوطني. تازمامارت جزء من التاريخ المغربي، وقد كتب بالمداد الأسود للعار، لا أحد بإمكانه الإدعاء أنه يجهل، لا أحد بإمكانه أن يشكك في وجود مقتلة المخزن الكريهة هذه.

والأوساط المغربية؟

في نوفمبر 1990، قررت بعض عائلات محتجزي الإنقلاب ضد الملك والذين اختطفوا من السجن المركزي بالقنيطرة سنة 1973 كتابة عريضة جماعية للتساؤل عن مآل أبنائها. رفضت بعض العائلات ذلك، مقدرة بأن ذلك خطير وأن من شأن هذه الخطوة أن تؤدي مفعولا عكسيا. بينما رأى البعض بأنه لم يعد هناك ما يخشى فقدانه وينبغي الإقرار بما هو بديهي.

وقع هذه العريضة عدد كبير نسبيا. وأخيرا، اتخذنا القرار الأعمى بالتوقيع بدل كل العائلات المعنية. ماذا سنخسر؟ ثمانية عشر سنة من النضال المستميت بدون نتيجة. وإن أرادت السلطات أن تضعنا نحن أيضا في تازمامارت فنحن على أهبة الإستعداد. وجهت هذه العريضة للوزير الأول، ورئيس البرلمان، ولوزير العدل، ولمختلف رؤساء الفرق البرلمانية. ولاأحد إمتلك لباقة الجواب على ندائنا!.

كانت الأوساط المغربية تعاني من غياب، مدعاة للعار وغير مفهوم، للشجاعة. كان الخوف وتفاهة هذه المؤسسات فاقعين. رافق صمت أموات، أكثر ثخانة من صمت تازمامارت، كل إجراءاتنا لدى مسؤولينا والقادة السياسيين. كان لنانسي الطويل ألف سبب لتكون أمريكية.

إنطلاقا من هذه اللحظة، لم يعد عبد الواحد بناني وسناء البوعزاوي يفارقاني أبدا وكانا يرافقاني في كل مساعي المطلبية. في ديسمبر 1990، قابلت السيد الحيحي عن الجمعية المغربية لحقوق الإنسان في بيت الدكتور الخطابي. كان متوجها لنيويوك لكي يطرح مشكل تازمامارت لدى "Humain Rights Watch". قررت أن أبعث إبن أختي نور الدين مؤدب ليحضر أشغال هذه الجمعية ويتحدث كقريب لأحد

المحتجزين. وسيتحدث السيد الحيحي عن تازمامارت بإسم الجمعية المغربية. رأيت السيد الحيحي مجددا آواخر شهر ديسمبر دائما في بيت الدكتور الخطابي. آخذني على كشف سر سفره لزوجة أحد المحتجزين. أثناء النقاش. قلت للسيدة الرايس بأن علينا إنتظار نتائج مسعى السيد الحيحي بعد عودته من نيويورك. كنت مخطئة، وكان السيد الحيحي منزعجا. غير أنه لم يشرح كيف عرف الأمر. ربما تعرض لتعقيدات من طرف الشرطة ، عرفت خطأي واعتذرت له.

بن سعيد آيت إيدّر

حين تعرفت على الكاتب العام لمنظمة العمل الديموقراطي، كان على علم مسبق بملف المساجين العسكريين لإنقلابي 1971 و1972 ضد الملك. ودعاني للتصرف وفق ما يسمح به القانون. وهكذا، بعد عدة أيام، طرح السيد بن سعيد أيت إيدر سؤالا شفويا موجها لوزير العدل في جلسة برلمانية يتعلق بمصير المحتجزين العسكريين الذين أختطفوا من السجن المركزي بالقنيطرة منذ سنة 1973 واحتجازهم المحتمل في سجن سري يسمى تازمامارت. ذكر الإسم المحظور: تازمامارت لأول مرة داخل هذه المؤسسة وأمام ممثلي الحكومة والشعب. تلافى وزير العدل السؤال مدعيا بأنه يجهل كل شيء عن هذا السجن ولا يعرف أي شيء عن الإنقلابيين لأن حالتهم لا تتكفل بها وزارته. كان السيد الوزير يعرف، لكن المشكل يتجاوز صلاحياته.

بعد الجلسة البرلمانية، أخذ بعض ممثلي الأمة بن سعيد على ذكره لمشكل المتمردين في مكان "موقر" بينما صار معظم البرلمانيين يتجنبونه ببساطة.

كان بن سعيد آيت إيدّر أول مسؤول سياسي مغربي يتحدث بشكل رسمي عن محتجزي تازمامارت تحت قبة البرلمان. ولا أحد بإمكانه أن يدعي، بعد ذلك، أنه لم يكن يعرف. كان نواب الأمة يمثلون كل شيء إلاّ الناخبين والناخبات. كانوا يمثلون على الخصوص المخزن في صورته القبيحة والكريهة.

المعركة تتواصل

في أواخر 1990 رأى النور في باريس إئتلاف 57، الذي يجمع سبعة وخمسين جمعية من جمعيات المجتمع المدني تحت إدارة SOS العنصرية والتي كان من أهدافها التعريف بمشكل تازمامارت في باريس وفرنسا. أسس هذا الإئتلاف بعد إجتماع كريستين السرفاتي وجيل بيرو وكان روجي فيراري هو كاتبه، وكانت سيلفيد شلحاني، والتي ماتت في حادث سير بالجزائر، وريمي بارو محركيه الأساسين. كانت أنشطة الإئتلاف متعددة وتندرج في النضال ضد القمع ومن أجل حماية حقوق الإنسان. وتضمنت إجراءاته عدة ندوات صحفية وإصدار بيانات لتحسيس الرأي العام بهذا المشكل. والتدخل لدا المجلس الأوروبي، في ماتنيون ولدى المستشار التقني في العدالة وحقوق الإنسان، السيد لويس جواني. وتقديم مذكرة للأمم المتحدة، وتدخل لدا سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في باريس الخ.

في بداية سنة 1991، بعثت، بنصيحة من صديق، جاك لوفرا، ملفا عن تازمامارت للفاتيكان، لكن ونظرا لتسارع الأحداث في السنوات الأخيرة لم يعط الفاتيكان أهمية لهذا الملف. فرغم أن الفاتيكان كان على علم بوضعية محتجزي تازمامارت ووضعية معتقلي الرأي في سنة 1985 قبيل زيارة البابا جان بول الثاني للدار البيضاء، فهو لم ينجح إلا في تحرير معتقلي حق عام أجنبيين، اعتبروا مسيحيين.

في مارس 1991، كلفنا، أنا وبنت الرايس وأخ بنبين، الأستاذ سولازدولاريفيير بالملف. سافر المحامي إلى جنيف ونيويورك لعرض المشكل أمام لجنة حقوق الإنسان. وأخبر وزير العدل المغربي بنيته في زيارته لوضع شكاية ضد الدولة المغربية في موضوع موكليه الثلاثة: الرايس، حشاد وبينبين. وكلف الأستاذ بن عمرو من طرف بعض

العائلات بملف أبنائها. وكان ملفي من بينها. وأخبر بن عمرو، بدوره وزير العدل بأن مكتبه كلف بالنياة عن عدة عسكريين إختفوا منذ 1973. وأخبره أيضا بأنه سيضع مكتبه رهن إشارة الأستاذين سولاز دولا ريفيير وسيمون فورمان لكي يسمح لهما بالمرافعة أمام المحاكم المغربية.

في 14 ماي 1991، بعثنا رسالة موقعة من طرف عدة عائلات للمجلس الإستشاري لحقوق الإنسان، نطلب فيها تفسيرات حول مصير أبنائنا. رفضت سكرتارية المجلس منحي وصل إيداع ونصحوني بعدم ذكر تازمامارت. وكان الحوار الذي جرى بيني وبين مسؤول جديرا بمسرحية سيئة:

– اسمحوا لي سيدي، سأواصل الحديث عن تازمامارت لأن زوجي معتقل فيه، وأنا على يقين مما أقول ولو لم يعجب ذلك من يريدوا حجب االشمس بالغربال!

– لقد استقبلت منذ عدة أيام سيدة ، ربيعة بنونة زوجة القبطان بلكبير ، لقد طلقت منه لتعيش في سلام. وأنت. لماذا لا تفعلين الأمر نفسه؟

– حياتي لا تخصني إلا أنا وقد تزوجت هذا الرجل من اجل الحلو والمر، إننا نعيش المر الآن وأنا أتحمله. أما بالنسبة للسيدة بنونة فربما أرغمت على طلب الطلاق!

إنتهت محادثتنا، كنت مصممة على الذهاب للنهاية، وأنا أستنكر هذا الظلم الذي لا يريد أحد إيقافه، ظلم كبير وعدم إحترام للقوانين والحقوق الأولية للإنسان. لم يعد يتعامل مع محتجزي تازمامارت كبني آدم وإنما كفئران تجوع وتحتقر وتصفى تدريجيا... من أجل سعادة بعض الجُهَل.

ذكرت جريدة جديدة: المواطن والتي أصدرها عمر الزايدي وجود السجن في الصفحة الأولى مع صورة رجل مقيد. بقيت الجريدة تباع ثلاثة أيام أو أربعة ثم صادرت الشرطة الأعداد الباقية. الكل يتحدث عن تازمامارت، صودرت جريدة الجمعية المغربية لحقوق الإنسان ومنعت الجريدة بصفة نهائية.

في ماي 1991، زرت بعض أعضاء المجلس الإستشاري لحقوق الإنسان السادة لحبيب المالكي، التهامي الخياري، الدكتور بوزبع (Cardio)، بن عمو أحمد (الاستقلال) ووعدوني بتناول المسألة. لكن عليهم تجميع ثلثي الأصوات حتى يتسنى لهم وضع المشكل رسميا ضمن جدول الأعمال. اتصلت بكل جمعيات حقوق

الإنسان. كانت الجمعية المغربية لحقوق الإنسان تتابع الملف بفضل تواجد الأستاذ بن عمرو. كانت اللجنة النشطة في المساعي والإتصالات مقلصة جدا، ولا تتكون إلا من خمس عائلات: الرايس، حشاد، الديك، الوافي، غلول، وتعبأ بعض الأصدقاء لمساعدتنا. زرنا مجتمعين مقر OMDH المنظمة المغربية لحقوق الإنسان. تبعتنا سيارة فيات أونو من مرآب الستيام حتى مقر النظمة المتواجد في أكدال. ولكي يرعبنا ويخيفنا بدأ السّائق في تصويرنا. حاولت النساء، اللواتي أغضبهن هذا التصرف، أن ينتزعن آلة تصويره. حاولت تهدئتهن:

– هذا، ربما، ما يريده! استثارنا لخلق فضيحة. لا نقوم بأي شئ غير قانوني. وإن أراد صورا فبإمكاننا منحها له عن طيب خاطر. إننا نضيع الوقت والناس ينتظروننا في المنظمة المغربية لحقوق الإنسان !.

أحدهم أخبر رئيس OMDH بوصولنا وأخبره بالتحرشات التي تعرضنا لها من طرف الشرطة فقرر الرئيس كتابة بيان ووزعه على وسائل الإعلام يندد فيه بالتصرفات التي تلجأ لها الشرطة لتخويف المواطنين.

في الغد زرت رئيس العصبة المغربية لحقوق الإنسان، كنت مرفوقة، في هذا اليوم، بصديقي. أخذني الأستاذ لقباب على مجيئي لمقابلته بشكل متأخر. إستنكر حالة المساجين الذين يشبهون "أهل الكهف" الذين تحدث عنهم الله في كتابه العزيز. لم يفهم كيف مازال هؤلاء الرجال أحياء في مثل هذه الظروف. وبعد خطابه الحماسي وعدني بأن يفعل "ما في وسعه"، وسيتدخل لدا لجنة للتنسيق من أجل إطلاق سراح المساجين مدنيين وعسكريين. كانت هذه اللجنة في طور المخاض.

في 11 ماي، حضرت المؤتمر الأول ل OMDH وأنا حاملة معي رسالة تتضمن أسماء خمسة عشر سجين يعرضون قضية تازمامارت. وعدني رئيس المنظمة بتناول القضية في خطابه. وفي خطاب افتتاح أشغال المؤتمر أوفى الرئيس بوعده. فقد تحدث عن معتقل تازمامارت وتساءل عن مصير العسكريين المتورطين في الانقلابين الفاشلين على الحسن الثاني، الذين اختفوا من السجن المركزي بالقنيطرة منذ 1973.

في 4 يوليوز 1991، وجهت رسالة إلى المؤتمر الواحد والعشرين لمختلف جمعيات المحامين بالمغرب.

في 20 غشت 1991، وجهت رسالة لكل عضو في المجلس الإستشاري في حقوق الإنسان أتساءل فيها عن مصير زوجي الذي اختفى من السجن المركزي بالقنيطرة منذ 1973.

في 2 شتنبر، بعثت رسالة إلى لجنة التنسيق لإطلاق سراح المعتقلين السياسيين التي أعلنت رسميا تشكيلها.

في شهر سبتمبر دائما، شاع خبر نقل مساجين تازمامارت إلى سجن آخر مجهول كان البعض يرى أن السلطة تريد "ترميم" المساجين قبل تسليمهم، وافترض آخرون أن السلطات ستخفيهم نهائيا.

كان إئتلاف 57 جمعية من جمعيات المجتمع المدني نشطا في باريس.

ونظمت تظاهرة إدانة أمام سفارة الولايات المتحدة بباريس للإحتجاج على وجود سجن سري يسمى "تازمامارت" ويتواجد جنوب المغرب. كان جيل بيرو وهو رئيس هذا الإئتلاف وينشط فيه أيضا الأستاذ سوليز دولا ريفيير والأستاذ سيمون فورمان وأعضاء ASDHOM وعدة عائلات وأصدقاء.

"دجيف" شاهد الرعب

نحو نهاية هذا الكابوس، عشرون سنة مرت. ضمنها ثمانية عشر سنة في قلب نار جهنم. هل بإمكان أحد أن يفهم ماذا تعني كل هذه السنين، هذه الشهور، هذه الأسابيع، هذه الأيام، هذه الساعات... تحت ضغط مستمر؟ الشك، الخوف في كل لحظة، الفراغ من حول الذات وفراغها هي أيضا. عشرون سنة من النضال ضد نظام يسحق الكائن الإنساني بطغيان فصامي والعالم ينكفئ في صمته ونذالته. ولحسن الحظ فمازال في هذا العالم قلوب محسنة، ولحسن الحظ فهناك رجال ونساء شجعان، يؤمنون بالعدالة والحرية، ويواصلون تنغيص نوم القتلة والطغاة. فبدون عون هؤلاء، ماكان لذوينا أبدا أن يعانقوا الحرية. أحد هؤلاء الرجال يسمى محمد، كان حارسا في سجن العار. شهورا بعد إطلاق سراح الأموات - الأحياء لتازمامارت، قدم لي القصة المفصلة للفظاعة التي كان شاهدا عليها:

. – قبل أن أنقل إلى تازمامارت في سنة 1972، كنت في الحاجب. وصل قرار إنتقالي إلى الثكنة حين كنت في عطلة. كان زملائي على علم بما أن الرسالة كانت تتضمن مكان التنقيل الجديد: تازمامارت. توجهت إلى هناك ثلاثة عشر يوما بعد وصول المساجين. لهذا لم احضر عملية تنقيلهم، ولا إستقرارهم. و لم أتعرف على أول مدير للسجن. أخبرني زملائي بأن الأمر يتعلق بقبطان لم يمكث في مهمته سوى أسبوع ثم عوض ببلقاضي. أعد القبطان تقريرا للقيادة العليا ذكر فيه هشاشة المكان وفسر فيه الكيفية التي يريد بها تسيير السجن والتهيئة التي يتوجب القيام بها: قاعة طعام للمساجين، مطابخ، حمامات، مصحة، نزهة يومية، ملعب للرياضة، قاعة لزيارة العائلات... وطلب، تبعا لهذا، ميزانية لتسيير السجن وللإستجابة لحاجيات السجناء من الأكل، والألبسة، والأدوية.

...عوض مباشرة ببلقاضي، وهو ضابط كان قد أحيل على المعاش يتحدر من قبيلة الدليمي. في البداية، كان أكل المساجين يأتي مباشرة من مطابخ الكتيبة 13، المتواجدة بالثكنة. كان السجناء يأكلون ما يأكله باقي جنود الخدمة تماما. ما أن وصل بلقاضي حتى تغير النظام، فالأكل يمر به قبل أن يوزع. بدأ يحذف التحلية من الوجبة، متذرعا بأن هؤلاء الرجال هنا لمعاقبتهم وليسوا في مركز ترفيه. ثم حذف وجبة الليل. وقال أيضا بأن هؤلاء الرجال العصاة لا يقومون بأي مجهود جسدي، وليسوا في حاجة لكل هذه الفيتامينات. ثم بدأ في تقليص الوجبات حتى لم يترك فيها إلا الحد الأدنى. كان يرمي الباقي إلى الكلاب من فوق السور. لكن الأمور تدهورت حقا في اليوم الذي حصل فيه على الإستقلال المالي. كان التموين الموجه للمساجين يحول في شاحنات إلى منزله بمكناس ويباع لتجار تقسيط أو جملة. وبقدر ما يمر الوقت تنقص الحصص الغذائية إلى درجة أنها لم تعد تكفي رضيعا. كان اللحم ترفا إنتهى إلى الغياب التام عن غذاء المساجين. بضعة حبات فاصوليا أو عدس في قعر صحن، لا تنقى أبدا من الزلط أو سرفة الذباب، خبزة لليوم، ماء قذر يسمى قهوة، ومعجنات مطبوخة بشكل سيء... فَقَدَ أوصْياد ضرسا وهو يمضغ مشبك سحابة. كان يستفيد أقصى استفادة على ضهر المساجين ورجال السخرة.بما أن بعض الحراس كان لهم قار في مكان قلوبهم. ولأن حب المال أعماه، فقد كان يبحث عن استخلاص أكبر ربح ممكن، ولا شيء يفلت من جشعه. كان مامان وهو تاجر يهودي من الريش هو ممونه من المواد الغذائية، وكان يحصل على عمولة من تضخيم ارقام الفاتورات حتى أقصى ما يمكن. كان الوقود يوجه لمكناس، إلى محطة وقود إفريقيا، هنا أيضا كان له شريك يهودي. ولا أحد يقول شيئا، فحتى لو كان أحد ما يعرف ألاعيب بلقاضي فلا يمكنه القيام بأي شيء لوضع حد لهذه الأفعال الإجرامية.

كان ظل الكولونيل الدليمي يحرس الوحش وإرشاء بعض الضباط السامين يتكفل بالباقي. كان عقيد من مقتصدية القيادة العليا يتلقى من بلقاضي مبلغ ألفين درهم شهريا ليغلق عينيه عن الإحتيالات ونهب الميزانية الموجهة لتازمامارت. أرسلت رسالة مجهولة للقيادة العليا لأخبر المسؤولين بالجريمة التي يقوم به المدير في السجن، ولا شيء حدث. بعد موت الدليمي، صار مولاي حفيظ العلوي هو المسؤول الرئيسي والمباشر الذي يتعامل معه بلقاضي. وصلت لجنة للتحقيق في النهاية من القيادة العليا

واصطدمت برفض تام من طرف المدير الذي راح يشتكي عند الجنرال الذي صار يشرف على السجن بعد وفاة الدليمي. أعطى مولاي حفيظ أمره بترك المدير في حاله. كانت يداه، دائما، مطلوقتين لمواصلة عمله الشيطاني. كان هناك المال، بكل تأكيد، لكن لماذا حرمان المساجين من الشمس والهواء والماء والخروج للساحة؟ كان يريد تقليص المخاطر للحد الأدنى. فبما أنه كان يقضي وقته يسكر في البارات وعلى ضفة الوادي، فقد كان يريد السلام. إخراجهم يتطلب منه مسؤولية أكثر وحضورا أكبر، غير أنه كان عاجزا عن البقاء زاهدا في الشرب، وبالتالي أمر بأن لا ينغص عليه شيء ما من أمور السجناء. في ذهنه كان على يقين بأن هؤلاء الرجال ما كان عليهم أن يكونوا أحياء أو أنهم في عداد الأموات. إن بلقاضي هو المجرم الأول في هذه المأساة الإنسانية، هذا مؤكد، لكن المسؤولين كلهم ضالعون فيها أيضا لأن بعضهم غطى ما يقوم به في حين آخرون، وببساطة، أخلوا بواجبهم. لقد تركوا مريضا ووحشا يتصرف بلا حساب.

... بسرعة فهم المساجين بأن حياتهم في خطر، وأن عليهم، مهما كلفهم الثمن، أن يدخلوا مع عائلاتهم في تواصل في أقرب وقت ممكن. كان الحارس خربوش هو أول من قبل هذه المغامرة، ونجح المساجين في إخراج أولى الرسائل التي يصفون فيها ظروف الإعتقال في تازمامارت ويطلبون العون. لا أعرف كم دام ذلك من الوقت، لكن، ذات مرة وما أن نزل خربوش من الحافلة، بعد عطلة لبضعة أيام حتى صادف نزوله تواجد بلقاضي وبعض الحراس الذين اقترحوا عليه شرب كأس معهم، وتحت تأثير الكحول تلفظ خربوش بدون شك، بكلمة جعلت المدير يشك فيه. حين عادوا للسجن أمر المدير بتفتيش خربوش الذي حاول بكل ما يملك من قوة منع ذلك ثم أذعن في النهاية إلى ضغط رئيسه. رماني بنظرة كانت بمثابة طلب إستغاثة. فهمت بأن معه شيئا خطيرا وهو يترجاني بأن أنقده من هذا المأزق. أبعدت الجميع واقتربت من خربوش وأنا أصفه باللامسؤول ومنعدم الوعي الذي يعرض حياتنا جميعا للخطر. قام الأخرون بالتداعي على حاجياته لتفتيشها. فتمكنت في لحظة غفلة من الحراس الآخرين والمدير من إخفاء رسائل العائلات التي كان يحملها معه في جيبي. كانت الرسائل هي الحجة الدامغة على تورطه في تأمين تواصل بين المساجين والعالم الخارجي. كان دليل خيانته واضحا. حويت حقيبته عدة ملابس داخلية، بطاريات، شموع، اقلام، أوراق، وعدة أدوية... اعتقله بلقاضي في زنزانة وبعث تقريرا بالحادث للقيادة

العليا. جاءت لجنة للتحقيق من المكتب الثاني بسرعة. وقامت بأول تحرياتها في عين المكان ثم أخذت معها المتهم للرباط لتكميل البحث الذي لم يخلص لشيء.بما أنه لا دليل ضده، فقد قال بأن الأدوية وباقي الأشياء موجهة لأولاده ولحاجياته الشخصية. وبما أنه تجاوز سن التقاعد، فقد أطلق سراحه ومنح حقه في المعاش. غضب بلقاضي على سلطات العاصمة. وباح لنا بأنه ندم على التقرير الذي وجهه للقيادة العليا وأنه كان عليه إبقاء خربوش سجينا حتى وفاته.

...وباح لنا أيضا بأنه في لحظة تعيينه في تازمامارت، قدمه الدليمي شخصيا للملك الذي جعله يقسم على القرآن بإبقاء سر تازمامارت مكينا. إن الملك، أسر لنا، يثق فيه بالنسبة لهذه المهمة وعليه القيام بكل شيء ليبقى السر سرا. فحياته في خطر.بما أن الملك هـــدده "بتعليقه من أشفار عينيه" إن لم يحترم الإرادة الملكية. منذ تلك الأيام، استحكم الشك بين الحراس، فقد استغل بلقاضي هذه الحادثة لإخافتنا. وصار كل واحد يبحث عن تجنب المشاكل، وخصوصا أن المدير محمي من طرف الرجل الثاني الأقوى في البلد: أحمد الدليمي. في حالة شبيهة بحالة خربوش صرنا نعرف بأنه لن يكون هناك تقرير ولا لجنة للتحري وإنما حكم بالإعدام فقط. من بإمكانه أن يسائل الدليمي ومن يحميهم في ذلك الوقت؟ كانت تعليمات بلقاضي تطبق حرفيا: خمسة ليترات للسجين يوميا، ما يشبه أكلا للسجين، فتح الزنازن وقت دفع الصحن والقمع للمساجين، منع الكلام معهم والجواب عن أسئلتهم، منع نقل معاناتهم أو حالاتهم الصحية إليه. ينبغي "إزعاجه" فقط لإخباره بوفاة.

من المؤكد أن المدير نجح في فرض جو من الرعب في السجن، لكن بعض الحراس ليس كلهم طبعا، حافظوا على قليل من الإنسانية بداخلهم. كان الباقون مجرد آلات بشرية تنفذ بعماء الأوامر بغير قليل من الحماس، إن الأفعال التي تم القيام بها لفائدة السجناء كانت بكل تأكيد، بسيطة لكن قيمتها أساسية عندهم: قرص أسبرين، عبوة مرهم للعينين أو للجلد، شمعة، قطعة جبن، قلم، ورقة، بعض أعواد الثقاب، طرف خيط... يمكنها أن تنقذ حياة في تازمامارت. إن نظرنا لها من الخارج فهذه القائمة من الأفعال تبدو ذات ابتذال مروع لكنها بالنسبة لأناس لم يكن لهم أي شيء تماما، إلا جدران داكنة ودكة إسمنتية، فكل ذرة تراب، وكل زغبة يمكنها أن تفيد.بمبادرة شخصية، كان كل واحد منا يجلب من ماله الخاص ما يراه أنه ضروري لهذا أو ذاك

السجين. وفي كل يوم كان ينزل منتوج ما في زنزانته أو زنزانتين. دام ذلك من 1973 الى 1978. كيف كان بإمكاننا ترك هؤلاء الرجال لمصيرهم الحزين بينما نحن نحتك بهم كل يوم وكنا شهودا على تردي أحوالهم الجسدية والمعنوية؟.

– في سنة 1976 أرسلت إلى مكناس للقيام بتدريب قصير الأمد، حين عدت تمنى لي صالح حشاد عودة طيبة ونجح بهذا في خلق حوار بيننا. بدأنا نتبادل بضع كلمات كل يوم. كان يتوجب الحذر جدا لأن بلقاضي كان ينتظر وقوع أحدنا في المحظور ليعطي به المثال للآخرين. لكن وبقوة رؤية هؤلاء الرجال يتضاءلون كل يوم، كان من المستحيل علي أن لا أتصرف، طبعا، لم أعرض حياتي للخطر لأنني كنت أقوم بما هو غير خطير. لم يتعلق الأمر بالنسبة لي بتسهيل هربهم وبتسليحهم، قرص أسبرين من هنا، شمعة من هناك، ورقة، عود ثقاب، قطعة صابون، ماء أكثر لتنظيم زنازنهم أو لتسريح كوة مرحاضهم... ثم ذات يوم قال لي صالح بأنه لم يعد بالإمكان المواصلة هكذا. وأجرتي تكفي بالكاد لتأمين حاجيات أسرتي: "نحن مرهقون جسديا، لم نعد إلا هياكل عظمية. شعرنا ولحينا تصل الأرض، والأمراض تعيث في أجسادنا. ليس بإمكانك وحدك أن تلبي طلبات كل المرضى من الزملاء. في يوم ما ستتعب أنت أيضا وستنتقل إلى مكان آخر، إن أردت حقا خدمة هؤلاء الرجال، ليست هناك سوى طريقة واحدة لفعل ذلك: ربط صلة مع عائلاتهم! هذه هي الوسيلة الوحيدة لإيجاد مخرج لنا!".

...رجّني إقتراح صالح . وبدا لي اقتراحا جريئا لأنه خطير جدا. فحالة خربوش كفيلة بإقناع الكثيرين. غادرت الزنزانة في حالة غير طبيعية لأنني عرفت بأنه على حق، لكنني لم أكن قادرا، في أية حال على القيام بالشيء الوحيد الكفيل ببقائهم أحياء في هذا الجحيم. وبدأت أرى نفسي، خائنا وأبنائي يضحى بهم وحياتي منهوبة ومخربة، إننا لا نلعب مع المخزن. لكثرة ما فكرت في المسألة خلصت إلى القناعة بأنه إن كان هناك من عمل إنساني لخدمة هذه الكائنات فهو هذا. لكن كان لدي شرط وهو أنني لن أتصل إلا بعائلة واحدة. فلا يمكنني أن أجول من مدينة لمدينة ومن دار لدار، فلا وسائل لدي لذلك ولا وقت. ثم إن تعدد الإتصالات سيهدد سلامتي وسلامة المساجين وعائلاتهم. أريد أن أساعدهم لكن عليهم أن يبرهنوا على التزام ومسؤولية. بدأنا نعمل على الطريقة التالية: كان صالح يتكفل بجمع بريد السجناء في علبة واحدة

يعطيها لي قبل ذهابي في عطلة. أتوقف في القنيطرة وأعطيك البريد. تتكفلين بتوزيع البريد وجمع الأجوبة. في طريق العودة أتوقف مجددا في القنيطرة لأخذ ما جمعته العائلات. جرى أول إتصال في صيدليتك سنة 1978، رفضت في أول مرة إعطائك إسمي. فهمت الوضعية ووعدتني بإبقاء سر صاحب الصلة بيننا. لم يكن ذلك لعب أطفال، بل تجربة خطيرة يمكنها أن تكلفنا ماهو ثمين بالنسبة لنا جميعا.

أعطي البريد للمساجين أياما بعد عودتي لكي لا أولد شكوكا وأترك الأدوية عندي، ولا أعطي الدواء إلا "بوصفة" فكلما سقط احدهم مريضا يكتبون اسم الدواء الصالح له في ورقة فأجلبه معي. وحين فهم المساجين بأن بإمكانهم الحصول على الدواء، سقطوا كلهم مرضى بشيء ما. وبدأ تخزين الدواء والأكل. كانت النقود المبعوثة من طرف العائلات تصلح لشراء مواد من الخارج. ساعدت هذه المواد المشتراة بأثمنة باهظة في بقائهم أحياءا. وجد الحارس الملقب ب "سر فر" ضالته في تقديم بعض الخدمات للمساجين. سادت ثقة نسبية في البلوك. وبما أنهم اكتسبوا ثقة في أنفسهم. صار المساجين يهملون إتخاذ تدابير حيطة وحذر، معتقدين أنهم يتمتعون بتواطؤ وتساهل كل الحراس. ذات يوم أراد الشاوي تمرير مجلة لميمون، رأى الحارس بن سعيد ذلك وعبأ كل الحراس الذين قرروا تفتيش كل الزنازن. أخرجوا كميات كبيرة من الأدوية والأكل والبطاريات للترانزستور، شموع، جرائد وعلب أعواد ثقاب... لحسن الحظ كان المدير غائبا. وإلا كنا سنمضي كلنا وقتا سيئا. أقنعت الحراس الآخرين بحرق كل ذلك وعدم إخبار المدير، الذي سيتهمنا بالإهمال والإخلال بالواجب. فهمت بأن التواصل لا يقتصر علي وحدي فقد نجح مساجين آخرين في إقناع حراس كما اقتنعت أنا إبّان حرق كل ما وُجِد لدى المساجين أنقذ جهازًا ترانزستور من النار. استولى بن سعيد على واحد ليعطيه لابنه ووضع بن إدريس الآخر في جيبه لاستعماله الخاص. وفي نفس الليلة نقل الخبر لبلقاضي، الذي جمعنا في الغد بمكتبه. لم يكن لسعاره قرين إلا قساوة قلبه. وصفنا بأقبح النعوت وهددنا، ثم أمرنا بمعاودة تفتيش البناية "أ" كان يعرف بالحدس بأن مساجين بلوك "ب" لا شئ لديهم لأن الأموات هناك كانوا أكثر من الأحياء. تعقدت الأمور، وتعرضنا، نحن ايضا، من حين لحين لتفتيش مفاجئ. ورغم كل شئ كنت أشفق عليهم. كيف يمكن أن لا يرق المرء لمن هو محروم من الشمس، والهواء، والأكل، والرعاية الصحية، والزيارات، والكلام، والقراءة... والتصرف كما لو أن هذه الأشياء لا توجد؟ سمح التفتيش الثاني بإخراج

سطل مليء بالمواد. لكن المساجين كانوا أذكياء والبعض منهم نجحوا في إنقاذ كنوزهم. طيلة هذه السنوات نجحوا في حفر شقوق أو حفر في الجدران والأرضية لإخفاء أشيائهم. منذ هذا اليوم رفضت جلب الأدوية من القنيطرة واكتفيت بتأمين الإتصال عن طريق البريد. كانت سنة مروعة ساد فيها الحذر في السجن ومعه الخوف، وتفتيش الأجساد، الوشاية، التوجس، وإنعدام الإحساس بالأمان.

وفي سنة 1984، نقلت لبلوك "ب" لتعويض زميل أحيل على المعاش. وهناك رأيت الرعب بأم عيني. كان هناك الإخوة بوريكات الذين كانوا في حالة جسدية مؤسفة وخمسة مساجين آخرين، منهما إثنان مسمران في الأرض ولا تصدر عنهما علامات حياة، وحده التنفس ينزل ويصعد ليبقيهم أحياء. والثلاثة الباقين كانوا بالكاد يتحركون. يتعلق الأمر ببينبين، الداودي، عاشور، سكيبة بن دورو. أجساد مشوهة ومحطمة كعرائس من قصب. لم يعد هناك إلا الجلد فوق العظم، تغطيهم أسمال، وعيونهم زائغة، أموات أحياء. كانت شعورهم تتساقط على الأرض، وأظفارهم تشبه جدور شجرة عفصية، وطبقات من القذارة غطت جلدهم... كنت أعيش بالقرب منهم لكنني لم أكن أفكر بأنهم وصلوا إلى حالة الإنهيار المعنوي والجسدي هذه. لم أكن أعرف بأن كائنات بشرية يمكنها أن تكون قادرة على تحمل كل هذه القسوة والبقاء حية. لقد فسّر الموت الذي ضرب وعاود الضرب في البلوك وأكثر من أي كلمة بليغة ما عاشه هؤلاء الرّجال. مات أربعة وعشرون في وقت وجيز. ودفنوا تحت سور السجن. كان زملاؤهم يتكفلون بتغسيلهم قبل أن يدفنوا في حفرة مغطاة بجير حي وصفيحة حديدية قبل تسوية الأرض. في البداية وضع سجل تسجل فيه أسماء المتوفين وتاريخ وفاتهم ورقم بالصباغة يميز كل قبر. فأمر الكولونيل فضول بإتلاف السجل وحذف أرقام الجدار. بدأت أتصرف كما كنت أفعل مع مساجين البلوك "أ" نسيان إغلاق الزنازن، إخراج الجثث للممر للسماح لها بالسير قليلا ورؤية الشمس، إعطائهم الأكل والدواء.

...جاء ستة عشر افريقياً أسودَ مرفوقين بالدرك وعيونهم معصوبة وأيديهم مغلولة إلى ظهورهم. جاؤوا ذات يوم في شاحنة ووضعوا مع المساجين في بلوك "ب". الكولونيل فضول بنفسه هو من سلمهم للمدير. كان هو المسؤول عن مساجين تازمامارت والمكلف بكل العمليات المتعلقة بالسجن. لا أحد عرف من هم هؤلاء

الأفارقة، ولا لماذا هم هنا. لم يكونوا يتكلمون لا العربية ولا الفرنسية، وإنما يغمغمون لهجات لا نفهمها. بعضهم يؤدون، بكل تأكيد، الصلاة. لكنهم، هم أيضا، لا ينطقون كلمة واحدة بالعربية. مات أحدهم بعد مجيئهم بقليل ودفن مثل الآخرين. وذهب الباقون مجددا شهورا بعد ذلك حاملين سرهم معهم.

...حوت تازمامارت أيضا رجلا غامضا رفض الكلام، الصديق ميلود. رجل رياضي، كان يقوم بحركات رياضية في زنزانته. كسرت يده إثر سقوطه ومات بسبب غنغرينة. لا أحد عرف بالضبط السبب الذي جعلهم يأتون به إلى هنا فقد رفض الحديث في الأمر. لم يكن يثق في أحد. قيل، ربما، كان حارسا في القصر الملكي وذات ليلة رفض دخول أميرة للقصر لأنها نسيت كلمة السر. مات حاملا معه سره.

وصل عدد سجناء تازمامارت الإثنين والثّمانين. قيل بأن ثمانية وخمسون جاؤوا في اليوم الأول. لا كانوا إثنين وستّين. أربعة ذهبوا للتو، يتعلق الأمر بالكولونيل عبابو، الكومندار شلاط، الملازم مزيريك، المقدم الأول عقا. إثنان وستون في المجموع، زيادة على الإخوة بوريكات الثلاثة، والأفارقة الستة عشر، والتعيس الصديق الميلودي. وصلنا لإثنين وثمانين سجينا. ذهب الأفارقة ومات ثلثا المساجين والصديق الميلودي. لكن المدير لم يكن يعلن الموتى ولا الذين ذهبوا ليستفيد من الميزانية ويملأ جيوبه. كان بوسعه أن يقوم بكل الخروقات والمبالغات في الفظاظة لأنه محمي من الدليمي.

سمحت قضية الطويل بأمل أكبر. اكد التعامل التمييزي الذي خصته به إدارة السجن بأن الحالة الصحية لهذا الرجل تهمهم أو تقلقهم. لذا لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بترف اختفائه. وإن بقي هو حيا، فللآخرين فرصة للبقاء أحياء. ما يمكنني قوله هو أن الطويل لم ينس أبدا زملاءه. كان يقتسم أكله معهم. وكلفني عدة مرات بإيصال أكل وأدوية لآخرين. وجبة رجل تقتسم بين ثلاثين رجل مُجَوَّعٌ. لم يكن يبقى له إلاّ القليل وهذا يخلق إحباطا لدى البعض الذي يعتقد أنه أغبن حقّه بالمقارنة مع الآخرين. بدأت مشاكل غيرة وحسد تسمم حياة مساجين كانوا في أوهن حالة.

سنة 1991، استدعيت للقيادة العليا طلب مني الكولونيل فضول أن أعد له تقريرا مفصلا عن وضعية السجناء في تازمامارت. بقيت يوما كاملا معه أحكي له نظام السجن، عذابات السجناء، الأموات، المرضى، المقوسين، جرائم بلقاضي... سجل كل ما قلته له. اختلطت عليه الأرقام. لم يعد يعرف من جاء، ومن ذهب و لم يفكر

في الموت بينما هو من كان يسلمنا "البضاعة" بحسب قوله. كان المدير يوقع له وصل إيداع ويذهب. طيلة ثمانية عشر سنة لم يضع رجله في الزنازن. حين عدت للسجن، قلت للمساجين بأن ساعة الفرج قريبة. صدقوني دون أن يطلبوا مني تقديم توضيحات. خمسة عشر يوما بعد ذلك، جاء فضول مع طبيب أكد له ما قلت له. يوم 15 سبتمبر 1991 جاء موكب من الشاحنات العسكرية وتوقف في ساحة السجن. أمرنا الكولونيل فضول الذي كان مرفوقا بضباط من الجيش والدرك، بأن نخرج المساجين واحدا واحدا. وأن نجردهم من أسمالهم ونلبسهم ثيابا جديدة: ثياب داخلية، أحذية رياضية وجلابيب. كان أوصياد يصيح ورفض خلع أسماله. قال بأنه سيموت إن خلع "جلده" وتطلب الأمر مقصا لتقطيع الأسمال القذرة التي أثقلت جسمه. وضع الدرك لهم قيودا و نظارات سوداء وقطنا في العينين. كانت حالة أحد الإخوة بوريكات في وضع حرج فتطلب الأمر نقله فوق محفة. وكان الباقون بالكاد يقفون على أرجلهم. بقيت حاجياتهم الشخصية في الزنازن وأحرقت في الغد. حوالي العاشرة ليلا تحرك الموكب نحو هرممو.

بعد الغد، وفي الفجر جاءت كتيبة أشغال عسكرية مع أجهزة وآلات بناء، وشرعوا في العمل. بدأوا تحطيم الجدار الفاصل بين زنزانتين لتصير واحدة. ولكي يحطموا الجدران القوية استعملوا الديناميت. ووضع زليج في الأرضية وصبغت الجدران، كأن تازمامارت كان دوما هكذا وهو لم يكن كذلك. كان تازمامارت في قلب جهنم نفسه. ورأيت بهذا القلب الخفّاق آلام وعذابات وجنون وموت كائنات بشرية... ولكن أيضا حقد وظلم وتوحش، وبربرية وحماقة... لم أكن سجينا في تازمامارت لكن تازمامارت سجنتني طيلة ثمانية عشر سنة لم أستطع فيها أن أصبح بإستنكاري ويأسي. لم أكن سجينا في تازمامارت حين كان رجال يتعذبون ثم يموتون في صمت متواطئ للعالم، والصمت المذنب للسلطات. أنا جزء من ذاكرة تازمامارت، أنا الأسير الدائم لذكريات تازمامارت، للآلام العظيمة لتازمامارت، لموت تازمامارت، لإعتباطية تازمامارت، وستبقى ذاكرتي موشومة إلى النهاية بهذه الثمانية عشر سنة في الجحيم. أنا وبدون شك أخر "سجين" لهذه المأساة الإنسانية.

هدى حشاد

بقدر ما أغوص في ذكرياتي الأكثر بعدا. أجد بأن ولَدَيَّ: هدى وخليل، أعاناني على تحمل نكال الفراغ، ووجع الوحدة، وبلوى الإنتظار. لقد أعطياني شجاعة مواصلة المعركة وعدم التراجع أمام ضغط النظام وثقل الزمن. من أجلهما، من أجل نفسي، ولكي لا أحس بالوهن، ولكي لا ارتاح في نذالة المستقيل، فعلت ما كان بإمكاني فعله، وما رأيت أنه أفضل ما يمكن ما يمكن القيام به. و لم أفعل، حقا، إلا واجبي اتجاه رجل اخترت أن أقتسم معه حياتي. والحياة هي الحلو والمر. عشنا الحلو، وبقي المر. كان واجبي كزوجة وأم يملي علي بأن أقتسم معه المر أيضا. اعتقدت أن المشكل سيجد حلا ما أن تنتهي هذه "الحكاية" كنت مخطئة. إن جراح الجسد تلتئم مع الوقت، وجراح الروح تلاحقنا طيلة الحياة. وتازمامارت جرح لا يلتئم كلية، سواء بالنسبة لولديّ أو بالنسبة لي. بعد إطلاق صالح ببعض الوقت قالت هدى بأنها في حاجة للشفاء من تازمامارت. ونظرت لها مندهشة ثم قلت لها إنتهى تازمامارت. كنت مخطئة. إن حكاية تازمامارت نهر طويل لا يتوقف أبدا. ونحن نحمل، وإلى الأبد، هذا النهر بداخلنا كسمة دائمة. طلبت مني هدى بأن اسمعها حتى النهاية وأن لا أقاطعها. إنها لا تبحث لا على تطمين ولا على أجوبة لأسئلتها. كانت في حاجة لكي تبوح. لكي تتكلم عن نفسها وعن "المشكل" الذي صبغ وجودنا بالأسود. كانت في حاجة لقول ألمها، واختارتني أنا، أمها، لأسمع جرحها وهو يقول ما أراد قوله:

– فهمت مبكرا، قالت لي، بأننا نعيش مأساة لا تقال لأن هناك سر كبير في العائلة. سر من المستحيل كشفه. وفهمت بسرعة بأن هذا السر يتعلق بوالدي. كنت، من حين لحين، التقط نتف حوارات: "أخبار جديدة؟ ثم ماذا؟ عَنْدْرَةْ وَاشْ كَايَنْ شِي خْبَارْ؟...

وأجوبتك المهدئة والمتهربة، ثم أرى بأنك تتألمين في عزلتك، تعيشين وحدك، تعملين وحدك، تربين أولادك وحدك. كنت إمرأة حزينة ولو أنك كنت تتدبرين أمرك لتخفين عنا حزنك. ربطت هذا الحزن بغياب العائلة، غياب سند معنوي. الفراغ من حولنا. احتفظت دوما لك بصورة إمرأة وحيدة جالسة أمام شساعة البحر، مرة في الشهر بمولاي بوسلهام. تقضين ساعات قبالة البحر. وأذنك ملتصقة براديو ترانزستور. تقابلين شيئا كبيرا، جليلا، ربما للهرب من الإنفلاق، الألم. وكنت أفهم بأنك إمرأة وسمها القدر بإختبار كبير. ووسمنا أيضا. ولم نكن نعرف، أنا وأخي، ما هي طبيعة هذه المأساة.

... فهمت أيضا مبكرا بأن ما يحدث لنا له علاقة بالملك. ففي كل مرة تعلق الأمر به. وظهر في جهاز التلفاز أو ظهرت صورة له، كانت أقوالك وأفكارك نحوه موسومة دوما ببغض إنتقادي، ورفض وتشكيك. كل أجزاء المكعب تجمعت لكنني لم أنجح في إيجاد صلة بين كل العناصر المتواجدة في حالة تبعثر. ومنذئذ خلصت إلى أن الأمر "مروع".

... في المدرسة قال لي زميل في القسم بأن أبي في السجن. أبي، الملك والسجن، لم يعد لي الكثير لتقريب هذه العناصر الثلاثة. وفهمت بالحدس بأن أبي قام بشيء ما ضد الملك وأن هذا الأخير ألقى به في السجن. خصوصا وأن المبررات التي تقدمينها لتبرير الغياب الطويل لأبي لم تكن مقنعة. حين أخبرتك بما وقع لي مع زميلي لم تجيبيني بوضوح وتقولي لي هل الأمر صحيح أم لا؟ وذهبت عند والديّ الصبي لتقولي لهما بأنك لا تسمحي لأي كان بأن يقول كلاما سيئا في أبي. فهمت، إذن، بأن حياتنا مختلفة عن الآخرين بسبب هذا السر. لكنك ربيتنا أنا وأخي، على رفض نقمة وشفقة الآخرين. وكلما قال لي حدهم بأنني "مسكينة" كنت تنتفضين لتقولي بأننا لم نفعل ما يجعلنا نحس بالعار أو نحس بأننا مساكين. ولأنني كنت فضولية. فلم أتوقف عن طرح الأسئلة. ومن خلال ما يقوله لي هؤلاء وأولئك كونت صورة له لها علاقة بغياب الأب ولها علاقة مع سرنا. تخيلته قويا، جميلا، شجاعا، صورة مبتذلة لبناء هوية لغائب..

... غير أنني كنت أفكر بأن شجاعة أبي تعلقت بشيء نبيل، قضيت ساعات وساعات وأنا أتأمل صوره وأنا أشكل صورة له بحسب النقص الذي أحس به.

إن تشكل شخصيتي قد تم بالضبط من خلال هذه العناصر التي ستحدد بعد ذلك إختياراتي وعلاقاتي مع الآخرين. في دواخلي كنت وحيدة، وكنت قاسية مع نفسي ومع زملائي في القسم. أعطي لسعادتي حدودا. أمنع نفسي من أن أكون فَرِحة بينما تسود سعادة غامرة من حولي. ما أن قال لي الصبي بأن أبي في السجن، حتى قلت لنفسي: "والدك في جحر فئران، لا حق لك في نسيان هذا. ولا في التصرف كما لو أن لا شيء وقع!" أطرح على نفسي العديد من الأسئلة. وسمح لي هذا بتكوين شخصية قوية ومتميزة لا علاقة لها بإمعة مقبولة من الجميع. علي أن لا أستسلم لأي ضعف لأبرهن بأنه بإمكاني أن أنجح في غياب الأب. لم يكن لي حق الإخفاق بسبب هذا الغياب بالضبط...

...أعرف، كنت تريدين حمايتي، غير أنني، وأنا غير مقتنعة بأجوبتك وتبريراتك قررت معرفة الحقيقة مهما كلفتني. وبما أنني أزعجتك بأسئلتي فقد خلصتُ للقول: "قام والدك بشيء ما ضد الملك وهو في "دار" يحرسها جنود، يسمى هذا إنقلاب!" لم أكن راضية، حتى وأنت تعطينني رسائله التي يقول فيها إنه فخور بي وبأخي وأنه يقبلنا. ما أن وصلت لهذه المرحلة فقد عرفت أنني سأنتهي إلى إكتشاف السر. وحتى يتسنى لي ذلك. فتشت الدار، فأوقات عملك الثابتة منحتني حرية التفتيش. وجدت عدة أشياء، ووسط جبال من أشياء تنتمي للسر العائلي، وجدت رسالة يصف فيها أبي ظروف العيش في تازمامارت. قلب هذا الإكتشاف حياتي. وصلت إلى الاسم المحرم، موضوع كل الأسرار والمحمل بما لا يحصى من آلام. لم أعرف وأعيش الألم فقط، بل استبطنت أيضا معاناة مساجين هذا السجن الملعون. ما أن أغلق عيني حتى أتخيل نفسي معهم في تازمامارت. أتخيل لحيهم الطويلة، شعورهم غير المقصوصة وأظافرهم الملتوية، وأسمالهم... أن تعيش هذا المكان في الخيال كانت، بالنسبة لي، هي وسيلتي للإقتراب من أبي. لأقول له أنني لم أنس. يمكنني تخيل أبي في تازمامارت، يمكنني تخيل الظلام، البرد.... أتخيل والدي وحيدا في زنزانة ضيقة. وأرى على الخصوص هذه العتمة الكثيفة والضاغطة. قضيت وقتا طويلا في تازمامارت، وهذا الذي جعلني أُنَسِّب الكثير من الأشياء، وأن أفهم قيمة التواضع وأرتبط بقيم أكثر نبلا. من المؤكد أن تازمامارت جعلني أيضا أتراجع، وشوش على التطور الطبيعي لشخصيتي، ووسمني بالحديد الأحمر للألم والإعتباط. تازمامارت هو غياب الأمان الذي لدي اليوم. وعدم مهادنتي أمام الحياة وأمام نفسي وأصدقائي. إن تصرفاتي قد

كيفت من طرف تازمامارت وصارت مرتبطة بالخوف والشك والإحباط. حين أفكر في والدي حيث هو، أخاف. ويحدث أن أحس اليوم بالخوف دون أن أعرف لماذا ومماذا. لكن لتازمامارت، بالنسبة لي، هذه العلاقة المباشرة بالخوف، الألم، الإحباط، الظلام، الحرمان. لكن وفيما وراء هذه العواطف السلبية للاضطهاد وغياب الأمان، فقد جعل تازمامارت مني ما أنا عليه. لو لم تكن لوالدي صلة بهذا الإنقلاب، لكنت بورجوازية صغيرة، بنت جنرال، متزوجة ببورجوازي ولها طفلان أو ثلاثة، وكثير من الريح في الرأس، لكنها مغطاة بالذهب والنقود. بنت جنرال تعنف خادمتها الصغيرة وتحتقر العاملين معها. بدون تازمامارت كيف كان بإمكاني أن أعي معاناة شعب كامل؟ ولماذا سأطرح على نفسي أسئلة لو كنت محمية ضد الشر الذي لن تكون لي فرصة رؤيته؟ لقد خدمني تازمامارت لأنه أنسنني، قلص أحلامي إلى الأشياء الأساسية والمنفصلة كلية عن ما هو مادي وعن كل ما يلمع. أحلامي الآن هي أحلام بسيطة لكنها أحلام عقلانية وموضوعية بشكل جوهري.

في زمن ما من حياتي كانت لي عواطف حقد مدمر ورغبة في الإنتقام، تصل أحيانا إلى قرف من النفس، حتى القتل. ومع الوقت إنتصر الإرهاق النفسي وأفهمني تازمامارت بأن الرغبة في الإنتقام مضرة. والدي يتعرض لويلات الانتقام في تازمامارت بسبب إنتقام أراد الملك إشباعه. ولا ينبغي أن أشبه الشر فيما يفعله وفيما تحركه من أحاسيس. لقد طردت بسرعة من داخلي أحاسيس الحقد والإنتقام لأخلص نفسي أولا ولأتحرر من مرحلة الإنحباس النفسي. أردت إيقاف الألم، ووضع حد للمعاناة، والحقد والرغبة في الإنتقام يأسراني في المعاناة. كنت اعرف بأنني مختلفة، وبالتالي، لا حق لي في أن أشبه الآخرين في كل ما هو سلبي. إن الحقد والرغبة في الإنتقام أحاسيس سلبية وموقف مهلك لفظته بسرعة. لا يمكنني أن أرفض الأذى وألحقه بالآخرين. كانت تازمامارت بالنسبة لي هي الشر والحقد، والإنتقام، والإعتباط، والبربرية. ساعدتني قراءاتي حول رفض العنف لتجاوز هذه المرحلة وقلب صفحة العنف، ولو أنهم واصلوا تعنيفي من خلال والدي استطعت تجاوز هذه الوضعية برفض الصمت. لقد عبرت دوما، وبطلاقة عن ما أفكر فيه بالضبط وما أحس به. تجاوز خوف التعبير بكل بساطة. وبقدر ما أسرتني تازمامارت في الخوف بقدر ما ساعدتني على تجاوزه. في كل مرة كانت لي فيها فرصة الحديث عن مشكلنا. لم امنع نفسي أبدا، وبعنف، من قول ما أفكر فيه عن وألئك الذين عنفوا والدي وعنفوني. لا توافق مع الشر. والشر بالنسبة لب

يتجسد في النظام. لقد فهمت بأن النظام يريد شرا بأبي لكن ليس له وحده بل للجميع. طبعا لم تكن فكرة النظام واضحة في رأسي، لكنني كنت أتمثل "الشيء" كحيوان قذر يسحق كل من يعترض طريقه. نظام تراتبي، يشكل كتلة متجانسة وموحدة للدفاع عن مصالحه ضد مصالح المجتمع. وهذا النظام يستعمل الخوف كوسيلة للحكم لحماية مكتسباته وإمتيازاته. كانت، منذ ذلك الوقت، الحدود، بالنسبة لي، بين الشر والخير مرسومة بوضوح. كنت أعتبر، وبطريقة ذاتية طبعا، بأن والدي في كفة الخير وأن النظام يتموقع في كفة الشر. حاول والدي ورفاقه قلب النظام. اعتقلوا وحوكموا، واختطفوا من طرف هذا النظام لإرضاء نهمه للإنتقام ولإعطاء العبرة. آنذاك طرحت حقيقة ما نفسها علي. لم يكن النظام يبحث عن معاقبة رجال، بل تحطيم رموز، هؤلاء الرجال كانوا رموزا للشجاعة والإخلاص والتضحية. وأيضا رموزا للتغيير، ولنهاية مرحلة ونظام..

لقد علمتني شيئا مهما. أن لا أنزل يدي، في صراعك اليومي كنت تنقلين لي رفضك للظلم وتزكين لي هذا الحد الذي رسمته بيني وبين النظام. أخالك تقولين له: "إنني أعيش الألم والإعتباط الذين فرضتهما علي لكنني لا أقبلهما. سأقاتل حتى النهاية لأثبت لك بأنك على خطأ، لأنك طريق الشر. إننا شعب معتز بنفسه وكرامته. وليس تصرفك هو من سيبدل هذه الكرامة التي ضحى آلاف المغاربة بأنفسهم من اجلها!". بقيت إمرأة واقفة لأنك كنت على يقين من عدالة قضيتك، وبالنسبة لي، أنت التجسيد الأكبر لإخفاق سياسة النظام. والناجون من تازمامارت يرمزون أيضا لإخفاق هذا النظام الذي أراد تحطيمهم. وهزموه بإرادة تشبثهم بالحياة وعادوا ليحكوا عن طغيانه. لقد نجحوا بآلامهم البشرية في تازمامارت بأن يجعلوا من هذه الآلام وسيلة للبقاء أحياء. من رفضوا الألم ماتوا. درس بليغ. فبإيمانهم بالحياة هزموا المعاناة المادية، والصمت، والعزلة، والسواد، والعراء... لقد بقوا رجالا بينما أريد لهم أن يصيروا حيوانات. إنتصار جميل على الموت الذي يضع موضع تساؤل الإجراءات البربرية للنظام. الجسد الذي يتطاير مزقا، والألم الرهيب الذي يسكن العظام وباقي الجسم، ثم هذه الإرادة في قول "أريد أن أعيش" إنها رسالة امل تلك التي قدمها لي هؤلاء الرجال حين إنتهى الكابوس: الأمل وسط اليأس لا شيء انتهى كلية لأنني فهمت بأن تازمامارت لم يوجد فقط في الريش لكن في رأس كل مواطن مغربي. حرصت على أن ندرس في مدارس مغربية بينما كانت وضعيتك المادية تسمح لك بأن تدخلينا لمدارس

البعثات الأجنبية. وفيها عشت بدوري الإنغلاق النفسي، التلقين، الشحن، الكذب، تزوير التاريخ، طمس الشخصية، تعليم الخوف، وجعل الخضوع هو قيمة القيم. أما بالنسبة للانحصار الجسدي فقد عشته من خلال من كانوا في حاجة. أولئك الذين لا عمل لهم، ولا حق لهم في الرعاية الصحية، الذين يعيشون في بؤس مدن الصفيح.... إن شئنا أم أبينا، فكلنا نعيش سجناء بؤس في هذا البلد... فهل علينا كلنا أن نسجن في تازمامارت لكي يصحو وعينا على آلام الآخرين؟ علمني تازمامارت أن أكون حساسة نحو الآخرين، ونحو آلامهم. وهذا ما يطرح لي مشاكل، فأنا لا أتوافق مع الضعف والكذب والجبن.

... الرغبة في التحرر من شياطيني القديمة، والتحرر من مخاوفي وقلقي مرة واحدة وإلى الأبد. لا أكلمك عن تازمامارت لأخفي أيَّ شيء، أو لأنسى، أكلمك لأنه ليس من حقنا أن ننسى. وخصوصا الآن. إننا لن ننسى كَردة فعل وبحذر. لا ينبغي لتازمامارت أن ينسى لأننا لسنا بمنجاة، بصفة نهائية من تجاوزات رجال الحكم. الكلام عن تازمامارت، أيضاً ودائما لكي لا يبتكر تازمامارت من جديد. ألا نسمح للرعب بأن يتجسد في مكان أخر. لهذا فليس من حق التاريخ أن ينسى، لأن قصة هؤلاء الرجال، وببساطة هي قصة كل واحد منا. لا ينبغي لهذا الألم والبؤس الإنساني أن لا يفيدا في شيء. إن قصة هؤلاء الرجال صفحة من تاريخ المغرب. صفحة كتبت بمداد الحقد والعار. صحيح أنهم خرجوا كبارا من هذه التجربة الأليمة مع بقائهم بشريين بنقط ضعف الإنسان، وهذا ما كبّرهم أكثر في عيني. ولأجل ذلك فهم يستحقون إعجابنا. إن حارسا أنقذ البعض من موت محقق يستحق هو أيضا، كل عرفاننا. هذا هو الأساسي الذي ينبغي الحفاظ عليه من تازمامارت ومن أناس تازمامارت. لقد عانوا وعانينا معهم. العديد منهم ماتوا بسبب أمراض أو الإنهاك، لكنهم ينقلون، للأجيال القادمة، أفضل إرث، هو إرث الأمل.

أصل إلى ما هو أساسي، لقد ساهمت في النضال حين نجحت في الكلام مع الملك في شأن تازمامارت، وفي حالة أبي، اعتبرني الجميع مثل جان دارك. لأن الكل لم يكن لهم شجاعة الإقتراب من الملك وبالأحرى الحديث معه عن تازمامارت. وأنا أحلل ما جرى بمسافة زمنية فإنني أعتبر ما قمت به خيانة لمبادئي. فبقدر ما أحسست بالإفتخار في البداية بقدر ما ندمت على ذلك فيما بعد. سأتذكر حياتي كلها، وما بعد الحياة، ذلك اليوم في الكولف الملكي. كنت ألبس ثيابا أنيقة لكنها عملية لأنه كان علي أن

أجري. كنت ألبس سالوبيت وحذاء خفيفا. كان الإنتظار لا نهائيا ومؤلما. أحسست بتقلصات في بطني وفي رجلي. ثم جاء . قلت لي: "هيا اجري!" ودفعتني بقوة نحوه. جريت، إذن، جريت. اعترضتني أيدي قوية قبل أن أصل إليه واقتلعتني من الأرض. واصلت جريي في الفراغ. رآني وأمام ضيوفه الأجانب أمر حراسه بأن يطلقوني. توجهت نحوه وقبلت يده وأعطيته الرسالة وتلوت أمامه هذه الجملة التي أحفظها عن ظهر قلب: "أنا بنت القبطان حشاد المتورط في إنقلاب 1972، ألتمس من جلالتكم أن تعفوا عنه!" فوجئ لكلامي ولمحاولتي وانتفض حين ذكرت إسم "تازمامارت". كان يعتقد بأنني جئت من أجل قضية سرقة أو رشوة مبتذلة، مثل تلك الفتاة التي تدخلت لفائدة والدها في قضية استغلال ممتلكات عمومية فدعاها لشرب قهوة مع الأميرات. أما أنا فعن تازمامارت جئت أكلمه. أؤكد لك بأنه إنتفض. وفهمت بأنه يعرف بما أنه سال أحد مرافقيه: "كم بقي منهم؟" لقد فهم، خصوصا، بأن السر قد إنكشف. لم يأخذ الرسالة لكنه وعدني بفعل شيء ما. أمرني بأن أتوقف عن البكاء وأن أرافق رجاله للقصر وسيكلمني هناك: "لا تبكي!" قال لي. لا يمكنني أن أكلمك هنا أمام ضيوفي. إذهبي مع هؤلاء سيقودونك للقصر وسيكون لنا متسع من الوقت للحديث!" رأيت نفسي جالسة مع الأميرات حول فنجان قهوة، ركبت مع أربعة رجال في سيارة ميرسديس التي توقفت أمام بوابة القصر لتترك الموكب الملكي يمر. لم يكن من نصيبي لا قهوة بالحليب مرفوقة بهلاليات مع الأميرات. أدخلوني قاعة فارغة إلا من طاولة وكرسيين. وأخضعوني هناك لإستجواب دام ساعتين. صحت لأقول لهؤلاء المحققين بأن الملك سيستقبلني. لا شئ يمكن فعله. نفس الأسئلة طرحها عدة أفراد: "الإسم، الإسم الشخصي، تاريخ الإزدياد: من والدك؟ اين هو؟ كيف عرفت بأنه في تازمامارت؟ من قال لك بأنه في تازمامارت؟ هل تعرفين أين يوجد تازمامارت؟ لماذا جئت لمقابلة جلالته؟ من قال لكم بأنه سيلعب الكولف اليوم؟...." عوض أن أتصل بالملك والأميرات كان من نصيبي حشد من المحققين من إدارة التراب الوطني والإستعلامات العامة، والدرك، ومصالح سرية أخرى بالقصر. لم يأت الملك لرؤيتي . كنت أقارب الخمسة عشر. الكلمة المعطاة لطفل في هذا السن مقدسة. علمتني بأن لا نعد شخصا وعدا لا يمكن الوفاء به.

... عدنا إلى الدار في الغد فتح تحقيق بوليسي حول كل العائلة، في الحي، الصيدلية، الثانوية، ولدى الجيران والسلطات لمعرفة من نكون بالضبط، من يزورنا، وهل هناك أشياء يمكن مؤاخذتنا عليها... ابتداء من تلك اللحظة صرنا كلنا تحت مراقبة مستمرة.

العديد من الناس كانوا يأخذون أجرا على مراقبة صبية، طفل وإمرأة يطلبان تطبيق العدالة. إنتظرنا، كنا نأمل تلقي بريد من تازمامارت يخبرنا بأن أوضاع المساجين تغيرت. جاء الرسول برسالة محبطة لا شيء تغير. ومنذئذ تبدلت صورة الملك في ذهني وأحسست بألم آسر يخالطه حقد في قرارة نفسي. أخذت وعدا مني بان أقبل يده، قلت لي بأنني إن لم أفعل، فإنك قد لا ترينني بعد ذلك. قبلت يد الملك. وأتذكر أن يده كانت ناعمة. في الشهور، ثم السنوات التي أعقبت "لقائي" مع الملك. بقيت أوضاع الحياة في تازمامارت بدون تغيير. كبر يأسي، فالشخص الوحيد الذي كان بإمكانه وضع حد لمعاناة والدي وزملائه لم يقم بذلك...

إن كتاب جيل بيرو صديقنا الملك هو الذي أعاد لي قليلا من الأمل. لم تعد القضية قضية سرية مغربية - مغربية ولكنها صارت تمس حقوق الإنسان عموما. متعبة، ومرهقة نفسيا، قلت لنفسي بأن هذا الكتاب سيسمح بعرض ألم تازمامارت في الغرب. وهذه فرصة، فوحده ضغط خارجي بإمكانه وضع حد لهذه الحكاية الفظيعة. في الوقت الذي كان فيه جيل بيرو يوقع لي الكتاب في مدينة نانسي دلني على الصفحة التي يتحدث فيها عني. حدث أيضا بداخلي ذلك الخليط من الخوف والرضى وغمرني إعتزاز بالنفس. لقد فعلت شيئا مازال الناس يتذكرونه، والتاريخ يحتفظ به وفي نفس الوقت، وبما أنني أعرف النظام، فقد خفت من إنتقام يسلط على من بقي حيا في تازمامارت. اعتذر لي لكونه لم يلجأ لي قبل نشر ما كتب عني في كتابه. وشرح لي كيف أنه لم ينجح في الحصول على إذن بمحاورة الأشخاص الضروريين في المغرب. وبكل آلته لبوليسية القمعية ومختلف أجهزته الإستخبارية لم ير النظام و لم يعرف بأن صحفيا دخل ترابه بإسم مستعار.

الشفاء من تازمامارت، قلت لك ذلك منذ البداية. هل نشفى من هذا المكان وقد عشناه لثمانية عشر سنة في لحمه وذاكرته؟ كنت في حاجة لأن أقول لك ما قلت لك طيلة حياتي. لأنني أنا أيضا ضحية لتازمامارت، ضحية للنظام الذي اخترع تازمامارت، لكنني أبعد من أن أكون ضحية سهلة، فقد منحني تازمامارت إمكانية التعالي على الخوف والذهاب إلى أبعد من نفسي وقول "لا" لا للطغيان، لا للظلم، والإستغلال والكراهية والموت.

ها أنت ترين أمي لم يكن هناك زوجك، والدي في تازمامارت. كنا كثر مسجونين هناك، إنه وبدون شك، شعب برمته سجنه النظام في ذلك السجن الملعون.

في آخر النفق: إطلاق السراح

لم يتوقف الهاتف عن الرنين: أفاق الجميع أخيرا على صوت ناقوس تازمامارت. كل واحد يريد شيئا، معلومة عن المساجين، حكاية ثمانية عشر سنة من العزلة. تذكر بعض الصحافيين أن إنقلابيين عسكريين هزا عرش الحسن الثاني وبحثا عن سكوب لمؤسساتهم الإعلامية. وأراد آخرون إعادة صداقة جمدوها طيلة السنوات السوداء بالمغرب وكانت الشرطة في كل مكان.

شتنبر 1991. بعد خمسة عشر سنة من الصمت. كلمتني السيدة الطويل بدورها من الولايات المتحدة الأمريكية. كنت مبلبلة وقلقة أمام هذا الصوت الذي يسألني هل إختفى ذوونا. لا، ليس بعد، في كل الأحوال، لم أجد ما أجيبها به. بالنسبة لها، فمساجين تازمامارت سيفرج عنهم في اليوم نفسه، يوم عيد المولد النبوي. لم يتداول أي خبر من هذا النوع في المغرب. ينبغي الإنتظار. ثم لا أحد يخبرنا بأي شيء. كانوا يعتبروننا أقل من الكائنات البشرية. وأكثر قليلا من التازمامارتيين. لا أحد يجيب عن مراسلاتنا، ملتمساتنا، وصيحات إستغاثتنا، ودعواتنا للنجدة. كنت أسمع السيدة الطويل تحدثني عن عشرين سنة من حياتي وهي تمر أمامي كفيلم رعب. كل هذا الوقت المهدر، كل هذه الطاقة المبددة وكل هذه الحيوات المحطمة. ذهب فكري نحو أولئك الذين حطموا، ولأولئك الذين لن يعودوا أبدا. كانت السيدة الطويل تتكلم في الهاتف وصوتها ينقلني لمكان لا أعرفه، مكان سري يعامل فيه رجال كصراصير. هذا المكان يحمل إسما، إنه تازمامارت. أحسست بأنني محبوسة. لقد أمضيت ثمانية عشر سنة من حياتي، تماما مثل مساجين الحبس الملعون المهلك. لأن كل يوم وكل ليلة قضيتهما في تذكر لزوجي وهو في معاناته وعزلته. يمكنني أن أقول اليوم، وبدون تواضع زائف، بأنني أمضيت أنا أيضا هذه الثمانية عشر سنة من حياتي في تازمامارت. ثمانية عشر سنة أتنفس فيها تازمامارت، آكل فيها تازمامارت، أحلم بتازمامارت...

...وإن كنت حرة في حركاتي، فالنظام دفنني حية مع معذبي تازمامارت من 1973 إلى 1991. لم أنس في أي لحظة مساجين تازمامارت. و لم أحس في أي لحظة بأنني حرة حرية في كاملة بلادي، إمرأة كاملة، كائن يتمتع بحقوقه كاملة، لقد محى النظام كل القيم التي كنا نؤمن بها والتي مازلنا نتطلع لها أيضا. شعب برمته كان أسيراً في تازمامارت ولتازمامارت.

كان الحسن الثاني بصدد تحضير زيارة للولايات المتحدة الأمريكية وضغطت الجمعيات الأمريكية لحقوق الإنسان (Humain Rights Watch) على الحكومة والكونغرس لكي يفرج عن سجناء تازمامارت. هاتفتني السيدة الطويل مجددا في منتصف النهار لتخبرني بإطلاق سراح زوجها. لقد كلموها من مكتب عامل إقليم الخميسات لكي يؤكدوا لها خبر إطلاق سراح مبارك الطويل. وعدتني بأن تخبرني بتطور الأمور ووعدتها بالتنقل توا للتأكد بنفسي من صحة الخبر. رافقتني صديقتي سناء البوعزاوي، والأستاذ عبد الواحد بناني وإبني خليل في هذه الحملة. كانت صدمة اللقاءات كبيرة. كنا متأثرين ومبلبلين في الآن نفسه. ولا تجد الكلمات طريقها في هذه اللحظة للتعبير عن أحاسيسنا. وحدها الدموع تعبر عن إنسانيتنا، عن حصتنا من التمرد، وحصتنا من الحنق والعجز. ماذا بوسع المرء أن يقول بعد عشرين سنة من الغياب؟ هل مازال للكلمات ثقل أمام الفراغ؟ أمام صمت القبور؟ أمام نذالة الوعي؟ أمام الخوف؟.. اكتفينا بتهجي كلمات لقول الأشياء المستعجلة. كلمتني نانسي مرتين في ذلك الصباح. كل المساجين نقلوا لمكان سري آخر. ومنعت السلطات العائلة من إقامة إحتفال كبير ونصب خزانة. إن آخر الحطام الذي خرج من تازمامارت يعالجون ويعاملون بكيفية أحسن، لكنها لا تعرف أين يوجدون. لكن من المؤكد أن الإفراج عنهم مؤكد. تبحث السلطة عن تقديم رجال للرأي العام في شكل إنساني لا أشباحا أكلتهم ثمانية عشر سنة من المجاعة وغياب التطبيب، وغياب النظافة، وغياب النور، وغياب الشمس، وغياب زيارات، وغياب صلة مع العالم الخارجي، كائنات تسجن كفئران. ثمانية عشر سنة في منسيات مظلمة وضيقة، وحدهم أمام القدر القميئ. رجال سحبوا من عالم الأحياء ليدفنوا أحياء. كان الله يحرص على أن يقلب ذات اليمين وذات الشمال أهل الكهف. كان يغذيهم، يتعهد أجسادهم، وكان كلبهم يتلقى نفس الرعاية. لم ينم أهل تازمامارت طيلة ثمانية عشر سنة و لم يكلف المخزن نفسه عناء تعهد أجسادهم وعقولهم.

حين عدت إلى بيتي، كلمت نانسي الطويل لأؤكد لها النبأ. إتصلت بي هاتفيا العديد من الشخصيات والجمعيات في غيابي. حتى مصلحة الإستعلامات العامة هاتفت لتعرف هل إلتقيت مبارك الطويل. ولعلمهم التقيت به، وهو في حالة جيدة، وباقي السجناء؟ يتساءل صوت في الطرف الآخر. أنا من علي طرح هذا السؤال. بحسب صوت التلفون، فالإستعلامات العامة لا علم لها بأي شيء. كل الإجراءات كانت من إختصاص الدرك. وهذا يظهر غياب التنسيق بين مصالح الأمن والتوجس السائد بين مختلف الإدارات الأمنية.

بقدر ما كان الوقت يمضي بقدر ما كان أملي يتحول لشك. ربما كان هذا السيناريو مناورة للتمويه، فالطويل أفرج عنه لا الآخرين. ومحنة العازبات وأولئك اللواتي تزوجن مغاربة ستستمر. قررت، إذن، ألا أترك نفسي تهدهد بأمل كاذب وأن أواصل المعركة. وبمساعدة أصدقاء وجهت يوم 25 سبتمبر 1991 رسالة مفتوحة، للوبنيون، العلم، الإتحاد الإشتراكي، ليبيراسيون، ساندتني السيدة الرايس، السيدة الديك، وعائلة بن دورو الذين شاركوني لأول مرة في هذا المسعى. لم تجب بعض العائلات عن إتصالي وهددتني عائلة بينبين (في الرباط) بإستدعاء الشرطة إن أزعجتهم مرة أخرى.

برمجت وسائل الإعلام الأوروبية كلها برامج عن تازمامارت ومساجينها. وكانت RFI التي لا تكل، تتحدث عن السجن الملعون عدة مرات في اليوم وتعطي أوصافا له وللظروف التي يعيش فيها نزلاؤه. الكل يعرف. ولا يمكن للمسؤولين السياسيين والعسكريين أن يقولوا بأنهم لا يعرفون. كانت النذالة تستوطن أذهانهم وكانوا يخافون الدفاع عن حقوق الإنسان التي لم تكن أبدا في جدول أعمال السلطة ولا في مفكرة جلاديها وزبنائها.

20 أكتوبر 1991. أطلق سراح أول الناجين من تازمامارت: غلول والوافي. سمعت من أفواههما بأنهم نقلوهم لهرممو "ليجعلوهم في أحسن حال" قبل إطلاق سراحهم. ولن يتأخر الآخرون في الإلتحاق بهم. يتحدثون عن إطلاق سراح، وكنت أريدهم أن يتحدثوا عن تحريرهم. لترتفع أصوات لإدانة العار، لا قمع مجددا في المغرب، ولا إختطاف، ولا تعذيب أبدا. لا طغيان أبدا في بلدي ولا أحكام إعتباطية ولا اغتيال سياسي ولا سجناء رأي أبدا، أبدا.

اتصلت بي السلطات المحلية لتخبرني بأن لا أغادر بيتي هذه الأيام. هناك إحتمال إطلاق سراح زوجي. في يوم 26 أكتوبر 1991، هاتفني عميد الإستعلامات العامة في محل عملي ليقول لي بأن أبقى في بيتي هذه الليلة، فإطلاق سراح زوجي متوقع في نفس اليوم. إنتظرت. وبدا لي الوقت مثل جبل فوق الأكتاف. كانت العديد من الأسئلة تتزاحم في ذهني. ثمانية عشر سنة! هل الرجل الذي سألتقيه هو نفس الرجل الذي تركته منذ مدة طويلة؟ وهو، هل سيلتقي المرأة الشابّة الحامل التي تركها يوم وقوع أحداث 16 غشت 1972؟ هل غير الزمن حياة كل منا؟ ولو أن النضال وحدنا أكثر، ألم يحطم المخزن ما هو أساسي فينا: الشباب، حب الأزمنة الأولى للزواج، الحلم، الأمل، أبوة أب لم ير أبناءه يكبرون... عشرون سنة، حياة كاملة، والمخزن سحق هذه الحياة فينا ومن حولنا.

في الساعة الثالثة والعشرين ليلا، رن الهاتف وأخبرتني الشرطة بأن الإفراج عن زوجي لن يتم هذه الليلة، وأجل إلى الغد صباحا. حاولت أن أفهم لماذا هذا اللعب بالأعصاب؟ لا شيء للفهم، فالمخزن هو هذا. إنه يريد أن يفهمني بأن الكلمة الأخيرة تعود له ولا شيء يمكنه أن يتم خارج إرادته. وأن يفهمني أيضا بأنه مازال سيد الوضع وأنه بإمكانه إخضاع أي واحد وفي كل وقت، فمصائرنا بين يديه.

السادسة صباحا. جاء مقدم الحومة ليخبرني بأن إطلاق سراح زوجي سيتم في الصباح نفسه. الكل يحدثني عن هذا الإفراج ولا أرى المفرج عنه. ولا ضبط هذه الأيام، اليوم، في الليل، في الصباح. في نظام مهيكل لاأحد كان بمقدوره أن يقول لي: "سيدتي، سيطلق سراح زوجك في الساعة الفلانية ويمكنك أخذه من المكان التالي!" خلط، غموض، تخمين، إفتراض، ينبغي الإنتظار. لم يكن لنا ما يمكن فعله إلا إنتظار الإرادة الطيبة للسلطات. كنت متعبة وأريد فقط أن أضع رأسي فوق وسادة والنوم دون التفكير في تازمامارت دون الحلم بذلك الرعب.

التاسعة صباحا. هاتفني قائد المقاطعة الأولى ليدعوني لأخذ "زوجي من مكتبه. نصحني بأن أقود السيارة بروية وهدوء. كم هذا مؤثر! طيلة عشرين سنة لا أحد من المسؤولين نظر نحوي، ولا مد نحوي يدا ودية. فجأة، ينشغل ممثل سلطة بي وينصحني بأن أكون حذرة وأنا أسوق.

أين كنتم من عشرين سنة؟ لماذا لم تظهروا للتعبير عن إنشغالكم والتعبير لي عن تضامنكم، و إهتمامكم بوضعية إمرأة وحيدة هدد زوجها حياة الملك في إنقلاب فاشل؟ و لم تقتربوا مني حين كانت مصالحكم السرية تراقب ذهابي وإيابي، وتفحص حركاتي، وتقوم بتحرياتها عني وعن أهلي محاولة إخافتي، بل إنها ذهبت إلى محاولة التخلص مني؟ أين كنتم حين كان معاونوكم يحاربوننا، أنا والعائلات الأخرى، كما لو كنا مخربين أو مجرمين خطرين؟ ما قدمتم لي طيلة عشرين سنة لتسمحوا لأنفسكم بتقديم نصائح ودية لي؟ أعرف ما كنتم بالنسبة لي ولكل العائلات التي عاشت محنة تازمامارت. لقد كنتم، لا أقل ولا أكثر، أعداءنا، كنا جزءا من الشعب، من البسطاء، بينما كنتم في جهة المخزن، أي في جهة الظلم، والإعتباط، والقمع، والرشوة، وإستغلال السلطة. وتواءمتم مع النذالة والصمت المدان بينما كان البلد كله يتعرض لعار القمع البوليسي. كان لهذا القمع إسم، وله وجه، إنه يسمى "المخزن" وله وجه الرعب، هذا الوجه الذي سانده مساعدو الشيطان في عماه وتوحشه. إن عالمينا متعارضان ولا يمكنهما أبدا أن يتفاهما أو يتلاقيا.

عودة من نار جهنم

"يمكن لليل أن يطول لكن النهار ينتهي دوما بالقدوم"

أ.كوروما

عشرون سنة بعد،

إنفتح باب مكتب القائد، فجأة، إقتربت إمرأة بيضاء، لابسة على الطريقة الأوروبية من حشاد، حذقت فيه بعينيها الزرقاوين. أحس بأن النظر الموجه له هو نظر الأمان. تعرف على زوجته. قرابة عشرين سنة مضت منذ آخر مرة رآها، عشرون سنة مرت. ارتمى الواحد منهما في يدي الآخر وبكيا في صمت. في مكتب القائد بكا الرجال الحاضرون أيضا، لكن دموعهم لم تغير شيئا من كل سنوات الحزن التي عاشتها هذه العائلة في عزلة معركتها، في إنزوائها، في صمتها، في مخاوفها القصوى. يمكنهم أن يذرفوا كل دموع أجسادهم، فهذا لا يغير شيئا من نذالتهم الممجوجة جدا. لم تعرهم السيدة حشاد أي إهتمام إنتهت بالإنفلات من حضن زوجها:

– هل يمكنني أخذه الآن ؟ قالت للقائد بنبرة صارمة .

– طبعا، سيدتي، زوجك رجل حر من الآن، لقد عفى عنه جلالة الملك، بإمكانه الذهاب.

– حكم على زوجي بعشرين سنة، أجابت السيدة حشاد غاضبة. لقد أمضى عقوبته وأكثر... إن لم تكونوا راضين عن نتائجكم وإن أردتم أخذه لتمضية الشهور التي بقيت له فلا مشكل! نحن معقمون الآن. ألا تكفيكم الفظاعات التي عرضتموه لها طيلة تسعة عشر سنة وشهرين وسبعة أيام؟

أخذت زوجها من يده وقادته نحو الباب مثل صبي مذنب جاءت أمه لأخذه من المدرسة. تحركت السيارة واستقر صمت محرج بين الزوجية، أول موعد غرامي؟ لا، الأمر يتعلق فقط بالمسافة في الزمن. قرابة عشرين سنة فصلت بينهما. قرابة عشرين سنة تفصل بينهما، لا فيما يخص العواطف والقناعات. ولكن على مستوى غياب النور. هي بقيت في عالم الأحياء، أو من نعتقد أنهم أحياء. وهو كان في الجهة الأخرى من الحياة. عائد؟ رجل دفن حيا قرابة عشرين سنة وعاد إلى من تركهم منذ مدة طويلة جدا

إنتشر الخبر بالتلفون من دار لدار، من بلد لبلد، من قارة لقارة. إمتلأت الدار شيئا فشيئا بأفراد تعرفهم العائلة وبآخرين تراهم لأول مرة. ظهر مجددا بعض الأصدقاء بعد غياب طويل. رجال سياسة يبحثون عن مشروعية، فضوليون متعطشون لأخبار جديدة. وبكل تأكيد بوليس بلباس مدني لتحرير تقارير عن الوضعية. لم يُقَطِّر أهل قريتنا في عدد الزوار... حتى أن الأمر صار أشبه بموسم!

عبأت مصالح الإستعلامات العامة عدة أفراد لتسجيل كل شيء، كل شيء تماما، مجيئ وذهاب الزوار، أرقام السيارات. وكانوا يتنصتون، بكل تأكيد، على مكالماتنا... فالتصرفات القديمة لا تنتهي بالإفراج عن بعض الهياكل العظمية. للمخزن طرقه ووسائله. إنه يقوم بعمله، لا أكثر ولا أقل، عمل قذر لمنع "المواطن" من أن يكون حرا في رأسه، فالشرطة بأجهزتها السرية للإستخبار والقمع تسكن ذهن كل مغربي لأن المخزن لم يكن على استعداد للتنازل عن أي حيز من امتيازاته التي حصل عليها من خلال قمع طويل للشعب المغربي.

لم تكن هذه الإستثارة تتعلق بحشاد، رغم أنه كان يجيب عن إبتسامات البعض وعناق الآخرين. أين كان ومن كان؟ كان غائبا عن العالم. كما كان غائبا عن عقله وجسده. هذا الجسد الذي أرادوا تحطيمه وهذا العقل الذي أرادوا عقابه كان في حاجة لأمان وصمت. كان يريد أن ينام فقط مرة دون أن يفكر في العشرين سنة هذه، ودون أن يحلم بأنه مدفون حيا في سجن عسكري سري في جنوب المغرب. أراد أن ينسى، لكن ماذا ينسى؟ عشرون سنة حزن! عشرون سنة معاناة فظيعة، عشرون سنة من التمزق! كان يعيش وينظر للأشياء من خلال ضباب. ضباب تازمامارت.

– لم أعد أعرف أين أوجد ولا من أكون، يحكي حشاد سنوات بعد ذلك، كان الكلام الذي أسمعه والوجوه التي أراها يبدوان لي خارجين توا من حلم ثخين. كان ذهني مليئا بما يكفي من الغياب حتى أنني لم أعد أعرف من أكون. وهل أنا ميت أم ما أزال حيا. استولى علي إحساس غريب منذ أن غادرت هرممو، ومنذ أن لم تعد عيني تتعرض لإختبار العصابة السوداء ويدي لوخز حديد القيود. وفي الدار كان الناس الذين يمرون ويقبلونني ويهنئونني على العودة مثل ضباب خفيف. كنت دوما في جحيم تازمامارت. بكل تأكيد كان جسدي في القنيطرة، وسط أهلي، لكن رأسي بقي هناك، مع ذكرياتي ومخاوفي، مع كوابسي أيضا، إحباطاتي، قلقي اليومي، شكوكي، وتعبي... لحظات سعاري وجنوني، ولحظات ضعفي ودموعي الصامتة.

أعطوني التلفون، كلمني صوتان في الطرف الآخر. واحد مستثار والآخر هادئ، لم اسمعهما أبدا. الصوتان معا يناديانى "بابا" اسمع. أبكي بدموع مدرارة. لم أستطع الكلام. أتكلم لأقول ماذا؟ لقد حرموني من صوت أطفالي طيلة عشرين سنة. وحرموا أطفالا آخرين من آبائهم ونساء أخريات من أزواجهن، وعائلات من سندهن... لقد حرمونا من نور النهار ودفئ الشمس... لقد جوعونا، وأهانونا، وحطوا من قدرنا. وجعلوا منا حيوانات في قفص تئن من الألم وتبكي من الوحدة. لقد نزعوا الحياة من أغلبنا ورموا جثتهم في حفر، لقد أرضوا انتقامهم الحقير. فماذا يريدون؟ موتنا بالتقسيط، هل يعرفون بأن محتجزي تازمامارت لا يموتون أبدا؟ فهذه الشهادة وشهادات زملاء آخرين تقول الفظاعة الذي عشناها، الوحل، الخزي، الفضيحة... حتى لا يكتب تاريخ هذا البلد فقط بالحبر الذهبي للقتلة، ولكن بالدم الثمين للأبطال والشهداء.

أتذكر أيضا، وسأتذكر دوما، الإحتضار الطويل لرفيقي محمد الغالو، أتذكر أيضا، وسأتذكر، دوما... الدم في زنزانة صديقي فاغور ميمون. لن أنساكم، كلكم رفاقي الذين بقيتم هناك تحت الجدار، ورفاقي في الصمود والموت: عبابو عبد العزيز، عبد الصادق محمد، العايدي محمد، أبو المعقول محمد، أبونسي التهامي، عمروش كيان، أزندور بوجمعة، بحباح إدريس، بندورو حميد، البطيوي رباح، بيتي محمد، بوطو محمد، شجعي محمد، شمسي محمد، جيلالي الديك، هدان بوشتى، حايفي عبد السلام، القوري محمد، قسراوي قاسم، قيناط محمد، لامين رشيد، أزيان العربي،

لعفراوي عبد الله، موهاج علال، رابحي عبد السلام، راشدي بن عيسى، تيجاني بن ردوان، اليقيدي المحجوب.

أتذكر أيضا وسأتذكر دوما... رفاقي في الطريق، الذين يعيشون دوما مع جحيم تازمامارت الساكن في أذهانهم وأجسادهم. سأتذكر أيضا ودوما. الفعل هنا بصيغة الحاضر، لأن تازمامارت لا يصرف في الماضي. إن سمة العار هذه حاضرة أبدا، موشومة في الصفحات المندعكة لتاريخنا.

نعم، يُصرّفُ تازمامارت في حاضر ذاكرتنا، في كل لحظة من حياتنا، لكي لا يتكرّر أبدا ذعر تازمامارت.

بعد كل هذا، أحرص على شكر السيدة جونوفيف أوبير وزوجها دومينيك أوبير للدعم الذي قدماه لنا وذلك بتشريف زوجي بإهدائه لوحة رسمتها السيدة جونوفيف بتضامن عميق مع زوجي صلاح وباقي الناجين من سجن تازمامارت الرهيب. ولن أنسى صديقتي الكبيرة جاكلين الشلحاني أخت السيدة جونوفييف على كرم الضيافة وكذلك زوجها المتوفي البشير الشلحاني. رافقتنا جاكلين في كل أنحاء فرنسا حين تكن تحضر حفلات تقديم كتابنا كبزال النسخة الفرنسية ونظمت العديد من حفلات التوقيع للكتاب وكم كانت دهشتنا حيت تكلفت أختها مارنين برنيل ببعث هذه الهدية الثمينة. هاتفتنا لتخبرنا بوصول هذه اللوحة الرائعة التي اخترناها لتشريف هذا الكتاب النسخة العربية.